عبد الرحمان مصلوحي

شمس الليل

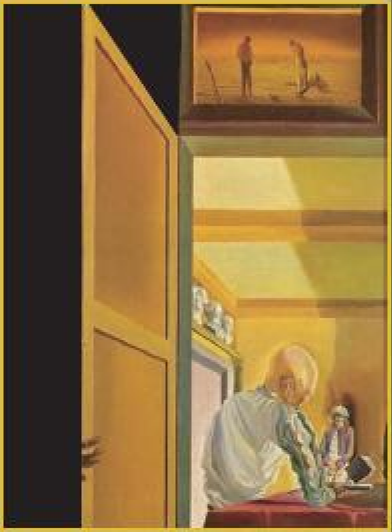

رواية

شمس الليل

الكتاب : شمس الليل – رواية

المؤلف : عبد الرحمان مصلوحي

الطبع : الأولى 21 مارس 2010

المطبعة : نور زينو كراف

إقامة بانوراما بلوك 5 شطر 1 سيدي البرنوصي الدار البيضاء

رقم الإيداع القانوني : 2010 MO 0984

ردمك : 978-9954-9087-0-9

لوحة الغلاف : سلفادور دالي

تصميم الغلاف : سمية اكديد

عبد الرحمان مصلوحي

شمس الليل

رواية

الطبعة الأولى مارس 2010

إلى كل سناء يمكن أن تخطر على البال

إلى ع. ص.

إلى كل هارب من رواية

إلى كل لاجيء إلى رواية

شمس الليل

على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا

كافكا

الماء العنيف واحد من الأشكال الأولية للغضب الكوني

غاستون باشلار

ليس الجمال الأنثوي إلا إشارة وتلميحا إلى عذوبة الكون المتكون بالفعل والمحتمل أيضا

جمال الغيطاني

فمن سأصدق
هذا الجحيم
الذي في الأصابع
أم سأصدق
ذاك الجليد
الذي في الكلام ؟

عبد الكريم الطبال

- ظلال -

تعرفت على يوسف ولم يمض على لقائي بالكاتب سوى شهر تقريبا. التقيت بهذا الأخير بمناسبة عرض شريط "المصير" ليوسف شاهين لأول مرة بالمغرب.. تم هذا العرض خلال الأيام الثقافية التي نظمها الساهرون على الشأن السينمائي في بلادنا بالتنسيق مع السفارة المصرية بالمغرب..

يوسف الذي أقصده هنا ليس يوسف شاهين، بطبيعة الحال، فأين أنا من يوسف شاهين، المخرج الكبير الذي روض صورة الفن السابع ليحكي بها سيرته الشخصية أو قل أسطورته الذاتية.. أين لمجاز عاطل في ذلك الوقت أن يحلم بهذا اللقاء..؟

صحيح، كنت أحلم لو أملك لغة فنية أكلم بها صمت أبي الذي فقد القدرة على الكلام بسبب التعذيب الذي تعرض له في السجن ما يزيد على ثمانية عشر عاما.. أقصد السجن الصغير أما السجن الكبير فيقدره الخبراء الذين لم يتكلموا بعد بمئات السنين.. أضرب عن الكلام واكتفى بالتحديق في وجوه من يكلمونه دون أن ينبس ببنت شفة واحدة.. قتل فيه الجلادون أية إمكانية للكلام أو التعبير.. لم يكن مجرما ولا قاتلا ولا لصا ولا تاجر مخدرات.. كان ضحية من مئات ضحايا سنوات الرصاص والهراوات، ممن كانوا يسمون بالمعتقلين السياسيين يوم كانت السياسة تعني حب الوطن.. المرض بحب الوطن.. كانت الهراوات صولجانا، كانت أفاع تسعى، كانت للعصا مآرب أخرى سكت عنها المؤرخون وحولها السحرة إلى صمت مخيف لم تستطع الرواية الدخول إليه حتى الآن.. كانت الكلمة تعادل سجنا كبيرا، كانت الكلمة تعادل قطع الرأس في ساحة عمومية أو تذويبا في الأسيد أو وأدا للحياة في زنازن

تزمامارت أو غيرها من السجون التي لم يكشف عنها حتى الآن والتي تحتاج إلى حفريات سياسية وذكاء نادر لتكليم الصمت الذي يلف بقايا أجساد متناثرة في ربوع تنتمي إلى الوطن.

على أي، هذه أمور أكبر مني.. لا أريد أن أخوض فيها الآن.. تعرفت على يوسف في الرواية التي اقترح علي الكاتب روايتها والمشاركة إلى جانب شخوصها.. بعد أن وصلته أصداء الوضعية الصعبة التي أمر بها.. حكيت له.. فرأى أن عقدة أبي، عقدة الصمت التي جمدت الكلام على لسانه، جديرة بأن تصبح موضوع رواية يفكر في كتابتها.. لن تكون سيرة لي.. بل رواية قابلة للتشكل والتكون في كل لحظة من لحظات كتابتها..

كان فضل الكاتب علي كثيرا.. أنقذني من شبح البطالة والفراغ والصمت.. بعد أن أنهيت دراستي الجامعية وحصلت على الإجازة.. فتحت عيني على البطالة والفراغ والصمت وعانيت من اليأس والعجز ما يزيد على السنتين قبل أن ألتقي بالكاتب الذي أدخلني روايته وتوسط لي في وظيفة في وزارة الثقافة..

في الرواية ولدت من جديد ورأيت العالم بشكل مختلف.. ثمة لحظات مصيرية تغير مجرى حياتك تماما، تحدث انقلابا في مسارك.. لحظات قصيرة، كان بإمكانها أن تكون عابرة.. في هذه اللحظات بالذات يحدث الأدب وتحدث الكتابة ونكتشف ما لم نعشه.. نكتشف المستحيل الذي ما كان يخطر ببالنا.. يتحقق المجاز وتكبر الاستعارة وتصير حقيقة.. اكتشفت أن في الرواية يمكن أن نعيش الشعر.. إن الرواية هي وطن الشعر وأن الشعر لا يكون شعرا إلا إذا أقمنا فيه حياة بعمر القصيدة الواحدة التي لا تنتهي..

في هذه الرواية تعلمت الكثير من يوسف ونجاة وسناء.. شخصيات تعرف كيف تعيش حياتها الخاصة في رواية.. عشت أحداثا وسافرت إلى عوالم شعرية غريبة ولكنها عميقة وحقيقية، تعلمت منها دروسا شعرية.. وجمعت وثائق سرية داخلية..

رسائل ومذكرات ومخطوطات وكتبا طبعت داخل الرواية طبعا.. جمعت كل هذه المواد الخام.. ووضعتها بين يدي الكاتب ليفعل بها ما يشاء..

دخلت إذن إلى الرواية... خرجت من الحياة.. ودخلت الرواية وفيها تعرفت على يوسف الذي رفعني إلى مصاف أصدقائه وخلانه، أطلعني على سرائره ودخيلائه، أطلعني على رسائله السرية ويومياته وبعض كتاباته الأدبية والشعرية. لم ينشر منها أي شيء لحد الآن. كنت أرى فيها علامات دالة على تاريخ بعيد لازال ينبض. استطاع أن يتوغل فيها إلى أعماق نائية.

مع يوسف، تعلمت أن الكتابة ليست تعبيرا عما هو موجود أو ترجمة لأفكار مسبقة، يريد الكاتب أن يكون بها قطيعا من القراء يرددون ما يقول وقطيعا من النقاد يمدحونه بما ليس فيه. الكتابة، كما كان يقول دائما، هي كتابة ما "لا يقال"، هذا الذي يعذبنا ولا نستطيع أن نحدده، إنه العذاب الجميل الذي يخرج عن الحزن والفرح المعهودين. إنه الجمال الآتي من مناطق مجهولة فينا قد تكون بقايا ذكريات أنبتت زهورا برية، لا تنتمي لا إلى الرواية ولا إلى الشعر كما يتداوله الناس. يكتب خارج النوع. يكتب ما لا يعرفه.

قال لي بأنه لا يكتب إلا عندما يحس أن ثمة طفلا فيه، يرغب في تركيب جملة، الجملة الأولى، يتعرف لأول مرة على أبجدية لا يدري مصدرها.

قال لي بأن القراءة، أيضا، هكذا، يجب أن تكون، في حالة الصفر. فيها استعداد للكشف بعيدا عما يقال.

كان يوسف يخفي أحلامه في جوانح صدره ليكتبها في أوراق خاصة.

تعرفت عليه خلال ترددي بين الفينة والأخرى على مخدع هاتف، حيث كان يشتغل. أثارني أول ما أثارني طلاء المخدع الهاتفي. لم يكن باللون الأزرق كما هو حال أغلب مخادعنا هذه الأيام. قال لي، حين استفسرته، بأنه كان يحب اللون الأزرق ولكنه

لم يحتمل أن يراه شائعا هكذا، مباحا، منتهكا. كان يغير على هذا اللون وكان يود لو يحفظه للمدى الأزرق، لمدى البحر. وكان يردد قول محمود درويش: آه لو أستطيع أن أعيد ترتيب الطبيعة، البحر وحده يستحق أن يكون أزرق لأنه انعكاس لصورة السماء. الإنسان نزل من السماء نتيجة لخطيئة ارتكبها وعليه ألا يسترسل في الخطأ، ألا يشوه لون السماء وألا يسرق نجوم السماء ويطرد الأطفال من تحت الشجرة باسم السماء.

ولم يكن لون المخدع أحمر، هذا اللون الذي وفد هذه الأيام، يبغي المنافسة والتحدي. اختار يوسف طلاء بنفسجيا، خفيفا لمخدعه، يكاد يطل منه الأبيض. الألوان بالنسبة له مرآة يرى كل واحد منا نفسه فيها. الألوان الحقيقية داخلية قبل كل شيء. الألوان تذكرنا بما نحن عليه وبما يمكن أن نكون.

مخدع فريد من نوعه، يحتوي على واجهة زجاجية، صافية، تنعكس، عليها في رشاقة، أشجار الحديقة، فيها أقلام الرصاص وأقلام حبر سوداء وبنفسجية طرية ليست جافة، موضوعة بعناية في فوضى جميلة على أوراق بيضاء ناصعة. بخلاف المخادع الأخرى، لم يكن يوسف يملك آلة للنسخ، فهو لا ينسخ لا للطلبة ولا للعموم رغم قربه من مقاطعة بلدية يؤمها الناس بكثرة لتوثيق ميلادهم ومماتهم وإقامتهم ورحيلهم.

في الواجهة كتب قليلة وأعداد لا بأس بها من سلسلة "شراع ". قال لي بأنه معجب بصاحبها وبمدينته وبرامجه الليلية. تعود الاستماع إليه لمدة طويلة خلال إقامته وسهره في المخدع، كان يفضل الاشتغال في الفترة الليلية متناوبا مع عبد الرزاق الذي يفضل النهار. على مكتبه كتب ليست للعرض ولا للبيع، يداوم على قراءتها. كانت أحبها إلى نفسه.

كانت هذه الكتب وعناوينها هي الفتيل الذي أشعل نار صداقتنا. استأذنته في التعرف عليها. نظر إلي عميقا وكأنه أراد التأكد من صدقي. رفعت عيني أنا أيضا إليه ورأيت ما رأيت، انفعالا يدب إلى وجهه، يسري في ملامحه ومشروع دمعة فيها من الجمال والحزن والفرح الشيء الكثير. كان الأمر مفاجأة بالنسبة إليه. لم يسبق لأحد

أن التفت إلى كتبه أو سأله سوى عن دراهم معدودة مقابل ورقة نقدية، لإجراء مكالمة هاتفية لشخص معروف ومكان محدد وفي الأوقات التي لا يمكن للشخص فيها أن يزعج مخاطبه رغم بعض الاستثناءات. قال لي مازحا وهو يرفع إلي عينيه:

– هل تريد إجراء مكالمة أو جئت للتجسس علي وعلى كتبي ؟

في نظرته مسحة تذكرني بعمق، أستشعره في أصناف من القراء والكتاب، هؤلاء الذين ينظرون دائما إلى ظلال الأشياء. قلت له، في نوع من الجدية المصطنعة لأسايره في إيقاعه الساخر:

– ألا يسرك أن أتعرف على كتبك وان أتواصل معك عبرها ؟

– بلى، لكني أخاف أن تتيه فيها وتنسى الهاتف وموضوع اتصالك والشخص الذي تريد أن تتصل به.

فقاطعته بنبرة ساخرة:

– ...واستهلاك دريهمات تعود عليك بالنفع في هذا الليل قبل أن يصيبك الإفلاس... ها.. ها.. ها

– أنا يوسف، أقدم لك نفسي.

– تشرفت بمعرفتك وبمعرفة كتبك أيضا وربما إذا سمحت، يمكن أن أتعرف على عالمك. والله لا أدري أي سر حملني إليك وأي داع جعلني أترك مخادع كثيرة صادفتها في طريقي لأسقط في شباكك وأنقذك من إفلاس محقق. خرجت من البيت، يا أخي، وأنا لا ألوي على شيء بعد أن أحسست بحزن غامض ووحدة خرساء، ممضة، تعصر قلبي. هجر النوم أجفاني ففكرت في أن أخرج لأمشي قليلا، فأنا أحب المشي كثيرا، خصوصا في الليل.

وقاطعني:

– وأنا أيضا.. أحب أن أمشي في الشارع الطويل...، طريق لانهائي يحقق للمرء الحرية التي يفتقدها دوما في البيوت والإدارات وأماكن العمل... أحس أن الشارع الطويل بمثابة شرفة تطل على عالم آخر. وأنا أبغي دائما أن أطل على عالم آخر، فثمة أسرار هنالك تنتظرنا بإمكانها أن تنقذنا من سأم ما نعرف. حقائق تنام أحيانا إلى جانبنا. فهي قريبة، بعيدون عنها طورا، وبعيدة، قريبون منها طورا. تدق بهمس على قلوبنا أو نسير إليها كما مشى إليها السابقون أمثال جلجامش والسندباد...

– فيلسوف أنت، يا أخي، وكنت أحسبك مجرد عامل تليفون. ترى إذن أن خروجي، استجابة لهذا النداء الغامض الذي لا ننتبه له، عندما تكون هذه الحقائق قريبة منا ؟

– نعم. أنت كائن ليلي مثلي تماما..

فقاطعته ضاحكا:

– الآن عرفتك قبل أن أعرف نفسي...

– والآن هل تصر على أن تشتري مكالمة بدراهم معدودة.. أو تريد أن تبيع كلاما تافها بالملايين.

– أريد أن أجري مكالمة مجانا. هل أحكي لك أولا قصة هذه المكالمة أم أجري المكالمة أولا ؟

– قد تطول القصة.. من الأفضل أن تكلم من تريد أولا.

نظرت إليه ضاحكا، وأنا أتجه إلى زاوية حيث يخلد أحد أجهزة الهاتف الثابت إلى النوم وقلت مخاطبا يوسف:

– سأكلمها هي...

– أي جرأة هاته، تريد أن توقظ أنثى الآن في هذا الوقت المتأخر من الليل. أي جنون هذا ؟ أصحيح أن الإنسان إذا قدر وأصابه الأرق، يصر شخصا آخر. في الليل نصير، كقطط بودلير، متسكعين، تائهين، غرباء حتى على أنفسنا. من حسن حظك فتسعيرة الهاتف بالليل منخفضة، واليوم بالنسبة لك أنت سيكون حديثك على الهاتف ولأول مرة في التاريخ مجانيا. قال لي وهو يناولني دراهم كثيرة:

– ليس من أجلك أنت، وإنما من أجل سواد عيون أنثاك.

ترك الدراهم تتساقط في يدي، مخلفة صدى غامضا في نفسي. قبلت منه هذا الكرم الشعري الجميل. لم أقو على رفضه أو رده. لم يسبق لي أن التقيت بيوسف وهاهو يفتح لي قلبه بدون مقدمات. نظرت إليه بعمق لأعرف أي إنسان هو ولأنزله، أنا أيضا، في أجمل مكان من سريرتي. ركبت الأرقام وطاقة من الانفعال تتملكني. أحسست بدموع تتجمع في مآقي قبل أن تسقط تباعا في داخلي.

استيقظت نجاة أو ربما ادعت ذلك، فصوتها لم ينم، يقظ واثق من نفسه، أعاد لي صورتها، صارت واضحة وهي تقول بنبرة قوية وصارمة:

– أنت، إدريس؟ قلت لك، لا أريد أن ألتقيك مرة أخرى. لا أريد أن أراك مرة أخرى أو أسمعك. أرجوك، اتركني وشأني. حكيت لك كل شيء ولم يبق لدي ما أقوله.. ألم أتفق معك على ذلك ؟

– بلى، لكن لا أدري أي هاتف دعاني إلى الاتصال بك في جنح هذا الليل. قاومت ولكني لم أستطع أن أصمد أكثر..

– لا تطمع... لا تتمن المستحيل. الأمر ليس بيدي. أنا نجاة الأخرى، التي لا تعرفها ربما.. نجاة أخرى، قد لا تعجبك. قد تصدمك. عد إلى عزلتك.. عش عزلتك وافتح لها قلبك. إن فعلت، ستجدني في نهاية النفق. مع السلامة.

– يصعب علي ذلك، لكن لا أستطيع أن أعصي لك أمرا. سأنتظرك في نهاية النفق. مع السلامة. سأحاول أن أسكن الغياب وأعيش على ذكراك.

لم تنتظر ردي، أقفلت السماعة. رأيت الغضب في عينيها، وحشا مخيفا، يبتلع القمر ويتركني وحيدا لليل بدائي. وضعت السماعة ببطء واتجهت حيث يوسف، أبث له أمري وأشكو له حزني. قلت له متسائلا:

– غريب أمرها ! من أين أبدأ القصة ؟ كيف أحكي لك عنها ؟ لا أدري إن كان لقائي بها واقعا أم خيالا...! ما كنت لأتصل بها لولا الوسواس الذي قض مضجعي. هل نجاة موجودة بالفعل أم كائن ليلي صنعته من أوهامي حول الأنثى التي أنتظرها ولا تأتي.

– تأكدت إذن ؟

– نعم إنها موجودة فعلا.. كائن من لحم ودم وخيال وصوت.. ماذا تبقى لدي منها ؟ صورة.. ذكرى قريبة أحسها الآن تبتعد عني أكثر فأكثر.. هي صوت، ولا شك، لازال يرن في أعماقي كما ترن أجراس كنيسة في جبال مكسوة بالثلوج، نائية مهجورة.. ماذا يتبقى غير هذه الأصداء التي تتردد إلى ما لانهاية له في ليل أعماقي وهذا البياض فوق قمم الجبال الذي أهفو إليه ولا أصل.. الذي يهمني، في نهاية المطاف، هو أنها موجودة وأنها لازالت تعيش هنالك في عالم آخر، سأجهد خيالي، ما حييت، للسفر إليه ما أمكن. زادي، في ذلك، ذكريات، بها أغذي خيالي لتبقى نجاة حية حاضرة وبقوة في أعماقي.

اتسعت حدقتا يوسف واقترب مني أكثر ونحن نجلس وجها لوجه على كرسيين متقابلين وقال مصرا:

– لن أدعك هذه الليلة حتى تحكي لي قصتك مع هذه الأنثى كيف بدأت، وسأعلمك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا. نستطيع أن نتفاهم في هذا الليل أكثر من

أي وقت آخر. فالتفاهم بين غريبين أيسر. فهذه تجليات شعر تستيقظ في أعماقك، فثبت فؤادك وقو قلبك لتعيشها كما ينبغي. وثق بأن هذه الأنثى حقيقية تحتاج منك إلى إيمان ليوناردو دافينتشي لترسمها كما رسم الموناليزا وتحتاج إلى صبر بيجماليون لينبض الحجر بالحياة. كن على يقين أن بعمق الحجر حياة ضاجة عتية وخصبة، قد لا نجدها في أسواقنا ولا في نهار الناس.. طيب احك لي...

حكيت له ما تبقى لدي من نجاة بعد مضي أسبوع على توديعها. ذكرى أحسها طرية، قريبة بين جوانحي، وتارة بعيدة، غامضة، وكأن الأمر يتعلق بشخص آخر: وأنا أتجه عبر الحافلة إلى قرية جبلية، فوجئت وقبل أن تتحرك الحافلة بقليل بأنثى تعرفت عليها في رحلة سفر إلى شلالات أوزود، أنثى هيفاء، بوجهها الرائع وشعرها المسترسل، تجلس إلى جانبي وقد تساقطت خصلات شعرها على كتفيها في فوضى جميلة سمعت أو خيل لي وكأنني سمعت صدى تساقطها قبل أن ألتفت وأرفع عيني عن الجريدة.

استرقت النظر في حذر، ثمة بياض يحيطه سواد داكن، عطر قوي حمل إلي حضورها. لم تعد سطور الجريدة تعني لي شيئا وإن تظاهرت بعكس ذلك. كانت عيناها متقدتين. لم تكن أبدا محايدة في جلستها. ثمة شيء يزعجها. تخرج نفسا بصوت مسموع وكأنها تستعجل تحرك الحافلة. لم تلتفت إلي. نوع من اللامبالاة بالمكان.. وبالمحيط رأيتها عبر النافذة قبل أن تصعد وهي تدفع حقيبتها إلى الأمام برفقة امرأة مسنة.. ودعتها.. كانت طلعتها من الروعة بمكان.

نظرة خاطفة إليها، اختلستها منها قبل أن أعود إلى جريدتي، جعلتني أنزلها في أسمى مراتب الحسن والجمال بدون تردد. نظرة واحدة رسمت قدري معها، دفعتني إلى إعادة النظر في حساباتي وأتخلى عن احتياطاتي. جلست إلى جانبي بغضبها الجميل واضطرابها الرائع وقلقها البليغ. ما كنت استطيع أن أدخل إلى دائرة جاذبيتها مباشرة وبدون مقدمات.

حمت حولها بنظرة وجلة، مرتبكة، سريعة، دون أن أجرؤ على إثارة انتباهها أو أصدر موجات تزيد من تعكير صفاء هذه الأنثى الملكية التي أنزلها القدر علي من السماء. فكرت: كنت سأؤجل سفري هذا يوما أو يومين. أي داع خفي جعلني أستعجل. أهي ساندريلا المحترقة الأصابع والأنامل فقدت حذاءها وهي على وشك أن تعثر عليه عندي. لست أميرا ولكنها جعلتني أفكر في الدخول إلى مملكتها المضطربة. أحسست بها حمامة مسافرة آتية من أصقاع الأرض لتحط فجأة على غصن شجرة كانت أعماقي جذورها. أحسست باضطرابها من اضطراب الغصين يسري في جسدي. تملكني حضورها الحزين.

لا أدري كيف أفسر ما حدث وما يحدث لي.. أحب، من المرأة، الحسناء الحزينة.. حطت على غصني حمامة حزينة كما أردت، بل كما تمنيت. وللطيور الحزينة عندي شأن عظيم. أي شجى وأي حنين يسيل باردا في أعماقي الساخنة. أي شيء جميل هذا الذي يبعث الحزن في قلب أنثى رائعة ؟ أي أنين يشدو في قلب غزالة الجبال العالية... أي ارتعاشات حدثت في الكون ؟

قلب الأنثى حساس لأن الألم أنضجها وأعدها لاستقبال شحنات الجمال برقة. إن القلق، يا أخي يوسف، يضفي انسجاما ساميا على جمال الأنثى. فأنا لا أميل إلى النساء البدينات. بل، أحيانا، يشرن شيئا من التقزز في نفسي لا لشيء سوى للامبالاة التي قد تصدر منهن اتجاه ما يحدث في العالم. أما أنثاي فهي نحيلة شيئا ما، معنية بما يحدث في الكون من جمال.

كيف أدخل مجالها الحيوي دون أن أفسد إيقاع الأفكار التي تدور بخلدها. فلأترك الغزالة تسرح في ملكوت الله ترعى إلى أن تطمئن وتهدأ، بعد ذلك يمكن الاقتراب منها، وأعرفها بنفسي وأعترف لها أنها تتحرك في المدى البري من أعماقي كأنثى متوحشة، ترقص في غضب وحرية وتغضب في فرح طفولي وكلها انتباه وتركيز لكل حركة صغيرة، يقوم بها النسيم عندما يميل برفق أعلى فرع شجرة في الغاب..

يمكنها أن تهتز برفق وتشهر أذنيها عندما يطرأ أقل تغيير على سطح البركة الزرقاء أو ينط عبير من زهرة مراهقة تحمر خجلا من هذا الحب الذي مسها لأول مرة. وأعترف لها بأنها لا تقيم في مكان محايد، بل حطت فوق غصن قلب كان ينتظرها. يمكن أن تهدأ وترتاح فالنسيم أنفاسي والسماء أعماقي.

كانت نجاة... اسمها نجاة كما تفضلت علي وتكرمت. كانت، يا يوسف، في ذلك اليوم علامة. وفي سفري دائما كنت أتوقع الإشارات ولك أن تؤول إن استطعت هذا الحلم الذي تزينه هذه الأنثى بشعرها المسترسل وعينيها المتقدتين الحزينتين.

أخيرا رأيتها فجأة تتطلع إلى الأمام، إلى ثلاثة أطفال يشاغبون إلى جانب أم مغلوبة على أمرها.. طلبات كثيرة من هذا ومن تلك. نظرت إليهم نظرة دالة على رغبتها في أن تفعل شيئا لتصحيح هذه المعادلة التي تراها غير صحيحة. قلت لها بأن الأطفال كائنات علوية يتعاملون مع محيطهم بتلقائية، يعلنون عن رغباتهم كما يشعرون بها دون تفكير في حدود أو قوانين. فهم أحرار.. أما نحن فالتفكير في الحدود يشل حركتنا. التفتت إلي مستغربة ونظرت إلي باهتمام وقالت:

– أنا شخصيا إذا أردت أن أسافر، أختار السفر لوحدي، حتى أكيف الطريق لميولي وأفكاري وأحلامي. السفر بالنسبة لي حرية. في سفري أصير طفلة والطفولة حرية..

صمتت هنيهة ثم أردفت:

– الطفولة حرية ولكن ليست فوضى، ليست أن تترك الأم طفلتها تنادي إلى ما لانهاية دون أن تتجاوب معها..

– الأطفال عنيدون والمرأة وحدها تستطيع أن تتفهم

– أما الرجال فيستخدمون ذكاءهم بذكاء للتخلص من المسؤولية... يعتقدون دوما أن الذكاء الذكوري لا مثيل له..

– أنا لا أدافع عن الرجال وإنما أتحدث عن واقعهم: فنحن لا نصير كذلك إلا على حساب طفولتنا.

– فلماذا لا تقول إن الرجال يبقون دائما أطفالا ولا يرون في المرأة إلا استمرارا للأم الخالدة ؟

– ويدفعون الثمن غاليا عندما لا يجدون امرأة بهذه المواصفات.

عبرت لها عن استحساني لكلامها المتميز وحسن دفاعها عن جنسها ولولا ذلك ما كان النقاش يستمر بيننا. حدثتها عن أستاذ تعرفت عليه في سفر لي من البيضاء إلى الجديدة تخلى طائعا عن قراءة كتاب اعتاد على قراءته فقط في الفترة التي تقطعها الحافلة بين المدينتين. قال لي بأن التربية تتم غالبا في مجتمعنا بطريقة جاهزة ووفق قوالب معدة سلفا للذكورة والأنوثة. ويتحدد النجاح والفشل طبقا لمدى خضوع الأبناء للضوابط والقواعد. تصبح التربية آلة للتكرار، لتناسل النسخ إلى ما نهاية. ولا ينجو من هذا الجحيم إلا الملحون والعنيدون. وأردف بان الكتب علمته الحرية، لذلك فهو يفضل بان يترك الأبناء كسيول الماء تتسكع في البر كما تشاء، فستتكيف ولا شك مع المنحدرات والسهول والمرتفعات والأمزجة المتعددة. وعلقت عليه ضاحكا وهل يمكن للسيل أن يختار الارتفاع إذا تركناه للجغرافيا تصنع به ما تريد. قال مدافعا عن فكرته، هذا ما نقوم به بطريقة غير مباشرة، عندما نتدخل، عندما نبني السدود بالممنوعات والأوامر والنواهي. يرتفع الصراخ ويتعالى النداء، آنذاك يضع الآباء أصابعهم في آذانهم ويدفنون رؤوسهم في الرمال كما تفعل النعامة تماما. عند وصولنا إلى الجديدة اعتذرت له على ما سببته له من تشويش جعله يقطع قراءة الكتاب الذي لا يزال ينتظر بين يديه. وقال لي بأنه لا داعي للاعتذار وأكثر مما كنت أنتظر، فقد شكرني لأني ساهمت حسب تعبيره في تكسير عادته ودفعته إلى التفكير بطريقة مختلفة خارج الكتب.

اطمأنت نجاة وأحسست بها تقترب مني أكثر. تطلعت إلى النافذة لتتملى منظر الأشجار وهي تتابع ومعها تتغير معالم الطريق وتتوطد أواصر صداقة غامضة بيننا.

تخلت عن حيادها، جلست إلى جانبي أنثى في مقتبل العمر... تأكدت من ذلك عندما زادت جرأتي وسمحت لنفسي بالنظر إليها طويلا وبعمق. تلاقت عيوننا أكثر من مرة. لم تغضب وإنما تركتني أغوص في طواياها وهي تحكي وتحكي، تقذف بدون تردد بأشيائها الخاصة وكوامنها الدفينة..

صار من الصعب علي مقاطعتها.. صار كلامها شلالا هادرا.. حمل معه كلماتي في تياره العنيف وما عاد بوسعي أن ألتفت إلى نفسي وأن أبادلها الحكي بالحكي، بل صرت أذنا صاغية لقصتها العنيفة، لم تبال بتعليقاتي ولا أفكاري.. بدا لي آنذاك، يا يوسف، أن الأفكار عاجزة تماما أمام وقائع حدثت... لكنني أراها الآن حية، محسوسة بفعل كلماتها القوية المنفعلة الضاجة بالحياة.

قالت لي بأنها سقطت في شلال حب عنيف لعاشق سكنها حتى النخاع ولا يزال، حب متطرف لا يهادن، قارع الموت. هزمه الموت أمام عينيها... بكته بحرقة شعر لم تكتبه حتى الآن. حب استوطن أعماقها وشغلها عما سواه، أنساها كل شيء، شغلها عن العالم، بل صار العالم كما قالت كونا لا يتسع إلا لهما معا. أوقد فيها نارا لازالت متقدة بقوة تحت رماد لا يمكن أن يصمد أمام نسيم خفيف. لم يستطع الموت أن يقتله فيها ولم يستطع جليد الفناء أن ينقص درجة واحدة من حرارة هذه النار. قالت إنه بركان يرمي بحممه وسط المحيط ولا تفلح المياه في إطفاء نار بركان يشتعل في جسد نحيل، لم تدر كيف تحتمل الحياة بعده. قالت حتى الشلال الذي هوى في هوته السحيقة، لم ينل منه. قتله نعم ولكنه سقاه بماء حياة أخرى تحيي الذكريات المؤلمة كما تفعل الملح في غور جرح لم يشف. ذكريات تنبعث في كل لحظة مما تبقى من رميم سقوطه، كما تفعل الأشجار الحزينة في طلل قديم.

كانت كلماتها، يا يوسف، تتدفق حية وصار ماضيها حاضرا حزينا يحدث أمامي لأول مرة. كلماتها ليست كلمات، وإنما هي أرواح تنبعث من كهف أنثى جريحة لم ولن يشفى جرحها.

تنفست الصعداء ونظرت إلى يوسف، وجدته مصغيا، منفعلا، وعلامات الدهشة ترتسم على ملامحه. نظر في عيني. التقت عينانا ففهم إشارات ذكرته بعالم آخر منه أصبح ينظر إلي ومنه يصغي.. صار شخصا آخر، يحيا هنا وهنالك. قال وهو يضع أصبعه وسبابته على فمه، يهم بالنطق ويفكر في كلمة مناسبة، تستوعب هذا الحزن الذي حشرته فيه:

– ما حدث لك، يا أخي إدريس، ليس صدفة كما يبدو لي على الأقل الآن. فهل هذا اللقاء بهذه الأنثى الحزينة في يوم لم يتقدم ولم يتأخر، لقاء بين غريبين في مكان غريب، مجرد صدفة حادثة، طارئة ؟ ألا يمكن اعتباره علامة من علامات السفر الحقيقي، تجلت فيه الرؤيا وتمكنت من أن ترى ما لم تره طول حياتك. عجيب أمر هذا الزمن كيف ينام مدة طويلة ليستيقظ في لحظة قصيرة ويكشف لنا عن أحداث عظام تغير مجرى حياتنا. هيا حدثني عما رأيت.

– بل قل عما حدث وعما عشت.

صمت هنيهة وأردف ضاحكا:

– أنت من الآن فصاعدا سيكون لك شأن عظيم.

– إذن فأنت الذي ترى. لكني لا أعتقد أن الناس يأبهون لهذه الترهات الصاعدة من ليل أعماقنا التي نحكيها... لدى الناس لا أعتقد..

– لدي أنا.. لا تكن جشعا أكثر من اللازم. بالنسبة للناس، هذه الأشياء ترهات تحدث في أفلام منتصف الليل لجلب النوم للعيون المتعبة.

– لذلك فإني لم أحدث أي شخص آخر بهذا. فلأول مرة أجدني مدفوعا إلى تركيب جمل بصدد ما عشت.. أي أبجدية تسعفني للتعبير.. بهذا يتميز الكتاب عنا. يستطيعون التعبير عما يجري بدواخلهم، ما يجري من أحداث في الغرف الداخلية. هل سبق لك، يا يوسف، أن جربت الكتابة ؟

– نعم.. بمعنى من المعاني. في كل مرة أتعلم أبجدية الكتابة ولم يسبق لي أن نشرت شيئا. لا أعتبر نفسي كاتبا.

– أغبطك.. أنت من سيكون له شأن عظيم. وأعتقد أنك ستجد في ما أحكيه لك مادة خام صالحة للكتابة. سأضعها رهن إشارة الكاتب ليكتب عنها كما يشاء.

– احك يا شهريار.. عن شهرزادك وأتم الحكاية قبل أن يدركنا صباح الناس، فتتغير وتتنكر لما تقوله.. هيا احك...

– نعم.. نظرت إليها، بدت لي أنثى تسبح في الحزن والغموض. بدت لي كحورية بحر بوجه إنساني محض، بعينين يفيض منهما وجود آخر، لم أستطع تحديده. بدت لي كقمر يبزغ فجأة في سمائي ليختفي وسط غيوم من الشعر والحلم والشغف والجمال والروعة والمأساة وسألتها، أي سيل هذا الذي قتله ؟ هل قتله عشقا أم قتله فعلا ؟ أتقولين مجازا أم تقولين حقيقة ؟ رأيتها أو خيل لي وكأنها تبتسم من خلال دموعها. أية سخرية مرة هاته يخفيها الزمن في ثناياه. أجابتني بكلمات متقطعة ولكنها قوية، تضغط عليها لتستقر في أذني لتزيل كل شك يمكن للبلاغة أن تسببه لي.. أو ريب يورطني فيه العقل الذي لم يسبق له أن تورط في مثل هذه الغياهب الحزينة:

– إنه سيل حقيقي.. شلال حقيقي.. شلال أوزود.. شلال أوزود ولاشك تعرفه ؟

– سمعت عنه.. وأنا ذاهب إليه الآن.. فقد أسال لعاب أحلامي سنين طويلة بعد مشاهدته كثيرا في البطائق البريدية. هل تقصدينه أنت أيضا ؟

– نعم.. لكن..

فقاطعتها:

– إذن بإمكاني مرافقتك..؟

أحنت رأسها المثقل بمأساة لا يعلمها إلا الله، أخفت حزنها قليلا قبل أن ترفع عينيها الدامعتين لتقول:

– لا أريد أن أفسد عليك متعتك وأحول أحلامك التي نسجتها من خيوط بطائقك البريدية.. إلى كوابيس مزعجة قد تدفعك إلى إحراق كل الصور وكل البطائق.

– تنهدت قبل أن تتابع: والله لا أدري كيف (ورطتك) في عالمي.. وأي قدر ساقني إليك لأحكي لك ما استقر في أعماقي ولم أجرؤ يوما أن أحدث به لا أقربائي ولا أصدقائي.. ماذا يحدث قل ماذا يقع يا...؟

أرادت أن تناديني باسمي ولكنها لم تتعرف عليه حتى الآن، لاندفاعها القوي كسيل وهي تحكي، لا تعير لطقوس التعارف أية أهمية.. فقلت لها:

إدريس

– أستسمح.. أرأيت.. كيف حكيت لك السر الجوهري في حياتي حتى قبل أن أعرف اسمك.

قلت لها:

– لا تهتمي بالأسماء.. فللروح ناموسها الذي لا يخطيء

– صحيح.. ربما نكون قد التقينا من قبل.. دون أن ندري

– لكنك لم تحكي لي كل شيء وإنما شرعت في الحكي.. هل ندمت على إفشاء السر ؟

– لا أحس بأي ندم، على الأقل الآن.

– طيب. هل تسمحين لي بمرافقتك إلى أوزود، إلى هذا الشلال العظيم ؟

– يمكن. لكن لي شرط واحد.

– هات يا.. ماذا يمكن لحصاة أن تفعل أمام تيار شلالك العنيف..!

– لن أقول لك الآن. تهمني أولا موافقتك.. أحب أن تكون مختلفا وأحب أن تراني مختلفة، أن تراني بغير حواسك العادية.. أريدك أن تنفذ بخيالك كإبر ذهبية نورانية إلى ظلمات أعماق صخرية، منسية، آتية من زمن عتيق، من كوكب آخر. اشحذ ذكاءك لتجدني في اللحظة التي تريد.. تذكر لأوجد بجانبك.. تخيل لتراني أمامك واضحة، كائنة فيك، منك وإليك وحولك.. شم التراب، تجدني عبقة، صاعدة من أعماق الأرض. تعلم كيف تشرق معي إشراق الشمس من وراء كتبان رملية رقيقة، دقيقة، خفيفة، شفيفة.. تعلم كيف تخرج من الأرض بتؤدة وهدوء.. تعلم كيف تنمو في برعم صغير، بسيط وتطمح كعباد الشمس إلى هذا النور الجميل الرقراق.. هل جربت، يا أخي، فضول هذا البرعم ؟ وكيف تفكر البذرة في حفل الخصوبة وتحلم حتى قبل أن يسقط المطر ؟ تستطيع البذرة أن تنتظر ولو مائة سنة. إن إشارات الكون رائعة وجميلة لكن بأية حواس ندركها ؟ تريد أن تصل إلينا لكن لا تفعل ذلك إلا بعد اختبار قدرتنا على استيعاب فيض الجمال ومتعة السحر وانتظار الآتي. فهل سبق لك أن أصغيت إلى أنين الغابة في خشب خزانة عتيقة، ورثتها من سلالة أسرة شعرية، حزينة، عريقة...؟ هل حادثت روح الخشب بحواس حية، تعيش الماضي في الحاضر والحاضر في الماضي ؟ هل جربت الحزن ؟ هل جربت الحكمة ؟ من لا يعاني الحزن لا يصر حكيما أبدا. ومن لم يجرب الحكمة لا يمكن أن يفهم ما حدث لي في هذه الحياة.

في هذه اللحظة دمعت عيني من الوجد والحنين واشتد وجيب قلبي وتضاعفت لأول مرة وصرت لا أطيق وجودي كروح هدهد تشق الصدر لتنطلق إلى عالم أرحب أوسع.. كبر سفري واتسعت الحافلة إلى ما لانهاية. صار الركاب مسافرين حقا،

كائنات أخرى، أو إن شئت، نملا يحمل بذورا من السماء إلى الأرض.. نحلا يخطب ود ملكة ترقص بعنف من الفرح والألم.. ترقص حتى تدوخ العالم.. فاضت عيني بدموع مالحة سخية..

مددت يدي إلى نجاة وبدون تردد، أخذت يدها بين يدي. ارتاحت تلك الأصابع الأنثوية، الرقيقة بين يدي.. لحظات قبل أن أرفعها إلى فمي لأطبع عليها قبلة خالدة لازالت بقاياها على شفتي.. رفعتها إلى عيني.. تدفقت العبرات.. سالت عيون من الحزن الجميل الرقراق. الأرض تبكي.. الأرض تبكي في، يا صاحبي.. نشيج يشقق صلابة صخور بركانية، صهرتها النار منذ أزمنة عتيقة.

مسحت الأنثى الكونية دموعي التي فاضت وصارت شلالا. أخذتني نجاة إلى أحضانها، شممت كل روائح الأعشاب البرية وقويت عندي رائحة غريبة، أشبه برائحة شجرة التين.

من دقات قلبها سمعت وشوشة أحداث عتيقة أشبه بالذكريات التي لا تحكى إلا بجانب مدفأة في يوم بارد قارس. اشتد البرد خارج الكوخ وأعلنت لنجاة أنني لن أفارقها.. وسأصاحبها إلى الشلال لتطلعني على حكايتها التي بدأتها ولم ترد أن تنهيها حتى توقظ خيالي من سباته العميق.

بهت يوسف وهو يسمع. زم شفتيه ولم ينبس ببنت شفة، أصابه ما أصابني.. رحل معي وسافر.. أصغى إلى تنهداتي وشهقاتي. قال لي:

– توأمان نحن.. وسنبقى. لن أفارقك، أنا أيضا. وسأحكي لك، أنا أيضا، لتكتب أنت. في كلامك كتابة، في نبرات صوتك شعر.. آه لو سجل الآن، لكان عبرة للكتاب الذين يتكلمون في كتابتهم بينما أنت تكتب في كلامك.

– لو أخذت القلم بين يدي الآن، لما وجدت ما أكتبه. إن القلم لا يساير إيقاع روحي.

توقفت الحافلة. يبدو أننا وصلنا.. لا أدري لا أين ولا متى ولا كم مضى من الوقت على بدء سفرنا ولا كم مضى من السنين والحقب على تعرفي على نجاة. قفزت إلى الأرض كغزالة برية، تتعرف بحدسها على جهات الكون. بدت الآن، تحت أنوار شمس الضحى، بهية بقامتها الهيفاء وبعيونها السوداء وشعرها الذي انسدل في حرية، بل قل، في فوضى جميلة. تتآلف الخصلات وتتناثر بشكل عفوي حسب مزاج نسيم هب فأمال معه أجمل شعر رأيت وأجمل شجر سكن الجبال وأجمل زهرة يمكن أن تخطر ببال شاعر متيم .زهرة ألم سقيت بعبرات الحنين والشوق والتوق.

وقفت وتمكنت من مشاهدتها للإلمام بها أكثر. حدقت في ملامحها.. بدت لي بقايا السيول الجارفة التي جرفت معها بعضا من سواد الكحل.. اتسعت الملامح فجأة وصارت رحبة كجغرافيا من السحر، رأت الشمس لأول مرة بعد سلسلة من الفيضانات غير المنقطعة. رأيت في عينيها أوجاع الخشب العتيق وأنين حجر أصابه مس. بقايا حزن خلفتها كأطلال خالدة لقصة عشق عظيم وخطير.

سرنا جنبا لجنب، أفكر في حالنا، في المصير الذي ينتظر هذين الغريبين كأخوين منحدرين من سلالة غجرية، تركتهما القافلة وحيدين تائهين، دون أن أهتدي إلى قرار.. أي مأوى يتسع لهذين القلبين اللذين يحلمان بالكون بتدفق مياه الشلال دون اعتبار ولا حساب لأي فكرة يمكن أن تسبق هذا اللقاء أو تسعى إلى التشويش عليه. نحن هنا والآن. يكفينا هذا لكي نوجد جنبا لجنب.. تدفق مياه الشلال بقوة، يصل إلى مسامعنا.. لم نره بعد يحث خطانا.. للطبيعة عدوى عجيبة.. يندفع فنندفع.. تتسرب المياه القوية عبر مسام الأذن فتجتاح الأعماق فتملك علينا أمرنا ونفقد الزمام أمام الدهشة العظيمة.

أحسست بحيرة..كيف يمكنني أن أستوعب هذا الشلال العظيم ولست غير قطرة من رذاذه. أي كيفية للوجود سأكونها بين هدير يتدفق بشكل متوحش وبين أنثى

كونية لم تحك إلا مقدمة قصة مثيرة وغامضة لكنها صادقة حتى النخاع. وعد يتحقق وغزارة من الجمال والحزن..

من أين أبدأ. حواسي مشرعة. كيف سأحيط بهذا الشلال الذي فاجأني بهذا الغنى الذي يفوق ما تنبأت به. لم أستعد بما فيه الكفاية لتقبل هذا الزخم من العواطف والأحاسيس. من أين سأبدأ.. كيف يمكن لي أن أوطن نفسي لاستيعاب قصة هذه الأنثى التي لم تفصح إلا عن البداية.

لا أدري كيف سافر بي خيالي خلال هنيهة قصيرة ورأيت ما رأيت. رأيتها ناصعة، مشعة، خرجت كشمس خريفية من ركام سحب كانت تغطي سمائي. رأيت نفسي جنديا في حرب مقدسة، عليه أن يؤدي رسالة سامية ما لكنها غامضة.. فوجئ بوجود غريب في غابة متوحشة.. يسمع فجأة دويا قويا، مبهما، فيه مزيج من الرعد والرصاص وأصوات أطفال ونقرات بلابل على أذني وأصداء أجراس حزينة.في هنيهة من الزمن يسمع لأول مرة خبرا ولا يدري ماذا يفعل.

صرت أسير، ذهابا وإيابا بخيالي، وأنا لا أملك لنفسي شيئا أمام أنثى وقفت على حيرتي وأدركت ارتباكي فقالت محاولة أن تهدئ من روعي: الشلال ليس هو نفسه بالنسبة لجميع الناس وحتى بالنسبة للشخص نفسه، فهو درجات ومقامات، سفر آخر. فأنت لم تصل بعد. فهذه محطة، منها ستشرع سفرك إلى جهات أخرى وأقطار بنفسجية وبرتقالية وبنية وحمراء. فأنت الآن في مقام الحيرة وقلت لها، أداري حيرتي:

– سفري معك سيخفف من تيهي وغربتي ويضيء طريقي.

قالت وهي تنظر إلي بعينين يفيض منهما التحدي:

– لا أريدك أن تنشد معي السلامة وترضى بالخنوع وتطلب النجاة من نجاة. فما ينتظرك أعظم وأجمل وأخطر. اشحذ حواسك لتستوعب أكثر أما أنا فسأتركك الآن، سأتركك لنفسك لتقف وقفتك وتعد عدتك.

تذكرت شرطها ولم أجرؤ على الاعتراض. تركتني شريدا، ببوصلة مشلولة وشراع ممزق تحت رحمة رياح مجهولة لا أدري من أية جهة ستهب.. تركتني غريبا ورحلت. تتبعتها.. شعرها يتطاير خلفها. سارت في الاتجاه المعاكس. أقلعت.. لا أدري إلى أين ؟ هل تبحث أيضا عن قاربها ؟ متى ستقلع ؟كيف سنلتقي في اللجة ؟ هل هو فراق أصغر، كما سبق لي أن قرأت، يتلوه لقاء أكبر أو هو لقاء أصغر أدركه الآن الفراق الأكبر؟كان علي أن أسأل لكني لم أجرؤ.

ولت عائدة من حيث أتينا. تركت بقية عبير أيقظ حواسي. تابعتها بنظراتي، خصلات شعر منفلتة من تحت غطاء الرأس، بقية شعر أسود متضام الخصلات يهتز. لم أبرح مكاني. راقبتها وهي تبتعد. لم تلتفت. رأسها مرفوع، بثقة تسير إلى موضع تقصده، تعرفه هي.. لم أسال ولم أجرؤ.. علي أن أتمالك نفسي وعلي ألا أنسى الشرط الغامض الذي قيدتني به لعلي أنال منها الحنو والقرب. أهي قساوة منها.. أحالتها في ظرف قياسي إلى حجر يعود إلى طبيعته، بكى وندم على الدموع التي ذرفها، نسي أنه تفجر قبل قليل ؟. أهو اختبار لي ؟. ولكن ماذا يجب علي أن أفعل ؟ هل أكبح جماحي وأترك قلبي ينضج بهدوء ولكن كيف ونارها متأججة.. مشتعلة ؟ هل أنادي وأصرخ..؟ هل أناجي بأعلى صوتي لأعلن عن صبابة ملتاعة تحرق قلبي، لتحن وتدخلني إلى مملكتها وتضعني في حسابها ؟. حرت وتهت: أي شرط فكرت فيه ولم تخبرني به ؟ ندمت لأنني تقاعست لم أطلب منها ذلك.

توارت نجاة عن نظري تماما، اختفت بين أزقة البيوت. أما أنا فقد اتجهت إلى أحد الفنادق التقليدية، أرشدني إليه أحد المارة من سكان المنطقة، شيدته فرنسية سبق لها وأن زارت الشلال، سحرها، فقررت بناء هذا الفندق كعربون تقدير ومحبة للتعبير عن إعجابها وافتتانها، شيدته بمواد محلية ترابية وزينته بلوحات فلكلورية ووشحته في مختلف أقطاره هنا وهنالك بأوان وأدوات قديمة من صنع محلي، كمعصرة الزيتون في الفناء وأنواع مختلفة من السلل والأقفال والمفاتيح الكبيرة الحجم.

في الغرفة مصطبة من طين وفوقها حصير بسطت علية زربية من صنع محلي ومصباح ضوء بلدي يطل من وراء القرون بضوئه الشاحب العتيق. في هذه الغرفة وطنت نفسي واسترجعت بعضا من اليقين. فككت أزرار حقيبتي الحزينة الغريبة وأخرجت متاعي المتواضع وكتاب "خلسة الكرى" ووضعته بجانبي على الطاولة. كان هذا الكتاب فعلا أنيسا خفف من وطأة الغربة التي تسربت إلي، ومرجعا يسند أوهامي ويزيل الشك الذي ينتابني بسبب هذا التداخل بين الواقع والخيال.

قلت ليوسف بان هذا الكتاب وقف إلى جانبي في محنتي.. عضدني ومنحني الثقة في النفس التي كنت احتاج إليها. لأول مرة أحسست بتوازن عجيب يقع بين ما أقرأه وما أعيشه. قلت في الكتب حياة، يا يوسف، يعرف هذا من جرب لوعة القراءة، لازالت كلمات هذا الكتاب تنبض في دمي. هذا كتاب من الكتب التي لا تنتهي.. لا بداية له ولا نهاية لم أعد أقرأ صفحاته من البداية.. بل أفتح الكتاب كيفما اتفق وأقرأ وكثيرا ما كنت أعثر على مرادي.. بل أجد، فيما أقرأ، صدى لما سبق لي أن عشته وأعيشه في ذلك اليوم.

أي سر في الكتب ؟ أكاد أقرأ نفسي..! لا أدري إن كنت تحس بذلك، يا يوسف، وإن كان النقاد يدركون أن نسخ الكتاب نفسه لا تتشابه أبدا. يمكنني أن أعترف لك، يا يوسف، أن سحر كتبك هو الذي قربني منك.. سلطت علي الكتاب بتلقائية وعنفوان وذكاء غير منظور، فاسترسلت أحكي لك ما في جعبتي عن هذه الأنثى التي طبعت حياتي وما أحد قبلك سمع شيئا عن هذا الجرح الجميل الذي احتفظت به في أعماقي.

قل لي، يا يوسف، ماذا يقع..؟ ماذا يحدث..؟ أي سحر للكتب والليل على النفس.. ؟ ومتى نكون حقيقة ومن نكون حقيقة ؟؟

نظرت إلى يوسف كانت كلماتي تصل إليه بسرعة. صار يتجذر في ذاته.. ينزل.. وينزل إلى أعماقه.. صارت ملامحه بقايا رقيقة رهيفة أصداء لما يحدث في

داخله. أحسست بجوهر يفيض من نظراته، من أنفه الدقيق وجبهته العريضة وعينيه المتقدتين، من نحوله. كان ناحل العود.. ثمة حياة أخرى تستهلكه، تستغرق خياله الجامح.

قال لي معبرا عن تجاوبه: إن الكتب تعرف كيف تصنع الأصدقاء الحقيقيين خارج الزمان والمكان. يبدو لي أننا ننتمي إلى نفس العائلة الأدبية. التفت إلى كتبه، قال: هذه ألف ليلة وليلة لا تنهي لياليها أبدا عندي ولها عندي شأن عظيم. حكاياتها مكتوبة بالإبر فعلا على مآقي وشهرزاد لازالت عذراء في مملكة خيالي، توقظني ليلا وإن نامت جفوني.. تحكي في وإلي. ما ماتت ولن تموت وهاهي الآن تحكي قصة لقائي بك وقصة أنثاك تلك. ألست الآن سندبادا بحريا ؟ أو لست أنا سندبادا بريا يترقب أخبار أسفارك السبعة ؟ وهذا كتاب "رسالة في الصبابة والوجد" لصاحبك جمال ؟ أليس غريبا أن يلتقي اليوم اثنان من قرائه ويلتقي كتابان من كتبه ليصنعا الحدث ؟ أهي صدفة أن يسمى جمال جمالا أم في الأمر تجل من التجليات التي لا نعرف عنها شيئا ؟ أليس قدرا إلهيا جميلا حكيما أن يجتمع اليوم قلبان نهلا من معين جمالية جمال الغيطاني...؟

قلت له:

– يا يوسف إني أحس أن هذه الكتب تمنحني انطباعا بأن ما أعيشه في عزلتي من عوالم، شيء حقيقي واقعي أكثر من الواقع نفسه. لكنني أحيانا سرعان ما يهاجمني شك مقيت وظن خبيث، أمقته مقتا يدفعني إلى الاعتقاد بأنني سقطت ضحية لسحر كاذب، لمبالغة هذه الكتب وأن علي أن أدع هذه الأوهام جانبا. قاطعني بحدة منبها:

– إياك والشك، فهو يفسد على القارئ متعته. في ألف ليلة وليلة درس شعري ممتاز، أجده شخصيا في ثقة الملك الجبار في حكايات شهرزاد. تخيل معي، لا قدر الله، فبدون هذه الثقة، كيف ستكون حياتنا وهل ستكون أصلا. لولا هذه الثقة وهذا

الظن الجميل، لكان شهريار قد أهرق دم شهرزاد. وقد أحرق أفلاطون قصائده خطأ ولكنه بالمقابل أبدع من رمادها حواراته الرائعة مع سقراط الذي أساء إليه من يدعون الواقعية. أحببت وجه سقراط بفضل الخيال الذي نحته. لا زلت أحتفظ منذ مراهقتي، أحتفظ في ذاكرتي بصورة هذا التمثال. وهي صورة تسللت إلي من إحدى مقررات كتب التاريخ في المرحلة الإعدادية. رسخت في ذهني لجرأة هذا الرجل قبل أن يشرب من كأس السم بمحض إرادته.. كان يرى بخياله عالما آخر لا يراه الواقعيون. أتعتقد أن سقراط كان سيضحي بنفسه لو لم يكن يرى عالما حقيقيا ؟

قاطعته ممازحا:

– أتريدني أن اشرب من نفس الكأس ؟

– بل أريد منك أن تحكي خيالا حتى لا تموت.

نظرت حوالي وقلت له:

– ألا ترى خيوط الفجر تشق حجاب الظلام وآن الأوان لتمتنع عن الكلام لتوقظ عبد الرزاق وتسلمه مفاتيح المخدع الهاتفي. فقد أدركنا الصباح الآن ولتترك عبد الرزاق يجرب حظه مع زبائن آخرين، يرغبون في إجراء مكالمات حقيقية مع أشخاص واقعيين من لحم ودم. وأعدك بتتمة الحكاية.

– سمعا وطاعة يا سيدي سأفعل.

– ودعته وافترقنا كما يفترق النهار عن الليل والواقع عن الخيال ودعته كما يليق لسندباد أن يفعل. في طريقي إلى البيت، كنت أفكر وأتساءل: لماذا ترفض نجاة أي اتصال بي بعد الذي وقع...؟ كيف سيكون مآلي لو لم ألتق بيوسف...؟ أي عذاب كان ينتظرني في جنح الليل ووحشته؟؟؟. لن تهدأ الأنثى فيك حتى ينكشف هذا اللغز الكبير. ويوسف هذا السندباد الذي لم تلده لي أمي، أصحيح أنني لم ألتق به قبل هذه

شمس الليل

الليلة ؟ ماذا سيفعل بحكايتي وماذا عن حكايته هو ؟ مضت هذه الليلة وكأنها عمر طويل في النفس والفكر، عرفت فيه يوسف منذ زمن قديم.

شاع ضوء الصباح وتبخرت أسئلتي أو نامت على الأقل ولم تستيقظ إلا في الليلة التالية. زرت يوسف. وجدته ينتظرني بعد منتصف الليل كالعادة. هل يمكن لليلة واحدة أن تفرز عادة...؟ كتم الليل أنفاس العباد. نما الصمت مع أشجار الحديقة التي تحيط بالمخدع. من بعيد يصلنا نقيق ضفادع، يتردد أصداء في الفضاء الرحب، أصداء غامضة هنا وهنالك. ثمة بقايا تتحرك، تصل إلى آذاننا، بقايا تهمس بها أشجار الحديقة تحت أضواء أعمدة الضوء الشاحبة والمتباعدة.

ارتفع البناء الضخم للكنيسة المهجورة عاليا شامخا. كان بياضها علامة على وجودها في هذا الليل البهيم الذي تخترقه، بين الفينة والأخرى، سيارات مارقة، تمضي في سرعة خاطفة، مخلفة وراءها صمتا ثقيلا رائعا، يزين الحديقة ويعطيها المبرر الذي من أجله أنبتت عشبها وأطالت أشجارها. في الليل فقط توجد مثل هذه الحدائق ويصير وجودها خيالا حقيقيا. تتزين لليل وله تكتحل عيناها وله ترسل شعرها طليقا.

قال يوسف:

– آن الأوان لبنات الليل أن يتسكعن بأثوابهن الشفافة.. إلى جانب شعراء متيمين حالمين.

– ألا تخاف عليهن من طيش الشعر ونزق الخيال ونزوات الظن. صمتت لحظة قبل أن أستطرد:

– تبدو لي آخر أمير رومانسي تبقى..

قاطعني ساخرا:

– من سلالة البؤساء المفلسين.

شمس الليل

يخيل إلي أننا أشبه بفراشات الليل تحترق لترفرف أكثر. كلما احترقت، زاد سفرها عبر ممالك الليل إلى أن تحط فوق زهرة حمار الوحش تعرف ولا شك قصة هذه الزهرة ؟

– زهرة بليدة ولا شك

– ومتوحشة أيضا.. ببلادتها ووحشيتها تستطيع أن تضوع رائحتها في أقطار الدنيا.. إلى أبعد منطقة ممكنة وبهاته الرائحة المتوحشة تجذب إليها فراشات الليل، تجذب الشعراء ومعهم مجانين العالم، تجذب كل الكائنات القابلة للاحتراق الباحثة عن النور في جنح الظلام، المتمتعة بحاسة شم قوية تلتقط به العبير وهو في مهده وهو فكرة تخطر ببال زهرة. والغريب أنها تنغلق على نفسها بالنهار وتتمتع بألوان زاهية قد لا تراها العين المجردة إذا لم تكن مدعمة بحاسة شم قوية.

– دوختني بتحليلك هذا لا أدري هل هو علمي أم خيالي. الحشرات ترى أحسن منا. الحشرات أذكى لأنها لا تفكر، تستجيب حسب طبيعتها وليكن ما يكون. تستجيب بوحشية لنداء داخلي، غالبا ما يكون هو السبب في فنائها. ترقص رقصتها النهائية وتموت في أوج عظمتها، متربعة على عرش الجمال الخالد. أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان أن يصير "حيوانا" خالصا، يفكر في أن لا يفكر. يتعلم أن لا يفكر. قاطعته ساخرا:

– كأن يفعل مثل سقراطك، يتناول كأس السم ويتجرعه بلذة وهو يبتسم. فقال مطأطئا منفعلا:

– نعم تماما. في ألف ليلة وليلة حكاية طريفة تحكي بذكاء عن هذه العقدة التي يعاني منها كل واحد منا بدرجة أو بأخرى، تجيب في اعتقادي عمن نكون نحن ومتى أكون أنا لا غيري. متى وكيف يمكن أن أتخلص من ثرثرة الآخرين الذين يفكرون فينا باستمرار دون أن نفطن لذلك. متى نكون أحرارا فعلا فنحكي ما يعتور في أعماقنا دون التفكير في ردود أفعال الآخرين. إن الجوهري، يا يوسف، فينا، قلما نحكيه، هذا

إذا عثرنا عليه، نحتفظ به زمنا طويلا لأنفسنا حتى ننساه نحن بدورنا ولا يستيقظ من جديد إلا عندما ننفعل لجمال امرأة تبزغ كحورية من بحار أعماقنا ونحن نتملى مثلا لوحة أو نقرأ شعرا، نحس آنذاك بغربة جميلة، تذكرنا بالشخص الذي كناه ذات يوم. فوجئت، يا أخي إدريس، بشهرزاد تحكي عن الملك يونان الذي غدر بالحكيم دويان الذي أشفاه من مرض جلدي خطير، عجز جميع الأطباء عن علاجه وبدلا من أن يكافئه، قرر قتله بدون سبب واضح عندما سقط ضحية تفكير الآخرين فيه. ضعف وترك الوزير يفكر مكانه وكان الوزير يخاف منافسة هذا الحكيم له. كان يخاف أن يستأثر به وحده، فوسوس للملك يونان بأن الحكيم شخص خطير: أليس القادر على العلاج، قادرا على القتل ؟ ولما كان الملك لا يملك نفسه ولا يحكم بالسلطة وإنما السلطة هي التي كانت تحكمه، فقد قرر تنفيذ نصيحة الوزير المحتال. ولما رأى الحكيم أن الأمر سينفذ لا محالة، طلب من الملك أن يتقبل منه كتاب الحكمة كهدية منه إليه. وبالمقابل عليه أن لا يفتح الكتاب لقراءته إلا بعد قطع الرأس وفصلها عن الجسد ووضعها في صحن بعد أن تجف من الدم. آنذاك ستتكلم الرأس المقطوعة وعلى الملك أن يتعلم منها كيف سيستفيد من كتاب الحكمة...

كانت أوراق الكتاب فارغة.. صفحات بيضاء مسمومة وملتصقة مع بعضها البعض، وكلما استعان بريقه لفصل الورقة عن الأخرى، كلما تسرب السم إليه عبر الريق إلى أن سقط جثة هامدة. مات الملك يونان وبقيت كلمات الرأس المقطوعة خالدة في كل الكتب الفارغة ذات الصفحات البيضاء التي لا زلنا نقتنيها لنسودها بتاريخنا السري. أعترف لك يا أخي إدريس أني قرأت هذه الحكاية مرارا ولم أر فيها عبرة لا تتعدى عاقبة نكران الجميل. وشاءت الأقدار أن أقرأ بعد ذلك قصة محاكمة سقراط، لا لسبب محدد وإنما لحنين غامض فجرته في ذكرى صورة وجه التمثال، تمثال سقراط التي بقيت راسخة في ذاكرتي. نسيت معلومات درس التاريخ التي كان أستاذ مادة التاريخ يراها مهمة وتمسكت بهذا الهامش الحزين. لا زالت صورة التمثال ماثلة بين عيني. لا زالت الصورة طرية. لازال الدم يقطر. لا تزال أيدي النحات ملطخة

بالدماء ولا زالت عيناه تروي التمثال بالدموع الحارة ليحيا في ذاكرتي. في الإناء رأيت العينين الجاحظتين، رأيت ابتسامة الموت والحياة معا. جلست لكتابي ذي الصفحات البيضاء الفارغة لأكتب كما قرأت. أردت أن أتكلم كما تكلمت رأس سقراط المقطوعة بدون خوف من الملك يونان ولا من وزيره المحتال، فعجزت. كانت الصفحات ملتصقة مع بعضها البعض. جف ريقي. كيف يمكن لي، يا إدريس، أن أكون حرا طليقا، أن أكتب ما يمليه علي حيواني المتوحش. كيف يمكن أن أغذيه بدمائي لينطق ويقول كلمة واحدة حقيقية شفافة. كلمتي التي لا دخل للآخرين فيها. الكلمة الأولى... والباقي لا يهم. الكلمة الأولى قصيدة من كلمة واحدة. أين أجد كلمتي هاته ؟ كيف يمكن أن أكتب ما تمليه علي فراشات الليل ؟ أي رحيق يغذي حروفها...؟ سنظل نكتب ونكتب نحوم دائما حول هذه الكلمة الأولى.

تعجبت، يا أخي إدريس، كيف فطنت شهرزاد لمأساة سقراط، لم تسمه، حكت عنه وسمت الملك يونان. كيف فطنت شهرزاد إلى أن الكتابة الحقيقية لا تكون إلا برأس مقطوعة. غريب أمر شهرزاد.. أي ذكاء أنثوي، أي ذكاء روحي كانت تتمتع به، مكنها من أن تكشف مسخ كثير من الشخصيات. كثيرا ما كنت أفكر وأتمنى لو حكت عني شهرزاد، لو كشفت لي من أنا أي كائن أنا ؟

لا أخفيك، يا إدريس، أنني اقتربت مرة من هذا الوجود اللطيف الذي يمكن للرأس المقطوعة أن تحدثه في الكينونة. حدث ذلك أثناء إضرابي عن الطعام الذي خضته مع زملائي الحاملين لشهادات يسمونها عليا. مرت خمسة عشر يوما متوالية دون تناول طعام. تمكن مني الهزال ضعفت، خارت قوتي، هد جسدي وصار طللا من أطلال حضارة تعلمت الحساب ولقنته لأبنائها وتعلمت البلاغة وعلمت أبناءها كيف يمكن لغلام ناشئ أن يبز الحجاج ويدعي ما يقبله الذوق السليم ويرتفع بمسافة أو مسافتين عن بيع الفول ومعالجة الأخفاف. صار جسدي طللا، خرابا تعيث فيه غربان الجوع السوداء وهواة دمار الحضارات فسادا. انفصل جسدي عني. إن رغبت في

النهوض لا يطاوعني، وإن أردت حركة مهما كانت بسيطة، عقني. تمدد جسدي على الأرض وصار "آخر". في أوج الجوع والمحنة والعجز كانت تصل إلى أذني ثرثرة السياسيين وهراء الأحزاب مما كانوا يسمونه مواقف. كان يغمى علي، يا أخي، فيتحقق الغياب التام. فتارة تغشاني عتمة أفقد فيها كل صلة لي بالتاريخ والجغرافيا وتصير كل تصريحات خطباء البيان ثقيلة كالصاعقة غامضة كأزيز النحل في يوم قائظ، وتارة أخرى، حين يصمتون ويستسلمون لنوم الليل أو القيلولة، يحل في جسدي، الطلل، صمت جميل، رائع. تسقط فيه أفكار واضحة، واثقة، قوية، واقفة كقطرات بلورية تتسقط واحدة، واحدة، ثقيلة مملوءة ناضجة، تتسقط في بركة مغارة أعماقي. تصلني أصداؤها باذخة، ممتعة صافية، تتدحرج بعد ذلك في غنج ودلال على جدران روحي. في هذه الأثناء كانت روحي تنشط، توقظ كل خيالاتها العتيقة وتطير كجناح طائر بخفة ورشاقة. تغرد، كبلبل، كل السعادات التي أجلتها حتى ذلك الحين. كانت رأسي مقطوعة.. ربما.. وإن لم تكن، فقد أوشكت. فرأيت، يا أخي إدريس، ما رأيت... رأيت كيف تطق الشرارة الأولى، كيف تنشأ القطرة الأولى، عندما يرتعش الصخر. وتخجل الأرض وتنفعل وتحمر وجنتها وينفذ الصبر فتفيض في قطرتها الأولى الحالمة الخارجة من ظلمات الحقب الغابرة. رأيت، يا أخي، رقصة النحلة في رعشتها الأولى قبل أن يكون ثمة عسل مصفى. وما كانت النحلة لتعرف أن بإمكان الغرام أن يلد عسلا، وان بإمكان بشر أن ينشؤوا مجمعا لخلايا الشهد، يطعموه للأغنياء ويمنعوه عن الفقراء البسطاء الطيبين. رأيت البراعم تنمو. سمعت نموها. رأيت كيف تألمت شجرة الدفلى قبل أن تلد الزهرة الأولى. تألمت لألمها. كانت جائعة. كأنثى حزينة، ولكنها كانت تحلم. رأيت كيف كانت اللبؤة تقيم العدل وهي تنام إلى جانب حمل وديع. رأيت كيف كانت توزع الكؤوس على كل البؤساء، قبل أن تنشأ الحدود وتنشأ الدول وتقوم الحضارات. رأيت الظنون والأوهام الجميلة تداعب لأول مرة كرمة العنب وهي تفكر في الشكل المناسب لوضع حباتها. ما كان يخطر ببالها أبدا أن تصير أمة لطقوس رفع الأنخاب وهلوسات الانتصارات. للروح، يا أخي إدريس، رنين جميل، رائع. عندما

يتعب الجسد ويصير كتلة من طين ومادة خام، يمكن للروح أن تصوغ منها كل الأشكال الممكنة لسعادة حقيقية موجودة. في أقصى الضعف والعجز، خارج جسدي، رفضت التوقيع على الاستسلام. لم يعد يهمني آنذاك أن يجدوا لي عملا يناسب شهادتي. كنت أنتظر وأحلم بوطن يناسب الغزلان الآمنة، والنمل الكادح. أرى صبيانا يحلمون أيضا ويرون في حروف أبجديتهم التي يتعلمونها ما رأيت. يركبون جملا قد لا تكون مفيدة بعيدا عن عصا المعلم، يختارون معجمها من الهواء الطلق وأنفاس الفجر وعطور زهور برية، يدوسون أشواكها البرية بأرجل حافية ووجوه مبتسمة. لم أعد أعبأ بمدى ملاءمة شهادتي لمعايير القطاع العام ولا الخاص.

في لحظة إشراق وتجل وقبل أن أفيق من غيبوبتي، قررت أن أحلق بعيدا عن السرب وأعزف، لكن خارج الجوقة وأرسم خارج الإطار. أفقت بعد تقديم الإسعافات الأولية لي ولصديقي بهلول الذي كان يهذي ولا زال في هذيانه. كان يوزع الورود وقطع من الخبز الجاف والشوكولاته على أبناء وبنات الفقر من حوله. كنا متجاورين. كان أجرأ مني. كان يهذي جهرا، يلوح بيديه كما حكي لي زملائي فيما بعد. أما أنا فلم أدر إن كان الطبيب استطاع أن يسترق السمع لنبضات قلبي ويرى ما رأيت. فتحت عيني على وزرته البيضاء ووجهه الصارم، ورأيت طيورا تحلق في سماء زرقاء رغما عنه. أخذني بين يديه كعصفور بليل نجا بأعجوبة من عاصفة ممطرة، هوجاء، طرت بين يديه، حلقت خارج السرب.. رسمت خارج الإطار.. رسمت مخدعا هاتفيا، اخترت له طلاء بلون خارج القاموس وبعيدا عن الوصفات والأنماط.

في هذا المخدع الذي تمكنت من إقامته بمساعدة زميلي عبد الرزاق الذي قدم لي الدعم المادي الكافي وساعدني على القيام بكل الإجراءات الإدارية اللازمة واتفقنا على توزيع الأدوار بيننا. كان يعمل بالنهار وكنت أعمل بالليل باقتراح مني ودون اعتراض منه. صحيح أن عبد الرزاق كان يختلف عني تماما في أفكاره، لم يخض معنا الإضراب عن الطعام الذي كان يعتبره انتحارا هادئا، إلا أنه كان وفيا وجريئا وعمليا. كان

يحترمني ويحترم اختلافي معه. في هذا المخدع سهرت الليالي وجالست العزلة والصمت والكتب والغرباء ممن يرتادون الحديقة سرا، الرافضين لأسرة النوم.

في هذا المخدع رأيت في أقصى درجات العزلة، أقسى انتظار وأحلاه، يمكن لصياد أن يقوم به في أبعد جزيرة وأعتى محيط. فيه رأيت الصبايا يخرجن في جولات ليلية ليفكرن بطريقة مختلفة في قضايا المرأة. رأيت كتيبات "الشراع" تنزل الشوارع بأثمنة بسيطة يمكن للقراء البسطاء الطيبين أن يقرأوها. سار الشراع في المحيط الأزرق وبلغني أن طفلا من أطفال "الشراع" تألق ببيانه الساحر وأطاح بالحجاج وببلاغته الخشبية التي كان يزين بها الشاشة والإذاعة. سار الشراع وكان علي أن أنتظر لأرى زهورا تنبت من رميم أجساد أطفال أرادوا حرق المحيط بقوارب فاحترقوا. كنت أسهر وتصلني، عبر أمواج أثير مذياع صغير يزين ليلي، أخبار أطفال صاروا، بسواعدهم الصغيرة يكسرون واجهة زجاج النظارات السوداء التي كان يضعها شارون على عينيه. كان يخشى أن يرى بعينيه المجردتين كيف تتسع خريطة الزيتون في الرؤوس الصغيرة.. يُقتل طفلان.. وتدوس الذبابة قلب الأم ويتسع الوطن أكثر لحجارة من سجيل. لا أنكر، يا أخي إدريس، أن وطأة الليل وحدة تشتد وتقسو علي أحيانا، أحس بالغربة ثقيلة تعصر قلبي وأبكي داخلي بدموع همجية متوحشة، تسقط داخلي. لا أريد للعيون الحضارية أن ترى أثرها على وجهي. عفوا ياً صديقي إدريس إن أثقلت عليك بهموم لا يد لك فيها.

صمت يوسف وتنهد، أرسل زفرات، فخرجت أنفاسه حارقة. لم أجد ما أقوله، ابتلعت ريقي. بحثت في حلقي عن كلمة واحدة تعادل عمق وكثافة هذا الحزن الثقيل الذي جثم على صدره... رأيت وكأنه يحاول أن يزحرح هذه الصخرة عن كاهله.

كبر في عيني. صار شجرة عميقة من أشجار ليل الحديقة، مهاجرا من غابة كثيفة، متشابكة من أغصان الأمجاد والأحزان. تناولت جرعة من القهوة السوداء، أتبعتها بجرعة أخرى من الماء البارد. تطلعت إليه بخجل وإعجاب وفخر وقلت له:

– بالعكس صرت اليوم أعرفك أكثر. أنا محظوظ فقد تلقيت إشارات وعلامات تفوق إدراكي. محظوظ بهذا الميلاد، بهذا الوجود الجديد بقرب أخ لم تلده لي أمي، كشف لي عن أسرار وجوده وإشراقاته الكونية.

– عندما أشرع يا إدريس في الحكي أو في الكتابة يختلط علي الماضي بالحاضر، الواضح بالغامض، الحقيقة بالظن. هل حدث فعلا ما حدث.. هل حدث لي أم لشخص آخر؟ أحس، يا أخي إدريس وأنا أتحدث إليك، كأني أكتب، أبوح لك بالغموض الذي يسكنني فجأة ودون سابق إنذار. ولأول مرة أو ثاني مرة يحصل هذا.

صمت، تردد في الكلام، تنهد وأحجم. أكيد ثمة جرح ينز في داخله وألم ممض يستيقظ في أعماقه. انتابني أيضا حزن غامض. ترددت في أن اقطع عليه صمته. صرت أحوم حوله بنظراتي كمن يحوم حول راهب ويخاف أن يقطع عليه صلاته. حدقت في عينيه وجدتهما عميقتين، تفيضان ببريق غريب. طأطأ رأسه وكأنه يخاف أن ينفلت منه حصان جبار، كان يقيم في مربطه هادئا حتى هذه اللحظة. تأملت شعر رأسه. لازال أسود، كثيفا كغابة حزينة وسط ليل بهيم. ماذا تخفي هذه الشجرة، أي صخرة ينوء بها هذا الجبل ؟ أي مطر أسود يمكن أن يهطل من هذه الغيمة الداكنة ؟ وحتى لا أقطع عليه حبل التأمل الذي استغرق فيه، قلت له مذكرا إياه:

– قلتَ ثاني مرة ؟

– نعم أو ربما ثالث مرة.

– والبداية ؟

– يصعب علي الآن يا إدريس. أعدك أنني سأحكي لك عن أشياء أخرى غريبة كلما أوجت لي شهرزاد بذلك، فهي معلمتي، في حكيها سحر وفي سحرها حكي. علمتني أن لا أحكي إلا عند الضرورة، عندما يترصد الموت الحياة.

عجيبة هذه الأنثى. بأي ريشة يمكنني أن أرسمها، كيف أرسم من رسمت آلاف الشخصيات ببساطة وتلقائية وذكاء. كثيرا ما بحثت عن هذا الصوت الداخلي الذي يحكي الليل، كثيرا ما وجدته ولكن نادرا ما يقبل أن يتحول إلى حروف منطوقة أو مكتوبة قابلة للاستهلاك. أتخيل، أحيانا، شهريار أسدا جريحا، يبكي بعيدا عن سيفه وفي غفلة من مسرور. يبكي بين يديها في غرفة سوداء حالكة، تضيئها شمعة نحيلة. تلقي بأشعتها الباهتة على قسماتها البيضاء، عينيها المتقدتين وأهدابها الهلالية الفاتنة وأنفها الدقيق، وخصلات شعرها السوداء المتهدلة بسخاء على وجنتيها وجبينها وكتفيها، على وجودها العلني والسري. تميل برأسها على شهريار وتنكب معها خصلاتها الحريرية، تميل حيث مالت. تمسح برفق وذكاء دموع شهريار، الأسد الحزين. أي قوة، أي ثقل لحزن الليل في قلبه، على قلبه. تاريخ طويل من الأقنعة يداري بها ليله. كيف يمكن للهيب شمعة نحيلة ان تشفي جرحا قديما أسود ؟ كيف يمكن للضعف الجميل أن يشفي دمامل قوة عمياء لا ترى إلا بالليل ؟

انظر، يا أخي إدريس، كانت تحمل إلى غرفته السوداء شخصيات عديدة، كلها معاقة، منكسرة، منها الأعرج والأعمى والممسوخ. فهذه غزالة تبكي بدموع الأنثى. وهذا عجل حزين فقد هويته، يكاد أبوه أن يذبحه، يكاد يأكل من لحمه ويطعم الزوجة الخائنة. هكذا نحن يا إدريس، نحمل جميعا على أكتافنا وجودا معاقا، به يعرفنا الناس وقلما ننتبه إلى حقيقتنا. نصدق ما يقوله الآخرون عنا. ننسى أنفسنا قبل أن نبوح، إن قدر لنا ذلك يوما، بما يعتمل داخلنا إن حدث وأغوتنا ورقة بيضاء أو التقينا بغرباء استثنائيين يذكروننا بغربتنا. هل تساءلت، يوما يا إدريس، كم مرة عرفت فيها نفسك ؟ وبتعبير أوضح كم مرة التقيت فيها بنفسك ؟ كم مرة سافرت إلى نفسك ؟

أجبت متحمسا:

– حدث هذا قبل أن ألتقي بك.

– تقصد عند التقائك بنجاة ؟

– نعم. حدث معها هذا لأول مرة.

– هيا احك إذن، ماذا وقع ؟

– سأفعل، لكن ليس قبل أن تحدثني عن حكايتك، عن المرة الأولى أو الثانية التي خرجت فيها عن طورك والتقيت فيها مباشرة بنفسك. لا شك أن الأمر يتعلق بأنثى، بإحدى حفيدات شهرزاد ؟ أليست شهرزاد تلك الشجرة التي تخفي الغابة ؟

– نعم، صحيح لقد صدق حدسك. لكن لا أستطيع الآن. لا أجد القوة الكافية لضخ هذه الأشياء التي بداخلي.

رفع رأسه إلى السماء وأجال عينيه خارج المخدع. نظرت إلى حيث ينظر. كانت أضواء مصابيح الحديقة تتراجع خجولة. كان ضوء الفجر يشق الظلام بصرامة وحزم. قال لي:

– أدركنا الصباح وآن لعبد الرزاق أن يستلم المفاتيح.

قلت له:

– أريد أن أتعرف على عبد الرزاق. فقد شوقتني لمعرفته.

– ألم تتعب بعد ؟ ألا تشعر بالحاجة إلى النوم بعد هذه الليلة البيضاء ؟

– ليس قبل أن أرى عبد الرزاق في المرآة، في مرآة النهار.

– ستحلق ولا شك لحيتك هذا الصباح. يمكنك أن تراه على حقيقته، شفافا، نظيفا، بعد أن تزيل بقايا صابون الحلاقة من وجهك.

– أريد أن أرى طلعته. كيف يستقبل يومه بعد أن خلف الليل من ورائه بأوهامه وأشباحه وأحلامه. أريد أن أقف على طبيعته العملية.

رد وهو يضحك:

– ... كل ما قلته وحكيته عن عبد الرزاق مجرد أوهام أضغاث أحلام... تشكك إذن في مصدر الرواية ؟ تعتبر كلامي عنه حديث ليل، لا أقل ولا أكثر ؟ بزغ الصباح فتنكرت لكل ما حكيته عن عبد الرزاق وربما عن غيره.

– أعرف بأنك تتمتع بمخيلة حادة وقوية وواسعة وعميقة. وكل إضافاتك أعتبرها حقيقية. لكن ما أراه، وربما قد لا تتفق معي، أن كلمات الحكايات وآفاقها لا تقف عند حدود الليل، فهي توقظ فينا طاقات سرية بها نغذي أفعالنا في النهار، تنشط قراراتنا وأعمالنا ومعاملاتنا. تصير مختلفة. ألم تحدثك راويتك شهرزاد عما يقوم به شهريار في النهار ؟ هل لمست الفرق بين ممارسته للسلطة قبل حكي شهرزاد وحكمه بعده ؟

– كانت بخيلة في هذا المجال. فهي لا تزيد على اختصار أشغال النهار في إيجاز، في جملة "..."

صمت حاول تذكر الجملة، لم تسعفه الذاكرة فقام وتناول الجزء الأول من كتاب الليالي. تصفح ثم قرأ: (فخرج الملك إلى محل حكمه، وطلع الوزير بالكفن تحت إبطه، ثم حكم وولى وعزل إلى آخر النهار، ولم يخبر الوزير بشيء من ذلك، فتعجب الوزير غاية العجب، ثم انفض الديوان، ودخل الملك شهريار قصره.

كلامها في هذا المجال غامض لكن يمكنك أن تتخيل ما يمكن أن تقوله.

– ماذا تتخيل إذن ؟

– قل.. أن ثمة افتراضا مفاده تحذير شهرزاد من الخلط بين الليل والنهار، بين الخيال والواقع. الكلام مباح بالليل فقط. معنى ذلك أنه ممنوع بالنهار.

علقت ضاحكا وأنا أقترب منه:

– يبدو أن المعادلة مختلة بينك وبين عبد الرزاق وهذا ما لا أتمناه.

– لكني أحترمه ويحترمني وماذا تريد أكثر ؟

– أليس احتراما متكلفا، قل باردا، مصطنعا أملته مفاهيم جديدة غزت السوق هذه الأيام ؟

وقبل أن يجيب صمت، وضع سبابته على فمه. بدا لي أنه يكبح تفكيره ويبحث عن الجواب الملائم والكلمات المناسبة:

– هذا الاحترام ضروري لكي نعيش على ظهر هذا الكوكب بقلب وعقل. صحيح أن القلب في وطننا لم يجد طريقه إلى العقل بعد، وأن العقل لا يبالي بهذا التاريخ الطويل من الانفعالات التي أنجزها القلب في أعماقنا. صحيح فعبد الرزاق كثيرا ما يهرب إلى عقله أو قل يختفي وراء المنطق والحدود والضرورة. فأنا مثلا لا أعرف عن ليله شيئا.

وقاطعته مستفزا:

– وهو بالمقابل لا يعرف عن نهارك شيئا.

– صحيح، لكن حدثت بوادر في هذا الشأن، بوادر خجولة ولكن مؤشرة.

صمت برهة وكأنه كان يستدعي ماضيا سحيقا أو ذكريات عتيقة. لمعت عيناه فجأة، أشرقت أساريره كمن عثر على ضالته أو وجد دليلا به يرد على اتهاماتي.. إلا أنه لم يقل شيئا.

سمعنا صدى خطوات. التفت يوسف وقال:

– ها هو ذا عبد الرزاق قادم. التفت بدوري. بدا لي شابا، وسيما، يدفع بخطواته في عزم وثقة، تحفه أشجار الحديقة المصطفة بنظام في صفين متقابلين. بدا لي ضابطا يستعرض قوات الصف. كانت الأشجار ثابتة، واقفة. وما كان النسيم قادرا على تحريك أغصانها بعد أن شذبت بعناية. كان عبد الرزاق واضحا بما فيه الكفاية،

مغمورا بضوء الصباح. بدا حليق اللحية، مرتديا لجاكتة وسروال جينز أزرقين وحذاء أسود لامع.

عرف يوسف ببعضنا البعض. كان عبد الرزاق يرد بابتسامة هادئة، متزنة وكلمات متحضرة لبقة. بالمقابل بدا لي يوسف متعبا، احمرت عيناه من طول السهر. التفت إلي عبد الرزاق وقلت له:

– حدثني عنك يوسف كثيرا وشوقني لمعرفتك.

فقال ساخرا وهو ينظر إلى يوسف:

– ألم يبالغ في ذلك ؟

قلت له وأنا أتفحصه رغبة في اكتشافه:

– لأراك على حقيقتك، انتظرت طوال الليل.

بدت عليه الدهشة وهو يقول:

– سهرت إذن إلى جانبه، تضامنا معه أم أسقطك ضحية حكاياته.

تدخل يوسف لينوب عني في الرد بنفسه:

– هل تعرف ؟ لقد سحرني، أوقع بي في حبائله، فقلت ما لم أقل لك طوال سنوات. وجدت فيه ما وجد السندباد البحري في السندباد البري.

– يبدو إذن أني الغريب في الحكاية. الغريب بين السندبادين...

فقاطعته:

– بل أنت الشخصية الرئيسة في الحكاية. فقد حدثني عنك وعن الصداقة القوية التي تربط بينكما. لا يمكن بأي حال من الأحوال، مهما فعلت، أن أساوي شيئا

أمام هذا التاريخ العميق الذي جمع بينكما. فأنا مجرد ضيف حل على مجلس السندباد، كابن سبيل أرسى شراعه بميناء عجيب وغريب. فقال يوسف مبتسما:

– حللت أهلا وسهلا.

فنظرت إليهما ووضعت يدي في يدهما فرفعنا أيدينا متشابكة عاليا، إعلانا عن ميلاد ميثاق صداقة قوية وقلت لهما:

– يجب أن نجلس معا في أقرب وقت ممكن لنتحدث أكثر ونتعرف أكثر على بعضنا البعض.

تدخل عبد الرزاق متسائلا:

– متى يكون اللقاء. ونحن لا نلتقي عادة إلا في صباح أو مساء ؟

فقال يوسف:

– أقترح أن يكون في المساء قبيل غروب الشمس في مقهى على شاطئ البحر.

فتدخلت بدوري وقلت مازحا:

– لا داعي لكي أقول: غروب شمس يوم أحد.

قال عبد الرزاق:

– تقصد بعد غد.

فقال يوسف:

– بالضبط. اتفقنا إذن.

ودعنا عبد الرزاق. وفي مفترق الطرق، في نهاية الشارع الذي يفصل الحديقة إلى ضفتين، توقفنا لنودع بعضنا البعض. قال وهو يسلم علي:

– ستحدثني عن بقية الحكاية، ستحدثني عن نجاة... فأجبته مازحا:

– ألست سندبادا بريا فقط ودوري أن أسمع فقط حكايتك أنت..؟

– لنتبادل الأدوار. أتمنى أن لا تغضب شهرزاد بفعلنا هذا.

- تيتانيك -

في المقهى الراسي على شاطئ من شواطئ العيون، رسونا. كان المقهى محاذيا تماما للبحر. جلسنا متحلقين حول طاولة بيضاء، فوقها منفضة سجائر زجاجية، تعكس نور الشمس المتبقي.

أحسست وكأننا نستقل سفينة تيتانيك الضخمة، المتمايلة بفعل مياه قوية، تحركها تيارات صاعدة من أعماق المحيط. لا ادري من أين ولا كيف عبرت هذه الصورة الضخمة خيالي الصغير، في ومضة قصيرة. هل يعود ذلك إلى هذه الموسيقى الهادئة المنبثة بهمس في مختلف أنحاء هذا الفضاء الممتد في استطالة رائعة، موسيقى هادئة تهيئ القلوب لسماع صوت أقرب إلى صوت سيلين ديون الخالد ؟ هل يعود ذلك إلى الشمس الغاربة الراحلة إلى هنالك، إلى ليل تيتانيك، إلى الموج الأسود المشوب بزرقة معتقة، قبيل بروز جبل الجليد الأبيض الناصع الذي أيقظ السفينة من

سبات أحلامها ؟ هل يعود ذلك إلى منظر هؤلاء العشاق المتناثرين كأزواج النوارس، كل زوج يحكي قصة هجرة مختلفة عما يحكيه الآخرون ؟

بدت لي الأحاديث تتبخر إلى الأعلى، تختلط، تتكاثف وتتجه نحو الشمس لتعيد صياغتها بطريقة أخرى. في أعماقي كنت أتساءل عن مصير هذا الخليط من الأفكار والكلام المتصاعد. وتذكرت فجأة ما قرأته في إحدى تجليات جمال الغيطاني الذي تحدث عن الأحداث والأشياء وهي أفكار جنينية ظنية. وكيف اطلع، في لحظة التجلي، على فكرة غريبة قضت فجأة مضجع الأب، أرقته، فتحولت إلى رغبة في الاتصال بالأنثى، الزوجة، لباس الرجل خصوصا في اللحظات العصيبة، وكيف نتج عن ذلك ميلاد هذا الطفل الذي يحسن التجلي.

فكرت في النطفة الحزينة التي يمكن أن تلد شاعرا ك "ريلكه" أو جبران خليل جبران. إننا لا نرث من آبائنا الصفات الجسمية فقط، بل يمكن أن نرث هذا الحزن الغامض الذي يسكننا ولا ندري مصدره. ألا يجوز أن نكون منحدرين من أسرة غجرية نجت من الطوفان بأعجوبة، أو من أسرة احترفت الرعي والرحيل والشعر والحزن منذ آلاف السنين.

كان يوسف يجلس بجانبي. كان يرتدي قميصا أسود متناسقا مع لون شعره، وبين الأسودين وجه أبيض نحيل تطل منه عينان عميقتان، وسروالا أسود، بخلاف عبد الرزاق الذي كان يرتدي قميصا أبيض وسروالا أبيض كذلك. على صدغيه بدايات خجولة لشعيرات بيضاء تطل باحتشام من سنين تتجاوز الأربعين.

حضر النادل بهندامه الجميل، تعلو وجهه ابتسامة مهنية تزينها ربطة عنق الفراشة. عليه أن يخفي حزنه وعلى الفراشة أن تمتنع عن التحليق ويؤدي الخدمة بلباقة لعبد الرزاق الذي طلب حليبا خالصا، ويوسف الذي لم يتردد في اختيار قهوة سوداء. أما أنا، فبعد تفكير، اخترت قهوة ممزوجة بالحليب. علق يوسف ضاحكا:

– تشرب من الليل والنهار.

فنظرت إلى كل واحد منهما قبل أن أجيب:

– حتى أحافظ على التوازن المفقود.

فقال عبد الرزاق:

– تتمتع إذن بالتوازن وهذا شيء جميل.

– بل أسعى عبثا إلى تحقيقه دون أن أصل إليه يوما. إنني أحلم. كل واحد يسعى إلى ما ينقصه.

بدا يوسف متحمسا. بدا أن لديه الكثير مما يقوله. تعلو ملامحه سمات الانفعال والدهشة. فقال موجها الكلام إلي:

– ذكرني حديثك عن الأستاذ الجامعي الذي لا يقرأ الكتب الثقافية، والبعيدة عن اختصاصه، إلا في الحافلة، خلال تنقله من البيضاء إلى الجديدة، بسائق سيارة التاكسي التي أقلتني اليوم إلى هذا المقهى. ركبت إلى جانبه، لم يكلمني بأكثر من رد تحية السلام، ثم ضغط على زر جهاز التسجيل لتشغيل شريط قراءة القرآن الكريم. أنصت وإذا بصوت السديسي الشجي يتلو آيات من سورة الكهف. كان يقود السيارة بمهارة بل وذكاء واحترام لقواعد السير، وهو يردد في نفس الوقت مع الشيخ تلاوة القرآن باهتمام ظاهر وبصوت عال وإيقاع سريع. انبهرت لهذا الانسجام العجيب بين سرعة السيارة وسرعة الصوت المساير لقراءة الشيخ بدون أدنى تأخر أو استعجال، في نبرة الصوت إذا ارتفع أو انخفض. كان واضحا أن السائق لم يكن مجرد قارئ عادي، وإنما هو حافظ لكتاب الله، متقن لقواعد التجويد. كان يرتدي قميصا وسروال جينز وحذاء رياضيا. بدا بشعره الحليق ولحيته المشذبة المهذبة وسيما تعلو ملامحه حيوية تشع بنوع من الاطمئنان. على قسماته ابتسامة تفاؤل عجيبة، قرأت فيها حماسا وإرادة ورغبة في الحياة والعمل. شدني إليه وجذبتني شخصيته، فعبرت عند وصولي، عن استحساني لهذا الاختيار الموفق. فقال لي بلطف وتواضع بأنه حفظ عددا لا يستهان

به من سور القرآن الكريم بهذه الطريقة بنصوصها وقواعد تجويدها. عندما ودعته، أحسست يا أخي إدريس وكأنني أستمع للقرآن الكريم لأول مرة. تدخل عبد الرزاق يقاطعه:

– "معلوم" (هذا بديهي). فأنت لا تستمع إلى القرآن أو تقرأه إلا لماما أو في مناسبة من المناسبات. فلا غرابة أن يكون لك هذا الانطباع.

فقال يوسف مازحا وهو يرفع فنجان القهوة قبل أن يتجرع جرعة منها:

– هل تتلصص علي، تسلط علي أتباعك لينقلوا لك عني "الشاذة والفادة".

فرد عليه عبد الرزاق بهدوء ورزانة:

– فأنا لا أحتاج إلى مخابرات الليل. أفضل أن أعمل في واضحة النهار. فانظر إلى طعامك، انظر إلى حمارك، لكي تعرف بنفسك، حمار الليل الذي تركبه باستمرار، يحمل أسفارا متعددة متنوعة وليس بينها نسخة واحدة من القرآن الكريم.

نظرت إلى يوسف. رأيت تفاحة آدم ترتفع وتنخفض في حلقه. يبتلع ريقه ويهم بالكلام وقبل أن يفعل، حدجته بنظرة من يريد أن يؤكد شيئا.

– صحيح ما قاله عبد الرزاق. في مخدعك كتاب الليالي وكتب لجمال الغيطاني وليس بينها نسخة واحدة من القرآن الكريم. وجمال الغيطاني نفسه لا يفارق القرآن الكريم حتى في أسفاره، كما سبق وان قرأت له.

– هذا صحيح يا إدريس. انظر إلى تهجم صاحبك علي، كيف جعل كتبي محمولة على حمار ينوء بها ولا يفقه شيئا.

فقال عبد الرزاق مدافعا:

– أنا لا أقصد، يا أخي يوسف، ذلك. فهذه الصورة وردت في القرآن الكريم والله عز وجل يضرب الأمثال للعباد ولا يستحيي من ضرب المثل ببعوضة ليهدي به من

يشاء ويضل به من يشاء. أنا لا أقصد هذا المعنى الحرفي وأنت تعرف ذلك. أنا اقصد شيئا آخر ينطبق علي وعليك وعلى أمثالنا. قال يوسف وهو يضحك:

– نعم أعرفك أيها المحتال. تدبر المكيدة، تصيب الهدف وتوقع الضحية وتعود إلى قواعدك سليما، لتدعي البراءة في نهاية المطاف.

تدخلت لأنهي هذا الجدال:

– يبدو أنني أنا الضحية وسط هذا العالم من الرموز والكنايات المتبادلة بينكما.

فقال لي يوسف وهو يشير إلى عبد الرزاق بيده:

– اسأله هو ماذا يقصد ؟

اندهشت عندما رأيته يغير نبرته ويبادر إلى أخذ الكلمة. تناول الكلمة بلطف وأدب كما يفعل محاضر، يلقي محاضرته على طلبة جامعة أجنبية. سعل قليلا وبتكلف لإعداد أوتاره الصوتية لقول كلام مهم. جمع مرفقيه ووضعهما في نظام على المائدة وقال:

– عفوا.. فأنا لا أقصد يوسف بالضبط ولا غيره وإنما أقصد فئات المثقفين جميعهم، بمختلف دكاكينهم السياسية والإيديولوجية، خصوصا هؤلاء الذين يخوضون غمار حروب وهمية، طواحين الهواء ضد بعضهم البعض باسم الثقافة والمبادئ ويوزعون الشتائم بسخاء يمينا وشمالا.. هؤلاء وإن شئت يا يوسف قلت نحن.. هؤلاء الذين يحاربون بسيوف خشبية وفق طقوس مسرحية مكررة أصبحت مملة.

وحدجه يوسف بنظرة فيها اعتراض وإنكار:

– لم تفلح السنين التي قضيتها في الجامعة في مصالحتك مع الثقافة والمثقفين.

فقاطعه عبد الرزاق:

– بل مكنني ذلك من الوقوف، عن كثب، على أوهامهم.

فقال يوسف متسائلا والبريق يشع من عينيه:

– هل يمكن الاستغناء عن الأوهام ؟ هل تعلم كم ستكون الحقيقة مرة وقاسية بدون أوهام ؟

– أنا لا أقصد أوهامك ولا أحلامك وإنما أتحدث عما يترتب عنها من تناقضات تؤدي إلى خلط الأوراق.

فتدخلت:

– أنا شخصيا لم أفهم كيف يكون للثقافة تناقض. فإن كنت تقصد الصراع القائم بين مختلف التيارات الفكرية، فهذا شيء طبيعي وإيجابي وضروري، لأن به يتحقق التطور ونقترب من الحقيقة.

ابتسم عبد الرزاق واحتسى جرعتين متتابعتين من الحليب الأبيض الناصع وقال:

– أنا، يا إدريس، لا أريد أن اختفي وراء العموميات والعبارات الطنانة. ما أقصده بالضبط، تناقض المثقفين أنفسهم وليس تناقض الأفكار. تناقض هؤلاء المثقفين الذين يقلدون الحداثة التي لا تقلد. يعيدون باستمرار كلام حداثة سبق لها وأن حدثت في واقع آخر، دون انتباه إلى الواقع الذي يتحركون فيه ولا يعرفون عنه شيئا. وفي ظني فهم ليسوا حدثيين وإنما هم حملة الحداثة. يرفعون شعاراتها ولا يعيشون جوهرها. يعيش المثقف أو شبه المثقف سجين فكرة انبهر بها، قرأها في كتاب ولم يعمل فيها فكره يوما ما. تجده مدافعا في منبر خطابي عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وتجده أول من يخرق ذلك عندما يتعلق الأمر بأسرته أو طلبته أو مع رفاقه في الحزب أو النقابة أو الجمعية.

قاطعه يوسف:

- إذا أردت أن تكون محايدا وتستعمل حروف الجر في مكانها المناسب، فاضرب المثل أيضا بالذين يعيشون في زمن غير زمنهم، الذين يطلعون من كهفهم لشراء بعض الطعام بعملات تجاوزها التاريخ، أولئك الذين لم يستطيعوا تزويج أفكارهم بواقع الفقر والجهل والمرض.

فقلت معقبا:

- ما أكثر الذين لم يستيقظوا بعد فما بالك بخروجهم.

فقال عبد الرزاق موجها الكلام ليوسف:

- وكيف ترى صاحبك سائق التاكسي، عفوا سائق سيارة الأجرة ؟

قهقه يوسف ضاحكا:

- التاكسي.. سيارة الأجرة.. أرأيت كيف تسجننا اللغة، فما بالك بالثقافة ؟

وحتى إذا حاولت تسمية الأشياء بأسمائها، فإنك لن تستطيع أن تنجو من بعض التشويه الذي يمكن أن يشوبه بإلصاق المضاف إلى المضاف إليه.

- كل المثقفين هم سجناء اللغة والمصطلحات التي تفرضها عليهم مرجعيتهم. إنهم يهربون من الواقع.. من الفقر والجهل والمرض.. إلى اللغة. لهذا قلت إن حرب المثقفين حرب وهمية لأنها لا تحارب العدو الحقيقي. يستأصلون ويكفرون متغافلين عن الجهل المتفشي في أوساط فئات الكدح التي لا تعرف شيئا عن حروبهم ولا عن لياليهم.

تدخلت لإضفاء طابع من المزاح على أجواء الحوار:

- لياليهم الحمراء

فقال يوسف معقبا:

– وأحيانا خضراء وهي، في معظم الأحيان، ليالي سوداء.

نظر عبد الرزاق إلى يوسف:

– كيف وجدت صاحبك ؟ لا تهرب أنت أيضا من السؤال. فقلت مدعما قوله:

– ما كنت لتحدثنا عنه بمثل هذا الإعجاب لو لم يثر في نفسك أشياء عميقة لا تريد أن تبوح بها. احك لنا أعماق ليلك، احك عن رؤاك. فحتى الآن لم نظفر منك إلا بالقشور. كيف يمكن لحادث عابر كهذا أن يوقد شموعك ويومض ليلك. أتراك فتنت بهذا الأسلوب الجديد في قراءة القرآن، أم لأمر غامض وجدته في هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف للحفاظ على صفاء ونقاء أرواحهم بعيدا عن التلوث الذي كان يلاحقهم ولا زال يلاحقنا.

لم يتعجل يوسف الجواب. ترك كلماتي تتساقط كحبات سبحة في يد شيخ حزين، اشتعل فكره شيبا.. جال بعينيه المتقدتين في فضاء المقهى قبل أن يسافر ببصره بعيدا.. بعيدا في المدى المظلم للمحيط، محيط الظلمات. كان الليل قد أطبق سواده على المياه الأسطورية التي سبح فيها جلجامش والسندباد. ثمة أضواء خافتة ترسلها سفن تبدو مستقرة هنالك تبدو كأنها لا تتحرك.. إشارات شعر عميق، يبعث بها المحيط إلينا.

رفع يوسف عينيه إلى السماء.. كانت النجوم لامعة، أحيانا تبدو واضحة وكأن لا أحد يراها سوانا وأحيانا تبدو متناثرة وسط غبار سماوي نقي خالص كأنه رذاذ تبر خرج لتوه من رئتي شاعر قديم. وأحيانا تمرق شهب، بشكل مفاجئ وفي سرعة عجيبة، تسقط، لا أدري، أين.. تحمل رسائل غامضة، لا ندري، من أين ولا إلى أين، قبل أن يرتد إلينا طرف.

قلت ليوسف:

– كم نحن غرباء في هذا الكون الكبير ندور في فلكه ولا نعرف عنه شيئا. تبلدت حواسنا ولم نعد نفهم ما يقوله الهدهد ولا ما تقوله النملة.. هيا يا يوسف احك لنا عن كهفك لنوثق صلتنا بالكون ورسائله. هذا ليلك.. هذا موعد ظهور نيازكك..

رفع بصره مرة أخرى إلى السماء ليتفقد كواكب تائهة وغامضة وكأن الشمس رحلت عنها إلى الأبد. تنفس الصعداء ليستوعب هذا الفضاء أكثر وقال مجيبا على سؤالي بأن قراءة سائق التاكسي للقرآن الكريم أعادته إلى ماضيه. بمقدار ما كان التاكسي يتقدم إلى الأمام، كان هو يرجع بذاكرته القهقرى، إلى سنواته الأولى قبل أن يتوفى أبوه، وهو لم يتم أربعة عشر ربيعا.. ذكره شريط القرآن الكريم بصوت أبيه الضرير الذي كان يتلو آيات الذكر الحكيم بصوت شجي يشنف به آذان المستمعين المدعوين في مناسبات الزفاف أو الموت.. في أحيان كثيرة، كان يضيع هذا الصوت الشجي بين أصوات الفقهاء الآخرين في قراءة جماعية تحمل البركة والرحمة لصاحب المناسبة وذويه.

كان يوسف يصاحب أباه منذ صغره إلى هذه المناسبات التي تتزايد في فصل الصيف. يقرأ الطلبة القرآن مقابل دراهم معدودة وترتفع الأصوات بترديد آمين بمجرد ما ينهي مقدم الطلبة جملة الدعاء.. دعوات تزيد وتنقص حسب مكانة المتصدق وحسب المبلغ الذي دفعه وحسب الطلب الذي رصد له المبلغ، كطلب الرحمة للوالدين أو قضاء حاجات دنيوية، يهمس بها المعني بالأمر في أذن أمين الطلبة.

كان يوسف لا يفارق أباه لأنها مناسبة لسماع القرآن والتزود بما لذ وطاب من طعام الزردة.. كان عليه أن يسهر في أحيان كثيرة من جراء إيقاع الدعوات الذي يتتابع بسبب مشاركة أغلب الحاضرين ذوي النيات الحسنة الذين يتطلعون إلى تحقيق رغباتهم وأحلامهم المعلقة بواسطة هذه الكلمات المقدسة، المباركة ودعم الحضور بصوت آمين التي تزيد سرعتها بتزايد سرعة الصدقات التي يفتخر بها البعض أمام الملأ ويضطر الآخرون إلى المسايرة حتى لا يشار إليهم بالبنان. قال يوسف بان تكرار آمين

وفق إيقاع منضبط تنسجه جمل قصيرة، قلما يحيد عنه الفقيه، يجلب إلى جفونه غفوة لا يستيقظ منها إلا على سماع ارتطام الدريهمات تتساقط تباعا قبل توزيعها بالتساوي على حفظة القرآن المشاركين.

عندما كبر واشتد عوده أصبحت هذه الدراهم تؤلمه وهذه الدعوات الكثيرة السخية تصيب كبرياءه بجروح عميقة، تمس كرامة الرجل الصغير الذي بدأ ينمو ويخرج شيئا فشيئا من جسد الصبي الذي كان. وما كان ذلك ليظهر على سطح نفسه لولا صوت أمه التي كانت تبكي أمامه بحضور الأب الأعمى، تشكو تقلبات الزمن والحظ العاثر الذي أنزل الأسرة الصغيرة من عرش أمجاد الجاه والحسب إلى أدنى وأحط مستويات الفقر.

قال يوسف: ورث جدي مهنة صناعة وإصلاح الأحذية عن أبيه.. كان لهذه الحرفة شأن وأي شأن في زمان الأجداد.. كان الحذاء ميزة اجتماعية لا ينتعله إلا الموسرون.. أما الفقراء فلا ينتعلون سوى جلود باطن أقدامهم السفلى التي قست وتصلبت بفعل الاحتكاك المبكر بالحصى والأشواك. كان الحذاء هو سفينة الصحراء يوم كان الإنسان يسافر على الأقدام، يسافر السفر الكبير وقد لا يعود.. كانت الأحذية تخط الطريق للتائهين.. مات الجد وتخلى الأبناء عن هذه المهنة، شيئا فشيئا إلى أن استبدلوها بمهنة بعيدة عنها لا تمت إليها بصلة ألا وهي تربية الدواجن إلا أنها بالمقابل كانت تذر عليهم أموالا طائلة.. كان نصيب أبي منها دريهمات يتبرع بها الإخوة لمساعدة أسرتي.. كنا عالة على الآخرين باستمرار.. نعيش على البقايا.. كان أبي يرى في الآيات الكريمة بركة وفي تلاوتها رزقا حلالا.. كان أبي يريد لي أن أسير على نهجه إلا أن أمي كانت تعترض وأصرت على دخولي إلى المدرسة، أرادت أن اشتغل ممرضا أو معلما في المدارس العمومية..

عندما استعيد أحلام أمي والتي أصبحت الآن ذكريات، أستعيد، في نفس الآن، أحلام قرية فقيرة مهمشة.. أحلام بسيطة نسميها اليوم حقوقا.. حق الصحة وحق التعليم.. حق شفاء الجسد والروح من المرض والجهل المطبق.

يؤسفني اليوم أن أرى أحلام أمي تتكسر بعنف على صخرة الواقع القاسية.. لم أرتد الوزرة البيضاء يوما للتمريض ولا للتدريس. كلما بلغتني أصداء حملة التلقيح ضد الأمراض الستة والتي كانت أمي تسميهم بالوزراء، إلا وتذكرت حلم أمي وبكيت.. وشكوت.. وكتبت.. وما شفيت.

كان يؤسفني أن أقرأ في صحف المعارضة كيف ماتت فتاة جميلة من فتيات قبائل الرحل، كانت ترعى الأغنام بسبب لدغة أفعى "أم القرنين" كما كانت تلقب. كانت هذه الأفعى أسطورية مخيفة، تتكيف، كالحرباء، مع أديم الأرض. كان سمها الزعاف يقتل في دقيقة واحدة. وان قدر وتمكن فتيان أو رجال القرية من قتلها، فإنها لا تموت إلا بعد ظهور نجوم معينة في السماء.. يفصلون الأرض عن الجسد ويستمر الذيل في الحركة..

يعجز الطب وتعجز عصا المعلم عن استيعاب الدرس وتفشل في فهم شغب الأطفال.. يقتلون الحية ولا تموت.. كان الكبار يعرفون السر ويخفونه ويفتخرون بذلك.. يخيفون به الأطفال.. ثمة خطر غامض يمكن أن يصيبنا في أية لحظة، ما لم تظهر تلك النجوم التي لا يعرف موعد بزوغها إلا هم.. على الأطفال ألا يثقوا في شجاعتهم وعليهم، في بعض الأحيان، تجنب حتى قتل ضفدعة خصوصا في المساء وإلا أصيب الطفل المعتدي باحمرار في العينين، قد يؤدي إلى العمى. إن نقيق الضفادع كان ضروريا لليل القرية وعلى المدرسة ألا تقلب الحقائق، ألا تبث الشك في الألوان التي تحمل من لم يدخل المدرسة أبدا إلى قبة مجلس الأعيان.. صحيح فهو لا يميز بين الألف والهراوة كما يقال، لكن يملك التجربة الكافية التي تمكنه من إقناع جيش

عرمرم من الدكاترة المعطلين بالعدول عن الإضراب عن الطعام.. وخوض حرب مقدسة ضد أعداء الوطن.

فقدت أمي إخوة لي سبقوني إلى الحياة.. بالتتابع لأسباب غامضة.. انطفأ عبد المغيث ولم يتجاوز ثلاث سنوات.. غادر الحياة وهو يتدرب على تركيب الجمل الأولى.. مات في جنح الظلام ولم يزرنا الممرض بوزرته المفروض أن تكون بيضاء.. في عيني أمي لا زال عبد المغيث طفلا ينتظر دوره لينمو ويكبر. مات عبد الله وكان توأما لعبد الكبير ولم يتجاوز السابعة من عمره. لم تصدق أمي أيضا هذا الموت.. كان وسيما.. حاذقا.. ذكيا.. على ملامحه آثار الصحة والعافية. وفجأة سقط طريح الفراش لم يمهله المرض سوى ثلاثة أيام، لم تفارقه خلالها الحمى.. مات ولم يزرنا الممرض بوزرته البيضاء. كان الليل قاسيا على أمي.. مات عبد العزيز.. لم تنفع قراءات أبي.. كانت أمي تلد وهي تفكر في الموت وبتعبير الشاعر درويش كانت تلد إخوتي في إناء الموت ولكنها لا تنسحب كانت لها قدرة عجيبة على الحياة كان عليها أن تلد العشرة ليعيش البعض من العشرة. كانت أمي تلد وكانت العين الشريرة تقتل..

صمت يوسف وكانت هذه الذكريات القاتمة تلقي بظلالها على نفسه وقبل أن يستأنف كلامه، قلت له:

– كانت لآبائنا قدرة عجيبة على الحياة.. بقدر ما كانت تقسو عليهم، بقدر ما كانوا يتعلقون بها أكثر.

أما عبد الرزاق فقد ابتسم في شبه سخرية وهو يقول:

– ... بينما تنتحر فتياتنا، فتيات الحرير المدبج عندما لا يتوصلن برسائل الحب المكتوبة بطريقة عصرية في الوقت المحدد..

عاد يوسف من شروده وتابع كلامه وكأنه لم يسمع تعليق عبد الرزاق:

– من اليأس كانت أمي تغذي، في أعماقها، رغبة عارمة في الحياة.. لم يأت الممرض، لم يدخل بيتنا قط.. وإنما دخل الموت واختطف فلذات أكبادها من بين يديها وظل المعلم بعيدا عن المشهد ولم يعلق ولم يكتب.

عندما ولدت بعد موت أخوين متتابعين، لم تطمئن أمي ولم تأمن مكر الموت المتربص بنا دوما. باتت تترقبه في كل هزيع من الليل. كان الأب ينام في عماه ولا توقظه. تسهر لشهور طوال بجانب جسدي الممدد، أنهكته الحمى بعد إصابتي بمرض لم تعرفه أمي ولم أعرفه أنا حتى الآن.. ولم يقدر لطبيب أو ممرض أن كتب عنه تقريرا.. ما أكثر الأمراض الغامضة في وطني التي لا تصاغ في اللغة وتذهب بأرواح الأبرياء.. عندما يشتد المرض علي ويقسو الظلام تحمل أمي الجسد الصغير النحيل وتصعد إلى السطح لتناجي السماء وتدعو الله القادر وحده على شفاء صبي يمكن إن يلتحق بإخوته الموتى في أية لحظة.. تذرف الدموع.. وتستغفر إن كانت أذنبت.. وتحكي أنها كانت تضع السكاكين والملح عند رأسي الصغيرة لحراستي من هؤلاء الذين يتحركون من حولنا ولا نراهم ولا يحسن أن نذكرهم بأسمائهم.. ملأت عنقي بالتمائم لاسترضاء الكائنات الخفية وطافت بي الأولياء الصالحين.. التماسا لعلاج لا يمكن للبشر العاديين أن يصلوا إليه.عرضت غسيل ملابسي فوق السطح، نصفها في الشمس ونصفها في الظل لأتوقف عن البكاء في جنح الليل، ليستوي نومي ويقظتي.. أتذكر وأتعجب كيف تستيقظ الاستعارة في قلب أمي لتعالج بها صبيا لم يستطع الطب أن يشفيه.. إذا عرضت ملابسي الصغيرة بين الشمس والظل، تحقق التوازن المفقود بين الليل والنهار بين النوم واليقظة.. كانت أمي تبحث عن التوازن المفقود في شعر لم تكتبه ولست قادرا أنا أيضا على كتابته..

الغريب أنني لم أتذكر شيئا من هذا.. عشته بجسدي عانيت وبكيت وتألمت لكني لا أتذكر.. لا أتذكر وكأن الأمر يتعلق بشخص آخر. عندما كانت أمي تحكي لي عن هذا الطفل الصغير الذي كنت.. الطفل الذي كان الموت يطارده باستمرار، كنت

أحاول أن أعي من جديد ما وقع، كنت أبحث عن أثر الجروح والكدمات، عن بقايا الألم.. أتذكر فعلا أسناني الصغيرة المهترئة وكيف سقطت الأماميتان عندما سقطت يوما من الدرج.. كانت أمي تحكي وكنت أعيد تشكيل الصورة.. ولا أدري إلى أي حد هي قريبة من الحقيقة.

كانت صورة "أم لبينة" واضحة في ذاكرتي في مخيلتي، واضحة بأوراقها الخضراء ولبنها الأبيض المر الذي كانت أمي تعصره في عيني الصبي الذي كنته.. كانت تخاف على عيني من العمى.. الذي حال بين الوالد ورؤيتنا على حقيقتنا وكنت دائما أتساءل إلى أي حد كانت مخيلة والدي البصرية تتصورنا على حقيقتنا، قل ترانا كما نحن؟ كانت أمي ترى في أم لبينة أما أخرى، ترحم وتشفق على أبناء المسلمين وتحفظهم من الأذى؟ أي وصفة هذه؟ من نصح بها أمي؟ من اقترحها عليها؟ من أشار بها عليها؟

لم أعد أذكر الآن الألم الذي كانت تعاني منه العين الصغيرة، غير أني خمنت وفكرت وافترضت أن الجواب يوجد في هذه الخضرة القوية، النضرة التي تتمتع بها أوراق هذه النبتة العجيبة. عندما كبرت، كسرت الغصن الصغير بين يدي، فسال الحليب الأبيض اللزج بين أناملي فقلت مع نفسي أن "أم لبينة" أم فعلا للصبيان بلبنها وخضرتها وخصوبتها قادرة على العطاء والفعل في وقت الحاجة والمرض.. نبتة أسطورية تحمي الأطفال من الرمد. عندما يتأخر الممرض عن المجيء وقد لا يجيء أصلا.. أي شعر كان يدور يتحرك في قلوبهن وهن يتأملن النبتة العجيبة.. أيقنت أن العلم لم يتوصل بعد إلى الكشف عن خرافة المجاز التي تعالج القلوب المكلومة.. في أوقات الشدة يصير المجاز حقيقة. كانت هذه النبتة جميلة وما دامت كذلك، فهي تشفي. نبتة حقيقية، علمتني أول درس في الجمال الذي يشفي العيون والقلوب معا، علمتني أن الشعر في الليل قادر على أن يشفي الأرواح الجريحة وأنه قادر على أن يمدها بطاقة عجيبة على الحياة وهي في ساحة المرض والعجز واليأس.

تدخل عبد الرزاق الذي ظهرت على ملامحه علامات الاستغراب وقاطع يوسف وهو في عنفوان الحكي والحلم:

– يبدو أن الأمر يا يوسف اختلط عليك وصرت تهذي كعادتك تمزج الذكريات بالأحلام والأوهام والأساطير وتبحث عن مبررات للربط بين أشياء لا علاقة بينها.

هنا تدخلت وقلت لعبد الرزاق للحد من هذا الهجوم المباغت على هذا الشعر الجنيني الرائع الذي أعلن عن نفسه:

– إن الذكريات ليست مجرد أحداث تقع. لا يمكن للحدث أن يكون له طعم الذكرى، إذا لم نعد تشكيله من جديد ومزجه بأوهام ترقد في الطبقات المنسية من أعماق النفس.

ابتسم يوسف ابتسامة لها أكثر من معنى وهو ينقل بصره بيني وبين عبد الرزاق وقال:

– هذا هو الفرق بيننا وبين أجدادنا وحتى آبائنا، كانوا يصدقون المجاز. كان المجاز بالنسبة لهم حقيقة وإليكم البقية. "أم لبينة"، تلك النبتة الشهية بغنجها ودلالها ونضارتها وهي تميل جهة الشمس مثقلة بالخصوبة والعطاء، كانت أما حقيقية لأمي، منها أرضعتني حليبها الأبيض وأنقذتني من موت محقق.

قال عبد الرزاق:

– حسب زعم الأم.. ألا ترى أنه كان من الممكن أن تكون هذه النبتة مسمومة.. قد تكون سودت أسنانك وخربتها دون أن تدري.. ؟

فرد يوسف متفهما:

– صحيح.. لكن ألا ترى معي، يا صاحب العقل الراجح، الطاقة الشعرية والحلمية الكامنة فيها.. كم شحنة عاطفية أضافتها إلى معنويات أمي التي كاد الموت أن يهزمها لولا الشعر الحي فيها، المتصاعد من الجروح الثاوية في أعماقها.. لولا الشعر لانهارت. بهذا الشعر الذي لم يعره المثقفون حتى الآن اهتماما، بهذا الشعر، صاحبت العنزة وعاتبت البقرة واستشعرت عطف وحضانة "أم لبينة" وأصغت لحكايات الدعسوقة التي كانت في منطقتنا أما أيضا نسميها "أم عكيزة" وهي حشرة صغيرة برتقالية مزركشة بنقط سوداء على ظهرها.. كانت تتحرك متواضعة على البراعم وكانت تطير عندما تشتعل حلما. كانت درسا شعريا جماليا في الطيران والتواضع. كانت عجوزا حالمة. كانت أمهاتنا تسمي النباتات والحشرات بما تبقى من شعر كان حيا ذات يوم في الأساطير الكبرى. آه لو ينتبه شعراؤنا ومثقفونا إلى هذه اللغة الأولى التي كانت الأم تسمي بها الكون. منها كانت تستمد الأمهات طاقة الأمومة.

كانت أمي ترى في مطاردة الموت لفلذات أكبادها "تابعة" كانت تعني بها، كما كان يبدو لي، "لعنة" غامضة لا تدري مصدرها ولا أسبابها.. فقد عانت من آثارها.. فقدت أمها منذ الصغر وهي في مقتبل عمرها وكان عليها أن تكبر قبل الأوان وأن تتكفل بإخوتها الصغار اليتامى فكانت لهم أما.. فقدت ابنتها الأولى وكادت تجن واضطربت حياتها فطلقها الزوج الأول. كان الرجال يختارون من الإناث ما يلائم المصلحة الكبرى للعائلة الكبرى.. ثم تزوجت أبي الذي لم ينظر إليها أبدا. كان ينظر إلى داخله. كان قليل الكلام، لا يفتح فمه إلا لقراءة القرآن أو ليقتات بعض الطعام. كانت أمي تتساءل دائما وأبدا على من نزلت هذه التابعة عليها أم على أبي ؟؟ عندما توسوس لها نفسها بهذه الأفكار السوداء، كانت تستعيذ بالله. فقد كانت تقدر أبي أيضا وتجله إجلالا غامضا، أليس حاملا لكتاب الله ؟؟ أليس المؤمن مصابا، أليست اللعنة اختبارا وابتلاء، ونعم بالله. كانت تقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين لتهدئ من وساوسها وأسئلتها التي لم تعثر لها على جواب. ولما طارد الموت أبناءها تباعا وترصدني أنا أيضا، كان عليها أن تتخلص من "التابعة"، كما حكت لي. كان عليها أن تقطع

دابر"التابعة "، فرأت أن تطبق الوصفة كما سمعتها فهيأت للا أمينة "المرابطة" المشهود لها بالبركة أم للتوائم، خبزة دست في أحشائها إبرة وطلبت من أبي مشاركتها أكل الخبزة. يأكلان متقابلين، فحدث ووقع ما ليس في الحسبان وإذا أبي يعثر على الإبرة. علقت الإبرة بكسرة الخبز التي كان أبي على وشك أن يقذفها في فمه.. التابعة إذن عالقة بأبي وعليه أن يتخلص منها وعليه أن يتخلص منها فكان عليه أن يتقيد بتعليمات الأم رغم شكوكه واعتراضه في البداية. كان عليه أن يفعل المستحيل ليتخلص من "التابعة" وأشارت عليه للا أمينة أن يغادر الدار مبكرا حتى لا يلتقي في طريقه بالرائحين والغادين. عليه ألا يلتقي بأحد، ألا يكلم أحدا، أن ينثر حبوب الشعير أو القمح هنا وهنالك طوال الطريق وأن يحمل معه سكينا كبيرة ويتجه إلى الشجرة المباركة، شجرة التين التي نمت وكبرت وتغذت بالماء وآلام وآمال النساء اللواتي يقصدنها لمختلف الأغراض.. بصعوبة وصل إلى الشجرة وطوال الطريق لم يكلم أحدا.. تحسس بيديه غصن الشجرة فهوى عليه دفعة واحدة. لا مجال للتردد مع "التابعة" ولا بد من تنفيذ الطقس كما يجب. كان عليه قطع الغصن دفعة واحدة لقطع دابر "التابعة".

كانت أمي تحكي وتعيد هذه الحكاية مرارا على مسامعي وفي كل مرة كانت تظن أنها تحكيها لأول مرة. تتنهد وهي تعيد شريط هذه الذكريات السوداء التي شيبت شعرها قبل الأوان. ثمة أحداث تتجدد دائما بتجدد الذكرى. وهذه ليس المرة الأولى التي تصدت فيها إلى "التابعة". قالت أمي بأنها حاولت قبل ميلادي يوم توفي أخي عبد العزيز. في ذلك اليوم، بعد خروج المشيعين لجنازته من المنزل، ربطوا أخي الذي كان يكبره بحبل إلى وتد الحمار كان عليه ألا يتبع الجثمان، ألا يتبعه وإلا ستتبعه الموت وتتبع إخوته من بعده. كان لا بد من وضع حد ل"التابعة".

عندما أتذكر ما كانت تحكيه أمي، تتملكني رهبة ودهشة.. أتذكر ما لم أعه.. أتذكر جسد طفل لم يتجاوز أربع سنوات. جسد نحيل يقتات من أساطير أمي وأوهامها وشعرها لينجو من موت محقق، قضى على حياة إخوته قبله.. فقد لازمني دوما شعور

بمطاردة الموت. لا زال هذا الشعور يطاردني إلى اليوم وعلي أن أراوغ بالقراءة والشعر لأنسى بعض الوقت. ومما غذى في هذا القلق وصايا أبي المتكررة بالعمل للآخرة أما الدنيا فهي فانية. كان يوصي ويخبر بكل درهم اقترضه أو أقرضه للآخرين. فقد كان هو أيضا ينتظر الموت في كل لحظة. كان لا يثق أبدا في الحياة. كذلك تمتامات أمي قبل نومها وهي تردد الشهادتين وتطلب الستر كما دار السور أو الستر على مدينة الرسول (ص) وقبل أن تنام تقرأ باستمرار سورة الفاتحة والمعوذتين وتعوذ بالله من الشيطان ومن عين الحساد التي قتلت حسب زعمها ثلث سكان المقابر.

عندما أتساءل كيف تشكل وعيي وإلى أي حد أمتلك فكرا مستقلا عن هذه الطبقات من الذكريات المترسبة في أعماقي، كنت أشك في مقولة "الفكر الحر". إننا لا نملك وجودا حرا ولا وجودا مستقلا مهما تشبعنا بالثقافة الحديثة.. لن ننسى البقايا ولو أقمنا بباريس وولجنا أحدث المعارض.. نحن في نهاية المطاف عجينة مشكلة من أوهام وأحلام وآمال وآلام أبائنا. لا يمكن أن نتخلص من النطفة الحزينة في الرحم المظلم.

صمت يوسف ورمقنا بعينين حزينتين ليرى أثر كلامه علينا ومدى صحة هذه الخلاصة الوجودية التي توصل إليها. قال عبد الرزاق:

– يبدو أننا اقتربنا اليوم من بعض ليلك الذي طالما أخفيته عني. كنت دائما تهرب إلى الأمام. تحكي عن ليالي شهرزاد وتنسى ليلك الأليل.

فقلت موجها الكلام لعبد الرزاق:

– وهو ليل حزين.. وجميل، يمكن لكل واحد منا أن يعيشه بطريقته الخاصة.. إنها لحظة مصيرية رائعة تلك التي تعيد فيها ترتيب وجودك وتنظر في لحظة وجيزة إلى خلاصة وجودك.. في دقيقة واحدة تعيش الوجود الشامل وتحفر في الوجود القديم الذي يعود إلى آلاف السنين. هل هذا ما يمكن أن نسميه بالأبدية، تلك اللحظة النواة التي تتمدد، تكبر إلى ما لا نهاية ؟

فقال يوسف:

– لا تهم التسمية.. المهم هو أن تعيش اللحظة بكل جوارحك وانفعالاتك.. لا أعتقد أنني وصلت إلى هذه الأبدية التي تتحدث عنها.

التفت إلى عبد الرزاق قائلا:

– أليس كذلك يا عبد الرزاق ؟

– أنا لا أتفق مع هذا النوع من التفكير. أنا واضح وأريد الوضوح وأسمي الأشياء كما هي ولا أميل إلى إضفاء الغموض على حياتي لأن هذا سيفتح الباب ليتسرب الكثير من الأساطير إلى الواقع الذي نعيشه وقد تتحول هذه الأساطير إلى وساوس هلامية، تحجب عنا الواقع كلية. وقد نصل إلى مستوى خطير من الغموض عندما نسعى إلى تجميل التخلف وأسطرته إلى الحد الذي يصعب معه التمييز بين الليل والنهار، فنفقد بالتالي السيطرة على الذات ونعجز على الفعل وربما هذا هو السر في تعثر مشاريع النهضة التي لم يكتب لها النجاح حتى الآن.

قاطعه يوسف محتجا:

– ولماذا لا ترجع هذا الفشل إلى تجاهل الليل فينا بدعوى العقلانية ؟ نحن موجودون بأفكارنا وأوهامنا شئنا أم أبينا. في نظري هذا هو الواقع أما ما تقوله فهو هروب إلى العقل.. خطة من خطط النعامة الذكية.. وإلا كيف تفسر امتلاء مستشفى الأمراض العقلية ببرشيد المرشح إلى تجاوز الرقم 36 باستقباله لأفواج من المثقفين من عينة "بهلول" الذي لم يشفه الإضراب عن الطعام فانخرط في مجموعة "النار والموت" التي عزم أفرادها من حاملي الشهادات العليا المكفوفين والمبصرين على السواء على إحراق أنفسهم. هل تذكر الرسالة المؤثرة رسالة الوداع التي بعث بها إلى والدته والتي أبكت الحاضرين ولم تثر انتباه مجلس الأعيان، مجلس الحكماء والعقلاء الذين لا يرون في المواطنين سوى أرقام يملأون بها جداول الإحصاء للتدليل على نجاعة سياسة

الدولة في محاربة الفقر.. وعندما عزم على تنفيذ قراره، رأى الأم تشق الصفوف وتصرخ وتسب السياسة العامة والخاصة وتبصق على الألوان والأرقام.. تصرخ بصوت عال وتصب اللعنات على "اللي اسوى أو اللي ما يسواش" وتكشف العورات أمام المبنى الموقر. ولم يستطع جنود القوات المساعدة تطويع الجسد الثائر أو يسكتوا الصوت الهائج. صرخت وحالت الأم دون إضرام النار في الجسد النحيل في الوقت الذي حال فيه عقل مجلس الأعيان دون عمله بدعوى الحفاظ على التوازنات. أي عقل تتحدث عنه أمام شاب يحترق أمام عيني أمه ؟؟

رد عبد الرزاق:

– رأيت إذن أن العواطف والدموع والأشعار لا تحل المشاكل المستعصية. اسمح لي، إن كانت أخطاء الأعيان كما تسميهم لا تحصى، فإننا يمكن أن نتحدث بالمقابل عن أخطاء النضال. النضال ليس احتراقا، ليس إضرابا عن الطعام، ليس انتحارا ولا دموعا تذرف ولا صرخات تدوي، إنه تخطيط وتدبير. إن النضال يجب أن يكون ذكيا مبنيا على معطيات وتوقعات. رأيت كيف أفرج السجن عن العديد من المناضلين الذين أطفأوا شموع سنوات عمرهم في غياهب السجون لعقود من الزمن ليفاجأوا، بعد خروجهم من السجن، بالنقابات تتآكل والأحزاب الوطنية تتفتت إلى ما لا نهاية ورأيت كيف يلمع الجلادون وجوههم تحت يافطة أحزاب جديدة تبعث الدماء في المشهد السياسي، يلمعون أحذيتهم أيضا التي وطئوا بها رؤوس المناضلين الساخنة.

احتد النقاش ورأيت أن أتدخل لأدلو بدلوي.

– اسمح لي، يا عبد الرزاق.. لولا هذا الصراخ وهذا الانفعال لما فتحت أبواب الزنازن ولما سمح بتطويق دور التعذيب القديمة في المناطق النائية بشموع الحرية.. أنارت تلك الشموع لأول مرة الليل السياسي العربي بطريقة حضارية.

حدجني يوسف بنظرة ثاقبة تستغور ما بداخلي وقال:

– صحيح.. لكن أخوف ما أخاف أن يصبح النضال استهلاكا سياسيا في المنتديات النخبوية وديكورا تزين به القنوات برامج حقوق الإنسان للتقرب من أمريكا وأوروبا و...

وقاطعه عبد الرزاق:

– نضال لا يعرف عنه السواد الأعظم أي شيء. وهذا يدل على أن النضال الكلاسيكي بقي نخبويا ولم يستطع أن يوسع قاعدته.

رد عليه يوسف متحمسا:

– لتوسيع القاعدة، كان لا بد من نشر الثقافة في الأوساط الشعبية لنجد لأفعالنا وقراراتنا السياسية، صدى بدلا من ممارسة سياسة "ناشفة" تقصي من حسابها الخيال والشعر والتشكيل والبيئة...

وأومأ عبد الرزاق برأسه موافقا:

– صحيح وهذه السياسة هي التي دجنت التناقض وصيرته عاديا وطبيعيا في مجتمعنا. يصير المناضل حداثيا ديمقراطيا في المهرجانات الخطابية قبل أن يتحول إلى دكتاتور في نقابته وحزبه وأسرته. يستخدم رصيده النقابي مثلا للضغط على مدير مؤسسة تعليمية حتى لا يفكر في كتابة تقرير عن غيابه المستمر أو عقابه لطالب مشاغب يحتج على الغياب المستمر للأستاذ المناضل.

– يمكن أن نتفق، يا يوسف، أن الجهل يحول بيننا وبين الحضارة بيننا وبين الدين الصافي الذي يدعو إلى حوار حضاري والاعتراف بالخصم ومجادلته بالتي هي أحسن. وأنا أتحدث عن الجهل الحضاري والإنساني وليس الأبجدي.

ونظر إلي عبد الرزاق كأنه يريد تزكية هذه الفكرة التي تجمع بيننا رغم الاختلافات في الرؤى والأفكار، فقلت:

– الجهل الذي يحول بيننا وبين الشعر والجمال. فحتى الآن لا نحسن استهلاك، بل قل امتصاص رحيق الاستعارات والصور الجمالية في السينما والنحت ولا نحسن تخييل ولا تصوير إيقاعات الموسيقى. ما من كلام نسمعه إلا وتجد فيه الرفض والشجب وان لم نقل السب والشتم. ثمة يأس أسود يفسد علينا اللغة والثقافة والسياسة والفن.

تناول يوسف فنجانه البارد وتجرع بصوت مسموع الثمالة وهو يقول:

– الغريب أن مثل هذا الكلام الذي تداولناه اليوم لا نجد له أصداء في الجرائد ولا المجلات ولا يذاع في قنوات. إنه كلام شفهي غير منتم لأي صف ولا لأي لون.. إن وسائل التعبير التي يسمونها جماهيرية، لا تفسح المجال إلا لاعتبارات زبونية وحسابات شخصية ضيقة ولا تنشر إلا ما تريد للناس أن يقولوه...

نظر إلى المحيط المظلم حيث يومض شعاع سفينة بعيدة جدا وأردف:

– كم أحس اليوم بجوع حقيقي للشعر، للكون.. أود لو تحضنني النجوم، لو أحضن النجوم لو انتشر غبارا ذهبيا في هذا المدى الأزرق.. أحس برغبة حثيثة في أن أسير على حواف الكون كما قال عبد الكريم الطبال ذات قصيدة.

رد عليه عبد الرزاق ممازحا:

– عدت مرة أخرى إلى هلوساتك...

وضع رأسه بين يديه وأسند مرفقيه إلى المائدة قبل أن يستأنف كلامه:

– أما أنا، يا صديقي، فأحس بجوع حقيقي للحضارة لأن بها يمكن أن ندبر اختلافاتنا وبها نصالح الدين والعلم والفن وبها يمكن أن يجد المتكلم صداه الصادق في الآخرين.

نظر عبد الرزاق إلى ساعة يده. فسألته:

– كم لبثنا هنا ؟ الليل يخفي الزمن، يصيره لحظة واحدة لا تزيد ولا تنقص.

فقال:

– مضت ثلاث ساعات وتسع دقائق دون أن نحس بذلك.

فقاطعه يوسف:

– أنت.. هو هو، لا تنسى الزمن أبدا، تقيس دقائقه وثوانيه. كان عليك أن تشغل ساعتك الداخلية لضبط إيقاع الزمن بشكل أفضل.. ثلاث ساعات.. ثلاثة قرون.. لا يهم ما دمنا خارج الزمان. بالنسبة لي هذه اللحظة خالدة فلا تفسدها بدقائقك وثوانيك.

فرد عليه بنفس اللهجة الساخرة:

– ستبقى دائما متوحشا ولن تدخل الحضارة مهما فعلنا معك. ستبقى متوحشا ما لم تقس الوقت حتى لا تضيعه في الترهات.. ستموت جوعا إذا تركت مخدعك الهاتفي ينتظرك أكثر مما ينبغي.

أرخى الليل سدوله على المكان، ناءت النجوم وابتعدت واختلط اليم بالسماء، صار الفضاء رحما كونيا مظلما، كتلة واحدة من السواد. يمكن لبنات الأفكار والأحلام أن تسبح كما تشاء. بدا لي الفرق شاسعا بين النهار الذي يضع الحدود بين الأشياء ويرسم المسافات.. لتكون الأشياء واضحة لا تتجاوز مربع المنطق حيث القواعد والقوانين. أما الليل فيزيل بغموضه الحدود ويصلنا بالكون حيث يمتزج الجرم الصغير بالكبير وتصير الأصداء حقيقة.

خلا المكان تقريبا من رواد المقهى.. وعاد العشاق إلى أوكارهم لاستهلاك الليل على طريقتهم الخاصة.. طويت الصحف ودقت ساعة الصفر.. جماعة من الشباب في أقصى الزاوية، يلعبون الورق، تصل إلينا أصداؤهم، حماسهم، يلعبون، هم أيضا مع الزمن، لعبتهم. أشار عبد الرزاق أن الوقت حان لنغادر المكان أما يوسف فقد

شمس الليل

انشغل بمشهد فتاة ممتلئة تسير الهوينى في غنج ودلال، علقت في أذنيها أقراط ذهبية دائرية كبيرة، ترتدي تنورة قصيرة تكشف عن ركبتيها. أخرج عبد الرزاق يده من جيبه وبسطها قريبا من عينيه ليحجب عنه الرؤيا وهو يقول ضاحكا:

– اتق الله يا هذا ورد إلى المرأة عقيقها، فلا أنت لها ولا هي لك.

فقاطعه:

– ما همني مظهرها الذي يغري فعلا لو...

فقلت مازحا:

– وماذا يهمك بعد وقبل الإغراء ؟

– يهمني أن أسمع صوتها في هذا الليل الهادئ لأكتشف من أي معدن أنثوي هي.

فقال عبد الرزاق:

– عند سماع صوتها ستندم ولا شك.

فقلت:

– ما العمل إذن ؟

فقال عبد الرزاق وهو يضحك:

– ندفع أوراقنا النقدية البخسة للنادل، لعله يقبلها منا ودعنا ننجو بجلودنا وننصرف قبل أن تتمكن الفتنة من قلب فتانا. ولنبحث عن سيارة أجرة تقلنا إلى المدينة لنقتات ببعض مما تبقى من طعام قبل أن يلتحق يوسف بمغارته ليتابع ليله هنالك عله يحصل على دراهم تقيه شر الفقر.

- عيون ميدونا -

غاب عني وجه يوسف الذي ألفته، لكن روحه لم تفارقني. معه يفيض وجودي الآخر وجودي الممكن الذي كثيرا ما أضيعه في الزحام.

اضطررت إلى مغادرة المدينة في اتجاه الجنوب، بصحبة فريق تشكل لجرد المباني التاريخية، كلفته وزارة الثقافة بإعداد تقرير حول وضعية القصبات بالجنوب. أول خرجة أقوم بها بعد التحاقي بوزارة الثقافة. كانت المهمة غامضة بالنسبة لي. لم نتلق التوضيحات اللازمة التي تبين لنا طبيعة عملنا. كان علي أن أكون عنصرا مساعدا أستجيب للتعليمات التي تنتقل من الأعلى إلى الأسفل وعلي احترام التراتب الإداري وألا أتدخل في أمور تتجاوز مهمتي. كل ما أعرفه أن الوزارة الوصية في حاجة إلى تقارير حول وضعية القصبات لترتيبها حسب أهميتها التاريخية والثقافية ولفت انتباه اليونسكو لترشيح بعض المباني والآثار وإدراجها ضمن التراث الإنساني ولترميم بعضها ما دامت الميزانية الهزيلة المخصصة لوزارة الثقافة لا تكفي لعلاج القصبات الجريحة المتناثرة في الجنوب كضحايا حرب لا زالت تؤدي بحياة الكثير منها.

لم يغب يوسف عن ذهني يوما. كان يرافقني بظله. طيفه ماثل دوما أمام عيني. معه رأيت القصبات ودلفت إلى أسوارها وصعدت إلى غرفها العتيقة. لأول مرة وجدتني أنصت إلى التاريخ بطريقة مختلفة ملموسة محسوسة بعيدة عن سطور المؤرخين والمعماريين المهتمين بالقصبات على قلتهم. فتحت لي القصبات رئتيها ورأيت شيئا آخر مختلفا، رأيت كيف يسكنها التاريخ. لم يمت، إنما نفذ إلى خيالي طريا.. رأيت التاريخ يحدث أمامي. لأول مرة صرت أعيش الماضي، أحيا فيه بحواسي كلها بعيدا عن الخلاصات المدرسية التي تعدد الآثار وتدرجها ضمن منجزات الحكام الذين بنوا المجد بعبقريات استثنائية لا مثيل لها. ارتبطت المدن التاريخية الكبرى في أذهاننا بأسماء زعماء دول يبنون دولهم الجديدة على أنقاض الدول المنهارة. لا يتحقق النصر الكبير للدولة الجديدة إلا إذا محت آثار سابقاتها. لا بد من تحويل المعالم إلى دمار ليكون عبرة لكل من يحن إلى الماضي. وحتى الأطلال تبقى مخيفة، فهي مسكونة دوما بأرواح الضحايا الذين يمكن أن يستيقظوا في أية لحظة للانتقام أو المطالبة بالحق الضائع. تبقى الأطلال مسكونة دوما بأرواح لا تريد أن تموت. نحتاج إلى خيال قوي لنرمم التاريخ الناقص فينا قبل ترميم هذه الأطلال المترامية. نحتاج إلى خيال قوي

لاستعادة الأيادي المعروقة والأبدان الهزيلة المحرومة من نعم السيد، المنذرة للعمل والكدح. نحتاج إلى خيال قوي، حي لنرى التاريخ بعيوننا الداخلية.

بعد ابتعادنا عن مراكش بمسافة أو مسافتين صارت الطريق تتلوى أمامنا كثعبان لا يتعب في الالتفاف على أعناق جبال الأطلس. صار عبد المجيد أكثر انشغالا وانتباها وهو يقود السيارة الكات الكات. قال بأنه سبق وأن خاض غمار هذه الطريق مرارا وتكرارا لكنه لا يكاد يقترب من الأطلس حتى يتهيب ويعد نفسه ويوطنها حتى لا تزيغ عن الطريق. كان الأطلس شامخا عاليا والصعود إليه وعبره ليس عاديا.

عدلت جلستي أنا أيضا.. زاغت عيناي.. اشرأب عنقي ولم يعد ممكنا أن لا أبالي. نظرت إلى الفضاء الشاسع عندما وصلنا إلى المنعرج وعلى حافة الطريق الضيقة على اليسار، رأيت أطلس آخر شاسعا فسيحا عاليا ونظرت إلى الأسفل حيث امتدت هوة سحيقة. كان لا بد من تعديل في الوجود لأستوعب ما أرى. تضاءلت وانكمشت داخلي.. ضعفت.. صغرت.. صرت حبة خوف في كف الأطلس، الرجل العملاق. لم أعد قادرا على الكلام ولا على الالتفات. يمكن للأطلس العملاق أن يحرك يده في أية لحظة لأسقط في الهوة السحيقة. تذكرت فتنة النظر. تذكرت الذين سقطوا من أعلى سور مدينة النحاس. تذكرت عيون ميدوزا التي مسخت أطلس الرجل العملاق إلى جبل شامخ عظيم، وإذا خصلات شعره أشجار، ومنكبه صخور صلبة، ورأسه قمة تشيب شتاء وتشب ربيعا، وأقدامه سفوح تجري فيها دماؤه وتحيلها أودية لا تنقطع، ويداه جناحان حجريان لم يعودا قادرين على التحليق. تذكرت ميدوزا، الرأس المقطوعة التي استحالت خصال شعرها، هي أيضا، إلى حيات تتلوى. قطعت الرأس ومع ذلك لم تمت. تذكرت أن الحيات لا تموت. ويمكنها أن تنتقم في أية لحظة وأن عيون ميدوزا لم تمت.. ترى عبر المسافات وعبر الأزمنة والعصور. كانت الهوة سحيقة وكان أطلس فعلا رجلا عملاقا، يمكنه أن يصد أي واحد سولت له نفسه سرقة تفاحة من تفاحه الذهبي المحروس في بستانه الخالد. تذكرت مقاومته للفرنسيين الذين لم يخترقوه إلا

بعد تحالفهم مع الكلاوي الذي قدم نفسه للفرنسيين على انه سيد من سادة الأطلس العظيم.

رفعت عيني إلى الأعلى، إلى قمة رأس الأطلس ثم إلى السماء. تنفست الصعداء.. تنفست بعمق.. أخرجت كل مكبوتات التاريخ من رئتي.. واستنشقت هواء صافيا ورديا حالما.. اختلطت أنفاسي بأثير سماء الأطلس وتذكرت نجاة.. كانت صافية الثغر، حانية، حالمة، تحلق بأجنحة وردية في المدى اللا نهائي. رجعت إلى جسمي، تحسسته.. كان ملكيا، استرجع كبرياء الأطلس الذي أساءت إليه ميدوزا والاستعمار الفرنسي وادعاءات الكلاوي.

اجتزنا منعرجات تيشكا وانعطفت بنا السيارة إلى اليسار في اتجاه تلوات. ضاقت الطريق أكثر. تزايدت الحفر واكتسحت الأتربة مجرى الطريق. وكثيرا ما كانت تختفى معالم الطريق المعبدة. التفت ألينا عبد المجيد وقال بأن تلوات سميت كذلك لالتواء الطريق المؤدي إليها. وقلت له بأن هذا كلام السائقين، رواية السائقين الكسالى الذين ألفوا السير في الطرق المستقيمة وأوردت له رواية أخرى سبق لي وان اطلعت عليها وهي رواية محلية تذهب إلى أن تلوات من التلاوة أي تلاوة الطلبة للقرآن في الزاوية التي أسسها سيدي ورغال بعد أن اشترى "تاوريرت الميزان" بالذهب والذي لم يكن سوى أحجار كان يحملها مريدوه من الوادي الذي يخترق المنطقة. كانت الأحجار تتحول إلى ذهب بمجرد ما توضع في الميزان. لم يعجب هذا الكلام سعيدا والذي قال بأنه مجرد أساطير لا أساس لها من الصحة ووافقه عبد المجيد بإيماءة من رأسه. وقال بأن كل قبيلة تختلق أوهامها وأساطيرها الخاصة للدفاع عن حوزتها وعن مشروعيتها التاريخية في الإقامة على الأرض التي تقيم عليها.

أردت أن أقطع عليهما الطريق واذكرهما بأسطورة أطلس التي كان خيالي مسرحا لها قبل قليل وأن أؤكد لهما أن الأسطورة، بذاتها، جزء من التاريخ وأن الموضوعية تقتضي الاستماع إلى كل الأساطير التي صاغت بها القبائل وجودها في

الزمان والمكان عبر التاريخ بدل الاقتصار على ترديد أساطير القبائل الحاكمة وتدوينها وادعاء أن كل ماهو مدون حقيقة لأنه وثيقة ورفض كل ما هو غير مدون بدعوى انه مجرد خرافات لا أساس لها من الصحة. ابتلعت كلامي ونظرت إلى الأفق. خفت المنعرجات واستوت الأرض شيئا ما.

ها نحن الآن في منخفض تلوات.. نظرت إلى الأفق، بدت قصبة الكلاوي شامخة مشرفة من أعلي على كل ما عداها. بدت من بعيد باذخة تقف في خيلاء وكبرياء سيد الأطلس الكلاوي الذي اختفى من المنطقة ولم تختف قصبته التي بنتها سواعد أبناء المنطقة.

وددت ونحن نحط بقصبة تلوات لو أنفرد بنفسي، لو أنسحب إلى داخلي لأتأمل هذا المسخ الذي طال جبل الأطلس، لأستكنه الرجل العملاق الذي كانه لأعيش من جديد دراما المسخ التي حدثت في رمشة عين من ميدوزا، بحثا عن الإنسان الكامن بين الصخور والأشجار، إنسان الأعالي الذي يدعم كبرياءنا في وقت الشدة. لماذا انتقمت ميدوزا من الضحية ولم تقو على النظر إلى الجلاد ؟ من الضحية ؟ من الجلاد ؟ من ينظر إلى من ؟ من ينتقم من ؟ من الماسخ ؟ من الممسوخ ؟ كان لا بد من إعادة قراءة التاريخ ؟ كان لا بد من تلاوة نشيد تلوات بخشوع على مسمع هذه الجبال الشامخة.

صار التاريخ، بالنسبة لي، شيئا آخر بعد تعرفي على يوسف. كنت بحاجة إلى التاريخ لأعيد ترتيب أوراق الشعر والجمال والسياسة والوجود. ثمة ذات أخرى متناثرة في القدم وكان علي أن أزور التاريخ وأن أهبط إلى أعماق ما لا يرى.. وددت لو أنسحب إلى داخلي لأكتب ما يمليه علي التاريخ الصاعد هذه المرة من أعماقي كبخار حمامات روما القديمة. وددت لو أنزع ملابسي وأستحم في حمامات ما قبل الميلاد، أغتسل من طبقات سميكة من الأوساخ الاجتماعية والثقافية التي تكلست على جلدي،

وددت لو أجلس إلى نفسي.. لتقول لي، بل لتهمس وسط هذا البخار المتصاعد ما لم تقله لي حتى الآن بتعبير يوسف.

كان "سعيد" يتقدمني في اتجاه القصبة. عندما رأيت مدخلها قفزت إلى ذهني صورة فوتوغرافية للمكان عينه بالأبيض والأسود التقطت في أواخر الثلاثينات من القرن الماضي قبل أو في بداية اشتعال الحرب العالمية الثانية. تظهر الصورة البئيسة الأهالي مصطفين في صفين متعامدين يلتقيان عند باب مدخل القصبة. في البهو المقابل للباب كان يجلس القائد حمو وبعده القائد إبراهيم أو الخليفة رحو الذي كان ينوب عنه. قال لي عبد المجيد الذي سبق له وان زار القصبة بان هنا جرت محاكمات بسرعة فقطعت رؤوس لأتفه الأسباب وغابت كيانات بكاملها في غياهب السجن الذي يوجد داخل القصبة.

اجتزنا الفناء الواسع حيث تقام حفلات رقصة أحواش. التحق بنا مخزني مكلف بحراسة القصبة ويقوم في الآن نفسه كمرشد سياحي يقدم المعلومات الضرورية للسياح الوافدين. أشار بسبابته إلى الأعلى، إلى شرفة حيث كان القايد الكلاوي يجلس بمعية أصدقائه السياح الفرنسيين لمتابعة رقصة أحواش. قال بأن فن أحواش ازدهر كثيرا في عهد القايد إبراهيم بعد أن استتب الأمن في المنطقة أكثر من سلفه القايد حمو الذي كان منشغلا خلال فترة حكمه بقيادة الحركات إلى مختلف مناطق الجنوب لإخضاع ما تبقى من قبائل سائبة.

عدت بخيالي إلى القرن الماضي رأيت أكتاف النساء والرجال ترتعش والأجسام تميل يمينا ويسارا وتتحرك الدائرة طبقا لطقوس لا نعلم عن رموزها شيئا.. كانت الأجسام تنفعل تحت تأثير إيقاع دقات الطبل القوية والذي كان يستعمل في نفس الوقت للإعلانات المهمة من أجل الاجتماع أو لفت الانتباه إلى أوامر القايد الذي يجب أن تطاع. كان على الأجسام أن تساير إيقاع البندير الذي يتطاير من أصبع رئيس الفرقة خوفا وطربا.

كان القايد الكلاوي صارما في كل شيء، في الحرص على إقامة الحفل بقصبته في الوقت المحدد و تهيئ الراقصات لذلك بعناية فائقة تحت إشراف معلمين بارزين في هذا المجال. كان رجال الكلاوي ينتزعون في أحيان كثيرة فتيات صغيرات من أحضان آبائهن للإقامة بالقصبة وتعلم رجفة الكتف وتطويع الجسد الأنثوي الصغير لإيقاع البندير لأداء إملاءات ذاكرة فنية شعبية يجد فيها القايد ابراهيم متعة يقتسمها مع السياح الفرنسيين الذين يأتون معه من باريس. يحكي السكان أنه لم يكن مثل سلفه حمو. كان كثير الغياب بسبب سفره المستمر إلى باريس وهو ما جعله يخاطب السكان بأمازيغية هجينة كانت تثير سخرية السكان يؤنث المذكر ويذكر المؤنث. وعندما يحضر إلى تلوات فلا يهتم إلا بحفلات أحواش ورحلات الصيد إلى أعالي الجبال يشارك فيها السكان بدون مقابل ويتكبدون فيها مشاق كثيرة.

دلفنا إلى داخل القصبة عبر مداخل مقوسة وباحات متباينة المساحة، معتمة قبل أن ننعطف يسارا. سمحت لنا أشعة الضوء الشحيحة برؤية مدخل عليه إشارة المنع من الدخول. علينا أن نرى ما يراد لنا أن نراه.. استفسرت المخزني عن سبب المنع، فأجابني بأن الأمر يتعلق بسجن كبير، انهارت سقوفه، تحطم الكثير من مرافقه وصار خطيرا على الزائرين. قلت في نفسي وكيف لا يكون السجن خطيرا.. فهو خطير في حياة الكلاوي وبعد مماته.

تساءلت بيني وبين نفسي إذا كان مجديا ترميم السجن من جديد باعتباره جزءا لا يتجزأ من تراث القصبة. لم يكن ممكنا أن أفاتح عبد المجيد ولا سعيدا ولا المخزني في الموضوع. كان علي قمع مثل هذه الأفكار السوداء في سجن آخر لا زلت أحمله داخل نفسي لم يسقط بعد. سكنه أبي ما يزيد على ثمانية عشرة سنة خرج منه صامتا أبكم. كان من الصعب الخروج منه. كان من الصعب طي صفحة الماضي.

ما يهم عبد المجيد أن يسوق السيارة في سلام، لا يريد مشاكل هو في غنى عنها. أما سعيد فملتزم بتعليمات رئيسه، عليه نقل معطيات القصبة كما هي بدون زيادة

ولا نقصان. أما المخزني المكلف بحراسة القصبة فأكد أن الكلاوي رفع رأس تلوات عاليا ولولاه ما ذكرها أحد على لسانه. كان عادلا في أحكامه دقيقا صارما. أحكام تنفذ على وجه السرعة بدون ابتداء ولا استئناف تنفذ في نفس اليوم الذي تتم فيه المحاكمة على عكس ما يعانيه المتقاضون اليوم من طول المساطير وكثرة التأجيلات. أما عندما يتعلق الأمر بأعداء الكلاوي خصوصا من خارج تلوات الذين سخنت عليهم رؤوسهم من القبائل السائبة التي لم تستطع الهزائم أن تنسيها حقدها القديم، فإن الإيقاع يتغير.

مررنا في ظرف وجيز من ثلاثة فضاءات: ساحة أحواش وبهو العدالة وسجن القصبة الذي لم ندخله طبعا. كيف يمكن فهم هذه الهندسة المعمارية التي تخفي خلفها هندسة اجتماعية وسياسية في زمن قياسي ؟ كيف يمكن فهم هذا التجاور العجيب ؟ كيف يمكنني أن أكتبه ؟ كيف يمكنني فهم لغة الطبل الذي يستعمل للإعلان والإنذار وفي نفس الوقت للإيقاع وضبط حركة الأكتاف والأرداف والتحكم في الدائرة ؟ تذكرت حكاية لا أدري متى سمعتها ولا في أي كتاب قرأتها، حكاية جلد الطبل الذي يتكلم، يحكي قصته ويكشف وقائع الجريمة...

حزنت حد البكاء لطبل شنف أسماع القائد وأنا أسترجع أحداث الحكاية:
تموت الأم ويتزوج الأب امرأة أخرى ويضطر إلى السفر مخلفا ابنته اليتيمة مع زوجته الجديدة التي كانت تكرهها.. قتلتها شر قتلة للتخلص منها. ولإخفاء معالم الجريمة، فصلت الرأس عن الجسد ونزعت الجلد عن الجسد وصارت الفتاة كتلة لحم بدون هوية، فدفنتها. أما الجلد فباعته إلى أحد المغنيين الجوالين فصنع منه طبلا وصار ينتقل من قرية إلى أخرى، يوقع على الطبل فيصدر لحنا شجيا غريبا وصار كلما وقع عليه إلا وغنى غناء يكشف تفاصيل الجريمة البشعة التي ارتكبتها زوجة الأب في حق الفتاة اليتيمة. ولما سمع الأب اللحن بكى. كان جلد البنت يصدر لحنا جنائزيا. بكى بدموع حارة وضاقت به الأرض وعصر الألم قلبه وامتلأ بالحقد والغضب والرغبة في الانتقام فما كان منه إلى أن اشترى الطبل بثمن باهظ وسافر وأسمع زوجته اللحن الحزين وقرع

الطبل أكثر وارتفع الإيقاع ورقص على إيقاعه رقصة الجذبة والانعطاف وشحذ السكين فذبح زوجته التي لم يعرف قلبها يوما الرحمة ولا الحب وقطع الجثة أطرافا وأخفى الرأس وبعث باللحم الطري بواسطة صديق له إلى أهلها. ففرح الأهل وطبخوا اللحم وأكلوا حتى شبعوا، ملأوا بطونهم بجريمة خالدة لا يمكن أبدا لأحد، بما في ذلك القواد الكبار، أن يخفي معالمها.

جلد الضحية لا يمكن أن يموت. في ميسمه خلايا روحية تبكي باستمرار، تغني غناء حزينا لإيقاظ الضمائر التي تنام بين الفينة والأخرى ولكنها لا تموت. كان الطبل بليغا ذكرني بأبي الذي اعتقله المخزن لأسباب سياسية ما يزيد على ثمانية عشر عاما. لما لفظته غياهب السجن، خلد للصمت ولم يتفوه بكلمة واحدة وهي قصة حزينة سأعود إليها في موضع آخر من هذا الكتاب إذا سمح لي الكاتب بذلك. كان الطبل بليغا. كان صمت أبي بليغا. وكان إيقاع أحواش في قصبة تلوات بليغا.

يبدأ الإيقاع هادئا، يفسح المجال لشعر يلقى ليفهم أولا ثم يرتفع نذير الطبل تحت إيقاع ضربات قوية تتابع بنفس الإيقاع من أول الحفل إلى نهايته وتستسلم الأجساد لقدرها. الآلات الإيقاعية تصدر الألحان والأجساد المكلومة تستجيب. كان القايد يهادن الأعداء قبل أن يوقع بهم، يبعث إلى شيخ قبيلة متمرد بدعوى مصالحته لطي صفحة الماضي.. وعندما يحضر بنفسه يحبس إلى أن يحضر ذووه الدية ويدفع ما عليه من ديون للمخزن وإلا رمى به جلادوه في أعماق بئر حفرت لهذا الغرض. وكل من سقط فيها لا يمكنه الصعود منها أو يرى النور أبدا. يترك لشأنه إلى أن يقضي نحبه. أكد لنا المخزني الذي يحمل مفتاحا كبيرا في يده يشير به إلى السجن الذي كان يتحدث عنه، أن ثمة ثعبانا ضخما لا زال يعيش في القبو المظلم، لا زال حيا يرزق وبين الفينة الأخرى يصعد إلى السطح وإلى وقت قريب كان السكان يضطرون إلى مهادنته وإعطائه ما يقتات به تجنبا لشره قبل أن ينسحب ليتغذى على ما تبقى من أجساد الضحايا التي لم ينصفها التاريخ حتى الآن، ينسحب ويترك بقايا من الزغب

المخيف يستفز الخيال لتشكيل صورة جسمه الأسود الأملس الملتوي القادر على خنق ضحيته في جنح الظلام.

قلت في نفسي كيف يمكن طي صفحة الماضي المملوء بهذه الكوابيس التي خرج بها السجناء ولا زالت تطاردهم إلى الآن في مناماتهم وأحلام يقظتهم. تعجبت كيف استمر الثعبان حيا وكيف يهادنه السكان إلى ما لا نهاية. ما كان ليكبر لولا دماء وأشلاء الضحايا التي لا زال يتغذى عليها حتى الآن. لا زال يثير لعاب الخوف لدى السياح هواة الفونطاستيك المعجبين دوما بكرم الضيافة يمدحون الكرم الشرقي حتى وإن كان مغربيا.

كان المخزني وهو يتحدث عن تلوات وتاريخها يحرك المفتاح بين يديه، يلعب به ويرفعه، يصوبه في اتجاه عيوننا ويقول بأن هذا المفتاح لا زال قادرا على فتح هذه الأبواب الكبيرة التي دقت بمسامير من نحاس وفضة. تملينا تلك الأبواب كانت آية في الجمال، نقشت وزخرفت بعناية لتنال إعجاب السياح منذ كان القائد قائدا إلى الآن.

كان سعيد يتقدم ويسأل المخزني عن حالة مختلف المرافق التي مررنا بها. صعد الدرجات الصخرية الضيقة غير المبلطة وتبعناه وهو يقول: سترون اليوم ما عينا رأت ولا أذنا سمعت. غرائب وعجائب وكنوز ما كنا نظن أن الأطلس يخفي مثلها. تساءلت بيني وبين نفسي عن أي عين يتحدث ؟ وبأي عين يمكن نرى هذه الثروة المعمارية الماثلة أمامنا ؟ في أي نقطة يمكن أن تتقاطع عيوننا لنرى جمالا موضوعيا يمكن أن نتفق عليه ؟ ما أثر حرب المواقع التي يمثلها كل واحد منا على ما نرى ؟ هل يمكنني أن أتخلص من الذاكرة، من ذاكرة أبي لأرى هذه الفنون التراثية التي أصبح الجميع اليوم يدعي الانتماء إليها ؟ كيف يمكنني رفع القضبان، قضبان السجون من أمام عيني لأرى هذا الثراء بموضوعية ؟ بكيت بعين أبي داخلي. مسحت دموعي

وابتسمت وصعدت الأدراج. نعم سأرى جمالا حزينا لن يروه معي.. وحدي، يا يوسف، سأرى ما لا عينا رأت ولا أذنا سمعت.

كان سعيد يتقدمنا. صار المخزني وراءه.. لم يفارق المفتاح الكبير الذي أمسك دائرته بين أصابعه، وكفه صار جزءا منه لا يفارقه أبدا.. توقفنا في قاعة فسيحة، قاعة الاستقبال. هي المصير والمآل.. إليها ينتهي الزائر ليرى بنفسه الدليل القاطع الشاخص على عظمة المكان ورونقه وفخامته.. آية في الروعة والجمال.. هذا ما يردده كل سابح في هذا البذخ المعماري. صعقة جمالية.. يتقدم إليك المكان كله دفعة واحدة. دوخة من الصعب التركيز على التفاصيل من أول نظرة. من الصعب الإحاطة.

جدران عالية ترفع السقف إلى ما لا نهاية. أرضية مبلطة بالفسيفساء. زخرفة تكتسح الفراغ كله بكل الألوان والأشكال. تناسق وتدرج من الأسفل إلى الأعلى. الخطوط واضحة والحدود صارمة. لا مجال للخلط، لكل طبقة مملكتها الجمالية. لا مجال للفراغ. فن الزخرفة في القاعة يكره الفراغ. عين الزائر تائهة، حائرة أمام هذا الكرم الفني. لا مجال للشك ولا للتردد: الأبواب قدت من الأرز والعرعر تبسط ذراعيها للزائرين. تبرج وغنج وابتسامة تتسع لكل الزائرين خاصة منهم الأجانب، يتكلمون كل اللغات يتوحدون في الآه المعبرة عن الإعجاب. في الكرم لا مجال للتردد، لا مجال للشك، يقدم الكلاوي كل أصناف الطعام، كل أصناف الفن. كل أشكال الرقص. نحتاج إلى التجريد والخيال لتقدير ما يكلفه هذا البذخ من عمل وشقاء وثروة في هذا المحيط البئيس...

لا يهم. الكلفة، الوجه الآخر للتويزة، قادرة على ضمان التوازن. السواعد مستعدة للعمل مجانا ما دام الكلاوي راض عنها. تتناوب الدواوير والمداشر والقرى والقبائل القريبة والبعيدة على العمل. النظام صارم يشرف عليه "الكرش" لا ندري لماذا سمي كذلك هل لأنه كان يأمر ويرغم على العمل دون أن يدفع قرشا خصوصا لليد العاملة المحلية، وقروشا لا تفي بالحاجة للصناع والمعلمين المستقدمين من مراكش

وفاس لزخرفة المكان بكل أشكال التزويق المهجرة من الأندلس بعد سقوط هذه الأخيرة.

واحة أندلسية عربية في صحراء أمازيغة. بدون شك كان الكلاوي يفاخر القواد الآخرين والبشوات بصنيعه هذا. كانت المنافسة على أشدها. والكرم واجب. والتحدي شيمة من شيم سيد الأطلس، قادر على جلب الحمراء نفسها من الأندلس إلى تلوات، قادر على جلب اليد الرخيصة من الأسر العريقة التي أطاح بها الزمن. قادر على اختطاف الفتيات الجميلات من أسرهن لتربيتهن وترويضهن وتدريبهن على رقصة أحواش وأداء عيوط الشاوية نفسها... وحتى الضرب على القيثارة لتعلم طبوع الموسيقى الأندلسية. المقام يقتضي ذلك. الكرم واجب والضيوف الكبار الذين يحلون على تلوات راضون مسروون بدون شك فقد دونوا ذلك في مذكراتهم وربما قد رسموا القصبة ونقلوا هذا الجمال المعتق على لوحاتهم. فهم رقيقو الأحاسيس يعترفون بالجميل ويقدرون الكرم حق قدره.

جلس سعيد على كرسي بجانب مدفأة ذات طراز أوروبي. سطر جداول وقسم المواد المعمارية إلى مسميات ورصد حالتها في خانات. طلب مني إعادة صياغتها فيما بعد صياغة دقيقة وقال بان ما يهم الآن هو أخذ المعلومات الضرورية.

فجأة دخل مجموعة من السياح إلى قاعة الاستقبال بصحبة مرشد سياحي، يتحدث إليهم بلغتهم بطلاقة ويجتهد أن يلوك الكلمات بشكل سليم مزيلا عنها ما يمكن أن يعلق بها من لكنة محلية وبالمقابل حرص على تغطية جسمه من رأسه إلى أخمص قدميه برداء طارقي نسبة إلى الطوارق. لف جسمه بدراعة زرقاء فضفاضة ولثم رأسه بلثام أسود ووضع نظارات سوداء على عينيه.. اختفى شخصه وصار بإمكانه أن يكون أي شخص. عرف السياح بالأصالة المغربية وهو ينتقل بهم من مكون معماري إلى آخر، الجدران الزاهية الألوان، الزخرفة الهندسية والنباتية الزاخرة بالمعاني والدلالات. وأشار إلى الأعلى واشرأبت الأعناق ورأت السقوف المرصعة بالمرمر. لم

ينس أن ينبههم إلى تحفة فنية، كدت أن أغفل عنها، أنا أيضا، لأن القاعة كانت ضاجة بالأشكال الفنون والألوان ولا يمكن لعين ساذجة أن تحيط بهذه الثروة الهائلة. نبههم، بعينه المجربة التي زارت المكان ما لا نهاية له من المرات، إلى لوحات الحرير التي توسطت الجدران، خرق حريرية متداخلة مختلفة الألوان متناسقة لم تبل ولم تتسخ رغم تعاقب السنين والأعوام.

أثارني كلامه.. اقتربت من المجموعة أكثر بفضول كبير إلا أنني لم أظهر ذلك. اصطنعت لنفسي الحيطة والحذر. بدوت وأنا أسمع كأنني لست في حاجة إليهم حتى لا أكون نشازا يمكن أن يسبب اضطرابا وسط السرب الذي كان منسجم العناصر. استشهد المرشد بما قاله أحد الكتاب الفرنسيين الذي سبق له أن زار القصبة أيام الاستعمار، شبه هاته اللوحات الحريرية بشراع قوارب سابحة في محيط من الزليج والمرمر وأسقف مزينة بالأرابيسك ورخام الأرض اللامع الفتان والجدران المزخرفة عن آخرها بطريقة تفوق إمكانيات هذا الزمن في الجودة والإتقان...

التقط المرشد صورا جماعية وفردية. أبعدت جسمي النحيل عن أي إطار محتمل يمكن أن يكون هدفا لعدسة المرشد السياحي. حطت عيني فجأة على أنثى استثنائية تخلفت قليلا عن السرب كانت تحمل آلة التصوير الخاصة بها. تتبعتها التقطت صورا متتابعة للباب العالي المشكل من مصراعين في الأعلى ومصراعين آخرين في الأسفل. باب لا مثيل له.

كانت في عقدها الثالث. قد قوامها السامق الجميل الأهيف من أحاسيس مرهفة. بيضاء البشرة ذلك البياض المشرب بحمرة أندلسية خجولة. أشجاني جمالها، أضنى قلبي وأيقظ، في رمشة عين، ذكريات إناث حزينات سكن قلبي منذ عصور قديمة مذ كنت نطفة حزينة بين الصلب والترائب. بياض صاف فيه جمال الروح، مشوب بحمرة الدم المسفوح، قطرات قانية على الثلج الناعم، ثلج الأطلس. تذكرت حكاية جلد الطبل الذي كان يقطر ألما وحزنا كلما وقعته أيادي فنان... تذكرت أيضا حكاية

الأمير العازف عن الزواج رغم رغبة أبيه الملك الملحة في رؤية أحفاده يضمنون لسلالته استمرار المجد إلى ما لا نهاية. رفض الأمير أمر أبيه رغم كل المحاولات التي قام بها الوزراء والسحرة والعرافون. وبقي على ذلك الحال إلى أن اكتشف ذات يوم الحب والحزن في ذات الآن عندما رأى قطرة دم تسقط فجأة في الحليب الأبيض الناصع. تخيلت أن الحليب كان باردا وكانت القطرة الحمراء حارة. رأى وردة حزينة تتشكل أمام عينيه. وأقسم على أن يغادر القصر حالا للبحث عن فتاة تشبه هذه الوردة، عن الوردة التي تشبه البياض المشوب بالحمرة. وها هي الأميرة الآن ماثلة أمامي.

من يراها الآن ؟ كانت تنتقل بخفة من مكان لآخر تلتقط الصور لهذا المعمار الباذخ.. بأي عين كحيلة ترى قبل أن تضغط على زر آلة التصوير بأناملها الرقيقة لالتقاط الصورة ؟ رأيتها أنا بعين ملكية.. زاد شوقي.. ملك حضورها الملكي القاعة الفسيحة. اتسعت القاعة إلى ما لا نهاية.. اتسعت في المكان وصارت كونا لا نهائيا واتسعت في الزمن وصارت حمامة بيضاء تطير في قصر الحمراء.

يا لتعاسة ملوك الطوائف، هؤلاء الذين ضيعوا إناث الأندلس، رفعوا أصواتهم عاليا، فجفلت الحمائم وارتعدت وحلقت بعيدا قبل أن تصيبها طلقات رصاص الصيادين لتسقط جريحة في مياه المتوسط. قيل أن سبب تخلف العرب هو اصطخاب أصواتهم. كانت أصواتا غير ذكية، لا تتكيف بسرعة مع المحيط. الصوت نفسه في الخطب الرنانة وغرف النوم الحميمية وأمام الميكروفون وعلى شاشة التلفاز وفي السينما. هل فعلا كان ملوك الطوائف ظاهرة صوتية ؟ لم يتأملوا ولم يتفلسفوا ولم يرسموا، لم يحافظوا على السكينة اللازمة لتطمئن الحمائم التي كانت تطير وتعود إلى أوكارها كل غروب.

هاهي أنثى الحمراء تحط في قاعة الاستقبال في قصبة تلوات، ها هي بلقيس تدخل الصرح، ترفع الرداء عن ساقها الأبيض المتين، يمتزج في داخلها الشعور بالخوف والدهشة في نفس الآن.. لجة من الجمال والبريق. القائد الكلاوي غائب..

يمكنها أن تتقدم.. تقدمت في تؤدة، تمشي مشي السحاب على الأرض المبلطة. كانت ترتدي حداء أسود، ومع ذلك تخيلتها حافية القدمين. للمكان سحره، له قدره التخييلي، أحال جرمها الأنثوي الرائق إلى طيف يمشي ملكا في صرح أعماقي. لماذا أتخيلها كذلك وأنا أستعيد صورتها وأصوغها من حبر ومما تبقى في داخلي من نسغ العنب والرمان والتفاح الأول الذي أزاح الريش وكشف عورة الأرض.. تخطو البنية التي طقت في داخلي شرارة الحب الأول، في حذر، في أقطار القاعة الفسيحة. تتوقف في المكان المناسب وبذكاء شعري تلتقط الصورة تلو الصورة.

يا إلهي بأي عين كحيلة ترى ؟

هل ترى ما نراه ؟

هل نرى ما تراه ؟

هل المكان هو المكان ؟

هل الأرض هي الأرض لحواء ولآدم ولقابيل وهابيل ؟

هل النقوش هي النقوش ؟ هل الزخرفة هي الزخرفة ؟ أي أنثى نبتت من الضلع الأعوج فأقامت هذا الصرح الفاتن، أي أنثى أقامت فاستقامت ؟

ماذا ترى وبأي حضور ترى ؟ أي سحر تنفثه في الإطار فينبعث المكان حيا، ويتحرك في الزمان والمكان ؟ أنظر إلى القد الممشوق يتلوى يلين يتواضع ويستجيب لآه الرياح الآتية من بلاد الفقد من الفردوس المفقود..! كيف صار الجسم اللطيف، الرفيع، مطواعا للعين الكحيلة التي صارت قدرا له.. تأمر العين.. ويلبي الجسم الأمر بشاعرية وحيوية وسحر. تنحني وتنسدل خصلات ليل الشعر الأسود على بياض الرخام. تجلس القرفصاء.. تتراجع قليلا لتلتقط الصورة.. للنافذة.. للباب.. ما بال هذه العين لا تغادر بابا إلا وفتحته فتحا مبينا ولا نافذة إلا سجنتها في إطار الصورة. بالباب تدخل الفردوس ومن النافذة ترى ما لا يراه الآخرون.. تعرف كيف تدخل عفريت الجمال

الفياض في قمقم سليمان الذي أحضر بلقيس ذات يوم. بلقيس التي فزعت واندهشت وآمنت بهذا الجمال الأندلسي الأخاذ. آمنت برب الأرباب حول الصحاري إلى قصور الحمراء. تتبعتها بعيني وتمنيت لو كانت معي كاميرا لأترصدها وهي تنتقل من هنا إلى هنالك لتلتقط صور الأبواب والنوافذ.

صعدنا إلى سطح القصبة، ومنه أطللنا على معالم وآثار ما تبقى من بناء أجداد الكلاوي منذ نهاية القرن التاسع عشر.. تهدم جزء كبير منها.. سقطت سقوفه.. بقيت الجدران تقاوم الزمن على طريقتها.. كيف يمكن للخيال أن يرمم هذا الطلل الدارس؟ وكيف يمكن للتاريخ أن يسترجع تفاصيل أحداث وقعت في عين المكان..؟

أمام هذا الزخم أحسست بعي يتملكني وأسئلة تتوارد، تتساقط تباعا على ذهني. كيف أداري حيرتي وكيف أعبر بين المتناقضات، بين ضفة المجد الذي يشهد عليه هذا البناء الضخم الزاخر بكل أشكال البذخ في الزخارف والنقوش، وبين هذا المحيط البئيس الذي تشرف عليه نوافذ قاعة الاستقبال الكبيرة الحجم.. منه أتى الراقصون لإحياء حفلات أحواش ومن هذا المدى الحزين أتى البناءون يرفعون بسواعدهم النحيلة طوابق القصبة في أعمال السخرة والكلفة التي كان يؤديها العمال من مختلف القبائل بدون مقابل ليباهي بها القايد ضيوفه ويرفع رأس المجد المغربي عاليا. أكان لا بد للفن لكي يرتفع شامخا في هذه القصبة من ظلم يوازيه جبروتا وقهرا لتتمتع عين السائح وترضى على تراث المغرب غير النافع ؟ أكان لابد من تجاور الفن والظلم في مشهد اللوحة الأطلسية إلى هذا الحد ؟ كنت متأثرا جدا لهذا الحزن العميق الكامن في كواليس اللوحة إن كانت لها كواليس. تعجبت كيف كان الصانع التقليدي يخفي خوفه تحت جلده ويبدع هذا الجمال وينسحب في صمت ولا يوقعه باسمه وكيف تخفي حلقة أحواش، وهي تدور على نفسها، حزنها وخوفها وترقص ليفاخر الكلاوي بالاستقرار الذي حققه لقيادته في زمن السيبة.

تحسست قلبي وجدته مشغولا بالصورة وبصاحبة الصورة. تركتها بقاعة الاستقبال ولا شك أنها التحقت بالسرب. تمنيت لو صعدت.. هنا في هذا الفضاء المكشوف يمكنني أن أبثها لواعجي استرقت النظر مرارا إلى الباب الذي لفظنا فوق السطح.. لا أثر لها.. أرهف السمع.. لا وقع للقدمين الحافيتين يصل إسماعي.. تمنيت لو تصعد الدرج هنا سأراها بعين أخرى.. هنا يمكن أن أفصح عن بعض مكنوني.. في الأسفل كانت مشغولة بالأبواب والنوافذ.. هنا كان من الممكن أن أشير عليها بالتقاط صورة لعش اللقلق فوق البرج. صار العش طللا. غادر اللقلق وحلق بعيدا ولم يعد.

كان بإمكاني أن أطارحها عشقي وظنوني وافتراضاتي وأقول لها لعل اللقلق في سفر طويل إلى موطنها في الفردوس المفقود ولا بد أنه سيعود. تمنيت لو صعدت الأنثى الملكية لحدثتها عن حكاية اللقلق، لقلت لها بأنه لم يكن لقلاقا، كان رجلا غنيا غنى فاحشا وسط أناس بسطاء أصابهم الجوع الشديد فطلبوا طعاما لفلذات أكبادهم فعزمهم ذات يوم وأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى ارتووا وقبل خروجهم طلب الرجل من عبيده أن يسكبوا ما تبقى من حساء في أدراج البرج الذي يسكن فيه مما أدى بالفقراء الطيبين إلى الانزلاق والسقوط عندما هموا بمغادرة القصبة، منهم من كسر، ومنهم من قضى نحبه. وزينت له نفسه فعلته وصار يضحك ويقهقه سخرية تهكما من هؤلاء الفقراء الذين جاعوا ولما شبعوا أصيبوا.. لقلت لها بان اللقلق كان متكبرا متغطرسا ولهذا عاقبه الإله فمسخ لقلقا لذلك نراه لا يفارق سلهامه الأسود والأبيض.. هكذا كان يحكي الناس الطيبون في حكايتهم يعيدون الأمور إلى نصابها ويقيمون العدل في حكاياتهم. هذا ما أردت أن أحكيه للأنثى الأندلسية التي أطلت من المتوسط على بلاد الأمازيغ.

تمنيت لو صعدت لتراها الشمس التي كنا في صغرنا نتجرأ ونحدق فيها بعيوننا الصغيرة ونرمي في اتجاهها بأسناننا الصغيرة المسوسة أسنان الحليب ونقول لها:

"أعطيتك سن حمار، أعطيني سن اغزال" آه لو صعدت لحكيت لها عن الغزالة التي زارتني ذات يوم في المسرح هاربة من كتاب إلف ليلة وليلة، الغزالة التي كانت تحلم فقط أن تتخلص من سحر المسخ وتعود إلى أصلها، لحدثتها عن غزالة يوسف الخارقة التي استطاعت أن تهتك سر الخرافة..

تمنيت لو صعدت لتلتقط صورا بانورامية أخرى هذه المرة من القصبة وليست للقصبة.. تلتقط صورا للسماء الصافية.. للجبال المحيطة.. لفج تيزي نتلوات.. لقلت لها أن ثمة بابا كبيرا آخر لتلوات، هو هذا الفج الذي أتى منه الفاتحون ومنه رحل الأفارقة قبل اكتشاف الهجرة السرية بآلاف السنين.. من هذا الباب أتى شارل دو فوكو في أواخر القرن التاسع عشر إلى تلوات ومنها إلى الجنوب.. لتساءلت معها: هل كان شارل دو فوكو أول سائح زار تلوات ؟ لا أعلم بالحقيقة، لكن ما أنا متأكد منه أنه أول من قال آه من الأجانب لما رأى بناء القصبة الشامخ بعد عبوره لفج تيزي نتلوات..

لو صعدت لرقت وارتقت وسمت ورأت المكان والزمان معا.. لالتقطت صورا لا تشبه الصور ولحدثتها عن كواليس الصورة عندما تصيرا قدرا تقبض على الماضي في لحظة لا تريد أن تفنى، تريد الخلود في قلب من يلتقطها.. لحدثتها عن الصور المصيرية التي تضيع منا لسبب تافه.. لحدثتها عن لعنة الصور الزائفة.. الصور المعروضة هنا وهنالك لجلب السياح لزيارة المغرب الجميل.. عن الصور الصفراء التي تبتسم لأن المقام يقتضي ذلك..

لو صعدت، لحدثتها عن صديق لي كان يكره الصورة ويهرب من إطاراتها ولا يريد أن تسجنه عدستها في إطارها لأنها لن تعبر أبدا عن الكائن الخفي الكامن فيه، الكائن الذي أضناه شذى أنثى مرت بجانبه ذات يوم فملكت عليه أمره، ذوبت كيانه وأيقظت في داخله فتى غجريا يسافر باستمرار من مكان إلى آخرا هائما على وجهه، ضائعا يبحث عن الرائحة التي دوخته ذات يوم، عن الرائحة التي خلفتها تلك الأنثى في نفسه. كل الحواس بالنسبة له باطلة ما عدا حاسة الشم المرادفة للروح، صار يطاردها

في العواصم والمدن الحزينة قال لي كانت رائحتها صنوبرية حزينة فيها فقد وحنين وعصافير تحلم دوما بالرحيل إلى لبنان.. وكان عندما تشتعل رائحة الشذى في أعماقه يغيب عن الوجود المحسوس ويرتكب حماقات شعرية.

كان يقول، أي صورة تستطيع القبض على جنون الشذى ؟كل صور العالم عبث وحده الشذى حقيقة عبير أنفاسها وما عداه هراء. ذات مرة تلبسته هذه الرائحة في بحر مدينة الحمامة البيضاء وهو يمشي بخطوات شاعر على رمال الشاطئ، كان الليل ليلا والضوء الباهت الآتي من بعيد ظلالا توحي بالقرين الذي يمكن أن نكونه في ساعة الصفر. في منتصف الليل، والناس نيام، فاجأه الشذى، ملأ خياشيم روحه. وبدون مقدمات وبسرعة، اختار أن يوجد فوق هذه الأرض بطريقة أخرى يراها الآخرون غير معقولة ويراها هو الجنون الجميل الذي من أجله نعيش ولا معنى لحياتنا بدونه.

ابتعد عن صديقه دون أن يقول له شيئا عن هذا الفتح الرائع الذي ملك عليه نفسه وارتمى بملابسه الحضارية ووثائقه الرسمية في أمواج بحر الحمامة البيضاء. سبح في مياه البحر ولم يخش بردا ولم يهتم بكل التعاليم والقوانين التي كدستها الحضارة منذ آلاف السنين. فعل ما يمكن أن يفعله أي بدائي نادته مياه المحيط فأجاب.. أطلعني وهو يحكي لي قصة جنونه على وثائقه الرسمية التي اهترأت وصارت مخطوطات قديمة تعود إلى إنسان قديم، رأيت بطاقته الوطنية وقد بهتت حروفها. أما صورته فقد ضاعت معالمها وانكسرت ملامحها وصارت خريفية وتساقطت أوراقها.

قلت له مبتسما: لقد انتقم منك الخريف وشوه صورتك وأنت الفتى الربيعي المضمخ بشذى الربيع. قال لي هذا أحسن وأجمل، هذا هو وجهي الحقيقي، يذكرني بما كنته وما عشته، يذكرني بالوجه الآخر المحتمل، الوجه الذي يمكن أن أكونه. قال لي بأنه يجب أن نكون مستعدين دوما أن نتخلى عن صورنا الجاهزة ونجرب وجودات أخرى غير قابلة للتصوير. قلت لو كنت معك لالتقطت لك صورة وأنت في كامل عنفوانك وأنت تعيش الأبعاد القصوى من الوجود. سخر مني ومن صوري وقال بأن آلة

التصوير الثابتة لا يمكنها أبدا أن تلتقط عنفوان الشعر الذي يتحرك دوما بسرعة ضوئية لا مثيل لها.. قال لي بأنه عندما ارتمى في مياه بحر الحمامة البيضاء لم يكن واعيا بما يفعل. قلت بان الأمر مرتبط بجاذبية القمر التي تفتن الصيادين والشعراء والبحر نفسه الذي لا يتمالك نفسه ويستسلم رغما عنه لحركة المد والجزر. كل الكائنات تنام إلا البحر فهو لا ينام روح البحر لا تنام، أنفاس الحوريات في الأعماق توقظ طبقات الحنين المنسية.

انتصر صديقي لنفسه وبزني ووعدته بكتاب يتحدث عن حالة مشابهة عن بطل رواية إن كان فعلا بطلا، كان يخلد ذكرى عيد ميلاده المصادف لرأس السنة ذات دجنبر عندما يشتد الزمهرير، بالسباحة عاريا في عرض المتوسط في منتصف الليل. قلت له أنت عاشق هارب من رواية، قلت له أنت كائن من ورق تمشي على الأرض ويجب أن تعود إلى الرواية قال أنا خلقت من الشذى ولا شيء غير الشذى. ولدت ورأيت النور يوم تنسمت الشذى ولا أدري متى وقع ذلك في حساب الملكوت. سافر إلى لبنان من أجل الشذى. أحب فيروز من أجل الشذى. اهتم بالإسلام والمسيحية والشيعة والسنة من اجل الشذى. سمى ابنته الأولى شذى.

كنت أغبط صديقي هذا الذي صيغ، كما خيل لي أنا على الأقل، من بقايا ذكريات يوسف ونجاة ومن خلايا نادرة لم أكتشفها بعد. كنت أغبطه لأن كانت له جرأة نادرة وقدرة عجيبة على الإعلان عن دواخله الشعرية بدون مركب نقص في بلد يسخر من الشعر والقافية. كان شعرا يمشي على الأرض وعندما تتعبه المسافات، كان يرتدي قميص كيفارا فيولد من جديد كالعنقاء من الرماد. كان يسرق النار للآلهة كبروميثيوس فيدخل المغارات المظلمة.. هنا كان يصوغ بيديه التحدي وهنا يتغذى بالإرادة. أما أنا، أنا الذي خلقت من نطفة أبي الحزينة، فأضمر ولا أبوح. أكتم ولا أعلن مشاعري المشتعلة في أعماقي.. أوشك على البكاء ولا أبكي.. أنا مشتاق لكن مثلي لا يذاع له سر.

لو كانت لي جرأة صديقي وتحديه، لطلبت من الأنثى الأندلسية أن تلتقط صورا حية لهاتين الهضبتين المتجاورتين التي اكتشفتهما وأنا أنقل بصري من الغرب إلى الشرق. سألت عنهما المخزني، قال لي بأن لهما قصة عجيبة قال بأنهما لم تكونا كذلك. كانتا في قديم الزمان عروستين جميلتين تمتطيان بغلتين وتتقدمان موكبا بهيجا في طريقهما إلى عش الزوجية حيث ينتظر السلطانان العريسان. وتقتضي الطقوس أن تلتزم العروستان بالصمت طوال الطريق وألا تتكلما مهما كان الأمر. إلا أنه لا أدري لماذا، لسبب أو لآخر، لم تتمالكا نفسيهما، فتكلمتا. وما كادتا تنبسان بالكلمة الأولى حتى مسختا، عقابا لهما، هضبتين كما ترى وتجمدتا في مكانهما. عقب المخزني على ذلك بأنهما تستحقان هذا العقاب وبأن المرأة عموما خلقت من ضلع أعوج وهي التي أخرجت أدم من الجنة بسبب فضولها وكثرة كلامها. وهذا قصاص إلهي، عبرة لمن يريد أن يعتبر. قال "اللي دار الذنب يستحق العقوبة. تذكرت أبي الذي عوقب دون أن يرتكب ذنبا. أبي الذي مسخ كلامه إلى صمت طال إلى ما لا نهاية. تساءلت بيني وبين نفسي أي ذنب ارتكب ؟

أحسست بمشاعر غامضة متضاربة متناقضة ولم أكن أحسب للأمر حسابه. لم أستعد بما فيه الكفاية لأتوغل في عالم القصبة لأقف على حزنها الذي لم يتسرب حتى الآن إلى كتب التاريخ المشغولة بالأمجاد والبطولات. أي حزن يسكن إيقاع أحواش ورقصها ؟ فشلت ولأعترف بذلك بيني وبين نفسي أن دراسة الآثار لا تقتصر على دروس نظرية تقنية متخصصة. كيف أفهم.. كيف أصل إلى وسيلة تمكنني من معرفة كيف يتسرب الحزن والخوف من قلب الصانع إلى يده ليوقع بكل آيات الجمال جدران وسقف هذه القاعة الساحرة ؟ كيف أنفذ إلى كنه هذا القابع في هذا الطبل الضخم الذي كان يدوي في قرى الأطلس، يقول كل شيء، يقول ما لم يكتبه التاريخ حتى الآن..؟

آه لو كان يوسف معي، لرأى ما يمكن رؤيته، لحدثته عن عجزي، لشكوت...، لقلت له ما لا ينبغي أن يتضمنه التقرير الذي تفضل سعيد بإنجاز كل فقراته. كان سعيد يملي وكنت أسجل معطيات يراها هو مهمة. قسم بنفسه أنواع القصبات التي خلفها الكلاوي في تلوات، تلك التي كانت تسكن فيها عائلة الكلاوي الكبيرة والقصبات الأخرى الملحقة بها المتناثرة في أنحاء المنطقة حيث كان يقيم عبيده السود الذين كانوا يسهرون على تدبير ضيعاته الفلاحية وقسم هذه القصبات أيضا حسب مراحل تطورها وعناصر تشكيلها الفني العربي الأندلسي والأمازيغي...

كان يملي وكان يعيد صياغة العبارات بنفسه، حتى تكون دقيقة محايدة، تحت ظلال خيمة نصبت فوق تل، دقت أوتادها في هذا المكان لاستقبال السياح الأجانب الذين كان يلذ لهم شرب القهوة العربية في بلاد يتكلم أغلب أهاليها الأمازيغية. كان سعيد حريصا على نقل الحقائق بموضوعية بعيدا عن مبالغات الشعراء وشطحات المجاذيب. وحماقات المجانين. حكى لي أحد الشيوخ المسنين ونحن نشرب القهوة العربية في فناجين أوروبية الطراز تحت ظلال خيمة صحراوية نسج المرابطون خيوطها الأولى منذ زمن قديم.. قصة ولي الله مولاي عمر. كان بهلولا، يقيم إلى جوار قصبة الكلاوي يأتي يوميا إلى ساحة القصبة "أرحبي" قبل صلاة العصر، يقود عنزة بيضاء، مشوبة بسواد خفيف، بواسطة سلسلة يضعها في عنقها الجميل، عنزة أقرب إلى غزالة برية. وفوق كتفه، وأحيانا فوق رأسه، كانت تحط حمائم غريبة الشكل. كان ينتظر خروج القايد حمو من قصبته متجها صوب بستانه حيث كان يحلو له أن يتنزه قليلا. عندما كان يرى القائد قادما يقوم من مكانه ويقول له:

الله ايبارك ف عمر سيدي

واهيا وا حمو أولد ايجا

يقف القايد (القايد حمو هو ولد ايجا) ويسمع كل ما يقوله المجذوب مولاي عمر:

– "واحمو وولد ايجا

راه ما يدوم ليك حال

سير أولد ايجا ما يدوم ليك حال

واللي كاليك دايم ليك الحال

راه باقي عليك الحال

سر اولد ايجا ابني أوعلي

سر أوخلي

سر أولد ايجا ابني أوعلي

سر اوخلي"

ذهب القايد حمو إلى الفناء وبقيت كلمات مولاي عمر عالقة في أثير الأطلس وسمائه، تتردد إلى ما لا نهاية. كلمات كانت تخيف الإنسان ويأنس لها الطير والشجر والحيوان.

- تأويل -

عندما عدت، قصدت يوسف. كنت في حاجة إلى الحديث إليه لأطلعه على أشجان القصبة، على ما وقع ولم أحط به علما. كنت في حاجة ماسة لأرى القصبة في

عيون يوسف. مع يوسف أرى الآخر في أعماقي. ذهبت إليه هذه المرة إلى حيث يقيم في غرفة على سطح أحد المنازل الواقع في حي شعبي من المدينة القديمة، اكتراها إلى جانب مطبخ صغير، يقيم فيها مع عزلته. كانت أصداء الجيران تصل ألينا بين الفينة والأخرى.. أصداء ليل اجتماعي فيه مزيج من الضحك والنداء.. أصداء الصنبور وهو يفتح ليجود على فاتحه بالماء الغزير قبل أن يغلق بعنف وأصداء طنجرة الضغط تطبخ بسرعة عشاء متأخرا.

غرفة بسيطة، متواضعة. على الحائط دق مسمار علق عليه سترته وقميصا أزرق حديث العهد بالكواء. في الجهة المقابلة لوحة بسيطة لقطة شديدة السواد، قطة حية تنظر لمن ينظر إليها بعينين يفيض منهما بريق غريب وإلى جانبها صحن حليب أبيض. قطة تركت حليبها الأبيض الشهي السائغ وتطلعت إلي بعينين براقتين، جلست لمقابلتها بعد أن انسحب يوسف معتذرا.

ألقيت بجسمي المتعب على كنبة عتيقة إلى جانب خزانة كتب تضم في رفوفها مجلسا لأدباء وكتاب وشعراء غرباء، يتهامسون فيما بينهم في هذا الذي يجري في زمن غير زمانهم وهذا الذي يحدث في مكان غير مكانهم. أتاح لهم يوسف أن يلتقوا في زمن هو زمنه وفي مكان هو مكانه على سطح بيت يسكن في طابقه السفلي والعلوي جيران ربما لا يقرأون.

أحسست بغموض ينتابني ويزيد من درجة كثافة وجود بإمكان أن نكونه ولم نكنه حتى الآن، وبكينونة داخلية تتضاعف. أجمل ما في الكتب، ذلك النداء الذي تبعث به إليك للسفر إلى العالم الآخر. أي انسجام من الفوضى الجميلة هذه ؟ لا يمكن للعقل الصغير أن يحيط بها.. أصوات متباينة ترتفع أصداؤها إلى السطح، إلى جانب كتاب يهمسون.. يتأملون.. يلعنون.. يلتقون لأول مرة على سطح يقيم فيه يوسف على طريقته الخاصة، محاطا بنباتات عصارية موضوعة حسب تنسيق عجيب أمام باب الغرفة.. كويرات الصبار الشوكية تحمي وجوده الحميمي بأشواك جميلة. أية

صلة دفينة بينها وبين يوسف، بين كويرات الصبار التي تعد بالبوح ويوسف الذي يقرأ النجوم...؟ ماذا يقول للنجوم التي تقترب منه ليلا حتى تكاد تلامسه في برجه هذا، عندما يهجره النوم و ينفرد بعزلته ؟ هل يقدم كويرات الصبار هاته قربانا صحراويا للسماء ؟ هل هي ذكرى سراب سكنه ذات يوم ؟

آه لو يتكلم يوسف ويقول بعضا من أسرار رؤياه يقول لي بعض ما أخفاه عني العالم حتى الآن، يقول ما لم تبح به القصبات المحصنة والمدن العتيقة التي عذبني أنينها. وددت لو أقبض على الصبار بكلتا يدي، فأنا ظمآن حتى النخاع.. كل الخلايا في داخلي تدمع لهذا العطش الأزلي الذي يغمر صحراء أعماقي، هذه الصحراء الكبرى المترامية الأطراف التي تحن دوما إلى السماء، إلى نجوم السماء.. متى يكون اللقاء ؟ ومتى يجود الصبار بقطرة دم تبل شفاه التيه والضياع.

أعد يوسف فنجانين من القهوة السوداء، وضعهما برفق على مائدة بجانب صحن وضعت فيه قطع حلوى كعب غزال. ناولني الفنجان وتركني أتتبع بعيني فرار قطعان الغزلان المذعورة في رمال الصحراء الكبرى. جلس في مواجهتي يحدجني بنظرته الفاحصة وهو يقول:

– هنيئا لك بهذا الفتح العظيم..

– لا تبالغ يا قارئ النجوم في مدح ملك ضليل، بكى وشكا كذئب حزين، لم يزده العواء في الصحراء الكبرى إلا ضياعا وتيها. تمنعت علي قصباتك كحريم تقبع في غرفة من الغرف الممنوعة عن الغرباء.. ذهبت، يا يوسف، دون أن آخذ معي المفتاح السري.. حسبت أن زادا متواضعا من التاريخ والآثار يكفي لاجتياز العتبات.

قاطعني يوسف:

– إن الإحساس بالضياع.. هو بداية الطريق. إن الجهل هو الطريق الحقيقي للمعرفة. بالجهل تعيش الظمأ إلى المعرفة. والتيه هو زاد المسافر. ابتعد عن العلم.. فهو يضلل.

علقت عليه ضاحكا:

– أهذا ما أقرأتك النجوم ؟

– نعم وهذا ليس جديدا.. إنني أذكرك فقط بما لم تحط به علما.. أذكرك بما نسيت. أنسيت شرط نجاة في الصحبة.. أنسيت صاحبتك.. أنسيت شمس الأنثى التي تشرق فجأة.. تشرق أحيانا في الهزيع الأخير من الليل.. نسيت زهرة الدفلى التي تحمر بفعل الألم الذي يعض أحشاءها.. نسيت أوجاع الخشب ؟ هذه هي معرفة العاشق للأنثى الخالدة.

– لم أنس.. تذكرتك وتذكرتها.. التفت إلى داخلي ورأيت أنثى كأنها هي. رأيتها بملامح أندلسية. رأيتها أو خيل لي ذلك.. تصعد درج قصبة تلوات حافية القدمين رأيتها أو خيل لي، أنها تدخل القاعة الكبيرة حافية القدمين، تخطو على الزليج.. كان زليجا صافيا ناصعا باردا تحت وقع قدميها الناعمتين.. رأيتها تدخل الصرح وقد انحسر الثوب البنفسجي المزين بورود غريبة وفراشات مشتعلة، عن ساقها. رنت إلي وفتر ثغرها عن ابتسامة ملائكية تفيض رقة وعذوبة. بسطت لي يدها الحريرية الملمس.. اتسع سواد الكحل في عينيها. قالت أو همت بالقول.. كدت أجيب. كان القلب مشتعلا وكاد الجواب أن يكون صراخا نحاسيا ترتج له جدران القصبة العتيقة. كان كلامها نشيجا بلوريا، قطرات ندى، قطرات حزن مقطر، أعدتها واصفات القصر للأميرة في المناسبات الخالدة. رأيت الصرح.. رأيت الزليج.. كدت أصرخ. نبهني سعيد الذي أعد التقرير.. أن اللباقة تقتضي كتم المشاعر.. نهاني عن الشرود.. نصحني بالتزام التدقيق ووضع النقط على الحروف. وضعتها طبعا لكن بيدين مرتعشتين، لعل الوزارة الوصية تضمد جراح القصبة، ترمم جراح نجاة التي كانت حزينة

تخفي شجنها وراء ابتسامة التجلي. تمنيت يا يوسف لو أخلو لحظة إلى نفسي، إلى نجاة. رغبت في النزول إلى الجب، حيث بقايا عظام ضحايا القايد الكلاوي.. رغبت في الدخول إلى القبو المظلم.. حذرني "سعيد" من التهور قائلا: ألا تسمع فحيح الثعبان.. لا أدري. ثمة أصوات مبهمة، حذرني "سعيد" من شرها.. فالمكان مسكون، كما يقول الأهالي. والانتقام وارد، إن سولت لك نفسك الاعتداء على فضاء لا سلطة لك عليه.. غضبت الأنثى. التفت، فتشت.. نجمت.. أطرقت.. اختفت من بين يدي. صار الفحيح قويا. تراجعت. أدركني الجبن. كتمت صرختي ولم أنج. كان من الممكن أن تكون المخاطرة طريقا إلى النجاة.

قاطعني يوسف وهو ينظر إلى قطته السوداء المعلقة على الحائط:

– .. تماما كما فعلت عند إطلالتك على الشلال..

– نعم كانت تنصرف في أوقات التتويج والشدة والعنفوان.

– لعلها تفعل ذلك شفقة على قلب غر، لا يمكن أن يستوعب أو يتحمل إلا النزر اليسير من الضنى والجمال.. تنسحب خوفا عليك من التصدع، من صدمة قوية لن تتحمل وقعها.

– وهذا ما يؤلمني حقا.. أن تظن بي الظنون.. أن تحسبني مجرد مراهق مندفع، أن لا تثق في قوة العشق الذي كاد يفنيني.

– ربما ولكنها ستثق بك إن...

– كيف ؟

– عليك أن تلاحقها، أن تراودها عن نفسها باستمرار وتتبعها إلى المناطق النائية في أقصى الوجود.. أن تراودها بالكتابة. أكتب، يا إدريس، وسترى، ستكبر في عينيها وتجلس إليك وتجالسك ساعات وساعات. ف"نجاة" أنثى بنفسجية، تبادلك الحب على الصفحات البيضاء النقية.. وتوقع بك في شباكها، تراوغ وتهرب، تختفي

وتظهر من جديد. سر وراءها في الصحاري واسكن إلى جوارها في السفر الأبدي.. ثق، يا إدريس، أنها لن تفارقك، لن تقوى على فراقك إلا إذا أخللت بالشرط المقدس وأمعنت في الغدر..

الأنثى الحقيقية لا تخون أبدا...

– نحن الذين نخون إذن.. هذا صحيح ونسقط خيانتنا على الآخرين. فالرجال هم الذين كانوا يروون التاريخ باستمرار ويروون عن الأنثى ما يشاءون. يزعمون أنها ولدت من الضلع الأعوج وتحالفت مع الشيطان ومسخت حية ناعمة الملمس، تلدغ في نهاية المطاف. في رمشة عين، يحول الرجل المرأة من الأنثى الملهمة إلى عجوز شمطاء أو ساحرة ماكرة أو بغلة للقبور كما كانت تحكي لنا الجدات والأمهات. الغريب أن المرأة تروي ضد نفسها، تخون نفسها. بقيت لقرون وفية لثقافات الرجل. كانت خالتي الضاوية في حينا القديم تحكي لنا كيف كانت تستيقظ الأنثى الجميلة في منتصف الليل وتغادر سريرها وتتحول إلى بغلة القبور، تجر السلاسل الثقيلة تتجه إلى الغابات الموحشة والمغارات المهجورة والبنايات الخربة أو المقابر لتوقع بضحاياها من المسافرين والتائهين والمتهورين والجنود والمتسكعين في الأزقة الضيقة، الذين لا يحترمون الحدود بين النهار والليل. كانت الأنثى تفتن وتخيف الرجل في نفس الآن.. لا أدري لماذا ؟

كانت خالتي منذ صغري تحذرني من السير ليلا وحيدا وإذا سمعت نداء عذبا، رقراقا، ساحرا، فعلي ألا ألتفت. إنه صوت عائشة قنديشة التي تغري بصوتها الساحر وجمالها الفتان. الرجال يسلبهم النداء ويتبعون الإغراء. فإذا التفتوا، يسحرون أكثر. وعندما تصل بهم إلى المقابر، تمسخ غولة متوحشة، تمتص دماءهم وتهش عظامهم. تتحول عائشة، الأنثى الرائعة، إلى مصاصة دماء، توقع بضحاياها، ترمي بأجسادهم في مفترق الطرقات لتكون للرجال والفرسان عبرة ودرسا ليفهموا أن المرأة لا يمكن أن تقهر.. في لحظة وجيزة تضع حدا لحياتهم، تنتقم لظلم عمر قرونا.

لقد كبر معي هذا الخوف، يا يوسف، ولم تستطع الأنتروبولوجيا أن تدجن الكابوس الذي يستيقظ في فترات الخلوة والوحشة والغربة. لم يستطع علم النفس تعليب هذه الكوابيس، ولم يتمكن من حجزها في خانات مفاهيمه ومصطلحاته المستهلكة. كنت لا ألتفت إلى الوراء إلا قليلا.. كنت حذرا جدا من خطى لطيفة، يمكن أن توقع مشية أنثوية على رصيف شارع منتصف الليل.. كانت تحذيرات خالتي الضاوية واضحة، صارمة وجازمة ولم يكن لشغب الصبيان ولا نزق المراهقين أن يتحدى.. إلى أن التحقت بوزارة الثقافة واهتممت بالمباني العتيقة والآثار بعد لقائي بالكاتب.. شعرت، منذ تلك اللحظة، بتبدل عميق يغير مجرى حياتي. صار بإمكاني أن ألتفت إلى الوراء وأن أسمع بأذني الداخلية أصداء وقع خطى عائشة في أعماقي.

كانت خالتي الضاوية حكيمة الحي حيث كنا نقطن، لم تكن خالتي بالفعل وإنما كنا نناديها هكذا احتراما لها. ما من بيت بيت في الدرب، إلا ودخلته وشاركت أهله طعامهم وأسرارهم وأحلامهم وذكرياتهم.. تبشر الأم بالحمل وتفهم إشارات الوحم وتنصح الزوج وتحدد موعد الفطام وتحتفل معنا في كل المناسبات. تشخص أمراض "الشم" تقيس الجسم بخيط لا يفارقها أبدا. تقيس الأذرع والرأس وتحسب حسابها وتلعن البومة التي زارت الحي في الليل.. تلعن العين، عين الغيرة والحسد التي قتلت ثلث سكان المقبرة كما كانت تردد دوما. تنصح بالتمائم وارتداء الخميسة: يد خماسية الأصابع، مشرعة في الهواء، في وجه الخصوم والأعداء كقضبان وقائية قادرة على اختراق العيون الحاسدة الكافرة بالنعمة.

لم تتزوج خالتي الضاوية أبدا. كانت أما لجميع أبناء الحي ومعها كنا نحس برباط الأخوة يجمعنا. ينتابنا شيء من الخوف القديم والتقديس الغامض والحنان الصادق، كلما رأيناها، يوحدنا معها، من حيث لا ندري، ضد الغيرة والحسد والمرض..

لا زال جمال الشباب يطل من عينيها باديا بمعالمه القديمة على ملامح الوجه الحكيم، يختفي كظلال وراء تجاعيد السنين.. جمال يشب من عينيها بحروفه البارزة كلما انعكست عليها شمس الخريف.

صارت خالتي الضاوية، يا أخي يوسف، طبقة سميكة من طبقات أعماقي.. تحذيراتها تسربت إلى مسامي، سكنت كهوف نفسي العتيقة. لطالما حذرتنا من إطالة النظر إلى الوجه الحسن، وجه عائشة.. جمال فتان وعيون كالسهام.. تغري الرجال بالتفاح والرمان.. أسقطت في حبائلها الفرسان في كل زمان ومكان.. هكذا كانت تسرد علينا حكاية تختلف عن كل الحكايات الأخرى التي سمعناها منها. حكاية لا تنتهي، يرويها الضحايا بأنفسهم وحكاية قابلة إلى أن تتكرر إلى ما لا نهاية. كنت أحاول، يا يوسف، في حياتي كلها، ألا ألتفت. عزمت على أن أكون حكيما مع أي امرأة أصادفها قدر الإمكان.. كنت أخاف أن أصير ضحية لعائشة.. كنت أخفي طيشي تحت جلدي.. أسير هادئا إلى الأمام، أحني رأسي، أدخل يدي في جيوب سروالي لأقوى وأتزن وأهدأ. وبالمقابل كان خيالي يتضاعف داخلي يتعمق. بت أنظر إلى داخلي. وكان يلذ لي أن أسير في الشوارع الطويلة.. أسير.. وأسير ولا أتعب. كان الأفق المفتوح أمامي، يحثني على المشي دائما إلى الأمام.. كنت أنظر في داخلي وأتضاعف وصارت أعماقي تتضاعف. صارت خريطة لعالم كبير يزدان بأشجار الحور وعصافير الجنة وحوريات البحر.. أسير ولا ألتفت وصارت رأسي مثقلة بالخيال. وكانت خالتي الضاوية راضية عني، تدعو لي بالبركة والصلاح والفلاح والنجاح وتبشر أمي بالرجل الصالح الذي يمكن أكونه..

لم ألتفت، يا يوسف، ولم أدر كم من المسافات قطعت وكم من أنثى خزنتها في أعماقي، كان من الممكن أن أراها فادخرتها ليوم الشدة. وكان يوم الشدة، زيارتي للقصبة العتيقة.. كان وجه عائشة خلفي ينضج ينمو يزداد جمالا.. تتسع العينان.. تضع عائشة الكحل في عينيها. لأول مرة أتجرأ على رؤية سواد الشعر والعينين، سواد

ليل أنثى رائعة. كدت ألتفت.. غمزت من غير قصد.. ازداد بياض الوجه واحمر الخدان الأسيلان كدت أبوح، التفت.. انحسر الغطاء عن الشعر لأول مرة أو حسبته كذلك.. وتساقط شلال الشعر على الكتفين.. تموج في غنج ودلال.. أبرقت العيون.. أرعد القلب وأزبد.. بكيت من فرط ما رأيت.. أمطرت دموعا غزيرة، بها سقيت أعشابا برية نبتت على مرأى خالتي الضاوية. مسحت دموعي وجمعت أمطاري في حقائبي وسافرت.. صرت أتعقب وجه عائشة الذي اختفى.. سرت أطارد الأنثى التي كانت تطاردني.. ابتسمت بحزن، له ألف معنى، لكل وجه جميل طالعت محياه.

رأيت يوما حلما، رؤيا، قبيل طلوع الفجر وكانت رؤيا صادقة لأنني لم أنسها حتى الآن. لم تكن أضغاث أحلام. وأراك، يا يوسف، أقدر الناس على تصديق الرؤيا. رأيتني أفتح حقيبة فضية، حقيبة حزينة، حقيبة دموعي.. فتحتها.. وجدتها قد جفت. تسربت إلى اسفنجة بنفسجية من أسفنج البحر. أخذت الإسفنجة بين يدي. التفت لوقع خطى أنثوية. وقفت بقامتها الهيفاء.. كانت عائشة.. أخذت عائشة الإسفنجة من يدي برفق، ابتسمت بحنان ورقة. اتسع الكون فجأة.. لان الهواء.. حن النسيم ورق وتجملت الشمس.. ضغطت بيديها الناعمتين على الإسفنجة.. بكت.. سالت قطرات بلورية من جوف مظلم حزين. ضغطت أكثر.. بكيت بين يديها.. لم تمسح دموعي وابتسمت. قالت في نفسها: لا زال فتاي قادرا على البكاء بين يدي الجمال. قلت لعائشة وأنا أتلعثم وأتمتم بكلمات لا تنتمي إلى أية لغة مما أعرف: هذا قلبي بين يديك، افعلي به ما تشائين.. هذا قلبي بين يديك، خبأت فيه تاريخا من الحزن والخيال.. أعصريه، إن شئت، لأكتب منه مالا يقال.. فيه كل الذكريات التي تشتهين. اعتصريه، إن شئت. فيه روائح غامضة لحب قديم.. أحببتك لكني لم أجرؤ على الالتفات إليك. احمر خد عائشة، تسرب إلى عينيها جزء من الحزن الشفيف الذي ملأ قلبي. أعادت القلب إلى الإسفنجة وأعادت الإسفنجة إلى الحقيبة وانسحبت في السحر قبل أن تدركها شمس النهار. هذا كان حلمي...

على غير عادتي، لم أطلع خالتي الضاوية على حلمي.. احتفظت به لنفسي ودفنته في أعماقي. نسيته لبعض الوقت ولم توقظه من جديد إلا نجاة التي ما كادت تظهر، حتى اختفت.

تجرع يوسف جرعة من القهوة السوداء. أخذ علبة السجائر. أراد أن يدخن ثم عدل عن ذلك. استغربت: لم أر يوسف يدخن خلال لقاءاتي السابقة به. أعاد العلبة إلى مكانها وسرح ببصره خارج الغرفة حيث تستكين نبتة الصبار إلى جانب أصص أخرى احتوت نباتات عصارية وورود وياسمين وبنفسج. ثم عاد ببصره وتطلع إلي بعينين متسائلتين وقال:

– اختيارك للبحث الأثري ليس بريئا.. سفرك إلى الجنوب ليس بريئا.. واقتحامك للقصبات في غفلة من الزمن ليس بريئا.

قلت ساخرا:

– ولقائي بك الآن هذا ليس بريئا وإنصاتك ليس بريئا.

– بل هي البراءة نفسها. الطين يحن إلى أصله والطيور تعود في نهاية المطاف إلى أوكارها. ما أجمل صداقات الطيور المسافرة، الطيور العابرة إلى القارات التي لم نعد نسمع عنها شيئا.

– يكفينا ضجيج الصواريخ وثرثرة السياسيين حول الممكن الذي لم يعد ممكنا، وبيانات مديري المصانع والشركات والأصوات المنددة باتساع ثقب الأوزون.

– ننسى أنفسنا، يا إدريس، نضيعها في الزحام، في الكلام العابر، بل في الكتابات التي لم نعد قادرين على تمييز الأصوات داخلها، كتابات بدون طعم ولا رائحة. عندما أفكر في مسألة وجودنا الحقيقي إن كان لنا فعلا وجود حقيقي، أتساءل بيني وبين نفسي: هل يعرفني الناس على حقيقتي ؟ هل يهمهم أن يعرفوني كذلك ؟ هل هناك فعلا هوية حقيقية للشخص ؟ هل أعرف نفسي بما فيه الكفاية ؟ أليست هذه

الهوية سوى وهم راكمته أحداث زمان ومكان معينين ؟ أليست هويتي المزعومة سوى صورة جسد قناع مكسو باللحم والثقافة والعادات ؟ أليست سوى اسم اختير لي، وكان من الممكن أن يكون لي اسم آخر لو تأخر ميلادي قليلا أو تزحزح المكان قليلا ؟ لو التقيت بآخرين في زمن آخر وفي مكان آخر، هل سأظل أنا، هل سأبقى أنا ؟ كثيرا ما كنت أتذكر جنازة أبي وهو محمول في النعش إلى مثواه الأخير وأتساءل ماذا تبقى لنا منه بعد انسحاب الجسد ؟ أي سر عظيم حمله معه إلى قبره ؟ أبي الذي لم يكن يتكلم كثيرا وكنت أدفع الافتراض إلى أقصاه والخيال إلى حدوده القصوى وأراني، أنا نفسي، محمولا في جنازة إلى قبري أراني.. أرى الناس يقولون كل شيء عني إلا الحقيقة. ماذا تعرف أمي عني..؟ ماذا يعرف أبي..؟ ماذا يعرف إخوتي..؟ أراني.. أراهم يرسمون صورا لي ليست، في نهاية المطاف، سوى صورهم المعكوسة ؟ ماذا يعرفون عن بكائي بين يدي كتاب خلسة الكرى الذي علمني التحنين والتطلع بعينين دامعتين حالمتين إلى سناء ؟ سناء التي غابت عني ما يزيد عن عشرين عاما ولا يمضي يوم دون أن أتذكرها وأبادلها الإشارات وأقول لها في أقصى عزلتي: أنت لي وحدي.. سناء لي.. لا أحد يستحقها.. وقد تكون تزوجت، لكن أعرف أن زوجها سيبقى غريبا عنها، سيكون قد اغتصب وجودها الحقيقي ووضع يده على قناع الجسد الذي لا يتعب من ارتداء الأقنعة لتجنب الحزن الأسود. أنا وحدي من يعرف أن سناء ليست له لذلك لا يجب أن أظهر على مسرح الأحداث.. وحده الذي يعرف الحقيقة يجب أن يغيب من فوق الخشبة، أن ينقرض لتتم لعبة الأقنعة إلى ما لا نهاية. الذي يعرف الحقيقة، يدفن حيا. الذي يعرف الحقيقة، يجب أن ينفى إلى الأقاصي ؟ أنا أعرف ذلك وهي تعرف ذلك. نعرف معا، أن ثمة عالما آخر نعيش فيه معا. عالم لا يمكن للذاكرة أن تتخلص منه. مكان موجود بشكل ما، وجود خفي حقيقي، لا يمكن أن يدركه إلا من اغترب. لا يمكن أن يدرك الوجود الخفي للنجوم التي تلمع من بعيد إلا من نزل إلى أعماق بئر سحيقة!!!

– صحيح يا يوسف. نحتاج إلى الشعر، إلى الحلم لنكتشف الحياة الأخرى التي نعيشها ولا نقول عنها شيئا. وقد تكون هي الحياة الحقيقية. ولو فعلنا ذلك لتغير طيش العالم ابتداء من طيش اللصوص وانتهاء بطيش الزعماء. لو جلس اللصوص والزعماء إلى مائدة الليل وتحدثوا عن السر الخطير الذي لم يبوحوا به حتى الآن لأي أحد لتغيرت صورة العالم.. تخيل معي كيف سيصبحون، كيف سيتحدثون، كيف سيتعاملون لو جلسوا فوق سطحك هذا، في غرفتك هاته، إلى جانب أصص النباتات والأزهار هاته. من غرفتك هذه يمكن أن نرصد النجوم ونسترق النظر إلى الشهب السرية ويمكن أن نعيش بعضا من الحياة الأخرى التي تطرق أبواب قلوبنا ولا ننتبه إليها.

عدل يوسف من جلسته وهو يرفع بصره إلى النجوم.. تجرع القهوة السوداء. شرب نخب الكواكب البعيدة. صمت لحظة وابتسم وهو يقول:

– الآن يمكنك أن تبوح لليل والنجوم.. هذا السكون شاهد عليك.. سيكتب ما تمليه عليه.. نام الجيران ونام الإخوان وتوقف صفير الطنجرة الضاغطة الذي كان يحمل لنا بعضا من ضجيج النهار. حان للفراشات أن تتسكع وللروائح القديمة، العتيقة أن تغادر كهوفها. حان للنسيم أن يئن وحان لإدريس أن يبوح ويصعد من أعماقه نجاة التي أبت حتى الآن أن تعود إليك. هيا يا إدريس احك واكشف عن وجهك الحقيقي.

– لا أخفيك أنني فكرت في الكتابة إليك، أنت على الأقل، لصياغة نجاة بشكل آخر يمكنني من أن أفهم ما وقع. لا أخفيك، يا يوسف، أنك فتحت عيني على سحر الكتابة التي لا تعبر عما وقع ولكن تمكن من إعادة صياغة الحياة بشكل آخر لفهم أسرارها بشكل أفضل. لكن كتابتك هذه تتمنع علي كما تتمنع نجاة. خلقت الكتابة ونجاة من قلم رصاص أعوج، إن أردت التعبير بوضوح واستقامة. ينكسر في يدك قبل أن تركب جملة مفيدة.

– أية استقامة.. إن قومت الأنثى، انكسرت وانكسر القلم.. وهذا ما عانيت منه منذ هجرتني سناء.. كلما أردت الكتابة عنها، إلا وانكسرت بداخلي وكسرتني وكسرت كل اللغات.. احك عن صياغتك قبل أن يدركك النهار فتتكسر لغتك وتتنكر لي ولنجاة على السواء. هيا احك...

– نجاة ماثلة الآن بين عيني.. أراها شامخة.. أراها في الأعالي.. بعد الفراق الأصغر، بعد أن ودعتها وأنا لست على يقين أنني سألقاها. هي لم تعدني بشيء وأنا لم أجرؤ على السؤال. قضيت ليلة قريبا منها بعيدا عنها في نفس الآن. في تلك الليلة رأيت ما لم أره من قبل. رأيت شعرا ينسج أساطير وجودية، فيها أحلام البدائي الأول الذي سكن الكهوف.

حط الليل على أوزود وفتحت الجبال قلبها للسماء وعزف الشلال معزوفته الصاخبة، الغاضبة لم ينل منه ظلام الليل شيئا، بل حرضه السكون على الاندفاع ليصل هديره إلى كل أقطار المنطقة. حرضني على الانغمار في جغرافيا متوحشة لا حدود لها.. يصل صوته إلى أبعد كوخ يقطنه عجوز يستدفئ ويستدعي على نغماته جراح العوادي والنوازل.. تخيلت في جنح الليل كيف نما هذا الشيخ في خيالي وترعرع وكبر وهو يصغي إلى هذا الإيقاع ما انقطع يوما هديره وإذا حدث لا قدر الله فإن ذلك سيكون له أكبر الأثر على حياته.. غبطته في عزلته. رأيت شعلة قنديله ترتعش، ترقص طربا وشجنا للإيقاع والرذاذ، لرذاذ الشلال المتطاير هنا وهنالك.. كنت بحاجة إلى شباب هذا الشيخ المعمر لأدرك أسرار الكون..

فكرت في الفندق، فندق النصرانية ونسجت من خيوط الشعر والخيال القصة الشعرية التي حملت النصرانية من بلاد الروم إلى بلاد الأمازيغ. تخيلت كيف وصل هذا الإيقاع الهادر إلى مرقد "النصرانية" التي بنت دار الضيافة هنا، غير بعيد من الشلال، كيف وصل هذا الإيقاع الهادر إلى مرقدها في باريس، شق ضجيج الشوارع ووصل على الأذن القديمة. أيقظها في جنح الليل وتركت فراش الزوج.. أشعل الهدير

فكرة غريبة في رأسها.. حزمت حقائبها وأتت ل "أوزود لإنشاء دار الضيافة للمحبين والعشاق المتيمين، معمار تقليدي كل ما فيه يعبر بلغة أمازيغية محلية.. أهو قربان محبة قدمته للشلال الهادر الذي سكن روحها فملكها ؟!! هجرت زوجها وطارت إلى حبيبها الشلال، الهادر بالحياة، يقول في هنيهة وباستمرار ما لم تسمعه من زوجها طوال المدة التي قضتها معه. أهذا فعلا ما حدث للنصرانية التي أتت من بلاد الروم لتبني للتائهين كوخا نملأه بمخاوفنا الكونية القديمة ونقيم فيه بأحلام العزلة التي لا يعرف أحد عنها شيئا.

تلك الليلة، أطفأت المصباح ونمت ورأيت حقيقة في جنح الليل. رأيت نجاة تكتب بدون توقف وبسرعة جنونية تسود أوراقا كثيرة ثم تمزق المسودات إربا، تمزق ركاما من أوراقها الشخصية قد تكون ذكريات أو اعترافات أو أوهاما أو أحلاما. رأيتها تغتسل ثم تتدثر تحت غطاء أبيض ناعم، عارية بعد أن جردت جسمها وروحها من كل الملابس التي نسجتها الثقافات والحضارات دون إذنها. ثم تخلد لنوم عميق. كان من الصعب علي أن أخمن ما كانت تراه أنثى، كنجاة، في ليل أوزود. تخيلتها، رأيتها تغمض جفنها وتنام ترعاها سكينة عميقة تهدهد روحها، تغذي أحلامها بالجنان والأشجار والأزهار والحدائق الأندلسية المفقودة... أليست هذه المياه الغزيرة التي يقذف بها الشلال، قادرة على أن تنبت جنة حقيقية في أحلامنا الليلية..؟

قبل أن أستسلم للنوم أنا أيضا، ابتسمت داخل نفسي، وأنا أطفئ المصباح، تحت تأثير هذا الوهم الجميل الذي وسع، بفعل سحره وألونه الصافية، تضاريس الشلال الذي لا زال يتدفق كما كان.. منذ ما قبل الميلاد ما قبل التاريخ وجعل هديره يصل أذن نجاة ليسقي بأنغامه الهادرة جنانا يمكن لنجاة أن تراها هي أيضا في أحلامها.. رأيت ونمت تكلأني عين العفاف وتدغدغ مسامعي الداخلية عصافير الجنة البلورية.

رأيت حلما عجيبا رأيت في مكان غامض، لكنه عال جدا.. كانت السماء زرقاء ولا أثر للشمس.. كانت الأشجار حقيقة في الحلم ورأيت عائشة حفارة القبور. لم أرها، يا يوسف، بغلة للقبور كما كنت أتصورها قبل زيارة شلال أوزود، كما كانت تحكي عنها خالتي "الضاوية". باختصار رأيتها في الحلم أنثى تحفر في مجرى ساقية مملوءة بالماء عن آخرها، كان الماء صافيا عذبا سلسبيلا، كان ماء زلالا رقراقا تنعكس عليه أنوار سماء زرقاء لا تشبه أبدا أنوار النهار التي اعتدناها، أنوارا غريبة لا تنتمي لا إلى النهار ولا إلى الليل، تحفر الساقية الذهبية بفأس فضية. وكنت جالسا على ضفة الساقية، أراقب، في مكان عال جدا بين السماء والأرض. لا أثر للأرض.. كانت عائشة في منتصف عمرها ترتدي ثوبا أبيض خالصا ناصعا تخفي خصلات شعرها بغطاء أبيض. وتضع على عينيها نظارتين سوداوين..

أخرجت فأسا فضية لامعة وشرعت تحفر في الماء. فتحت الحقيبة، أخذت قلبا ملفوفا في قطن أبيض.. حفرت بالفأس الفضية.. ارتفع الماء صافيا قبل أن يمتزج ببقع دم ليس أحمر، كان لونا غريبا، بنفسجيا داكنا. كانت البقعة تتصاعد من أسفل السرير المائي على إيقاع ضربات أنثوية أشبه بالموسيقى الروحية، موسيقى لا تسمع إلا في الأعالي، في جبال الهيملايا أو قرب النجوم.. ضربات خفيفة لكنها تخلف صدى طيبا في جنبات الكون، في الجهات الأربع. أصغيت، وقد كنت ميتا أو أشبه بالميت، لأناشيد غريبة أشبه بنداءات حجاج بيت الله الحرام يرددون التلبية يوم عرفات. أنصت. بعيني رأيتهم، بلباس الإحرام، يبتهلون، يبكون. دموع بلورية تخرج من جوف الطين الحزين. سمعت في الأصقاع أصواتا تردد: كلكم لأدم وآدم من تراب. تذكرت أحزان الأرض.. كان القلب ينبض واليدان الناعمتان تغسله وكان الدم البنفسجي يسيل.

كانت عائشة تمسك القلب الحزين، تضغط عليه بأناملها الرفيعة برقة. رأيتني أصافح أطفال الطين اليتامى. رأيتني أصافح من كانت لي معهم، حتى عهد قريب، صرت أراه بعيدا، خصومات أو حسابات ضيقة.. في الرزق والسياسة واحدا وحدا.

ابتسمت عائشة.. أخذت عائشة القلب من جديد ضمدت جراح الخيانة والغضب... أعادت القلب إلى القطن الأبيض وانسحبت واختفت..

استيقظت فزعا.. وضعت يدي على قلبي.. وجدته لم يفارقني.. بحثت عن عائشة لم أجد لها أثرا.. انتابني إحساس غامض، وأنا بين اليقظة والنوم، بين الحياة والموت، وكأنني ضيعت شيئا ثمينا، كان بين يدي.. ندمت كان قلبي ينبض. ثمة دماء حمراء تدب في عروقي. تأكدت وأنا أرى أنوار الصباح مختالة في الغرفة أنني لا زلت على قيد الحياة ولكني تساءلت دون أن أجهر بذلك: هل أملك فعلا قلبي هذا الذي يدق الآن بين جوانحي ويدعوني إلى الاستيقاظ أم أن ثمة يدا تأخذه مني بين الفينة والأخرى تسويه كما تشاء ؟؟؟

تذكرت بصعوبة أنني أقضي ليلة من الليالي بدار ضيافة النصرانية بأوزود قرب الشلال وهاهو الهدير يصل إلي قويا كما عهدته.. انطلقت.. لا بد أن نجاة هنالك، في مكان ما وعلي أن أعثر عليها. لم تعدني بذلك، لكن علي أن أجتهد وأكد وأجاهد.. مني الاجتهاد ومنها الظهور.. مني الضنى ومنها الطلوع.. مني غربة الغروب ومنها أنس الشروق.. علي أن أجتهد.

أحسست في ذلك الوقت بقلبي نقيا طاهرا خفيفا، غسله حلم البارحة من بقايا الشهوة وصرت مستعدا لأراها اليوم أحسن.. سأراها بقلبي جلية واضحة.. وددت أن ألقاها حالا وأحكي لها عن عائشة التي زارتني في الحلم الغريب، اندفعت، ثم تراجعت.. علي أن لا أستعجل أمري. قلت في نفسي: لن أجدها أبدا حيث أريد، ستجدني حيث أرادت هي. مني الانتظار ومنها الإطلالة.. هذا سر من أسرار ظهورها.. سرت الهوينى.. أمسكت قلبي بيدي حتى لا يغادرني.. كان مندفعا بفعل الهدير القوي للشلال.. أمسكت قلبي بكلتا يدي وصعدت قليلا. نط من أضلعي. مال وملت معه. انعطف وانعطفت. قادني إلى أعلى الشلال. وقفت أمام المصب الكبير.. سرت معه إلى جانبه، إلى أن سقط فجأة وبقوة ودون سابق إنذار..

رأيت، يا أخي يوسف، المياه تتدفق بغضب وثورة عارمة لا نظير لها، تتساقط مندفعة تباعا كنمور متوحشة تلدها الأرض توا، تخرجها توا من جوفها لتثأر. نظرت إلى الأسفل، كانت الهوة ساحقة وكانت المياه تهتز، تنتفض، ترقص رقصا غجريا عنيفا.. رقص عنيف يطلق العنان بدون مقدمات لثيران سوداء تنقض على البقع الحمراء.. تغضب لغضب الشلال.. تزمجر ترعد تزبد..

انتفض قلبي من يدي، ثار، تمرد.. لم أعد أنا أنا.. ارتفع الهدير بيني وبين نفسي. صرخت لم تسمعني نفسي.. غنيت بعنف كل الحزن الذي احتفظ به النهر حتى الآن وهو يقطع آلاف الأميال.. هاهو يعلنه الآن أمام أنظار الشمس دون أدنى تحفظ.. أمام الملأ من المتسكعين والتائهين، الشاردين. نظرت إلى وجوههم.. لأرى سريان، بل انفجار النهر في عيونهم.. خمنت ونجمت أن رعدة الشلال وزلزلته قد تمكنت منهم وأنهم أيضا يتدفقون.. يقولون كل شيء يحتفلون بخروج حزن الأرض إلى الشمس.. يطلقون ثيرانهم الهائجة في المنحدر القوي.. اندفاع.. اندفاع يهز أركان نفسي..

كيف أصبر، كيف أتحمل ما لم أحط به علما.. كنت مستعدا لارتكاب كل الحماقات الممكنة.. لا مجال للتردد.. خفت.. اقشعر بدني وتملكني الرعب.. أمسكت قلبي بين يدي مرة أخرى.. ثم ضغطت عليه ومسدته.. ربت على رأسي.. وعدلت من درجة وجودي وتراجعت. كاد تيار الماء القوي أن يعصف بي قلت لنفسي الأمارة، لنغير المقام..

عدت أدراجي وانتابتني رغبة في أن أحيط بالشلال من زاوية أخرى. سرت أسترشد بالعلامات والشارات، انزل الأدراج الجبلية الهائلة. كان النزول يغويني، كما كان السقوط يفعل بي قبل قليل.

شددت الزمام، تماسكت قليلا والتفت وانحرفت قليلا وصعدت درجتين وها أنا مرة أخرى وجها لوجه أمام الشلال.. تطلعت بعيني إلى الأعلى رأيت شجرة وحيدة تقف بثقة، تقاوم اندفاع الصبيب. خيل لي أنها ترتعش بفعل رياح تميل أغصانها.

عجبت كيف صمدت أمام هذا العنفوان لعصور سحيقة. نظرت إلى أسفل الشجرة إلى تربة الجبل الحمراء، نتوءات هشة تميل مع التيار الجارف إلى الأسفل ولا تسقط عجبت كيف تقاوم الهشاشة التيار.

أحصيت عدد التيارات المتساقطة وجدتها أحد عشر أو اثنا عشر تناثرت في الفضاء واختلط رذاذها. أما التيارات القوية، فكانت تحافظ على خط قوي متصل يسقط، فيحدث اهتزازات عنيفة على سطح البحيرة التي لم تهدأ أبدا. لا يجرؤ السويبحون من الاقتراب منها..

أما أنا فسبحت ببصري في الفضاء الرحب للشلال. غمرتني مياهه المتدفقة بسعادة غامضة، مكنتني من شجاعة أحسست بتيارها يتحرك في أعماقي. تملكني خدر جميل، أنساني كل تردد، كل خوف من الالتفات، تمكن من حواسي وأثقلها بكثافة جمالية أنستني الزمان والمكان. لم أعد أدري متى جئت. للمكان وحده السلطة. عالم من السحر والجمال أقرب إلى الخيال من الواقع لا بل هو واقع الخيال، إن كان للخيال واقع.. خيال ملكي، حملني إلى أجمل بقعة في الكون.. محظوظ أنا، ولا حظ يعدل هذا الحظ. تدفقت روحي في الكون بلا قيد ولا شرط، آدم هذه الأرض. صرت أرى لأول مرة فتنتها العذراء..

لا أحد يراها سواي.. يمرون بجانبي، يرتقون الأدراج، ينزلون، يستلقون تحت الخيام الصغيرة التي نصبوها عند قدم الجبل.. يسبحون في البحيرة بعيدا عن مساقط السيل.. يأخذون صورا تذكارية.. يبتسمون، يغنون، لكن لا أحد يشبهني.

وحيدا أحلق ببصري، ورجلي مسمرتان إلى الأرض، في فضاء الشلال الرحب، كعصفور خفيف، ملون، من جناح واحد، يراوغ الرذاذ، يخترق التيار، يمر بين فجواته، يسمع حزنه من قرب، ينتشي ويطير.

في هذه اللحظات العامرة بالشوق والامتلاء والزهو والتواضع والحزن والفرح والخوف والهدوء ظهرت نجاة. يا إلهي. هي بعينها.. أصغيت إلى وقع أقدامها على بلاط قلبي النحاسي.. وقع لذيذ، حثني على الالتفات.. التفت فإذا نجاة بقامتها السامقة الهيفاء، بعينيها الكحيلتين البراقتين وشعرها الأسود، المتهدل على كتفيها.. يا إلهي، يا خالق الظمأ والمعجزات من الماء الحي، يا مفجر العيون من كبد الأرض، يا إلهي، يا خالق الخيال، يا خالق الإنسان من صلصال مسنون، يا خالق الأسماء، يا معلم الأسماء، علمني كيف أسمي هذه الحواء أمامي التي نبتت إلى جانبي، نبتت من رذاذ الشلال وصارت نغمة من هدير جماله. يا إلهي أعني على الضنى، أعني على التحمل، على الصبر.

التفت إليها.. وحيدان في الكون.. كانت نجاة الحقيقية التي ظننت أنني لن ألقاها، صحت بأعلى صوتي على مسمع من الشلال: نجاة نجا..ة ن ج ا ا ة صاحت بدون تردد إدريس كنا في الأعالي قوب قوسين من السماء. ارتميت في حضنها، ضمتني إليها أنفاس حارة عنيفة، تنهدات، زفرات، عبير قوي يكتسح كل تضاريس الروح، يوقظ الخلايا القديمة من سباتها العتيق.

لا مجال للشك، للتردد: نجاة لي وأنا لها. زال الخوف.. زال التوجس.. توالجت مشاعرنا، مني إليها ومنها إلي. انسدل الشعر الأسود إلى الأرض ومعه هوت الأحزان تباعا.. أراضية عني الآن ؟ لم تجب، أغمضت عينيها وصارت تراني أحسن ؟ دعك الآن من الريبة والشك احك.. احك البث والشجن.. احك.. حكيت ما رأيت.. حلم البارحة حلم الليلة في دار ضيافة النصرانية قالت: رؤيا. ألا تصدق الرؤيا؟ قلت: بلى. قلت: كانت ترتدي نظارتين سوداوين...

فتحت نجاة عينيها.. لم تعد تراني، صارت تسمع أكثر.. الثياب بيضاء.. واللحد سرير من مياه فضية تغلي وهي باردة.. ياله من موت جميل.. قالت: بالسواد ننظر أحسن إلى البياض. قلت: عيناك كحيلتان. قالت: دعك من هذا. احك.. قلت:

صار قلبي بين يديها. ضمدته سال بدماء بنفسجية.. قالت: تلك هي العلامات. تلك عينها الإشارات فافهم وع، فالأمر جلل والخطب رائع رائع. احفظ تلك الإشارات في المناطق البهية من نفسك، تصر لك ذخرا، كنزا خالدا لا يبلى. قلت: هات، هل من مزيد ؟ قالت: أنظر وأشارت بأناملها إلى الشلال.. أنظر...

نظرت.. رأيت بعينيها ما لم يخطر على بال خيال شاعر حتى الآن. رأيت الألوان ترقص بعنف تحت إيقاع الهدير، رأيت الألوان السبعة تحضر الحفل البهيج العنيف، ألوان براقة، صافية، حاسمة، صارمة، شيقة، فيها لمعان ذكاء علوي خارق: كل شيء بمقدار.. تتموج.. تتعانق.. تنفصل لتتواصل من جديد وتتمازج وفق إيقاع معلوم.. سبحان الخالق خلق وأبدع، قدر فهدى، خلق الأنثى وخلق القلب، أرقه ورققه حتى أصبح يرى.. سبحانك ربي لا علم لنا إلا ما علمتنا.. انسجام وتناغم بين الألوان ويا لشقاء من لا يرى في الألوان الذكر والأنثى..

فتحت نجاة الحقيبة التي صارت بنفسجية تحت وهج الألوان الساطعة، المكتملة وأخرجت النظارات السوداء.. تضاعف السواد ورأيت معها.. بالسواد نرى أحسن. نرى قوس قزح ينثر أنواره، يجود بها، يهديها لنجاة لترضى وها أنا شاهد على العطايا. أرى بأم عيني، كيف عقدت الشمس غير العادية صداقتها الصافية مع المياه الفضية.. كيف تناسلت الأنوار والمياه وأنجبت هذه الألوان البديعة.

لم يسبق لي أن وقفت على هذا، لا في سماع ولا في كتاب ولا في عيان.. نعم سبق لي أن رأيت قوس قزح بحضور سماء غائمة بعد توقف المطر تحت وقع صدى الرعد المزمجر والبرق الخاطف، فما باله الآن يتجلى في غير موعده. لم أفهم.

نظرت إلى نجاة.. صارت ملامح وجهها مختلفة، حمرة تعلو وجنتيها وانفراج على ثغرها الملائكي. راحة شعرية جميلة في عينيها، يمازجها خيط رفيع دقيق من الانفعال الشجي الحزين.. على ملامحها طفولة بريئة سعيدة غامضة على وشك البكاء لا كالبكاء.

تذكرت وبعين الذكرى رأيتني قديما مع الأطفال نرقص رقصة "الشتاء" رقصة الأمطار.. واشتات شتات يا وليدات الحراثة... تنهمر الأمطار غزيرة، قوية. ننسحب بأجسادنا الصغيرة ونحتمي بالأشجار وسقوف البيوت.. ثم نخرج لنبشر البعض ببزوغ "عروسة الشتا" أي قوس قزح.. عروسة كنا نراها ترفل في فيض من الألوان السحرية.. حكيت الذكرى لنجاة، فرحت بذلك وانفعلت وقالت: أرأيت كيف يخرج الفرح من الحزن والحزن من الفرح، يولج النهار في الليل والليل في النهار، وكيف تتمازج ألوان العرس.

أخذتني من معصمي وصعدنا معا الدرجات المبلطة بالحجر، جنبا إلى جنب كتوأمين ولدتهما الأرض حالا، كعروسين من عرائس الشتا.. وقفنا عند السياج.. حذرتها من الانزلاق، فالهوة سحيقة والخطر كامن. بدت وكأنها لا تبالي. اكتسى وجهها جمالا خارقا، جمالا واثقا من نفسه.

بسطت أمام عيني، تحت أنوار الشمس، كفيها. دعتني، بعينيها الكحيلتين، أن أنظر.. بهتت.. يدان مخضبتان بحناء حمراء داكنة تميل إلى السواد.. قلت، حناء بهذا اللون الداكن، شؤم، قدر أسود، يترصد الخطى.. انعقدت تقاسيمها صارت حازمة وهي تنقل بصرها من الحناء إلي ثم إلى الأفق وكأنها تبحث عن فكرة ضائعة في العالم الآخر: أنا ما عدت أخشى التطير وما ينبغي لك أن تفعل أنت أيضا هذا.. هذه عادتي كلما زرت الشلال أخضب يدي بالحناء دون نقش ولا تزويق.. حناء متوحشة.. بدون تهذيب ولا تنميق.. وددت لو أغرق في بحر من الحناء.. في احمرارها القاتم القاتل، في سوادها الفوضوي لا تحدها حدود. الحناء بحر.. محيط حزين وأنا غارقة في الحزن حتى النخاع فلا داعي للخوف..

هذه أنا، أعلن عن نفسي دون تردد.. أريد أن أكون أنا ولا أبغي خلال زيارتي للشلال على الأقل أن أخفي هذا الحزن.. أريد أن أكون أنا، أبكي بدون تردد.. أنهمر سيلا عارما من المشاعر بلا قيد ولا شرط.. أن أكون نفسي بدون مواربة، أن أكون

أنثى.. لذلك فإني أزور هذا المكان بمفردي لأكون حرة في تدبير ميراثي من الحزن.. أريد أن أنهمر كهذا الشلال بدون تردد وأبوح للأرض.. للسماء.. للأشجار بكل شيء.. ولا أدري كيف قبلت مصاحبتك واللقاء بك في هذا المكان.. مرت سبع سنوات على الحدث المروع ولم أستطع أن أنسى.. وما أردت أن أنسى ورأيت أن أحتفل بهذا الحزن الكبير الذي سكنني رغما عني، كل سنة. لا أريد أن أعكر صفو مزاجك أو فرحك بهذه الألوان..

لم أنبس بكلمة. أشرت برأسي أن لا. كانت كلماتي خجولة، جرفها سيل مشاعرها.. ارتفع الهدير قاومت.. رفعت صوتي كمن يتعلم الطيران لأول مرة: حدثيني عن القصة وما فيها.. حدثيني عن هذا الحزن الكامن في تضاريس هذه الحناء التي تريدينها متوحشة..

ارتفع الهدير، ابتلع كلماتي. لم تسمع، فقالت وهي تشير إلى ما وراء مصطبة غير بعيدة عنا: من هنا سقط "جمال" هوى... هوى إلى الهوة العميقة التي تراها الآن بنفسك.. في قمة فرحه وريعان انفعاله، سقط.. أراد القبض على لحظة الانفعال الخالدة.. ملكه الشلال بروعته.. كيف يمكن لبشر أن يحيط بهذا الجمال الواسع الشاسع الكبير.. صحيح أن "جمال" ابن المنطقة وليست هذه أول مرة يقف على هذا المنظر الرائع الخلاب. كان يقول لي، إن لكل مشهد وقعا خاصا.. طلب مني أن ألتقط له صورة تذكارية.. تناولت آلة التصوير.. تراجع إلى الخلف.. طلب مني أن التقط معه في نفس الإطار منظر الشلال الشاهق.. كله.. أسمعت؟؟ نعم، نعم سأفعل. رفع عينيه إلى الشمس قال: من هنا.. بل من هنا أحسن.. قربت عدسة الآلة الدقيقة من عيني.. قال انتظري.. بل من هناك أحسن. ضغطت على الزر..... تراجع. لم أعد أرى شيئا.. لم أعد أرى "جمالا".. لم أر، لكن سمعت صرخة مدوية شقت فضاء الشلال.. صرخة عالية، عنيفة، فيها ما لا يمكن أن تتخيله من القوة والعنفوان والهيجان والغضب والرعب.. صرخة ارتفعت فوق هدير الشلال اهتزت لها الجبال وارتعدت لها

جذوع الأشجار وأيقظت الإنس والجان وارتعبت الطيور وحلقت بجناح واحد دفعة واحدة. تراجع إلى الوراء أكثر مما ينبغي. تراجع دون أن يلتفت. نسي الحدود بين الحياة والموت وسقط جمال حبيبي في الهوة الساحقة للشلال. كان الحدث صاعقة كونية وحزنا جنائزيا للأرض المتطلعة دوما إلى السماء.. سقط "جمال" في الهوة الساحقة للشلال.. شق جسده المثقل بالرؤى والأفكار والمشاعر والحب، الماء، كما تخيلت عقب الصرخة، نصفين، جبلين.. لم أر ذلك.. أغمي علي ولم أستيقظ من غيبوبتي وأفتح عيني إلا على بياض غرفة المستشفى.. فقدت كل قدرة الفهم أو الكلام.. ولم أستوعب هذا الحدث المفجع إلا بعد أسبوع.. هشمت قلبي.. نوبات بكاء.. حمى عالم أقرب إلى الغياب التام فقدت معه أي اتصال مع المحيط القريب والبعيد.. كنت أفيق مرة مرة على جملة القدر الساخرة "مات جمال" وغاب معه عالم من الحضور وصرت أنا بدوري غيابا خالصا.. غاب عالم من الحضور الحي الذي جمعني وإياه بأيامه ولياليه.. نوبات بكاء وصرع ولدت في جسمي قوة حزن قاهرة قادرة على الفتك بكل لحظة فرح يمكن أن تخطر على بال. سكنت ب"المسلمين" كما كانوا يدعونهم. عزم الفقهاء. كتبوا بالصمغ على البيضة وعلى "الزلافة". محوا مداد الكتابة. غسلوه بالماء. شربت مداد ما كتبوا.. كتبوا على الجبين.. لكن جمال مات.. ولم تنفع الكتابة مع القدر.. أشار عليهم كبار السحرة، وهو فقيه ضليع خريج المدرسة السوسية، بجز شعر رأسي. حلقوه عن آخره.. انتفضت أكثر.. سكنتني صرخة جمال وصرت أصرخ كلما غرق، كلما سقط. كان يسقط أمام عيني باستمرار. كانت الصورة الفوتوغرافية صورة سوداء.. كانت الصورة توقظني في سواد الليل، فأهشم وأمزق وتلتف حول جسدي السواعد القوية.. تخنق أنفاسي. ولم يشف غليل الصرخة وحرارة النداء إلا عنف إيقاع عيساوة.. كانت دقات الطبل والبندير والمزمار تنهك جسدي، تتطاير الأنغام من حولي تماما كرذاذ الشلال.. يرتفع الإيقاع تشتد الصرخة.. أسكب ماء البقراج الحار في جوفي.. يبقبق في حلقي باردا ثم تتهاوى تتضاءل الصرخة.. أسقط جثة هامدة. أفتح عيني وسط إيقاع سكينة عميقة تغمرني وهدوء ناعم

يحضنني.. أرى جمالا يبتسم.. أراه راضيا عني.. يرسمني، على مرأى من الشمس، صافية الثغر، لوحة عذراء، لأول أنثى تخطو على الأرض..

تتنهد نجاة ثم تغمض عينيها وتحدق اتجاه الشمس وتفتح عينيها وتنظر إلى الشلال ينهمر بسخاء وقوة وتردف: أفتح عيني كطفل المهد.. أسمع خريرا وأرى ماء صافيا يتكسر بغنج ودلال على أحجار كريمة.. أصيخ السمع إلى هسيس الصمت وأراه يرسم.. أتذكر ما يرسم وكأنه يرسم أمامي.. كان يمسك الريشة بقلبه، يغمسها في أحزانه ويرسمني في مختلف مقاماتي.. يرسمني في صلاتي خاشعة بدموع المؤمنات.. أتضرع.. في تأملي للبحر ينبسط ويرق وقت الغروب، أسبح.. وأسبح للخالق الذي خلق الجمال وخلق عيونا ترى الجمال.. يرسم خصلات شعري طائشة، متناثرة لسر عجيب لم يفصح عنه.. شكوت له يوما من ألم ممض يعصر قلبي، سألني عن السبب.. لم اجب. ابتسم ومرت أيام وفاجأني بما لم أتوقع، لوحة تحمل صورة فتاة معذبة، في جوفها آلام الإنسانية، صورة فتاة، هي أنا، معلقة في الفضاء، في فراغ رهيب بين السماء والأرض، مشدودة من معصمي بحبل من حرير، ومن كاحلي بحبل من حديد إلى الأسفل، إلى الأرض، جسدا نحيلا متوترا وفاها مفتوحا تخرج منه نقط سوداء.. تتابع.. تتناثر في الفضاء، في الضباب. قرأت في هذه النقط (..........) كل الشعر الذي قاله الإنسان منذ أن تعلم آدم الأسماء.. مرورا ببقايا حروف تيفيناغ المتناثرة على جدران كهوف الصحراء التي كانت جنة وصارت حنينا ورماد كتب حرقها التتار.. نعم ضممت هذه اللوحة إلى صدري، وقبلته بجنون لأول مرة أمام الملأ وعلى مرأى من الأخلاق والحضارات والثقافات.. قبلة طويلة رأيت فيها نجوم السماء وظلام الأرض ورائحة الطين القديم. صارت هذه اللوحة، يا إدريس، توأما لي، لا أفارقها أينما ذهبت، أشم فيها دائما وأبدا حزن الطين وعبير السماء. تمنيت لو بقي جمال حيا لرسم لي لوحة أخرى تجسد ما رأيته البارحة. رأيت البارحة بوضوح ما لم أره من قبل رأيت بألوان واضحة صورة مجردة من الأحداث.. سمها إن شئت لقطة سينمائية واحدة.. لا قبل ولا بعد. رأيتني أجري على أديم مياه بحر شديدة الزرقة.. حافية القدمين، لا أرتدي لا

قميصا ولا بنطلون، وإنما عباءة لففتها مباشرة على جسدي الحالم منحنية برأسي في اتجاه المحيط أرى قدمي وآثارها على الرمال من شدة صفاء ونقاء المياه الزرقاء وأمامي فارسان يرتديان قفطانا وسلهاما أبيضين وعمامة بيضاء ناصعة.. يتصارعان.. أسقط أحدهما الآخر أمامي.. تخضب المحيط العظيم بدم أحمر قان.. كان الفارس الصريع المكلوم يصيح بأعلى صوته، بصوت جهوري، قوي، لم ينل منه الجرح شيئا: فاطمة.. فـاطمـــا.. فاطـمـــا.. عندما استيقظت في الصباح تذكرت ابتسامة جمال التي أضمرت وعدا بالرسم.. نظرت إلى يدي النحيلتين اللتين لا تقويان على حمل خيال هذا الحلم الثقيل.. لم أبك كما كنت أفعل من قبل لأبسط انفعال.. أسدلت شعري أمام المرآة.. زينت عيني بالكحل.. تمليت وجهي في المرآة.. رفعت يدي، شممت الحناء، رائحة الذكرى وجدتها مضمخة، مخضبة بحزن معتق، جميل.. ابتسمت تحية للأنثى التي تراني.. كدت أتكلم.. تذكرت أني التقيت بك البارحة في الحافلة.. وجدتك رائعا.. قررت وأصررت على أن ألتقيك من جديد مهما كلفني ذلك، أن أراك أمام هذا المشهد الخالد ويكون الشلال شاهدا على ذلك.. بحثت.. كنت بعيدا.. قريبا. فجأة رفعت بصري إلى الأعالي رأيتك وكنت عند قدم الشلال، أمام البحيرة. رأيتك واقفا عند مساقط الشلال، إلى جانب شجرة من الصفصاف. حدقت بعين الشمس، رأيتك شاردا وقررت القبض عليك حالا في حالة تلبس بتهمة اقتحام خلوة أنثى حزينة تتأمل ذاتها في المرآة.

ضحكت.. وقلت لها لو علمت بالأمر، لقدمت نفسي طائعا لمحكمة الإناث، قربانا للجمال الخالد.

أحسست بيديها ناعمتين دافئتين.. سحبتهما من يدي فزادت من لهفتي. كنت في مقام الشوق، أتطلع إلى القبلة الكونية. كنت قاب قوسين من الجيد العاجي وليل شعرها الحزين.. كانت ضحكاتها، يا يوسف، حزينة. من بين دموع عينيها

الكحيلتين، انبجست ضحكتها رنانة، ضحكة عميقة، تدفق معها الشلال بفرح و ضحك الحزن لأول مرة.

ابتعدت عني قليلا وأحنت رأسها إلى الأرض. اقتربت منها أكثر. مددت يدي، وبأناملي رفعت إلي الوجه الملائكي.. أمسكته بين يدي المرتعشتين. رفعته إلى الشمس، فتساقط الشعر الشلال إلى الخلف. اتسع بياض الوجنتين وغنت العينان، الشبه مغمضتين، لحنا خالدا وقلت في مقام الاعتراف والقرب كفارس يعود مظفرا إلى مملكته بعد سفر طويل:

– إن أرواحنا، يا نجاة، ليست بأيدينا، لعلنا كنا نحلم في نفس الوقت قريبا من الشلال وعلى مسمعه..

– وكيف يمكنك أن تنام قريبا من الشلال ولا تحلم

– ليس مجرد حلم... لبس حلما فقط...

– ماذا تقصد ؟

– ثمة وشائج سرية بين ذات النظارتين السوداوين والملابس البيضاء التي أرادت دفني وبين الفارسين اللذين اقتتلا من أجل حياتك يا فاطمة من أجل بقائك حية في هذا المحيط. كنت على وشك الموت لو...

تراجعت إلى الخلف قليلا وهي تقول:

– ولم لا تقول من أجل الظفر بي.

تراجعت قليلا. تقدمت أنا أكثر. ذعرت وأنا أراها تتراجع إلى حافة الشلال قلت منبها:

– حذار من السقوط.

– لم أعد أخشى شيئا.. تمنيت لو غرقت في البحر الأزرق لأنام أكثر وأحسن.

– لكنني لن أراك.. لن ألقاك ويموت الفارسان معا..

– بل سأراك أحسن وسألقاك بطريقة أفضل. أغمض عينيك لتراني أحسن وأجمل. أنسيت أن الأمر حلم في حلم ؟

– أحيانا يتقاطع الحلم والواقع، يتشابكان ويصير من الصعب الفصل بينهما.

صمتت نجاة، فدونت تاريخ قصة حزنها في قلبي.. تمنيت لو كنت رساما لرسمت حزنها الرائع. وبدلا من أن أمسك بقلم الرصاص أو الفرشاة، أمسكت بمعصمها. انتابني إحساس غامض بالفقد. خفت أن تضيع مني، أن تكبر الذكرى في قلبها وتتسع إلى ما لا نهاية وتتحكم في زمام أمرها.. وتصير جنونا خالصا يمكن أن يرمي بها من فوق هذا الحالق كجلمود صخر حطه السيل من عل.. توددت إليها وطلبت منها النزول معا إلى الأسفل لنرى الشلال أحسن.. ثمة قوة تدفعنا للنزول، لا مجال للرجوع، لا مجال للالتفات.

عبرنا النهر المتدفق بواسطة قارب صغير مشدود إلى الضفتين بواسطة حبل متين. التفت إلى أعماق الوادي رأيت مقهى بسيطا معلقا في الفضاء، اقترحت عليها الجلوس فيه لبعض الوقت ثم سرنا في طريق مرتفع ملتو متعرج بين شتى أنواع الأشجار والنباتات. جلسنا إلي مائدة دائرية مواجهين معا الشلال فوق جسر طبيعي أبدعه الخالق الوهاب. نظرت إلى الأسفل رأيت مياه النهر المتعبة التي أنهكها الشلال باندفاعه، تسير مغمى عليها في دوخة ما بعد السقوط، مغمى عليها من فرط الجذب الذي تعرضت له من الأعلى إلى الأسفل. انتظرنا أن يحضر النادل.. لم يأت.. حضرت فتاة سمراء تحمل لنا قهوة سوداء يختلف طعمها عما ألفناه في مقاهي المدن. أعدتها بوسائل بسيطة.

جلست نجاة على كرسيها وهي شبه ممددة. أسندت رأسها إلى يديها المتشابكتين خلف رأسها.. بعد أن جمعت أشتات شعرها في إضمامة جميلة وبسطتها على صدرها. كان صدرها يعلو وينخفض في هدوء عجيب وتنفس رتيب وقد عادت إليها السكينة.. عيناها حالمتان.. نهداها نافران متيقظان.. صمتت لم تقل شيئا.

نظرت إلى أفق الشلال، نظرت حيث نظرت. أحاطت العينان المتسعتان المتألقتان بمنظر الشلال بمجمله. من هنا يمكن الإحاطة بالشلال بعد أن كان هو من يحيط بنا، قلت لها. لم تجب نظرت حيث كانت تنظر.. رأيت أسراب الحمام تحلق دفعة واحدة وتعود إلى مغاراتها الصغيرة القائمة وسط جدران الجبل، غير بعيدة عن صبيب الماء المتساقط.. بدت لي ككائنات ما قبل التاريخ، مغارات صغيرة رطبة محاطة بأنواع مختلفة من النباتات المتدلية إلى الأسفل، يجرفها السيل ولا تسقط. انعكست شمس الأصيل على هذا المنظر فزادته بهاء. ظهر قوس قزح مرة أخرى، مختالا في ثياب عروسة الشلال..

نظرت حيث كانت تنظر، رأيت ذكر الحمام يغازل أنثى الحمام، يقترب، يبتعد.. تنتفض الأنثى.. تستكين. كان الحمام يراهق حسب إيقاعه الخاص، على مرأى من رذاذ الشلال وألوان القزح السبعة. كان المنظر لوحة متحركة تتكرر فيها هذه المشاهد إلى ما لا نهاية. يطير الحمام.. يحط.. يقيم في مغارات ما قبل التاريخ. تمنيت بل تخيلت نجاة تنفذ بجسمها اللدن إلى هذه المغارات تنقب عن آثار حضارة كونية، لم يصل إليها التاريخ لحد الآن. تخيلتها تترجم لي هديل الحمام وتكتب على أوراق خاصة وبخطوط أبجدية غريبة، ما خصها به الحمام من همس.. تخيلتها تكتب ما يمليه عليها الحمام.. حروف سحرية بمختلف الألوان.

أردت أن أبوح لها بهذه الحفريات الشعرية التي عنت لي.. وفجأة رن الهاتف المحمول، اعتدلت في جلستها، تتابعت الرنات، بدون توقف. أخرجت الهاتف المحمول من الحقيبة السوداء: "الو الو.. الحمد لله" ثم عبس الوجه وارتسمت على

ملامحها علامات الصرامة والجد: ".. ولكن.. أنا في أوزود" استفسرتها عن الأمر، قالت:

– اتصل بي حميد، طبيب العيون الذي أشتغل معه.

– من أين ؟

– من باريس حيث يقضي إجازته ؟

– ماذا يريد إذن ؟

– يريدني أن ألتحق بالعيادة حالا لأشتغل إلى جانب طبيب آخر يحل محله ريثما يعود إلى أرض الوطن.

– كان دائما يقضي إجازته في باريس.

فكرت في الجمعية الطبية الأمريكية التي حلت في السنة الماضية بزاكورة والرشيدية لتقديم علاجات مجانية للأهالي الذين يعانون من داء الرماد. لم يتمكن مستشفى بوكافر الكبير بورزازات من استيعاب العدد الهائل من مرضى العيون. قلت في نفسي لم يعد سكان الصحراء الذين ترصدوا خطى الاستعمار بعيونهم الحادة، قادرين على النظر إلى الشمس.

قالت:

– كان حميد طموحا يستغل إجازته السنوية للقاء أصدقاء أطباء والتعرف عليهم وعلى خبرتهم، لتطوير خبرته وأدواته. لا بد من العلم لتطوير الرؤية.

– هو الذي نصحك بوضع النظارات الشمسية السوداء لرؤية الشلال أحسن.

– لم يسبق للطبيب حميد أن زار الشلال ولا الصحراء ليس لديه الوقت الكافي.. وأنا متأكدة، انه لو فعل لاكتشف نظارات وقائية مناسبة لكل مشهد من مشاهد الطبيعة المغربية.

قلت لها مقاطعا:

– أنا على العكس أفضل مواجهة مباشرة بين العين والطبيعة.

– وهذا ما أدى إلى انتشار داء الرماد خصوصا في المناطق حيث أشعة الشمس حارة وحادة. ولن تستطيع مهما حاولت أن تزيل جميع الوسائط بيننا وبين الأشياء. ثمة حجاب دائم بين العين وبين ما نرى.

وقفت منتصبة، جادة، مستقيمة.. فكت إضمامة شعرها ثم ربطت الشعر الجامح بدبوس.. أخذت حقيبتها.. اعتذرت بلباقة. اكتست ملامحها جدية أكثر مبالغ فيها.. قالت بأن عليها أن تسافر حالا، أن تلتحق بالعيادة في أقرب وقت.

بهتت لأفول الشعر وتراجعه من مساحة وجهها، صعقت لهذا القرار الخطير.. توسلت إلى حد البكاء.. قسا القلب، صار قلبا آخر، صار عقلا عمليا، رصينا. طلبت موعدا للقاء، قالت لي: هذا اللقاء الأول والأخير، قلت لك كل شيء وليس لدي ما أضيفه.. كشفت لك السر الخطير الذي لا يقال إلا بين غريبين وإذا التقينا مرة أخرى صرنا أليفين. انتهى الأمر بيننا. انس ما كان.. لا يمكن أن نتصرف خارج ما تمليه الأقدار، التقينا لنفترق، للتذكر خلق النسيان وللقاء خلق الفراق. وداعا.

انصرفت، انسحبت كانت واثقة من نفسها. كان وداعها قاسيا. كان وجهها الآخر قاسيا. قلت هل كان لا بد من هذه القسوة لإرجاع الأمور إلى نصابها كما يقتضي العقل والمنطق والأعراف ؟

بقيت ممددا على الكرسي، مشلول الحركة، عاجزا عن التفكير، لا أدري من أمري شيئا.. سقط المطر زخات. لم يدم ذلك سوى دقائق معدودة وها هي شمس الصحراء الحارقة تظهر من جديد، وها هي عروسة الشلال تغادرني بإرادة حديدية وقرار بارد وعزم حجري لا يعرف اللين.

قالت: بيننا واد عميق لا يمكن أن يجف.

قلت: يمكن أن نسبح كل من ضفته، يمكن أن نلتقي، يمكن للماء أن يبتلعنا معا. المهم هو أن نسبح نحو بعضنا البعض. يمكنني أن أسبح وحدي إليك، أن أبادلك الحب من طرف واحد. المهم أن أجدك في انتظاري على الضفة الأخرى... يمكن... لم تجب، انسحبت ولم تقل شيئا...

التفت إلى يوسف، وجدته هادئا يسمع كلماتي بأذن داخلية عميقة.. بدا ذلك من عينيه المسافرتين، تنظران إلى أفق غير مرئي. قلت:

– ماذا ترى، يا سندباد، فيما حكيته لك ؟

– كما تراني جثة هامدة، لفظتها مياه بحر قصتك على شاطئ مهجور.. رأيتني فارسا مضرجا في دمائه، في بحر حلمك الذي حكيت عنه قبل قليل، دماء حمراء تتسكع في مياه زرقاء باردة.. تأكدت الآن من حقيقة جمالية ألا وهي أن الجمال يقتل.. وأن الفن يقتل.. وأن الحكي يقتل، ولقد مات قبلنا آلاف من البائسين ولم ندر عنهم شيئا.. ماتت ليلى وجن قيس وسقط كل من سولت له نفسه تسلق السور والنظر إلى فتنة مدينة النحاس.. إن الحجاب هو الذي يقتل، يا إدريس، لأنه يعد، يغري بمزيد من النظر.

– بل العكس الحجاب هو الذي يقي أحيانا من الصدمة الكبرى والدهشة العظمى. لا يمكن أن نحدق في الجمال أكثر مما ينبغي.. ولا يمكن للقلب أن يقوى على الاستيعاب.. وهذا هو الدرس الذي لم استوعبه إلا بعد انسحاب نجاة.

– لذلك كانت نجاة تنسحب.. كلما اشتد الحال ونضج الحضور. كانت تشفق عليك وتنسحب. وليست قاسية كما تدعي.

– كانت قاسية.. تنسحب من يدي كقطرات صافية تضيع من فروج الأصابع حين يشتد الظمأ.

– من لا يعرف الفقد.. لا يمكن أن يعرف الحب.. أجمل الزهور هي التي يلدها الصبار بعد تاريخ طويل من العطش الأزلي. هل تعرف أن بعض أنواع زهور الصبار لا تتفتق إلا بعد ثلاثين سنة. أما الصبار البشري فلا يزهر إلا بعد الأربعين.

نظرت إلى أصص الصبار الموضوعة خارج الغرفة وقلت له:

– وهل تسقي هذه الأصص ؟ أراها لم تزهر بعد..

– لا أسقيها ماء.. أسقيها بنظراتي اليومية.. يبدو أن هذا لا يكفي لذلك لم تزهر بعد.. علي مزيدا من حسن النظر...

– انتظر كما تشاء. لكن خبرني عن الحزن الذي يسكن الصبار.. حدثني عن عطشك، عن حزنك البري، عن نخيلك، عن الأنثى الساكنة في أعماقك..

– لا أستطيع الآن ولكن أعدك.. لقد كتبت أشياء كثيرة عن سناء، ذلك اللغز الكبير والذي لا يقل غموضا عن لغز نجاتك.

اعتدل في جلسته، ثم وقف واتجه نحو الدولاب، فتحه وسحب ملفا بنفسجيا وقال لي:

– هذه بعض الأوراق التي كتبتها ولكنها لم تزهر بعد. عليك أن تنتظر ثلاثين سنة لكي تزهر.. اقرأها وستتعرف علي وعلى ال "سناء". الغريب أنني كتبت عنها أشياء كثيرة ولم تتمكن سناء من قراءتها رغم أنها كانت معنية بذلك.. بالمقابل كتبتني هي.. كتبت عني هي أيضا يوميات لا تحصى ستجد القليل منها هنا. أما الكثير منها فقد احتفظت به. كانت تؤكد لي في لقاءاتنا وعندما اطلب منها السماح لي بقراءتها، كانت تقول لي، هذا ليس أوانه. عندما أنتهي منها سأناولك إياها لتقرأها في عزلتك.

علمتني الانتظار.. انتظرت ثلاث سنوات ولم أتمكن من قراءة ما تكتبه سناء عني.. وعدتني بان تناولني مسودة الكتاب بكامله بعد اجتياز امتحان البكالوريا. كانت البكالوريا بالنسبة لي امتحانا مضاعفا.. كنت أنتظر وأصدق وعدها. أعد نفسي للقراءة

العظمى.. انتظرت.. وكنت أظن أنها كانت تختبر حبي لها بالانتظار كما هي عادة العشاق الكبار وانتظرت.

قالت لي ذات يوم عقب أحداث ساخنة بسبب إضرابات خاضها طلاب المدارس الثانوية والجامعية ضد الهيكلة وإعادتها، قالت: لقد كتبت عنك يا يوسف ما لم تكتبه أنثى عن ذكر. ما لم تكتبه عاشقة عن معشوقها.. قصيدة طللية متمردة.. وكنا في هذه الفترة من تاريخ الصفيح المغربي الساخن، نتدرب على صياغة مشاعرنا في الحب والسياسة، نشكل مشاعرنا وفق قوالب البحور الشعرية العربية للاعتراف بنا.. نكر ونفر ونعوي على إيقاع الطويل وعلى طريقة امرئ القيس في الشعر والصيد والحب. قالت لي بأنها نظمت قصيدة متعددة الأغراض لكن بمقدمة طللية سياسية ثورية، أيقظت فيها العظام من سباتها، أيقظت الأرواح الكسلى من جمودها، وقفت على القضية الفلسطينية وعلى انتفاضة الأرض وتمرد الثالث من مارس. وعندما سألتها ونحن نسير في شارع النصر الرئيسي للمدينة قرب مقر الدائرة الأمنية: وبعد ؟ ابتسمت وصمتت، احمرت وجنتها قليلا قبل أن تستأنف: انتقلت إلى الموضوع الرئيس ألا وهو الغزل.. الغزل العذري. قلت هذه ثورة على امرئ القيس وأتباعه. قالت لقد كتبت عنك.. لقد كتبت عنك أنت.. قالت ورددت جملتها التي كانت تكررها بدون ملل:

"وأرى الغزالة قد استطاعت أن تهتك سر الخرافة"

كانت ترددها دائما وتكتبها في دفاتري.. كانت تريد لنفسها أن تكون غزالة تجري على طريقتها الخاصة، تكتب على طريقتها الخاصة.. كانت تكره المواعظ والنصائح.. تعشق التجريب.. كانت تقول لي أفضل فوضى الخطأ على ألف صواب مطروق..

منذ ذلك الحين صار للغزالة عندي معنى آخر.. صارت كائنا كتابيا.. أول غزالة جريئة.. تقلب الحقائق.. لو كان الأمر بيدي لسميت هذا الكتاب الغائب "أوراق الغزالة الخرافية"

كتبت الأوراق في غيابي وجاء الفراق الأكبر واختفت سناء ولم أقرأ الكتاب..

قلت: كتاب "أوراق الغزالة" ربما سنقرأه معا.. يوما. كم سيكون رائعا أن يكون بمكتبتي كتابان متجاوران: كتاب "أوراق الغزالة" لسناء وكتاب "زهرة الصبار" ليوسف.

غادرت غزالة يوسف مجالها الحيوي لأول مرة وصرت طرفا في المعادلة، وقارئا محتملا أولا لكتاب هارب. منذ سنيين وهو يحتفظ بسرها، متكتما عليه، لكن لا أحد يدرك هذه الخرافة ولا تفاصيلها. دفنها في قلبه وتراكمت عليها طبقات مترسبة من النسيان والتناسي كما قال لي.. فرارها الدائم أصبح عادة يدمن عليها، يطاردها في صحرائه الكبرى والتي لا يعرف عنها أحد شيئا.

صارت الغزالة بفعل العادة، تناسيا محضا وتكيفا مع حزن ثقيل، استقر في نفسه، ما غادره يوما ولا زالت آثاره في ابتسامته الخفيفة الشاحبة التي توحي لمن لا يعرفه أن ثمة شيئا خفيا غامضا كظل غزالة هربت للتو. في نظرته البعيدة، ترقب خرافي لطيفها الذي يمكن أن يظهر، يباغته بوجوده. في قراءته للكتاب، لم تسلم أنثى صادفها في منعطف صفحة من أثر هذه الخرافة التي نحتته وشكلته بعجينة من نور وماء.

اعتاد على الفقد وعلى الخيال كما قال لي فقد تأثر كثيرا بصورة الرسام الذي فقد يده اليمنى ولم يمنعه ذلك من الرسم باليسرى التي قرأ عنها في إحدى الروايات التي صدرت أخيرا لأحلام مستغانمي. لم يمنعه الفقد من رسم ما فقده باليسرى. قال باليسرى نرسم أحسن وأجمل، نرسم وجها آخر لا يعرفه الناس. باليسرى نكتب عن الفقد أحسن ومن لم يصب بفقد، لن يكتب أبدا، إلا أن يوسف فشل لحد الآن في كتابة هذه الخرافة.

كتب مسودات عديدة لقتل هذه الخرافة، للتخلص منها إلى الأبد. كانت كتابته جذبا وانجذابا إلى مزيد من الخرافة. كيف يمكن أن يترجم، للناس وبلغتهم، خرافته التي تقض مضجعه ؟ بمقدار ما تؤلمه، بمقدار ما لا تهمهم الخرافة، خرافته.

وسيظل في أعينهم شاعرا ملعونا أو مجنونا أو مريضا لا تتسع المصحات لإيوائه، ولا لطبيب، قرأ عن أوديب، أن يتسع صدره لفهم لغة جديدة أقرب إلى رذاذ النجوم في الساعات المتأخرة من الليل.

كان بينه وبين الناس حجاب، لذلك كتب واحتفظ لنفسه بذلك الألق وذلك الوميض الذي يمكن أن يتفطر له قلبه في أية لحظة وتنشق له السماء في ثانية وتظهر غزالته في مقامها السامي ممشوقة القد بابتسامتها العريضة التي تسع الكون كله. في لحظة قصيرة أيضا تنسحب تاركة إياه طريحا قتيلا مضرجا بمداد دماء الغزالة. دماء يفوح منها عطر مسك حزين وقديم. اللغة لغتهم والخرافة خرافته. من يصدق أن بالجمل المفيدة يمكن أن نقول أشياء غير مفيدة أيضا ؟؟

تسلمت منه الملف البنفسجي، هذا الميراث الحزين وأحسست أني سموت درجة أو درجتين في مقام الصداقة، في مقام الحلم، حلم يوسف الذي استطاع، غير ما مرة، أن يرى النجوم في شمس الليالي. تسللت ذلك المساء وتعلمت من صباره وأكلت من كعب غزاله وكانت لحكاية الشلال ذلك المفعول السحري.

اطمأن لي ورأى، كما قال لي، في قصة نجاة خرافة يمكن أن تقع. ونصحني بالكتابة وقال لي، في الكتابة لا يهم لمن تكتب، المهم أن تعيش ما كتبت. في الكتابة يتضاعف الوجود وفيها يمكن أن نواجه أنفسنا وأن نتحدث إلى مرآتنا ونصدق خرافتنا. قال لي اكتب لتعيش كتابتك، لتعيش حياة أخرى لم يسبق لك وأن جربتها. ولا يهمك بعد ذلك خزعبلات النشر والشهرة والنجومية حيث لا نجوم. وإذا كنت غير مطمئن على ما كتبت، على مصير حروفك، يمكنك أن تمزق ما كتبت بروح رياضية أو تحرقه، إن أمكن. أكتب عن الحريق بعد ذلك، عن الأوراق الممزقة لكتاب ممكن.. الكتابة عن المستحيل، عن هذا الذي لا ينكتب..

كان بودي أن أسأل يوسف عن الكتاب المخطوط الذي أشار إليه متحفظا ولم أفعل. تساءلت: هل ضمنه هذا الميراث ؟ تفحصت الملف ورأيت مجموعة من

الشذرات والمقاطع والتي بدت لي أول وهلة كشظايا جسد فجرته فكرة ما، كشظايا قلب فتته الجمال.. لم يصمد أمام الفتنة والسحر فكتب للنجوم البعيدة في ليالي العزلة التي أنضجته وصيرته حكيما يلمح ولا يصرح، يشير ولا يفضح.

قال لي اقرأ خارج النظام والتسلسل، اقرأ كما يحلو لك.. حسب الإيقاع الذي تختاره يمكن لهذه الشذرات أن تصبح نصا ينتمي للنوع الأدبي الذي تريده. وهناك في الملف أيضا كتابات خام لا يد لي فيها.. إنها بعض من كتابات سناء التي جادت بها علي، ووثائق مهمة: رسوم،خربشات قلم، قصائد، اعترافات، كتبتها بيديها، لا زالت دافئة، خبأتها تحت جلدي ما يزيد على عشرين سنة.. هي دائما جديدة بالنسبة لي رغم قدمها.. كلما قرأتها، أحس وكأنها سلمتها لي توا.. طوال هذه السنوات كنت قلقا على مصيرها. من يقرأها معي ؟ لمن أسلمها في حالة الحرب والسلم ؟ في حالة الحياة والموت؟ في حالة الغضب والرضا..؟

عندما تسلمت هذه التركة الشعرية الحزينة من الأحلام والأشواق.. المتفرقة المتناثرة، لم أجرؤ على قراءتها أول الأمر.. خوف.. وجل. كان من الممكن ألا يعتريني هذا الارتباك لو انتظمت هذه المواد الكتابية الخام في كتاب مطبوع. لو صفت ورتبت تحت إمرة عنوان براق.. أي قارئ أنا الآن.. قدر لي أن أجد نفسي أمام مغامرة ترتيب جمل وفقرات تحتمل التقديم والتأخر.. آلاف التأويلات بل إمكانيات شتى للكتابة. كنت خائفا عليها من نفسي.

كانت الغزالة تطاردني بخرافتها في صحراء كتبها يوسف، وأنا لا عهد لي بخطوط الرمال ولا ظنون الكهان ولا آثار إبل جريحة، عطشت زمنا طويلا قبل أن تشرب من عين رقراقة.. أين لي بذلك العطش الأزلي والظمأ الخالد الذي يمكنني من تأويل السراب وقراءة الغياب، لفهم طيش غزالة تسكن البيداء، هاربة أبدا، خائفة دوما، لا يهدأ بالها، ترتجف للحن شفيف، تحمله ريح الشرق من أرواح مسافرين قض

مضجعهم التيه. كانت خرافة الغزالة أكبر مني، وكان اللغز أكبر مني. ولا يمكن لمعلومات شحيحة في الآثار أن تكفي لفهم جرج غزالة خرافية.

أخذت ذلك الميراث من يوسف واحتفظت به، منتظرا الإشارة والوقت المناسب، ريثما يظهر النجم، نجم الحروف. ولطلوع هذا النجم أوان.. صرت لا أستعجل.. علمتني نجاة كيف يمكن للإنسان أن يضيع جوابا كبيرا بسؤال تافه متعجل.. كان من الممكن لنجاة أن تتدفق دفعة واحدة أمام أول حب، الحب الذي قذفته في قلبي بعينيها السوداوين. كان من الممكن أن تشرق دفعة واحدة أمام ليلي المعتم، أمام شهقتي الساقطة من أعلى جبل توج رأسها إلى أخمص قدميها، شهقة ساقطة من عل، كسقوط ذلك الشعر الأسود المسترسل إلى ما لا نهاية. هدهدت رعبي طوال الرحلة وصارت بي من مقام إلى مقام إلى أن التقطت الصورة في المكان المناسب والوقت المناسب، صورة ذلك السقوط الجميل..

لكني ارتكبت الخطأ الفادح الذي لم أعثر له الآن على اسم ولا تعريف ولا تشخيص، فانسحبت مني وغادرت بدعوى القيام بالواجب. القيام بالواجب يعني أداء الخدمات الروتينية المفروض أن تقوم بها ممرضة أخرى إلى جانب طبيب عيون محترم في عيادة المدينة. انسحبت مني وتركت رماد عيوني بدون شفاء، بدعوى عدم الامتثال للوصايا غير المكتوبة.

هل هو تطاول ؟ هل هو فضول أكثر من اللازم ؟ هل هو نظر زائد ؟ هل هو نظر إلى ما لا ينبغي النظر إليه. علي إذن أن استوعب الدرس جيدا، فالسفر طويل إلى مدينة النحاس.. التي رأيت سورها يرتفع في ليالي شهرزاد أكثر من اللازم.. ارتفع أمام قامتي الصغيرة، أمام بصري الشحيح وقلبي الغر. كان خيالي يشرئب بفعل فضول لا مرئي يحثني على التسلق.. ولم أنظر للذين كانوا يتساقطون أمام أعيني..

في مدينة النحاس يقيم يوسف مع سناء بين دفتي ملف بنفسجي من الوثائق والأسرار.. أسرار شعرية أيقظت خلايا كانت نائمة في المناطق المظلمة من نفسي.

قدمت له قربان حكايتي، فجاد علي بمدينة الملف البنفسجي.. حكيت له من حيث لا أدري أشياء عشتها ولم أفقهها بعد وهاهو الآن يشير علي بمدينة النحاس حيث يختار الشعراء موتهم، يسافرون آلاف الأميال من أجل موت جميل.. يمدني بوثائق سرية من الصعب على مخابرات تشتغل على الخيال أن تفك رموزها. كيف يمكن لطفل صغير، غـر، أن يقطـع المسـافات الكبـرى.. كيـف يمكـن الإحاطـة بهـذه العـوالم الشـعرية وبالمفاجآت الكونية وأسرار الأسماء التي تظهر في أوقات معلومة وتختفي ؟؟

كنت بحاجة ماسة إلى معرفة ذاتي أكثر.. وأن أواجه الأسئلة الكبرى: ماذا بإمكاني أن كونه ولم أكنه حتى الآن ؟ ماهي مدارج الوجود الأخرى التي لم أرتقيها حتى الآن ؟ لماذا انسحبت نجاة في قمة السحر والجمال حيث تبتغي الإقامة ؟ ماذا كنت وماذا سأكون لو لم ألتق بنجاة ؟ ماذا صرت بعد هذا اللقاء الغريب ؟ ماذا يمكن لأميرة الشرق أن تكشفه من أسرار في قلب طفل ولدته الصحراء وسقاه الظمأ، وأتعبه السراب وهو في بداية الطريق ؟كم مرة نولد في اليوم.. مع كل فكرة.. مع كل طيش.. مع كل نزق.. مع كل حكمة ؟

أنا الآن في حاجة إلى حكمة هادئة مضمخة بكل أنواع العطور وبكل الفنون، مشبعة بعلوم القلب.. فيها كل المقامات النجمية.

- القشيري -

غاب عني يوسف أياما.. كان غيابه اختبارا لصمود الحلم في الواقع، كان محنة لي وفي نفس الوقت فرصة لطرح السؤال الكبير: هل يمكن للكائن الحالم الذي أيقظه في يوسف، أن يمشي على الأرض واثقا من نفسه معتمدا على نفسه دون أن يتكئ على أوهام الكتب ومجازات الشعر التي تزورنا من العالم الآخر ؟ لا أخفي أنني أردت أن أبتعد عن يوسف قليلا لأفهم مدى صلابة الهشاشة في داخلي عندما اقتحمت الرواية ووجدت نفسي فجأة أمام كائنات خيالية وشخصيات من ورق أقنعتني بالدخول في ما يسميه البعض بلعبة الأدب ولعبة التخييل. بالنسبة لي لا مجال للعب مع الخيال في الرواية... اللعب فيها جد كل الجد... أن تكون أو لا تكون... أن تعيش الهشاشة بكل تجلياتها أن تعيش الحياة ككوخ بسيط واثق من نفسه في مهب عاصفة كونية...

فرغم ضغط العمل وضيق الوقت كان من الممكن أن أزور يوسف في مخدعه بين الفينة والأخرى إلا أنني فضلت الابتعاد عنه قليلا لأفهم ما وقع... أردت ترتيب وجودي من جديد.. أحيانا نحتاج إلى ما يلزم من مسافة لندرك في أي نقطة نقف وفي أي مجال نتحرك لنفهم من نحن ومن نكون. عدت إلى عملي الروتيني، كتابة تقارير.. ومشاريع عمل اعتمادا على المعطيات والتعليمات التي يمدني بها سعيد، تكون رهن إشارته لاتخاذ القرارات الملائمة لإحصاء الآثار في البلاد وتشخيص أمراضها. عدت إلى عادتي كآلة عمل تشتغل لتنفيذ الأوامر وتطبيق تعليمات سعيد الرئيس المباشر.

في نهاية الأسبوع، وبينما أنا أغادر مفتشية الآثار والمباني التاريخية، إذا بي ألتقي بصديقي القديم عبد الله القشيري. شربنا قهوة المساء وتجاذبنا أطراف الحديث عن المسرح الذي يهتم به ويجند له كل وقته ومجهوداته منذ عرفته. يؤمن برسالة المسرح ويؤمن بأن عليه أن يقوم بشيء ما لأداء بعض من سطور الرسالة المقدسة، كما يحلو له أن يسميها. رسالة تقوم على شعار كان يردده دائما: علينا أن نغير المسرح ليغيرنا هو بدوره. كان يقول إن المسرح نهر جار لا يمكن أن نستحم فيه مرتين... المسرح فوق المفاهيم والتصنيفات التي يسجنه فيها النقاد.

عبد الله أستاذ مادة اللغة العربية، مهووس بالخشبة والكتاب، وهو ما قربني إليه أكثر.. تحدث لي عن خوضه لغمار تجربة مسرحية، جديدة، تختلف عما قام به حتى الآن، بعد أن أحرق سفن طارق بجزيرة تأجل فيها موعد المعركة إلى أجل غير مسمى.. قال لي، لقد هدأ غضب الروم ولا داعي للتجنيد من أجل معركة لن تقع.. وأن ميدان المعركة مع الروم في الداخل وليس في الخارج. يجب أن نواجه بشجاعة وواقعية هزائمنا الداخلية. قال لي بأنه بصدد الإعداد لنوع آخر من المسرح بعيدا عن هتافات النصر وويلات الهزيمة.. يتعلق الأمر بمسرح الطفل، ويهيئ مسرحية المانشو يقوم فيها ابنه الذي لا يتجاوز أربعة عشر ربيعا، بالدور الأساسي، يقف على الخشبة بمفرده إلى جانب كرسي فارغ، شاغر وعال يكاد يوازي قامته.. يقف على الخشبة لمدة ساعة ونصف. يقف وحده أعزل بدون نص يسنده ولا ديكور براق يخطف أنظار الجمهور ويشغل المتفرج عنه... طفل أعزل... وجها لوجه مع العالم.

أعجبتني فكرته وهي فكرة جديدة وليست عابرة.. قال لي بأنها ستكون خياره الفني، يسير على دربه، إلى أن يشاء الله، مع ابنه. قال لي بأن التجربة ليست سهلة، ستكون مغامرة مع جمهور ألف الجماعة، ألف الجوقة... أحيانا تبدو له مستحيلة ويكاد يفكر في التراجع عنها ويحرق سفنه ويعود سالما غانما قبل خسارة محتملة بسبب ما سماه بهجمة مسرح التجارة الذي يضحك على الذقون بكل أصناف

الضحك العروبي والشعارات الرنانة النمطية التي أصبح يرددها غير المؤمنين بها.. اختلط الحابل بالنابل، والوزارة غارقة حتى النخاع في فك مسالة الدعم، دعم الجودة ودعم الصحبة ودعم المعرفة ودعم المحسوبية.. دعم الجودة إن كانت هناك جودة.. المسرح الذي نشوهه، نغيره ولا يغيرنا.

بالنسبة إليه الضحك ينقسم إلى ضحك مع الجمهور وضحك على الجمهور ويستغرب لهذا الإقبال على الضحك بمختلف أنواعه، بدرجة مثيرة إلى درجة كادت تنقرض معها الأنواع الأخرى. كادت التراجيديا أن تصبح ذكرى... وصار المسرح بالنسبة للأجيال الجديدة، مرادفا للضحك وصارت التراجيديا لرواده حنينا.. صار البكاء حنينا، بما فيه، البكاء على مسرح الهواة.. لم يعد من يهوى المسرح.. لم يعد من يحب المسرح. بيع المسرح بدراهم معدودة واختفى من الثانويات والإعداديات وحتى الابتدائيات.

أصبح المسرح، في نظر القشيري، مسرحا متملقا، يكتب المؤلف ما لا يحب للحصول على ما يحب.. جمهور كسول، ألف اللعبة وارتاح لها.. كيف تريده أن يلتفت لطفل ثرثار فوق خشبة فقيرة، لا تهتم ببذخ الديكور الذي يشغل المتفرج ويلهيه ويحد من خياله.. قال لي بأنه يدرك هذه الوضعية الصعبة، ومع ذلك فإنه سيغامر ولا يهمه أن ينجح.. ما يهم، عندما نصعد الركح، هو أن نكون وإلا لا داعي لكي نكون.. ولكي نكون حقيقة، لا بد لنا من خيار صعب، لابد لطارق أن يحرق السفن من أجل عيون الفردوس المفقود.

كان القشيري معجبا بالمتنبي وكثيرا ما كان يردد على مسامعي بيته المشهور:

إذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسام

المسرح لعب مع الحياة، من أجل حياة أفضل. وإذا كان الأمر لعبا، فالأفضل أن نلعب لعب الكبار، مع الكبار وللكبار...

أدهشني عبد الله ذلك المساء وأيقظ روحي الكسلى مع طفله الصغير الذي يريده أن يلعب لعب الكبار.. طفل، لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، يتكلم لغة أكبر منه، يكبر قبل الأوان. فكرت وقلت له بأن مشكلتنا، نحن الكبار، هي كيف نحيي الطفل فينا، كيف نتداركه قبل أن يموت فينا.. الطفل هو الكائن الذي لا يجب أن يكبر فينا لأن بالطفولة نرى الممكن.. بالطفولة نتلذذ بتجريب الأشياء باستمرار.. لكي يبقى العالم دائما جديدا طريا دافئا.

قال لي: أنت تعرفني.. أنا متنبي الهوى.. أن أكون أو لا أكون.. أن أسحق الخشبة أو تسحقني. بالقلم والسيف والكرسي يمكن أن نهزم البيداء التي تقتلنا والفراغ الذي يقض مضاجعنا. لكني خائف وأخوف ما أخافه أن أقتل غدرا وأن تسحب الخشبة من تحت بساطي إن لم أمدح نجوم الزمن التي لم تعد نجوما باللغة الخشبية التي يحبونها.

قلت له ستحيى يا قشيري وستنجح، إن شاء الله، في مهمتك النبيلة هاته، إن بقيت وفيا لكرسيك وخشبتك، على شرط أن تخفي سيفك وأن تتعلم السير في المدينة بعيدا عن بلاغة الحجاج ومبالغات المتنبي الذي لم ينج من مدح وهجاء الكافور وغيره، في زمن لم نعد في حاجة لا إلى المدح ولا إلى الهجاء.

عرض علي كعادته أن أحضر التمارين التي سيقوم بها مع ابنه على خشبة المسرح للتكيف مع الفريق التقني، للحد من شطط الصوت والإنارة.. لا بد من تدجين الخشبة لتقبل هي أولا هذه التجربة الجديدة. وهذا ما كان أخلوا له المسرح ذلك اليوم صباحا ومساء واضطر إلى تناول الغذاء مع فريقه المسرحي داخل المسرح.. أما أنا فلم ألتحق بهم إلا بعد خروجي من العمل على الساعة السادسة والربع قبل انطلاق العرض في الثامنة ونصف مساء..

وبعد انتهاء التمرينات اللازمة وإعداد القاعة للعرض، وقعوا هدنة مع الخشبة لأخذ قسط من الراحة.. غادروها للتفسح قليلا..

وجدتني فجأة مورطا في قاعة العرض وحيدا، في عزلة شبه تامة، في لحظة الصفر الوجودي.. وحيدا، أجلس على كرسي من كراسي الصف الأمامي في مواجهة مباشرة مع خشبة ضخمة خالية من الإنس... خشبة فارغة.. وقاعة فارغة.. وصمت عميق حط فجأة على المكان، خيم بثقله الغريب لم أجربه من قبل..

الصمت والعزلة كالماء يأخذ دائما شكل الإناء الذي يحتويه.. صمت الخشبة غريب. فلأول مرة أجدني وجها لوجه مع الكراسي الفارغة والخشبة الفارغة.. استوقفتني الستائر التي صارت تتحرش بي وهي تستسلم لتموجات هواء غريب يتسلل لا أعرف من أين. القاعة صفحة بيضاء أمام قلم يتيم، لم يجرب لا الكتابة ولا العرض المسرحي يوما.. صفحة بيضاء وشاعر حركت الستائر خياله، فشط بعيدا إلى ليالي ألف ليلة وليلة..

في ألف ليلة وليلة، يصبح الكلام غير مباح.. ويرغمك الصمت الكبير على الاستسلام.. تسللت الليالي إلى الخشبة لتملأ هذا الفراغ ولتكلم السكينة على طريقتها الخاصة.

رأيت فيما يرى النائم، رأيت شهريار... أمر وولى وعزل وأنزل العقوبات على من يستحق وعلى من لا يستحق.. سئم السياسة سئم التكليف والعزل والعدل حتى... صار فوق الخشبة حائرا، يسمع حكايات شهرزاد.. يقتل أولا يقتل ؟ فإن قتل وأقام العدل قتل الحكاية ومن يمكنه يا ترى إتمام الحكاية..؟ ما أقسى الليل بدون حكايات شهرزاد.. إن قتل شهرزاد سيقتل نفسه أيضا. فما عادت السياسة الناشفة تقنعه ولا قطع رؤوس العذارى يؤنسه.. لكن إن تركها أيضا، أي شهرزاد، سيخون نفسه، سيخون الوعد الذي قطعه على نفسه ؟

أضواء خافتة حمراء تحيل على ليل عربي أو فارسي لا أدري. يتغير المقام ويختفي شهريار بصيغة المفرد وتظهر شهرزاد بلباس النوم والليل والغنج والدلال، لباس

شفاف، يكاد يكشف عورة روحها ويميط الستار عن القلب الغض، المغامر والصوت الواثق من نفسه، يحكي حتى لا يموت.. تتحول كلمات شهرزاد إلى شخوص وحركات.

تقف الكلمات بنفسها فوق الخشبة ويظهر تحت تأثير إنارة زرقاء مرة وخضراء مرة أخرى، شيخ بلحية بيضاء بلغ من الكبر عتيا وهو يقود غزالة مسلسلة، غزالة خرافية.. عينان صافيتان عميقتان حزينتان.. غزالة خرافية، منقادة، طائعة، يقودها الشيخ، يقودها الزمن إلى حيث لا تدري..

صارت الإنارة حمراء.. فزعت شهرزاد للون الدم من جديد.. العفريت غاضب جدا، يريد قتل التاجر المسكين الذي يبيع ويشتري ولا يبالي، يأكل الثمرة، يرمي بالنواة ويقتل عفريتا صغيرا في المهد لا يراه.. أية أنانية هذه.. أي تحد هذا.. أي عمى هذا ؟ كان على التاجر أن يرى الكائنات الخفية.. هذا هو العدل ؟ وما دام لم يرها فيجب أن يقتل.. صارت عينا العفريت حمراويتين أكثر من اللازم، غاضبتين.

ارتجف صوت شهرزاد ومعه ارتجف قلب شهريار. بدا لهذا الأخير أن أكل الثمرة لا يختلف عن أكل التفاحة.. وأن ثمة كائنات خفية تهدد المملكة السعيدة.. صاح العفريت... هذه المرة، ارتبكت أنا واضطربت الستائر لهول الجريمة التي تمت والجريمة التي ستقع بعد قليل على الخشبة على مرأى من عيني.. خفت على نفسي وعلى الإنسان المندفع الذي لا يرى الكون في آفاقه ولا يقرأ العلامات..

أمام هذه الحماقات لا يمكن للعفريت أن يتحمل ولا بد أن يقتل التاجر، كما كان لا بد لشهريار أن يقتل العذارى.. يتوسل التاجر.. يرغب.. يطلب.. يركع عند قدمي العفريت أن يبقي على حياته.. فكرت مع نفسي: شهرزاد لم تفعل ذلك.. لم تطلب، لم تتوسل وإنما حكت.

يسفر الأمر عن اتفاق، يتم بموجبه تأجيل القتل إلى حين.. بينما التاجر مهموم وإذا بالشيخ، صاحب الغزالة، يقف على رأسه يتأثر لحاله.. يتبادلان الحكاية فيتعرفان على بعضهما البعض..

كل واحد منهما يحكي العجب العجاب. تكبر الغرابة.. إن كانت الحكاية عجيبة وغريبة فعلا، ستمكن التاجر من فداء ثلث دمه، فالعفريت يسمع أيضا، يرانا ولا نراه.. يحكي الشيخ حكاية الغزالة الغريبة للتاجر..

فالغزالة ليست غزالة حقيقية.. فهي أنثى فاضت فتنة وجمالا ومسخت غزالة.. هي ابنة عمه سكنت قلبه وتزوج بها كما تقتضي العادة.. ملكها ثلاثين سنة ولم تنجب.. ولم يعد الحب وحده يكفي.. كان في حاجة ماسة لولد يرث اسمه، يرث سره، لتقبل به القبيلة. تزوج للمرة الثانية فخلفت له امرأة ولود ابنا جميلا، وهو ما أثار غيرة وغضب ابنة عمه التي لم يشفع لها جمالها وحده لتملك قلب ابن عمها، فقررت الانتقام، فسحرت المرأة الولود بقرة.

وللحفاظ على قانون الطبيعة الذي لا يجب أن يمسخ، مسخت الابن عجلا.. للقبيلة أقنعتها ولها مسرحها، لها لعبتها، وللكون أسراره.. وعلى التاجر أن يتوقف عن البيع والشراء قليلا ليتواصل مع عوالم أخرى مجهولة لم تخطر له على بال، أسرار وأشياء تقع هنالك في العالم الآخر وتتقاطع مع عالمنا.. كيف يمكن للخشبة اليوم أن تقوى على حمل هذه العلامات ؟

كانت الأضواء خافتة وكانت عين الغزالة مشعة، عميقة، ترى ما لا أراه، ترى داخلها، ترى قصتها المأساوية ولا تجرؤ على الكلام.. في عينيها حزن المدينة، في جوفها آهات عشق ملعون، عشق مكبل بقيود القبيلة، يموت فيها العشاق أو يصابون بمس ولا يتناسلون. وهي إن تزوجت، فحبها لا ينجب للقبيلة ابنا للغزو والحرب، عشق عاقر، يلد اللعنات.. للقبيلة أيضا عفاريت يحمون قوانينها وعلى الغزالة أن تخضع وان تجتر حزنها. إنها كل الإناث التي لم يصل عقل رجل إلى إدراك حقيقتهن.. الغزالة هي كل أنثى قتلها شهريار، هي شهرزاد القابلة للقتل كل ليلة إن لم تحك. وعلى شهرزاد أن تمسح حزن جراح هذه الخرافة التي تقف أمامي على خشبة المسرح، تترجم إشارات عيونها وتخرج لواعج الإنسان فيها.

تمنيت لو كنت أفهم الأقنعة جيدا، لو أفهم سحر الإنارة، لسلطت على عينيها اللون المناسب والضوء المناسب والدرجة المناسبة ليتسع الصمت أكثر ويتعمق الفهم أكثر، للحد من ثرثرة اللسان وتواطؤ الأذن في ثقافتنا المغرية الشفهية.. تمنيت لو كان القشيري بجانبي لاستفسرته وطلبت المساعدة دون أن أتكلم لأنني إن خرجت من عزلتي وفضضت وحدتي، لذعرت الغزالة أكثر ولاختفى العفريت..

اتسعت أعماقي للخشبة وأشفقت على هذا الزوج الذي هم بذبح البقرة وليست البقرة سوى زوجة مسكينة أذنبت إذ أنجبت، كان عليها ألا تنجب بدون حب في بيت غزالة فاتنة لا تنجب... بل ذبحها واحتفل بعيد الأضحى كما ذبح شهريار كل الإناث الجميلات.. على شهرزاد أن تحكي لتوقف القتل، وعلى الشيخ، صاحب الغزالة، أن يحكي عن غزالته لفداء ثلث دم التاجر.

كنت أود في هذه الأثناء أن أقوم إلى الكواليس لأطلب من شهرزاد أن تعطي الكلمة للغزالة للتحدث عن خرافتها، عن محنتها، عن قدرها.

يبدو أن شهريار لن يعجبه ذلك.. فهمت ذلك من غمزة شهرزاد، فتراجعت، تذكرت حكاية أمي الضاوية عن بغلة القبور التي تخرج ليلا، تغري الرجال المتهورين الذين لا يقدرون المال ولا يحسنون التصرف فيه ولا معه.

تكبر الخرافة على الخشبة... تذكرت أحد المستعربين، من أمريكا اللاتينية، حاول أن يقترب من فهم أحزان مدينة الصويرة.. سمع النشيج واقترب من النافذة حيث كانت فاطمة تنظر ولا تتكلم، تنظر إلى البحر طويلا، صامتة هادئة ولا تقول شيئا وكأن بداخلها بحرا خفيا بعثر كيانها". نظرة غامضة، لم تفلح معها أوراق الجدة ولا تأويلات سكان المدينة من فهمها، فكثر القيل والقال" فالغاضبون حسبوها سريعة الغضب" والذين يخشون البرد يؤكدون أن بها داء السل، والبخلاء يتساءلون عن أي سرقة تكون قد شاركت فيها والتجار يحاولون معرفة من إليه باعت نفسها فتدهور حالها".

استغربت كيف لمستغرب يأتي من أبعاد قصية ليؤول نظرة فاطمة المغربية واستغربت كيف يمكن للقرب أن يسبب في الجهل على هذه الدرجة، فتعمى العيون. فمعرفة السكان بها أصبحت جهلا.

وأنا أتذكر هذا الكتاب، تمنيت لو أفلح في محادثة فاطمة، في فهم عيون فاطمة، لو تتحدث إلي بعيونها لأكشف بعض السر عن خرافة الغزالة التي تقف على الخشبة أمامي الآن، تمنيت لو أقنع فاطمة المغربية للسفر معي على أحد مراكب السندباد لنتفرج على أفراح مكسيكو وأحزانها أيضا. ولكن كيف للحجر أن يتكلم ويعلن عن النار الكامنة فيه ؟

تعجبت كيف تبعدنا العادات والتقاليد والأشغال اليومية عن فهم الخرافة التي يحملها كل واحد منا في داخله ؟.. تبا للعادة والاجتماع.. والأشغال.. اللسان.. الأذن.. الثرثرة التي تتكلم كثيرا ولا تقول شيئا عن حزن فاطمة ولا عن حزن الغزالة.. تبا للسياسة التي تدبر كل شيء ولا تحسن تدبير قلب شهريار.. السياسة أعمت هذا القلب فأمر وولى وعزل وقتل.. فتح وغزا المماليك.. ولم يتمكن من فتح قلبه ولا فتح قلب الأنثى القريبة منه التي تسكنه كغزالة مقيدة.. كهذه الغزالة الخرافية التي نامت أزمنة طويلة في بقايا أطلال بكاها الشعراء كثيرا... نامت في كتب مخطوطة ولم تقرأ.. نامت في مكتبات كثيرا، فأحرقت وأغرقت..

شكرا لهذا الخطأ الصغير الذي ارتكبه التاجر فأودى بحياة جني صغير، بعفريت صغير يكبر ويتغذى يوميا بالاقتصاد والسياسة والأعمال والمصالح والجاه. شكرا لهذا الخطأ الذي أرادت شهرزاد أن يرتكب بأكل الثمرة ورمي النواة حيثما اتفق، خطأ تاريخي جميل من خواطر شهرزاد. أتاحت له الفرصة للتوقف لاكتشاف غزالة مسلسلة، مقيدة، يقودها الشيخ إلى قدرها.

إن الخطأ رائع لأنه يوقف، يدعو للوقوف.. لإعادة النظر ولفهم ما لم نلتفت إليه لحد الآن.. تذكرت وصية أمي الضاوية: إياك أن تلتفت ؟؟ لكن ها أنا أفهم الآن.

التفت لهذه الغزالة دون أن يراني أحد.. فهمت لماذا يتوقف الشعراء عند الطلل، يبكون عندما يلتفتون إلى الذكرى، يرخمون فاطمة ويبكون ليلى ويؤولون مقلة الغزالة ويمدحون حسن ولادة تحت تأثير مزاج خطأ ركبهم أثناء الكر والفر، يؤولونه بقدر العطش فيهم.. وكلما زاد الظمأ، زاد خيال السراب. وكلما زاد السفر، زادت أخطاء الملك الضليل.. لهذا وقف. وهذا ما جعلني أقف اليوم جالسا، أتابع فصول مسرحية بدون كلام..

سيكتشف القشيري خيانتي. حسبت أنني أستطيع أن أبتعد، أن أنسى يوسف لبعض الوقت وها هي غزالته تطاردني... سيكتشف القشيري خيانتي لأنني وقفت حيث لا يجب أن أقف، لم أخبره بما وقع، أخفيت خيانتي تحت جلدي وحضر الجمهور وأظهرت الاهتمام وصعدت الخشبة وقدمت المسرحية كما يجب التقديم.. ألبست الكلمة القناع المسرحي الذي يستوجبه المقام، حييت الحضور تحية مسرحية فنية وأشدت بوقفة سمير، البطل الصغير، الشبل الذي لم تخفه الخشبة يوما ولم يرتبك عندما وقف بشجاعة نادرة إلى جانب نجوم من العيار الثقيل..

أما أنا الخارج من هزيمة عيون الغزالة الخرافية فكنت مرتبكا جدا، أقف لبضع دقائق ومئات العيون لا افهمها ولا تفهمني، تحملق في عيون قلب هزمته غزالة خرافية. تركت الغابة للشبل بعد أن شكرت الجمهور وانسحبت.

ثلاث دقات أفرغ فيها المسرح كل حزنه التاريخي في قلبي، حزن جلل بأجراس كنائس قديمة.. لم أدر سر هذا التداعي وهذا الارتباط اللاشعوري بين المسرح وبين الحزن الجدي الثقيل من عيار دراما شكسبير.. ضحك الجميع لصرخة الميلاد الكاريكاتوري ولم أضحك.. صرخت في أعماقي لهذا الخيار الوجودي الصعب الذي افتتح به البطل الطفل مذكراته.. طفل شيخ يسرد مذكراته... يحكي عن شيخوخته...

قبل الميلاد.. حكى عن الرحم الفقير الذي نما فيه.. تسعة أشهر حيث الأمعاء والأحشاء المظلمة والغازات الناتجة عن الإفراط في تناول القطنيات عبر حبل

الصرة.. تصل إليه أصداء الضرب والشتم والنزاعات العصبية بين القبائل والطبقات والتي لم تكن يوما بسيطة.. كان الجنين قلقا، مضطربا وعليه أن يكتب مذكراته.. الطفل يولد شيخا، يولد بميراث ثقيل، يتجاوز ركام ما خلفته الأجيال من طيش آلاف السنين، طيش التجار الذين يبيعون كل شيء ويشترون كل شيء ويتناسلون، يأكلون الثمر ويرمون النواة حيثما اتفق ولا يدرون كم طفلا قتلوا وكم روحا أزهقوا..

طوال العرض كان هذا الطفل يعرض حزنه عورة على الخشبة.. وكانوا يضحكون ومن حقهم أن يضحكوا.. دفعوا ثمن التذكرة ليضحكوا ولا يمكنني أن ألومهم لأنني لم أستطع أن أضحك. لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أسقط حالتي على هذا الحضور المحترم، المتعدد، لجمهور متنوع، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أدين الضحك وقد حصل هذا الإجماع الجميل على الضحك واليوم سبت، ومن حق المسرح أن يفرج كربة المهمومين..

والضحك، كما عبر أحدهم، ليس تعبيرا دائما عن فرح وإنما هو ضرورة.. نضحك في أحيان كثيرة حتى لا نضطر إلى البكاء. ثمة فائض من المشاعر والأحاسيس الإنسانية، لم يعد يستهلك في الحياة العادية ويجد في الضحك فرصته الأخيرة.. كيف يمكن مقاومة الضحك أمام طفل موهبة، استطاع أن يفضح أخطاء الكبار في السياسة والاقتصاد والتربية.. غير أني لم أضحك وهذا ما يثير الضحك في حد ذاته.

أنا الآن أضحك في عزلتي من نفسي التي لم تضحك ذاك اليوم وأنا أكتب هذه السطور قبل أن أضعها رهن إشارة الكاتب الروائي.. سطور لا استطيع أن اسميها مذكرات.. ليست لدي الجرأة على ادعاء ذلك.. في مجتمعنا يمكن أن نضحك. نحكي نكاتا وطرائف ونضحك ولا نكتب. لا وقت لدينا ولا مكان: الأزقة ضيقة والغرف محدودة وبراريك القصدير مهددة دوما بحريق شمعة تكتب تحت رحمة نورها ما يشبه الخواطر حول الفرق بين الفقراء والأغنياء.. لا وقت لدينا للكتابة.. حتى

التجار لا يكتبون يبيعون ولا يقرأون.. حتى الناشرون لا يقرأون ما يكتبه الكتاب الذين ترجم لهم. لا نكتب إلا عندما نرتكب خطأ وجوديا كبيرا ويصبح معه الجنون ممكنا.

استغربت كيف فتح هذا العرض الجميل نافذة في حياتي وشاهدت ما لم يشاهده الآخرون وشاهد كل واحد ما لم نشاهده معه.. تعجبت كيف تمكنت من أكون فردانيا، وحدانيا وسط جمهور مسرحي عريض، عريض. يمكن لهذه الحالة أن تكون في السينما.. أما في المسرح فهذا محال.. لم أضحك..

تذكرت قول أحلام مستغانمي في تعريفها للحب.. الحب الحقيقي هو الذي تجده حيث لا تتوقعه.. الحب هو هذه العاطفة القوية، القائمة على المباغتة، حيث تنخرط في مغامرة وجودية، في تجربة نفسية، داخلية لم تتوقعها ولم تضع لها حسابا.

تقع أحداث كبرى على خشبة قدت من صمت صلب، لا يدري عنها الآخرون أي شيء رغم قربهم الشديد منك. هل يدري الآخرون الجالسون على يميني أني شاهدت مسرحا آخر قبل العرض وأثناءه.

علي التكتم، علي أن أخفي خيانتي على القشيري، ولكن علي أن أشكره أيضا لأنه فتح أمام عيني الداخليتين نافذة لأطل على وجودي الآخر عندما خلوت بالخشبة وكذا بعرضه الذي كان شيقا أثار ضحك الجمهور وأثار ضحكي من نفسي.. أثار أسئلة كانت نائمة حتى وقت قريب وأشعل قناديل من شعر ونور.

ماذا لو تكلمت الأشياء الصامتة الجامدة أو الحية ؟.. ماذا لو تكلم الجنين ؟ لو تكلم الحجر ؟ لو تكلمت الشجرة ؟ لو تكلمت الأطلال ؟ لو تكلم الصبار ؟ لو تكلم يوسف بما فيه الكفاية ؟ لو تكلمت الغزالة وكتبت مذكراتها ؟ وهذه هي الحكاية الناقصة في ليالي شهرزاد.. في الأدب العظيم الخالد.. ثمة قصة ناقصة.. وفي الليالي قصص كثيرة ناقصة، كلما كثرت وتعددت وتضاعفت، كلما نقصت. لم يتكلم شهريار عندما أنهت شهرزاد الحكاية ولم يتكلم السندباد الحمال، السندباد البري. كلما ازداد حمله، كلما ازداد صمته.

وهاهي الغزالة تستسلم للصمت.. كلما زاد صمتها، كلما تضاعفت خرافتها.. القيد في رقبتها.. عيناها تنظر إلى البعيد.. تسددان سهاما إلى الآفاق والأشياء والوجوه. تنظر إلي الغزالة بعينين قلقتين فيهما إيمان ويقين بشيء ما، بلحظها الساحر الفتان تربكني وحواسي عاجزة عن الإلمام، على فض مكنون الرسائل. الرسائل رسائلها والكتابات كتابة يوسف.. خليط من الوجودات، من المعاني والحيوات.. سأعرض بعضها على القارئ إن أذن الكاتب، ليكتب بنفسه منها قصة مفترضة أو حتى رواية إن استطاع إلى ذلك سبيلا. يكتب عن خرافته أيضا..

ودعت صديقي القشيري. شكرته. شكرته على هذا الجميل الذي أسداه إلي، كاتما بطبيعة الحال خيانتي الخيالية لمضمون عرضه. أكدت له أن رسالته وصلت إلى جمهوره العريض. هنأته لأن سميرا استطاع أن يشد اهتمام الجمهور إليه لحركاته وأدائه الرائع وارتجاله الأجمل لمدة تزيد عن على الساعة والنصف.

ودعته ولم أقل له بأنه زودني بطاقة شعرية أخرى، غير مرئية لا علاقة لها بالكوميديا ولا بالضحك الأسود كما يسمونه في الضفة الأخرى. بهذه الطاقة عزمت على فتح الملف البنفسجي، الملف اللغز. سأجالس هذا الميراث الحزين.

ـ الميراث الحزين ـ

أقف الآن بين يدي يوسف، يوسف كما توهمته، كطيف حلم لا يعبر كما تعبر أطياف الظهيرة وإنما يستقر في قلبي كبطل ملحمي، منكسر، هزمته كل الحروب ولم ينتصر إلا في عين النجوم التي ترى ما لا نراه.

كان يوسف هذه الأيام قليل الكلام، يعيش الغياب. ثمة شخص آخر ينمو في أعماقه. أقف الآن على أطلاله، على بقايا زمن ولى. قد لا يسعفني الخيال لإعادة الحياة لهذه الرسوم بين يدي. الخيال هو هذه الحياة الموضوعية التي عاشتها هذه الوثائق الشعرية، هذه العلاقات التي نسجتها رياح الجنوب والشمال بينه وبين سناء. الخيال هو الإنصات لهذه الرياح، هو تتبع لمصير حبات الذكرى في صحراء الزمان، هو الاكتواء بلواعج الضنى وأشواق الحبيب الغائب.

أقف الآن على هذه الوثائق السرية، وأدعو القارئ المحتمل الذي يمكن أن يعثر على ميراثي أنا أيضا ذات يوم، للوقوف معي ونقف معا وقفة طرفة ابن العبد أو وقفة امرئ القيس.. الوشم هنا واليد التي خطته غائبة.. فليقف القارئ معي لتأويل الغياب. أخاف أن تقع أوراقي أنا أيضا بين يدي قارئ يرى أن زمن الوقوف على الطلل قد ولى ويزعم أن عصرا جديدا من الحضور الباذخ قد بدأ مع أبي نواس ولا مجال

للرجوعِ لترهات وشم لا يبلى على كف عجوز، يمكن أن تموت وتدفن بوشمها تحت التراب.

فهذه رسائله ووثائقه، يقرأها من شاء، إذا شاء، يقرأها من يعنيه أمر الوقوف، ولم لا الوقوف على نفسه وعلى أطلالها، على أوهامها، على أحلامها... :

– وقفة الحيرة

عزيزي يوسف:

حقيقة لا أعرف ماذا أفعل في هذه الحياة المملوءة بالمشاكل والأحزان. لست على ما يرام. فأنا متأسفة لأني أعيش وحيدة وضائعة وسط مجتمع يفهم الأشياء مقلوبة.

لا أعرف، حقيقة، ماذا أفعل، ولكن ما أنا متأكدة منه هو أنني يجب أن أفعل شيئا، أجرب، أقوم بما هو ضروري لأعيش الحياة. وعلي ألا أصرفها كما اتفق، ما دمنا سنموت يوما.

عزيزي يوسف، أحتاج إلى مساعدة. فكرت وبحثت وأخيرا توصلت إلى أنك الوحيد الذي يستطيع مساعدتي. لهذا أسألك هل تستطيع أم لا ؟

متأسفة جدا أن أطرح معك المسألة بهذا الوضوح القاسي، فيه خيارات محدودة. أنا أقدر الحيرة التي يمكن أن تنتابك من أنثى تتكلم فجأة بوضوح أكثر من اللازم. لكن هذه هي الحياة تدفعنا لنتخذ قرارات وجودية رغما عنا. لا يمكن أن نبقى محايدين.. إما أن نكون أو لا نكون.. وإن لم نجب، أجاب القدر بالجواب الذي لم نفكر فيه يوما ما، ويكون جوابه قاسيا.

هذه هي الحياة يا عزيزي يوسف.. هي الخيارات الصعبة..

شمس الليل

هذه هي الكلمة التي كتبتها سناء ذات يوم بالفرنسية وكان من الممكن أن تكتبها بالعربية. كلمة كتبتها في ظروف أجهلها وأعطتها ليوسف ذات يوم قد يكون الثالث عشر من شهر دجنبر من سنة 1982.

بترجمتي لهذه الكلمة من الفرنسية إلى العربية، أكون قد ارتكبت الخيانة الأولى. فليغفر لي يوسف هذا التطاول، هذا التهور، هذا الطيش الذي يسمونه أدبا، والذي قرأت عنه كثيرا، وتأكد لي بأن الأدب يمكن من القراءة والإطلاع على الوثائق السرية للآخرين ويحشر كثير من القراء أنوفهم في أمور حميمة قد لا تهمهم. من حسن الحظ أن الأمر يتم في عزلة تامة بين القارئ والوثيقة السرية وهو ما يحافظ على دفء السر وحميميته.

المعذرة لقد سقطت ضحية لهذا الفضول مرارا، عندما قرأت ما لا ينبغي قراءته وتلصصت، في جنح الليل على مكالمات هاتفية سرية بين عاشقة وعاشقها الكاتب الذي يكبرها طبعا تجربة وشوقا وغراما. ربما يكون الأب المحترم قريبا من العاشقة المتيمة ولا يفهم ما يدور ولا ما يقع بين عاشقين... ولو سمع الأب بعضا من هذا الغرام الليلي لقتلها...

أعترف أني، في الأدب والرواية خصوصا، أكون قارئا محظوظا لأن الكاتب غالبا لا يعرف من أنا ولا متى اشتريت نسخة من نسخه الكثيرة. وربما أكون قارئا مغفلا لأني لا أطلع إلا على ما يوجد بالنسخ المتشابهة، أي لا أطلع إلا على ما أراد لي الكاتب نفسه أن أطلع عليه ويطلع عليه القراء الآخرون. لذلك فغالبا ما يعمل الكاتب على إخفاء النسخة الأصلية أو قل مسودة المخطوط الأول وربما عمد بعد طبع الكتاب في نسخه الكثيرة المتشابهة إلى حرق المخطوط الأصلي.

لذلك لا يجب أن نطمئن للرواية في النسخ المتشابهة.. وعلى الرغم من ذلك، فالأدب، مهما كثرت مزاعمه، فهو يمدنا بالوهم الذي نحتاج إليه في الوقت المناسب لنعيش هذه الحياة أحسن، ما دمنا سنموت يوما كما قالت سناء نفسها.

جميل هذا الكتاب الذي يقرأه عدد كبير من القراء في لحظات العزلة.. وكل واحد يتواصل مع الكاتب بطريقته الخاصة، بحثا عن النسخة الأصلية الممكنة حيث يسمع من الكاتب أسرارا لم يطلع أحد غيره عليها.

أعترف أيضا بأن المسافات تزيد وتنقص بين القارئ والمسودة الأصلية حسب اجتهادات القارئ في المقارنة بين النسخ، لكن أعترف الآن، خلافا لكثيرين الذين يخفون خياناتهم، بدعوى الكذب الأبيض وغيرها من الشعارات، أني قمت بالترجمة والترجمة خيانة أولى ونقلها من المسودة البنفسجية إلى الطبعة خيانة ثانية. ماذا كان سيكون موقف القارئ لو اطلع على المسودة كما تركها لي يوسف. لو قرأ الكلمتين التاليتين بالفرنسية isolée désolée – فليعذرني القارئ لأنني فوتت عليه فرصة إيقاع جميل ناتج عن هذا الجناس– ولو كان الجناس تاما، لكانت الخيانة أعظم.

كان من الممكن لسناء أن تكتب هذه الوثيقة بالعربية وهي التي قال عنها يوسف بأنها شاعرة، وقفت على الطلل على طريقتها الخاصة، وقفت ثائرة في الثمانينات من القرن الماضي، وقفة سياسية فيها صدى للمد الطلابي الذي كانت تعيشه الثانويات والجامعات آنذاك. وقفت ثائرة قبل أن تقيم عاشقة في الحب..

هل كانت ترى في إصلاح السياسة مقدمة ضرورية لحب ناجح.؟ هل أرادت أن تخفي محبوبها الحقيقي برموز سياسية وتبدو للآخرين ملتزمة ليقبلوا كلامها في غزل لم يعهدوه من قبل، غزل الأنثى بالرجل ؟ هل كان الوطن الجميل الذي كانت تحلم به، هو معشوقها الحقيقي، هذا الوطن الذي كان يحمله يوسف في عينيه، يراه ولا يزال في النجوم التي لم تطلع لحد الآن ؟ لماذا ضاقت اللغة العربية هذه المرة عن استيعاب هذا الحزن الغامض الذي يقبض على قلبها؟ لماذا صاغت حيرتها الوجودية بالفرنسية ؟ لماذا لم تضمن لها اللغة العربية حقوقها في التعبير ؟ لماذا لم يقبل الحزن الوضوح ؟ حزن غامض حتى النخاع، لم يستطع يوسف أن يفك ألغازه. حزن سكنها، ولم يطف

على السطح ولم تبد منه غير هذه الكلمات البئيسة التي لا تفي بالغرض.. شكوى.. وطلب المساعدة..

كيف يمكن ليوسف أن يقدم مساعدة لحل مشكلة غامضة دون أن يفهم أو يستوعب أسبابها ؟كان عليه أن يسأل، وقد فعل وناوش غير ما مرة داخل دائرتها وكتب القصيدة تلو القصيدة وقرأ النجوم في انتظار الذي يأتي ولا يأتي. جرب الشوق واحترق وتضرع.. سجن واضطهد وعذب.. تاه في صحرائها هائما على وجهه.. نظر حيث كانت تنظر.. اشتعل حلما وسافر أحيانا أخرى في آفاقها وضاع في تيهها وتوسل ولم يظفر بغير الغموض وبغير الوعود ومزيد من الشوق والصبابة.

في الآونة الأخيرة قل كلامه وأتعبه العشق وقض مضجعه التيه وأعيته المسافات التي قطعها للاقتراب منها لفهم ما وقع.. غموض ومزيد من الغموض.. كلمات قصيرة، جمل متقطعة ولم تعد تسعفه العبارة للتعبير عن حيرته.. صمت عميق، حفر في أعماقه نهرا عظيما وصار يرى الأشياء وكأنها ليست هي، يرى أفكارا ومعاني تزوره كطيور غريبة من عالم آخر ولا يقول عنها شيئا. كان يهرب بين الفينة والأخرى إلى قراءة جلال الدين الرومي وميشيل تورنييه...

ثمة قرار ينمو في نفسه، ينضج على نار هادئة من الصمت.. علاقته بعبد الرزاق ساءت أكثر وقال ذات يوم بأنه يفكر في وضع حد لهذه الشراكة الوهمية بينهما. لا يمكن في اللحظة الراهنة أن يجالس الحلم العقل على طاولة واحدة.

قرر عبد الرزاق أن يعود للعمل مع عائلته وزاد نشاطه الاقتصادي في شركة تصنيع الزجاج التي يديرها والده باقتدار ويستعد لمغادرة البيضاء في اتجاه الجنوب لإقامة فرع خاص به تابع لنفس الشركة. شجعه والده على ذلك ومكنه من الضمانات التي ستساعده على إنماء ثروته ومضاعفة إنتاجه بالتدريج..

أبدى مرونة كبيرة في فهم لعبة التبادل واستغلال معارف الوالد لتسهيل مأموريته. وبدا له أن التحدي الأكبر يكمن في التكيف مع المحيط أحسن، بعيدا عن

التمسك الحرفي بمسلمات منطقية عقلانية صلبة تنكسر كما ينكسر الزجاج في أول اصطدام. يرى عبد الرزاق أن القبيلة لا يمكن أن تلد فكرا ليبراليا، بين عشية وضحاها.. لا بد من ارتكاب الأخطاء، لا بد من التنازل من أجل الكسب وتنمية الاقتصاد العائلي. لابد من فهم قواعد اللعبة لملاءمة السلوك الاقتصادي مع الأعراف السائدة. فاقتصاد العائلة يقتضي الزعامة والزعامة تقتضي شبكة من المعارف والمحسوبيات ولا يمكن أن يتم ذلك إلا عن طريق الانتخابات والسياسة الجاري بها العمل.

قرر أن يدخل غمار الانتخابات المقبلة وهو يعرف أن حظوظه ضئيلة في الفوز. يعرف بأن نزاهتها نسبية وأن المال يحتاج إلى السياسة وتحتاج السياسة إلى المال ولا يمكن الانتظار إلى ما لا نهاية. وأكثر من ذلك يدرك أن المال سيلوث صناديق الزجاج.. ومهما يكن، فعليه أن يخوض التجربة لمعرفة الخصوم الأشباح ليفتح معهم صفحة جديدة. ستمكنه هذه التجربة من مد خيوط الاتصال مع أصحاب الوقت، مع الكبار والمتوسطين والصغار وسيتمكن بمعية إخوته ووالده من ترويج الزجاج، ترويج صناديق الزجاج لتلميع صورة المغرب في السوق الدولية وهذا هو الأهم.

لم يعد اشتغال يوسف بالمخدع الهاتفي سوى عطالة مؤقتة. يعمل فيه بمفرده وبمزاجه الخاص.. ينتظر سقوط دريهمات في الصناديق العجيبة السحرية مقابل كلام يقال، لا علاقة له بالأدب ولا بالثقافة ولا بالسياسة. ثرثرة لم يعد يوسف قادرا على تحملها... دريهمات لم تعد تكفيه لسد رمق عيشه، فكيف يمكن له أن يعيل والدته التي تنتظر هنالك وراء جبال الأطلس في الجنوب.. أبت أن تفارق بيتها وتلتحق به في المدينة وتصر على السهر على تربية والاعتناء بالبقرة الوحيدة التي تملكها... وقطيع من الماشية... وكان عليه أن يعينها بمبلغ من النقود، يبعثه إليها بين الفينة والأخرى لمساعدتها على تدبر شؤونها..

كثرت مخادع الهاتف وزاد استعمال الهاتف النقال بأثمنة مناسبة، وزاد الكلام وتضاعفت الثرثرة، والدريهمات في تناقص ملحوظ. فكر.. لمعت في ذهنه فكرة المشاركة في القرعة الأمريكية..

لم تتراجع هذه القرعة رغم الهجوم الأمريكي على العراق والذي وضح الأمر أكثر وصار الفرق واضحا، في نظر سيد البيت الأبيض، بين الخير والشر. صار الفرق واضحا، في نظر يوسف، بين الحرب على الإرهاب والحرب على البطالة. ولا مجال للخلط بين رفض الحرب والاستسلام للبطالة المقنعة.

......

اختاره القدر كرقم محظوظ كرقم بلغ به التشاؤم حده الأقصى، فصار قابلا للتكيف مع الأوضاع الدولية... صار رقما يمكنه المغامرة للبحث عن آفاق جديدة..

حاولت أن أقنعه بالعدول عن التفكير في القرعة الأمريكية التي تخطط لكل شيء. قلت ليوسف، إن كان الأمر حظا بالنسبة لك، فهو صناعة بركماتية لبوش لربط مصالحها بمصالح دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا خصوصا في مثل هذه الظروف الدولية التي تقصف فيه العالم العربي والإسلام بيد وتقدم يد المساعدة بيد أخرى.

رد علي غاضبا متبرما.. وماذا تريدني أن أفعل ؟ الانتظار ؟ ترديد الشعارات والانتظار ؟ وأنت تعلم بأن الانتظار أفسد يدي التي أصبحت شبه مشلولة وصارت عاجزة ولم تعد صالحة حتى للكتابة... لقد ملأت قراءة الكتب ذهني بملايين الصور وصرت أنظر إلى البعيد البعيد ولم أعد قادرا على النظر إلى القريب.. صرت مثاليا أكثر من اللازم غير قادر على التكيف مع الذين أعرفهم ويعرفونني.. أنا لا أحمل الكتب مسؤولية ما وقع ويقع... الشيء الذي أفهمه الآن، هو أن ابدأ وجودا آخر من الصفر، أن أهاجر إلى الغرب حيث تغرب شمس المشرق لأبدأ من جديد... هنالك ربما بقايا شمس في ليالي المحيط... هنالك ربما يمكن أن أجد سناء أو يمكن أن أنساها على الأقل. سيكون بيني وبينها المحيط... رياح المحيط لا تكذب والقرعة كما قلت،

ليست حظا خالصا ولا صدفة عبثية وإنما هي الأقدار كتبت علينا البعد في القرب، ويمكن لها أيضا أن تكتب علينا القرب في البعد... ربما في صحاري كاليفورنيا سراب يمكن أن يحمل للظمآن ماء. أمريكا خلقت للمهاجرين مثلي، للتائهين مثلي، للفاشلين مثلي.

قلت له بأنه يحمل وطنه في القلب والعينين ويحمل معه ميراثا حزينا من الفقر والشوق والحلم ولا يمكنه التخلص منه مهما ابتعد في الجغرافيا... وأنه يمكن أن يكون عمليا هنا وأن يتغير بالشكل الذي يريده في بلده وعلى أرضه هاته..

أطرق وصار يبحث في صمته عن كلمات نادرة، لم تستعمل بعد في السياسة، كلمات تخلص قلبه من ثقل جبل أسود من الحزن الثقيل. قال: "أنا منذور للمسافات، منذور للبعد، ولا يمكن لعاشق غزالة أن يبقى مقيدا بأوهام التاريخ والجغرافيا والثقافة دون أن يلبي النداء، نداء الأقاصي. لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستقرار في نفس الغرفة مع طيف عينين تحذقان في دائما تلومان تعاتبان تشكوان... الوطن ليس أرضا ثابتة، الوطن، كما قلت، في العينين. الوطن جغرافيا متحركة في الروح، تسكنك في الجذور. وطن يحمل لك دوما آلاما وجراحا لتحس به أكثر... هنالك يمكن أن أبدأ مع وطني صفحة من جديد، يمكن أن أبدأ من الصفر. هنالك يمكن أن أولد ثانيا لأبلي وجودي المكبل القديم... ثمة طبقات من الصدأ... أفكار.. معتقدات.. علاقات.. صور الآخرين في نفسك والصور التي يكونها عنك الآخرون... طبقات من الصدأ تتراكم وتتصلب وتمنع تسرب حياة أخرى طرية جديدة من النفاذ إليك".

أحسست بكلماته ذلك المساء، تهب كرياح عاتية، تنثر بغير تردد أوهاما ترسخت بفعل مسلمات وأعراف لم نستطع التفكير فيها من قبل. وهاجمتني أسئلة لم أجد لها جوابا: هل يمكن أن يتخلص فعلا من صفيحتي السلحفاة الوجوديتين التي تحميانها من الافتراس ولكن تبطئان حركتها في نفس الآن ؟ هل يمكن للمخاطرة فعلا أن تؤدي إلى النجاة ؟ هل يمكن للميلاد الثاني أن يتحقق ؟؟

لقد ربطتني الآثار إلى المكان، إلى الأرض، إلى ما يبنيه الإنسان من ثقافة فوق الأرض.. في الآثار كان لا بد من أن يثبت البناء في الزمان.. الزمان هو عدو الطلل يحطم ما تبقى من ذكرى... أحسست بأن الآثار رسخت في نفسي أوهام خلود المكان والأفكار، يتحرك الزمن ويتغير وتبقى الآثار ثابتة.

وهذا التضاد، بين الثبات والحركة، يضفي على الآثار سحرها... تنبهت إلى أن الآثار تنبه في النفس الحالمة رغبة في الثبات والخلود والإقامة في الوطن.. وها هو يوسف يوقظ الزمن في، يوقظ الحركة، يوقظ العبور. الإنسان كائن عابر وعليه أن يعيش العبور وعليه الإقامة في السفر، عليه أن يولد أكثر من مرة.على يوسف أن يرحل إلى أمريكا.

أمريكا تحاصر بغداد.. اختفى الجنود وحرب العصابات بدأت. سقط التمثال على مرأى كاميرات القنوات الدولية.. الأمر غير واضح. يصعب الفصل بين الانتصار والهزيمة بين التحرير والاحتلال.. الحرب دقيقة بما فيه الكفاية سقط المدنيون وفرت الروح من تمثال صدام إلى جحر فأر، يمكن أن تتم فيه المفاوضات إن أرادت أمريكا...

الحرب دقيقة. عاد الجنود العراقيون إلى أحضان زوجاتهم لما اختفى التمثال.. كانت الحرب دقيقة. مات المدنيون ولم يقتل الجنود وسقطت الآثار في يد الفقر وبيعت تحف ألفي سنة بدراهم معدودة... كانت الحرب دقيقة وكانت جنازة المدنيين والآثار مؤثرة.

في هذا المساء غادرت الشمس مكانها الثابت في السماء أو توهمت ذلك لأننا نحن الذين نغادر ونعبر. غادرت مكانها إلى الغروب. وفي الغرب يقال بأنها تشرق بطريقة مختلفة. عرفت حينها أن أمريكا تحارب بوسائل مختلفة.. منها البطالة.. منها الزجاج، زجاج الانتخابات طبعا. يمكن للديمقراطية أن تستورد من السيد الأبيض.. ليكون الفرق واضحا بين الخير والشر.

رأيت يوسف ينخرط في حلم من نوع آخر، ممزوج بغضب السفر، بغضب شعري، فيه حركة وحيوية وعنفوان... انطلق يعد ويستعد للرحيل وجاء اليوم الموعود.. صار الرحيل قاب قوسين.. فرقت القوات المساعدة جحافل العاطلين لإخلاء ساحة البرلمان الموقر. ثمة شخصية ديمقراطية، غربية ستحضر لمخاطبة الرأي العام الوطني عبر قناة البرلمان، عبر ممثلي الشعب الذين أفرزتهمم انتخابات الزجاج الأخيرة. وعلى الساحة الخارجية للبرلمان أن تكون نظيفة وإلا أضر ذلك بسمعة المغرب في الأسواق الدولية.

صار السفر يقينا... شخصيات أخرى عديدة، تفد على أرض الكرم، تحب التعرف على التراث بمختلف أصنافه المادي وغير المادي، المرئي وآخر لا يعلم به إلا الله، محميات طبيعية حيث تفضل الصقور الاستقرار أكبر وقت ممكن، خلافا للعادة أرجعها الدارسون لمرض الطيور بسبب الإيدز ومرض غامض آخر سماه الإيكولوجيون بقلق الطيور.

صار السفر يقينا... وجاء اليوم الموعود وصار الفراق الأكبر يقينا... في لحظات الألم الكبرى، تتوحد القلوب وتتضافر المشاعر.. ركبنا سيارة عبد الرزاق الميرسيديس الفارهة من صنع ألمانيا التي خسرت الحرب العالمية الثانية. كان عبد الرزاق يقود السيارة بيدين من حديد. رباطة جأش وثقة في النفس.

أخبار تصل إلينا من جهاز الراديو، مظاهرات هنا وهنالك للتنديد بالغزو الأمريكي. الأعلام الأمريكية تحترق، وسيارة الميرسيديس تشق الطريق في اتجاه المطار الدولي لمحمد الخامس.. كنا داخل السيارة منقطعين عما حولنا خلف زجاج السيارة غير شفاف، زجاج مصقول لامع يمكننا من رؤية العالم من حولنا دون أن يرانا أحد. سيارة متراصة واثقة من نفسها تقطع المسافات فوق الإسفلت الساخن، لا تهتز ولا تتأثر بالحفر التي يمكن أن تظهر في الطريق المعبدة بسبب سقوط الأمطار الغزيرة طبعا.

قال يوسف مخاطبا عبد الرزاق وهو يضحك: أحسنت اختيار سيارة الميرسيديس لأنها وحدها تتلاءم مع واقع الأرض المغربية وطرقها المعبدة جيدا. قلت وأنا أنظر إلى يوسف في المرآة وكنت أجلس في المقعد الخلفي: سيارة تسير بحاسة سادسة طبقا لما يقتضيه قانون السير، المكتوب وغير المكتوب، في مجتمعنا... تقف عند الإشارات الحمراء متى كان ذلك ضروريا.

كان عبد الرزاق يقود السيارة بيد واحدة وهو يقول: الأجمل فيها، أن لها قدرة كبيرة على عزلك عن النشاز الخارجي الذي يمكن أن يعكر صفوك، تحميك من اللغط والضوضاء وكل ما يمكن أن يفسد مزاجا، كان بإمكانه أن يكون رائقا في صباح من صباحات الزمن المغربي.

فجأة انسحب إلى نفسه يرتبها في هدوء للعبور، استعدادا لطفرة مفاجئة تفصل بين عالمين... طوال الطريق إلى مطار محمد الخامس كانت أمريكا حاضرة بغموضها ومتناقضاتها في حديثنا المجهور أو المهموس، غير أنها لم تكن أكثر من حروف ونقطة واسعة شاسعة على الخريطة العالمية.. عالم مجهول قابل لكل الاحتمالات... كل واحد منا يتحدث عن أمريكا التي تخصه.

فقد استحسن عبد الرزاق هذا القرار الذي اتخذه يوسف بقبوله لنتيجة القرعة المفاجئة، فلأول مرة يتخلى يوسف عن لاءاته المتكررة الرافضة لكل شيء، ويقول نعم لقرار صائب يمكن أن يغير حياته وتفكيره. قال عبد الرزاق بأن أمريكا ستعلم يوسف التأقلم مع المحيط، أن يكون واقعيا أكثر وأن...

قاطعته ساخرا ولم لا تقول بأنه قرار اندفاعي أراد من خلاله يوسف الهروب من المحيط والواقع.. فهو سيهرب مني ومنك ومن وجع الرأس...

فقال عبد الرزاق ضاحكا، وهو يمسك المقود بكلتا يديه ويستعد لتجاوز سيارة متلكئة في الطريق: إن كان الأمر كذلك فلن يستطيع أن يتخلص منا... سنطارده في عقر أمريكا بالصور التي ستبقى حية، راسخة في الذاكرة والتي لن يستطيع الهروب

منها.. أنا أعرف يوسف سيحمل الوطن معه في قلبه، وحاجياته في حقيبة... سنطارده بمكالماتنا ورسائلنا إن سولت له نفسه مطاردة الشقروات لنعيده إلينا وإلى نفسه. ليوسف مكانة خاصة في قلوبنا، ومهما اختلف معي، وكثيرا ما نختلف، إلا أنني لن أجد في العالم من يعوضه. فقد جمعتني معه صداقة قوية، عليها نقف معا وعليها سنستمر. صداقة يمكنني أن أشبهها بجزيرة صلبة... قد نبحر قريبا أو بعيدا عنها، كل واحد بالطريقة التي يراها مناسبة.. لنعود في كل مرة إلى جزيرتنا. صداقة أريدها أن تتسع لآخرين.

قال يوسف متأثرا لكلام عبد الرزاق: تتسع لإدريس أيضا الذي خدعناه بأحلامنا وترهاتنا، صدقنا وأمضى على شيك أبيض، قد يطلع بدون رصيد إذا لم تضخ فيه يا عبد الرزاق الأموال اللازمة للحفاظ على التوازن المالي الكافي للاستثمار وإذا لم أتمكن أنا من بناء ثروة في دار المهجر توازي ثروتك... ها ها ها...

قلت يجب أن تتسع رقعة الصداقة تلك للجميع، للإنسان والحيوان والشجر والنبات والحجر بدون مقابل.. أليس هذا ما لقنتني في درسك الأول أيام اشتغالك في المخدع الهاتفي ؟

قال عبد الرزاق يخاطبني: يوسف بالنسبة لي هو هذا الجوهر الذي يمكن أن أسميه "الحقيقة الصحيحة، غير الممكنة". ولأنها غير ممكنة، فأنا أسعى إلى تغييرها بالعقل، أما يوسف، فهو أورتودكسي، يبقي الحقيقة، حقيقة. وإن سعى إلى جعلها ممكنة، يختار لها الحلم مسلكا والحلم، كما تعلم، يا إدريس، ليس ممكنا. فكيف يصير غير الممكن ممكنا بغير الممكن. وعندما أحاول أن أفهم الحلم الذي يؤمن به، لا أجد شيئا سوى الانتظار... أنا أتوقع أن تغوي أمريكا يوسف ليصبح عمليا وإن شئت بركماتيا.

تأثر يوسف جدا لكلام عبد الرزاق. وجد في نفسه لأول مرة ما يشبه التواطؤ مع أفكاره، ووجد أن فكرة الحقيقة غير الممكنة صحيحة إلى حد ما وأن عبد الرزاق

يضمر تعددا إيجابيا في شخصيته وليس كما كان يظنه أحادي الشخصية. اكتشف لأول مرة أن عبد الرزاق اختفى لمدة طويلة وراء نظاراته المنطقية وأخفى مشاعره، وهاهو اليوم يبوح. ويعترف بأن يوسف حقيقة لا شك فيها وأن الصداقة القوية لا يمكن أن تضعف بفعل الاختلاف بين الممكن وغير الممكن.

قال يوسف أنه سيحمل غربته داخل الوطن إلى الولايات المتحدة الأمريكية. هنالك ربما سيكون للغربة طعم آخر. الإحساس بالغربة في دار الغربة أهون. لم يعد له ما يخسره في وطنه الذي لا يثق برسائل النجوم ولا يقيم للأحلام وزنا حيث التعليم غير منتج وأفكار الناس تباع في السوق السوداء بأبخس الأثمان وقوارب الموت تقتل بالملايين والأطباء يعالجون الأجساد ولا يأبهون لمرض النفوس. الفلاسفة متهمون بالإلحاد والمتدينون متهمون بالإرهاب. والكفاءات التي لا ولاء لها، تفتقد للتجربة.

لم يعد له شيء يخسره في وطن، لا يعترف بالفكرة، حيث الأحزاب تنشق إلى ما لا نهاية بدون أن تكون لأي منها فكرة ما. حيث النقابات تقدس الزعامات التي لا تكتب ولا تقرأ حتى.. تدافع عن الولاءات ولا يهمها حقوق العمال ولا أفكارهم.

لم يعد يخسر شيئا ولا يفكر الآن سوى في أمه وأصدقائه. أوصانا كثيرا بأمه التي يخاف أن تضيع فوق الجزيرة بين اللئام. إن كان يخشى شيئا، فهو يخشى حزن الفراق الأكبر، يخاف أن ترتفع أمواج المحيط وتصير كالجبال البركانية وتحجب عنه نهائيا وجه أمه التي علمته وبكت من أجله بدموع من جمر وأحرقت كبدها ليكبر يوسف ويخذلها لأن وطنه خذله. علمته كيف يكبر من الداخل وكيف يشكو حزنه للنبات والأرض والماء والنجوم كيف يحادث الشجر وينصت لأنين الحجر فماذا قدم لها بالمقابل... دريهمات، كانت المسكينة ترأف وتشفق عليه وتوصيه بالاحتفاظ بها وادخارها للأيام السوداء. أما هي فتكتفي بحليب البقرة الذي تبيعه لتعاونية قروية أنشأت في إطار ما يسمى بالتنمية البشرية المشجعة للأنشطة المدرة للدخل.

يحتفظ يوسف الآن ببعض إيمان أمه، ببعض أحلامها التي لا تموت ولا يريدها أن تموت لذلك ارتأى أن يهاجر لينقذ ما يمكن إنقاذه منها. عليه أن يعطي مبررا لوجوده. لذلك فإذا كان هذا الفراق مؤلما، فهو مع ذلك سيجدد طاقته لمطاردة الغزالة والجري وراءها والتيه خلفها قبل أن تبلى فيه براءة الطفولة ويضيع الشعر الذي أودعته فيه الأم العظيمة.

قال يوسف:

– كنت أؤمن أن في كل واحد منا ثمة إمكانيات للوجود جميلة ورائعة، غنية وثرية، إمكانات مخزنة لا أدري أين في جينات مجهولة لم تكتشف بعد، يجب إيقاظها باستمرار، ولن يتم ذلك إلا بتجريب المساحات الواسعة والمسافات النائية والجغرافيا المتوحشة والبراري بآفاقها اللامتناهية.

قال عبد الرزاق وهو يخفف من السرعة لينعطف إلى الطريق المؤدية للمطار:

– أخاف عليك من أمريكا، يا يوسف، إن كان هذا هو تفكيرك.

قاطعته ممازحا:

– أنا أخاف على أمريكا منه، أخاف على غزلانها، على شقراواتها. فهو سيستفيد بدون شك مما تبقى من وطن في قلوب الأفارقة السود ومن خفة ريش الصقور والنسور التي يزين بها الهنود الحمر تيجانهم. لكن أخاف عليه من الأفكار الجهنمية التي كان روادها يسمونها أحلاما في البداية قبل أن تتحول كوابيس للإبادة والتدجين.. أفكار سوداء كانت خضراء في ذهن شعراء، يحلمون دوما بعالم جديد، عالم الحرية الذي استطاعت أمريكا أن تنحت من اجله تمثالا للحرية على بقايا أجساد سوداء احترقت بفعل الاستعباد. عضلات مفتولة قيدها الرواج الثلاثي من أوروبا إلى إفريقيا وانتهاء بأمريكا. أخاف عليه من الإقصاء الممنهج في السياسة والاقتصاد والأدب والسينما للسود والهنود الحمر. وهاهو تمثال أمريكا يتحرك اليوم لتحرير العالم

ومحاصرة بقع الشر وذلك بقتل الأطفال وإلقاء القنابل العنقودية لتطهير الأرض من التخلف.. أخاف على أمريكا من أحلام جديدة، تقويها أكثر لتحرير العراق والشرق الأوسط مما تبقى فيه من كرامة إنسانية. أخاف على أمريكا التي تحلم بشن حرب حضارية وكونية لتحرير الرجال من ضمائرهم، والمساجد من جهادها، والمدارس من علومها، والشعوب من ثوراتها، لتحرير العراقيين من النفط الذي يمكن أن يثقل كاهلهم بالضرائب، لتحرير الأرض من أسرارها، لتحرير الشعراء من جنونهم، ليكون الساسة عقلاء بما فيه الكفاية ليمدوا خط أنابيب النفط إلى تل أبيب.

كان واضحا أن أمريكا ليست هي نفسها بالنسبة لنا نحن الثلاثة على الأقل.. هل هذا هو سر قوتها... تحير العالم... تقسمه.. تعدده.. لتتوحد هي ؟ لأول مرة أراني حائرا مترددا: هل قوة أمريكا تكمن في إتاحة الفرصة للإنسان أن يكون ما يريد، تتغذى دوما بأحلام المنبوذين، كل هؤلاء الذين ضاق بهم صدر وطن يحتضر في فكرة زعيم ؟

أعترف الآن أنني كنت أعتبر تفكير يوسف في المشاركة في القرعة، مجرد نزوة عابرة، نزوة حزينة يستفتي فيها النجوم إذا كان قادرا على الحلم أم لا، إذا كان قادرا على مناورة الحظ إن كان هناك حظ ؟ كنت أظن أنه يسعى إلى تجريب أي شيء ليؤكد وجوده كمن يتحسس جسده للتأكد من أنه لا زال موجودا، أو من يتكلم في عزلته مع المرآة ليتأكد من أنه لا زال يتكلم لغة قومه.

كنت أظن بأنه سيتراجع عن هذه الهلوسات عندما يصبح الأمر جدا في جد. لكن ها هو الآن، يتقدم نحو حلمه بدقة وعزم وخطى ثابتة مما جعلني أكتشف الوجه الآخر لأمريكا، ظهرت لي بغير تلك الحمولة البسيطة التي كونتها عنها نتيجة لمواقفها من دول العالم الثالث. صارت أمريكا اليوم، وأنا أودع صديقي الكبير يوسف، المعادل الموضوعي للخلل الكبير الذي ينخر كيانات العالم الثالث.. أمريكا هي الجرح الدامي الذي ينزف في أعماقنا دون توقف. هي الحلم النازف. هي الغناء الجريح لبلبل مل التغريد في قفص يرعاه جلاد بجثة ضخمة أكبر من الأفكار والأحلام والأناشيد.. بدت

لي أمريكا في هذا الغروب الحزين ليوسف بوجهها الآخر. أمريكا الموحدة في الاسم ليست هي أمريكا الأمريكيين المتعددين المختلفين... أمريكا اختلاف محض، فضاء واسع للاختلاف يذهب فيه الإنسان من أقصاه إلى أقصاه.

يوسف الآن على عتبة الحلم... وقفنا أمام عتبة الجمارك وقفنا لنودع يوسف... هاهو يوسف طائر يفرد جناحيه، يقف على غصن ليطير هذه المرة عاليا في الآفاق.. كانت الشمس تميل إلى الغروب.. سيرحل مع شمس هذا اليوم إلى ليل أمريكا.. تساءلت بيني وبين نفسي هل ستشرق شمس يوسف من جديد ؟ هل سيعود هذا الطائر الجريح يوما إلى عشه ؟

ودع عبد الرزاق، احتضنه بقوة، ضمه إليه طويلا بدون كلمات على مرأى من الجمارك التي ستفتشه وتفتش أشياءه بعد قليل قبل أن يحلق مع السرب إلى فرنسا ثم بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية... إلى آخر نقطة في المحيط قبل أن تشرق الشمس، حيث تتكسر أموج المحيط على صخور صلبة.. البحر غير البحر، في أعماقه تيارات دافئة وساخنة وباردة... مجهولة.

انتظرت دوري.. كان الوداع قاسيا.. أنفاس حارقة.. لهيب الفراق الأكبر.. خانني اللسان.. غموض مأساوي فيه من اللوم والشوق والإعجاب والحرقة والضياع واليأس والأمل والحلم والانكسار الانتصار والهزيمة الحظ والشؤم... قلت له:

– فلتطمئن يا يوسف سأحفظ وثائقك وزهرة صبارك لا بد أنها ستزهر يوما، يوم عودتك مظفرا.

ضحك من بين دموعه وقال:

– احفظها نعم ولكن لا تنسها، تعهدها بالسقي والرعاية... تذكر جيدا أن الصبار لا يزهر إلا بعد ثلاثين سنة.. فاصبر وانتظر.. لا تنس أمي ولا تنس زهرة الصبار ولا تنس الملف البنفسجي...

ضغطت على يده بكلتا يدي وأنا أقول:

– ستنبت زهرة الصبار كتابة عما قريب، لن تموت ما دمت أنت حيا. سأراك فيها ستخبرني عنك...

– إذا كان الأمر كذلك، فلن أنساها، أنا أيضا، سأكتب إليك وسأكتب، أنا أيضا، ما لن تراه إلا بعد تفتق الصبار عن زهرته الموعودة فارتقب، اكتب، وترقب.. الأسرار نباتات عجيبة، تنبت حيث لا تتوقع، بين مفاصل صخرة وحتي في جليد القطب الشمالي.. وقد تنبت في حقول القمح والذرة فيسمونها ظلما طفيليات. وأخوف ما أخافه أن تترك زهورا برية متوحشة فتقضمها الغزالة الخرافية بغضب...

نظرت في عينيه مليا بحثا عن مزيد من الحقيقة، الحقيقة الأخيرة التي يمكن ليوسف أن يقولها في هذا الغروب الحزين وقلت له:

– ثمة أسرار أخرى تحتفظ بها، تحملها معك إلى أمريكا..

– تريد كل شيء... تريد أن تسلبني كل شيء وتدفعني إلى أرض الغربة أعزل... لولا هذا الوداع المقدس وهذه الوقفة التراجيدية لأنكرت، لكن يبدو أنك لم تستفد من دروس نجاة.. لا تستطيع معي صبرا.. نعم معي مخطوط أخذته معي بعد أن عمر كثيرا، لم يتسع له صدر الوطن.. سأحمله معي إلى هنالك وأعيد قراءته وأنقحه وربما أعيد كتابته وإن أمكن سأطبعه وأنشره إن كانت الظروف مناسبة. هنالك على الأقل لن أخاف على أسراري، لن أخاف من الرقابة التي تقتل كثيرا من الأفكار في المهد.. لا لأن الحرية متوفرة هنالك بالشكل الكافي، بل لأن الأمريكيين لن يهتموا بسر تمت صياغته بالعربية، إلا إذا كانوا قادرين على تقديره وكانت لديهم الرغبة في فهمه والتعامل معه. ولن يصبح سرا إذا سولت لي نفسي أن أكتبه بالانجليزية... في جميع الأحوال، فلديهم، على ما أظن، كثير من تاريخ الأدب يساعدهم على تحويل السر إلى أدب خالص... يكفي أن يكتب وبأي لغة ليصبح أدبا لا يخصني أنا وإنما يخص آخر يمكن أن يوجد في أي مكان. على ما أعتقد، وقد أكون مخطئا، السر

عندما يذهب بعيدا في الكتابة يصبح أدبا قابلا للقراءة. أما هنا فالسر في الأدب لم يبتعد عن العورة، لا من طرف الكاتب، ولا من طرف الجمهور، ولا من طرف الدولة التي تشغل آلة الرقابة الجهنمية لأبسط ظن. أعتذر فلن أطلعك على المخطوط الآن.

ودعني للمرة الثالثة. أوصانا أنا وعبد الرزاق بأمه في الجنوب واقتحم البوابة بخطى شجاعة، لم يلتفت، ضغط على قلبه ومشى على قلبه إلى العالم الآخر.. أمعن في الغياب على طريقته الخاصة.. لبثنا أنا وعبد الرزاق ننتظر إلى أن يظهر من وراء الزجاج في طلة منه أو التفاتة أخيرة إلى الوطن... لكن عبثا... لم يفعل. اختفى اختفاء أسطوريا ولم يصل إلى آذاننا سوى هدير الطائرات.. هدير قوي وضخم بقوة وضخامة أسطورة يوسف وحزنه ووداعه القاسي.. رحل وتركنا صرعى لأفكار سوداء وتأويلات شتى..

رجعنا على متن المرسيديس الحزينة... لم تعد السيارة واثقة من نفسها... ولم يكن عبد الرزاق قادرا على التركيز أكثر، كان مترددا في المنعرجات... أطال الوقوف كثيرا عند الشارات الحمراء.. بدا شاردا.. وخيم حزن ثقيل على السيارة. لم يجرؤ أي أحد منا على التشويش عليه.. كان الحياني وحده يصيح بملء صوته الحزين من الشريط الذي شغله عبد الرزاق وهو يمسك المقود بيده اليسرى ويضغط على زر تشغيل آلة التسجيل بيده اليمنى وينقل بصره بسرعة بين الطريق وآلة التسجيل... كان الحياني يغني لأول مرة بمرارة الرحيل... لمن، يا إلهي، سأغنى...

ـ الكتاب الغائب ـ

أمسك الشيخ الغزالة من السلسلة، جذبها بعنف.. أخافته نظرتها البعيدة. صارت السلسلة مشدودة الحلقات، منتظمة في خط مستقيم من الرقبة المشرئبة إلى الأفق، إلى اليد القديمة التي أنهكتها الذكريات. رقبة زائغة ووجه خرافي هو عينه وجه المسافات البعيدة وأذنين مستيقظتين تسمعان لحنا بعيدا.

دارت الغزالة حول نفسها، تراوغ الشيخ، تخفي نيتها، تخفي عينيها، تداري شجنها. دارت حول نفسها للمرة الثانية ولما انشغل الشيخ بالسرد، اشرأبت من جديد بعنقها جهة الغرب.. كان الشيخ منشغلا بحكاية العفريت.. العفريت غاضب.. بحكاية الغزالة أراد أن يطفئ هذا الغضب، وبهذه الحكاية يحصل على ثلث دم التاجر. حكاية غريبة ولاشك.. الحكاية حكايته والغزالة شاهدة عليها تسمع وتفهم وتتألم ولكنها لا تستطيع أن تتكلم.. صمتها يشبه صمت أبي. صمت ثقيل، عميق، قاتل... مسخ

الحب العاقر الغزالة... ومسخ الجلاد الذي لا يعرف الحب وجه أبي... هل هذا التشابه في القدر هو الذي أثار انتباهي في غزالة يوسف الخرافية وغزالة ألف ليلة وليلة التي حكاها الشيخ لفداء ثلث دم التاجر ؟ من يحكي قصة أبي لفداء حياته كلها ؟ من يحكي قصة صمت أبي ؟

الغزالة حاضرة في مشهد الحكي، تراقب السرد ينسكب في جوف الليل من الموت إلى الحياة، لكن كلامها غائب في صمت شبيه بصمت شهرزاد حين يتعلق الأمر بقصتها الخاصة.

على الرواة أن يتقنوا اللعبة أن يتحدثوا عن كل شيء إلا قصص حياتهم الخاصة.. استطاعت ابنة الراعي بسحرها أن تفك المسخ عن العجل فهو الآن فتى عاقل، شاب يسعى في الأرض، يصنع حكايته الخاصة. وأنهى الموت قصة البقرة التي ذبحت ممسوخة وهي الأنثى التي أنجبت للشيخ الابن الذكر الذي كان يحلم به. كانت ابنة العم الجميلة الرائعة هي السبب في هذا كله وكان على الشيخ أن يعاقبها أو يتركها لحال سبيلها أو أن يذبحها كما ذبحت البقرة التي كانت ضرتها الولود. غير انه لم يفعل ولم تفسر شهرزاد لماذا لم يفعل. وها هي الغزالة صامتة تخفي قصتها تحت عينيها الحزينتين. انتهت الحكاية في الليالي، لكنها لم تنته بالنسبة لي... ...

ثمة حب قديم، يسكن قلب هذا الشيخ، فقد كانت الغزالة الفتاة الأولى التي فتح عينيه على جمالها.. كانت ولا شك جميلة وفاتنة ولم يفلح المسخ في إزالة آثار هذا الجمال القديم. الجمال الحقيقي لا يتغير. لا تغيره عوادي الزمن. يصيره الموت أجمل. يهذبه البعد، فيصير رهيفا شفافا، يرى في اللامرئي حيث لا يراه الآخرون، في حزن الشمس أو كبرياء الذكرى أو عتاب بحر أو غضب شجرة تصر على الوقوف أو في مسخ امرأة إلى غزالة.

كان الشيخ مشغولا بالتفكير في نصيحة حكيم متبتل في الصحراء، صادفه في الطريق، وعى الصحراء والنخيل، أوصاه بالغزالة خيرا، أوصاه بالإنصات إلى همسها

ومناجاتها الليلية ومعاينة قسماتها كل شروق شمس وكل غروب. ولما شكا له جهله بلغة الحيوان، أوصاه بالسفر والتيه إلى أن يصل إلى مدينة النحاس. هنالك يمكنه الحصول على كتاب قديم عنوانه "منطق الطير" لمؤلف يدعى أبو أنور الشنقيطي. كتاب يعلم أبجدية لغات الطير والحيوانات الأخرى، خاصة منها تلك المهاجرة، المريضة بالترحال، التي لا تقوى على الإقامة، والتي تتحمل مشاق المسافات كالإبل. كتاب يعلمه أبجدية الشعر وخطوط الرمال، يحتوي على مختلف صنوف الجداول والتعازيم وكل أشكال السحر. ولا يمكن فك السحر قبل فهم رموزه وأبجديته. لا يمكن فك السحر إلا بالسحر.

لن يهدأ بال الشيخ، ما لم يصل إلى هذا الكتاب المفقود. وفي انتظار ذلك سيدمن على السفر والحكي. يحكي قصته مع الغزالة لكل من صادفه.. ليفدي ما يمكن أن يفدى من دماء الضحايا... سيحكي لكل عفريت محتمل، تخلص خطأ من قمقم من القماقم التي رماها سيدنا سليمان في البحر بعد أن ختم عليها في سالف العصور.. إلى أن وصلتني الحكاية في كتاب ألف ليلة وليلة.

نحن الآن في أمس الحاجة إلى هذه الحكاية من جديد، فعصرنا يطفح بعفاريت السياسة والاقتصاد، عفاريت الحرب والدمار. في حاجة إلى الشيخ ليحكي لنا قصة الغزالة وكيف مسخت لنبحث معه على طرق حديثة لرفع المسخ عن الأنثى التي هزمتها المدينة في أعماقنا. في حاجة إلى تحرير الثلث الباقي...

قرأت الحكاية، كما قرأت آلاف الحكايا ونسيتها.. وها هي اليوم تطفو على السطح.. قلت في نفسي، وأنا غير متأكد من هذا الوهم الجديد، ربما يرجع الأمر إلى هذه الدهشة الوجودية التي أحدثها رحيل يوسف في نفسي، هذا الغروب المفاجئ ليوسف في هذا المساء الحزين. تختفي الشمس عن العين.. لكنها تواصل مسيرها في ليلي هذا. بالخيال نرى شموسا أخرى في أحلك الليالي ونرى ظلاما دامسا، حيث يرى الآخرون نهارا ساطعا.

رحل يوسف.. رحل يوسف

وأبي لم يتكلم.. لم يقل شيئا..

ماذا سيكون رد فعل أبي لو حكيت له قصة يوسف ؟

ماذا كان سيقول لو حدثته عن هجرة يوسف غير السرية ؟

هل سيصدق خرافة القرعة هاته ؟

هل سيفرح للعبة الحظ الذي اختار يوسف كرقم اعتباطي وقد كان على وجه الإفلاس ؟

على أي فيوسف، رحل.. أصبح رحيله حقيقة. في الغرب سيتغرب، لكن في الغرب سيجد تلك الحرية الغامضة التي يبحث عنها ليقول ما لم يقله بعد. رحل وتركني ضحية لمشاعر متناقضة لم أستطع تمييزها. سافر وتركني لأوهام صارت تكبر يوما بعد يوم. فقدت القدرة على التصدي لاستيهامات كثيرة، صارت تحاصرني... تزورني كل ليل. صرت جثة خالصة، ورمتني أمواج غربة، من نوع آخر، على شاطئ عالم مهجور، وصارت الأسئلة الكبرى موضوع تفكير مستمر:

هل يوسف هو عينه يوسف الذي تعرفت عليه ذات صدفة في مخدعه الهاتفي ؟ هل هو عينه يوسف الذي حكيت له عن نجاة وحكى لي عن سناء فاكتشف بحكمته الصامتة منطقة مجهولة، لم أكن أعرها أي اهتمام قبل الآن ؟ حكيت له فأصغى وصدق ببراءة شاعر لا مثيل له.

حكيت له ما لم أحكه لأحد من قبل وحكيت له أشياء لم أكن أعرفها أنا عن نفسي. حكيت له أوهاما كان من الممكن أن تختفي بمجرد ما يختفي الليل وتطلع شمس الحقيقة. حكيت أوهاما لم أكن متيقنا قبل أن ألتقي بيوسف أنها موجودة تسكن هامشا من حياتي، صيره يوسف مركزا ؟

هل يوسف شخصية واقعية أم هو وجود متخيل يمكن أن يكون أو لا يكون، ظهر كتتويج لمشاعر غامضة كانت تتغذى بالقراءة والشعر والأحلام والهزائم والانكسارات ؟ هل هو شخصية من ورق استطاع، لا ادري كيف، أن يهرب من كتاب ووجد ملجأه في مخيلتي.. نما ونضج وصار قادرا على الظهور، بل على الاستقلال بنفسه. وأكثر من ذلك، صار حرا طليقا، يمكنه أن يقرر السفر إلى أمريكا ويصر على ذلك ؟ غذته النجوم بأسرارها، فصار قادرا على الظهور في أوقات استثنائية، لكنها حقيقية ؟

هل تملك الكتب هذه القدرة العجيبة على الغزو، على المسخ الجمالي، إذا صح وجود مسخ جمالي. هل هذا المسخ الجمالي هو ما نسميه عادة بالإبداع ؟ هل هذا هو ما يسمونه إبداعا وخلقا ؟ أي كتاب لعين هذا صير الخيال حقيقة والخيال حقيقة ؟ استطاع أن يتسلل إلي في غفلة من المنطق والعرف ليغذي في هذه الشخصية الوهمية بهذا الحجم ؟ أي كتاب انطلت حيلته علي، فصرت ألهو وأقلق وأعيش على صفحاته ؟ أي كتاب هذا اتسعت صفحاته لتحضن عالما بهذا الحجم ؟

للقراءة أوهام كثيرة، أنا لا أستبعد أن أكون ضحية لوهم من هذه الأوهام. يطبع الكتاب في نسخ كثيرة متشابهة ويقتنيه قراء لا يتشابهون إطلاقا. فمنهم من يدعي أنه قادر على التأويل والتفسير ومنهم من يغادر الكتاب بعد قراءة بضع صفحات ومنهم من يضعه ديكورا ليوهم الآخرين بالانتماء الى شجرة المثقفين والأدباء دون أن يقرأ ولو صفحة واحدة من صفحاته.

كيف أفسر هذا الوهم الذي ينتابني بين الفينة والأخرى وأعتقد دون وجه حق، أن الكتاب نسخة فريدة لي وحدي، وكأن القدر أراد لي أن أقرأها دون غيري، وكأن الكتاب كتابي، وكأن الكتاب رسالة مغلقة خاصة، بعث بها المؤلف إلي، دون سواي، ليطلعني على أسرار لم يبح بها لأحد ؟

هل المسألة تتعلق بمسارة تستيقظ فيها الحواس الداخلية للتواصل مع العالم الآخر، كل على طريقته ؟ هل هو مرض العظمة الذي يصاب به الكتاب أولا وتنتقل عدواه للقراء في فضاء العزلة حيث لا رقيب ولا حسيب ؟

وحتى لا أتيه في هذه الأسئلة الكبيرة التي لا قدرة لي على مواجهتها بمفردي، أعود إلى يوسف، لأطرح السؤال المحير: في أي كتاب أكون قد صادفت يوسف هذا الذي غير مجرى حياتي ؟ لكن أليس يوسف هو نفسه الذي أيقظ في نفسي هذه الأسئلة الميتافزيقية حول القراءة وأوهامها، عندما أكد لي بأنه يحمل معه مخطوطا لم يطلع عليه أحد لحد الآن وأن هذا المخطوط يحتاج إلى كثير من الحرية لتعاد كتابته في بلد الحرية والمتناقضات، في أمريكا. هنالك على الأقل، يمكن التصريح بالمشاعر وبالممتلكات دون أن تخاف شيئا ؟

أليس مرد هذه الحيرة بين الخيال والواقع إلى هذا المخطوط الذي كان قريبا مني، ومع ذلك، لم أتمكن حتى من الاطلاع على شكله ؟ أليس هذا الفضول الكبير الذي اختلط بمشاعر الحزن مشاعر الفراق الكبير في غروب ذلك اليوم هو الذي أعطى الأمر حجما أكبر من حجمه الحقيقي ؟

مخطوط أيقظ كثيرا من الأسئلة في أعماقي: لماذا لم يطلعني يوسف على مخطوطه في الوقت الذي قربني إليه أكثر ؟ حكيت له عن كل شيء، عن نجاة. وأكثر من ذلك، أمدني بوثائقه الوجدانية والسرية حيث قلت بيني وبين نفسي: هذا أقصى ما يمكن أن يفعله يوسف مع صديق. سلمني ميراثا حميما خاصا يعود إلى عشرين سنة. يوسف واثق بي ولا يمكن بعد اليوم أن يخفي عني شيئا. وعندما ودعني في غروب ذلك اليوم الحزين، فاجاني بما لم أتوقعه. ها أنا أكتشف أنني لم أتسلم إلا بعضا من الوثائق الغامضة. سأحتفظ بها لنفسي، يمكنني قراءتها والتعليق عليها، لكن لن يسمح يوسف، ولن أسمح لنفسي أن يطلع عليها شخص آخر غيري.

هل كان يوسف يخاف من الكتابة والطبع والنشر، وأقصد بالنشر نشر غسيله على سطوح كتب، لا يهتم قراؤها إلا بالتلصص على عورات الشخصيات، خاصة الواقعية منها ؟ هل كان خائفا على أسراره، وهو الذي كان يردد بأن الأسرار قابلة أن تصير أدبا عن طريق الكتابة، إذا توفرت لها شروط الإبداع والتلقي التي تحفظ عن ذكرها ؟

هل لهذا السبب سلمني بعض الوثائق السرية المدفونة بعناية فائقة في الملف البنفسجي والتي لا يخاف أن تتحول إلى أدب ذات يوم ؟ هل سلمها لأنها أصبحت ذكريات مضى عليها ما يزيد من عشرين سنة ولا يمكنها أن تثير فضول الفضوليين الذين يتتبعون عورات الكتاب؟

الذكريات لعنة تطارد أصحابها إلى ما لا نهاية، ما لم نتخلص منها عن طريق الكتابة. تبقى الذكريات نارا مشتعلة تحت الرماد، تحرق القلب والكبد ما لم تطفأ بماء الكتابة البارد بردا وسلاما. ثمة أشخاص لا يمكن أن نشف من مرض حبهم إلا بتحويلهم إلى أبطال كتابة، أبطال على الورق، نقتلهم شهداء على صفحات الكتابة.

هل يعقل أن يوسف يخاف إلى هذه الدرجة، فيقرر أن يحتفظ بالباقي أو قل أغلب ما يملك من أسرار أودعها في مخطوطه الذي أبى إلا أن يحمله معه إلى أمريكا حيث تغرب الشمس، حيث لا تصير الأسرار أسرارا، بعيدا عن رقابة الآباء والزعماء على السواء ؟

كان واضحا أن يوسف متردد في قول الحقيقة، كل الحقيقة... صرت أفكر في يوسف الذي صار، كلما فكرت في لغزه، معادلا أو يكاد لمخطوطه. ثم شيئا قشيئا بدأ يقوى عندي ظن ثقيل وصار يستقر في أعماقي ويترسب يوما بعد يوم: ألا يمكن ليوسف أن يفكر في الاحتفاظ بالمخطوط إلى أن يضعه بين يدي سناء ؟ ليس هناك مخلوق على وجه الأرض يستحق أن يكون أول من يطلع عليه سوى سناء، هذا

المخلوق الملائكي الشمسي الذي لا زال شعاعه يغمر كيان يوسف أينما حل وارتحل. لكن كيف يحمله إلى أمريكا حيث لا يمكن لأمريكي أن يسمي معشوقته بهذا الاسم...

عفوا فيوسف يفكر أبعد مما تتحمله لغة عربية محددة... أليست هناك لغة بدئية، يمكن للمفردات الكبرى أن تلتقي فيها. أليس السناء نورا ؟ أليس النور شمسا ؟ أليست الشمس في الإنجليزية هي sun ؟ يمكن إذن لهذه الحروف س.ن، أن تشرق في الانجليزية في البلد الذي تغرب فيه الشمس ما وراء بحر الظلمات.

تعجبت من إصرار يوسف على الحلم إلى أبعد حد. الحلم يقين عنده وهل ثمة يقين عنده أقوى من أن يلتقي ذات يوم ب "سناء" في الغرب في نهاية الأرض، حيث تلتجئ الشمس في آخر أيامها. هل إيمان يوسف بهذا الوهم الجميل إلى هذا الحد، هو الذي قربني إليه أكثر.. قوى مخيلتي لأسترد أشياء كثيرة فقدتها ويئست زمنا طويلا من استردادها.؟

لقد أشعل المخطوط مخيلتي وعلي أن أسعى إلى النصف الآخر من الحقيقة. علي أن أشتغل على الخيال لأدرك بعض الحقيقة، والخيال ليس سوى إيمان بإمكانية استرجاع بعض ما فقدناه.

عدت إلى الوثائق السرية، إلى بقايا أطلال يوسف لأجرب الوقوف عليها. طلبت من رفيقي، هذا القرين، الذي لا يفارقني، شيطان الألم الذي يجري في دمي، أن يقف معي فوق الطلل وتساءلت: هل كان يوسف حقيقة ولما اختفى من أمام عيني صار خيالا ؟ هل الذكرى التي صيرته خيالا أم كان من بدايته خيالا أيقظته هواجس الرقابة في العزلة، مخاوف خالتي الضاوية التي نبهتني مرارا وتكرارا إلى عدم الالتفات إلى الخلف ولما خالفت نصيحتها رأيت نجاة ثم يوسف قبل أن يختفيا من جديد ؟

هل هي لعنة الذكرى ؟ هل هي لعنة الخيال ؟ وإذا سلمنا أن الأمر خيال في خيال، فما الذي يجعل أشخاصا خياليين يحضرون بقوة في حياتنا في الوقت الذي

يصير فيه آخرون من لحم ودم كائنات هلامية عابرة لا يوجدون إلا بعض الوقت ثم يختفون دون أن نهتم بأمرهم ؟

هل تكذب الحواس إلى هذه الدرجة فيصير الواقع خيالا والخيال واقعا ؟ متى وجد يوسف ومتى دلف إلى أبوابي السرية وكيف رسخ في أعماقي وأغراني بالكتابة ؟ وإذا أردت أن أكتب، هل أكتب عن يوسف في نفسي أم أكتب عن نفسي في يوسف ؟ هل كان ضروريا أن أنتظر طوال هذه المدة لكي أوجد مع يوسف، كي أولد للمرة الثانية.؟ أحيانا تلدنا فكرة، فنصير، في رمشة عين، غير الذي كناه. أحيانا يلدنا حلم لنوجد بشكل آخر وبكينونة أخرى، بقرار شعري جميل، صباح اليوم الذي يعقب الحلم، فتصير الشمس غير الشمس، والآخرون من حولنا، غير ما كانوا عليه، والأشياء تنكسر في الداخل لتولد بأبعاد أخرى.

لم أجد جوابا على أسئلتي هاته في الوقفة التي وقفتها، غير أني كنت متأكدا أن يوسف رسخ في نفسي، رسخه أكثر الرحيل المفاجئ، رسخه الغياب، رسخه ذلك المخطوط الخرافي الذي يتحدث عن غزالة خرافية استطاعت أن تهتك سر الخرافة. كيف السبيل إلى قراءته ؟ كيف يمكن القبض على خرافة مكتوبة في مخطوط مهرب ذات رحيل، ذات غروب ؟

أحسست وكأن المخطوط مخطوطي، وكأنه سرق مني في المطار، على مرأى من عبد الرزاق الذي لم يعد يأبه لا بالكتاب ولا بالأثر. سرق مني على مرأى من عبد الرزاق الذي يرى أن الأولوية الآن للسياسة، وأن السياسة لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا إذا قطعت مع الخرافة والخيال لكي تكون واقعية ومرنة، تتكيف مع حاجيات الإنسان المغربي. وفوق ذلك يرى أنها مجال للتنافس، يخضع للعب منطقي متفق عليه في مربع محدد سلفا اسمه الواقع. لا نفع للسياسة، في نظره، إن لم تلب مطالب فئات عريضة تريد خبزا قبل كل شيء وان هذا الخبز لن يصل إلى الأفواه الجائعة إلا بالاستثمار الذي تجلبه إلى بلادنا صناديق الزجاج.

لماذا استحال علي هذا المخطوط الذي صار الآن كتابا مفقودا. لماذا لم يكتب لهذا المخطوط، أن يرى النور في بلادي ؟ لماذا كان يوسف يعتقد أن ميلاده، ككتاب، هنا، سيكون مشوها ؟

سؤال كبير يهزمني، لا طاقة لي به. أجهش بالبكاء عندما أرى ركاما من الكتب تحرق في ساحة عمومية أمام حشد من الناس، على مرأى من وسائل الإعلام التي تنقل الحدث حيا نكاية بالمثاليين من المثقفين والسياسيين الذين لم يستطيعوا غزو غرفة البرلمان عبر صناديق الزجاج. يحترق الكتاب بطرق شتى عندما تتكدس نسخه ولا تتجاوز مبيعاته خمسمائة نسخة وعندما يرفض كاتب قصاص جائزة الكتاب احتجاجا على أنواع الحريق، من حريق الهجرة السرية إلى حريق الأفكار وحريق الكتاب الذي لا يجد من يقرأه.

بحثت في أصول المأساة، وكان علي أن أتذكر، لأجد جوابا على السؤال: لماذا تغادرنا المخطوطات منذ آلاف السنين ؟ لماذا تعاند المخطوطات وتتخذ قرارات مزاجية متطرفة ؟ لماذا لا يعجبها هواء البلد والوطن ؟ إما أن تهاجر أو تحترق أو تموت مهملة في ركن منسي إلى أن تأكلها الجرذان أو تسرق أو تهرب إلى مكتبة الاسكوريال ؟

بحثت عن المخطوط في نفسي... كان البحث غامضا في البداية ملغزا. أضاءت الذكرى بعضا من العتمة. رأيت بعيون الطفل خالي الذي عرف بالعلم والزهد دون سائر إخوته، رحل هو أيضا عن هذا العالم ولم أبلغ من العمر عشر سنوات. كان نساخا بارعا، حفظ القرآن الكريم وحفظ المتون في القرويين، جالس العلماء وأجازوه غير ما مرة وصار على مرمى بصر من القضاء. صار مؤهلا لتولي القضاء بعد أن درس الفقه والشريعة وتبحر في علوم عصره وتخيلت وكأن القضاء عرض عليه، لما عرف به من نزاهة وتقوى، فزهد فيه. بدون شك كان سيردد في كل مرة طلب منه ذلك: اثنان من ثلاثة قضاة في نار جهنم. لن ينجو من الثلاثة إلا واحد. ويخاف أن يكون أحد

الاثنين المرشحين للدخول إلى جهنم، يخاف من الفتنة، من القرب من ذوي الجاه والسلطان. كان يخاف من التأثير الذي يمكن أن يؤثر على أحكامه إما بالإغراء أو الترهيب. كان يخاف أن تلوى أعناق متون تشريعية كثيرة لتوافق مزاج الأعيان وأصحاب الوقت وذوي النفوذ. وعرض عليه أن يكون عدلا موثقا كما تخيلت وكان سيرفض قائلا: ما من عدل ينجو من شهادة الزور.

أتذكر وأتخيل وأتوهم: في قرارة نفسه يحب الكتب ومجالسة العلماء.. كان يجلهم. ومن فرط تواضعه كان يخاف أن يتكلم أمامهم، كان يخاف من التفصح أمام من يجلهم وأمام الخلق أجمعين إلا عندما تدعو الضرورة. أحب العلم وأعطاه كل قلبه تقربا به إلى الله عز وجل وتعبد به في محرابه، فكانت له مقامات، ما كتب عنها ولا تحدث عنها. كان يسكب روحه في الخط الجميل الذي كان يسيل من أنامله رقراقا يقول به "ما لا يقال"، يبوح فيه، ومن خلاله، معبرا عن روعة الخلق وجمال الكون.

كان من أشهر النساخين في مكناس، كما يبدو لي على الأقل أو كما تخيلت أو كما يجب أن يكون. لو كانت مكناس ترى بعيونه وتسمع رعشاته وتهتز لأنفاسه، لسعدت به ورقت إلى المعالي.

بقلم القصب وبالسمق، استمر وأصر على النسخ إلى آخر يوم في حياته. كان يقول عن مداد المدرسة البنفسجي بأنه دم الشيطان وعن قلم الحبر عكازه، أي الشيطان. ولا يمكن أن يصوغ هواه بدم الشيطان وهواه كان محبة الآفاق. في نسخه يقف عند علامات الوقوف ويعتبرها علامات دالة لأخذ النفس والتأمل في معاني الآيات ويستعيد من قوم يمرون على الآيات مرور الكرام. صاغ هذا العشق بالزعفران والألوان. كانت النساخة، عنده، عبادة، وكانت الحروف المنسابة على الورق تسبيحا.

كانت له مكتبة صغيرة ملتصقة ببيته يبيع فيها الكتب القديمة المستعملة بأثمنة زهيدة لا تتجاوز ما يستوجب عرق يده التي خطت أو جمعت أو جلبت الكتاب من مكان آخر. فيها يقضي فائض وقته إذا غادر المسجد.

لن أنسى أبدا حادثة، لي معه، لا زالت راسخة في ذاكرتي. كنت طفلا غضا معجبا بما يفعله الكبار. كنت أتمنى لو أكبر بسرعة لأحصل على بعض نفوذهم وسلطتهم. ذهبت إلى بيت خالي ذات مرة، وجدت الأهل متحلقين حول قصعة الكسكس وأقبلت على الأكل بنهم شديد.. كنت جائعا وأردت في نفس الوقت أن أبين القدرة على المنافسة والاستئثار ليعترف بي كرجل يستطيع الحياة... متأثرا بما يتداول الناس من مزاعم في هذا المجال: من طريقة الأكل تعرف مدى قوة المرء ومدى استعداده للعمل "لقمتو توريك خدمتو" كان علي أن أكون رجلا وأن أظهر الشره والغلظة ليحسب لي الآخرون ألف حساب ولأنال اعتراف الآخرين في الأكل أو غيره.

كنت أحسب أنني أحسن صنعا.. التفت إلي خالي بعينين رحيمتين، مشفقتين وابتسم ولم ينهرني، إلا أنه نبهني قائلا لا تكن يا ولدي كالذي ينطبق عليه قول الشاعر:

أتانا طفيلي كأن يمينــه   على الموائد برق يتخطـف

تحاكي عصـا موسى إذا هي   أقبلت فما هي إلا حية تتلقف

لو كان في الشرق أوفي الغرب زردة   وقد قطعت أقدامه، جاء يزحف

حول الحلقة التي تحيط بقصعة الكسكس، كثيرا ما تختلط الأوراق، تصير الكلمات لقمات واللقمات كلمات. ينجو شعر المآدب من عيون الرقابة، ويأكل معنا، ويقول كلمته. كانت القافية محط إعجابي، انتظمت على لسان خالي الذي انبسطت أسارير وجهه، فتبسم وضحك وترك البطنة تذهب الفطنة التي عرف بها ولو لبعض الوقت أمام أو بحضرة هذا الصبي الذي كنته.

لم أكن، آنذاك، أفقه في الشعر شيئا، غير أن ضحكات الكبار وتعليقاتهم واستعادة هذه الواقعة غير ما مرة، كل هذا رمم هذه الكلمات في ذاكرتي، ولا أدري إن كانت مطابقة للرواية أو النسخة الأصلية، أم لعب فيها خيال الذكرى واستيهامات الطفولة الراغبة في أن تكبر قبل الأوان وغيرت فيها الشيء الكثير... لكن وفاء للذكرى كتبت كلمات الأبيات كما حفظتها ذاكرتي دون تحريف ولا تغيير، فالتحقيق يقتضي الوفاء للذكرى التي تعتبر وحدها النسخة الأصلية.

انتظمت القوافي في ذاكرتي، وكان الشعر، بالنسبة لي، في ذلك الوقت، لعبا بالقوافي.. انتظمت القوافي، وعلى اللقمات أن تنتظم أيضا كما فهمت حينها دون أن تفسد للآداب قضيته.. يمكن التسلل من الشعر إلى الأخلاق عن الطريق السخرية والضحك دون أن نعكر صفو مزاج النقد والنقاد. فهمت آنذاك أنه كان علي أن أغير الإيقاع، أن آكل على إيقاع مختلف لأثبت ذاتي بطريقة أخلاقية، تختلف مع ما هو متداول. للمائدة آدابها وعلي أن أستوعب. ولم أدر، وأنا أتذكر، متى استوعبت هذا الدرس.

مر على هذه الواقعة الغريبة الآن ما يزيد على ثلاثين سنة.. ورحل خالي إلى دار البقاء. مضى الحدث ولم تبل الذكرى. اللقمة دافئة ما زالت، وقل ساخنة ما زالت في فمي، والقافية واضحة في أذني، أكاد اسمعها. وأرى ولا زلت خالي يتنازل عن زهده، عن كبريائه، قليلا ليخاطب الصبي في بالشعر. الشعر للكبار... لكن لا بأس عندما يلهو الشعر يمكن أن نربي به الصغار. ومنذ تلك الحادثة وفي كل مائدة، وفي كل حلقة تدور حول قصعة الكسكس، أتذكر خالي وأحسبني عائدا من بغداد بجوع المسافات الطويلة. وعلي أن أكون شاعرا متذوقا، لبقا، حكيما حكمة موسى أمام جبروت فرعون.

كبرت فجأة، وكان للذكرى مفعول حضارة تحول كل شيء في الإنسان، كما تتحول العصا إلى حية والحية إلى عصا. للحضارة سحرها وللشعر سحره. ويمكن للذكرى أن تسعفني الآن في قطع المسافات الطويلة من الشرق إلى الغرب.

أتساءل الآن ما الذي أيقظ في نفسي هذه الذكرى. هل مخطوطك، يا يوسف، هو الذي أشعل نار التخيل وصرت أهذي وأغذي أحداث الصبا بما يمكن أن يوحي به مخطوط ما ؟ ذهبت، يا يوسف، بمخطوطك وتركت لي الذكرى والأوهام. ذهبت بوليمتك التخييلية وتركتني أتضور جوعا. عندما يجوع الخيال تنشط الذكرى..

ثمة شيء فيك من خالي الذي رحل أيضا.. مات موتا حزينا، مات كفقيه وشاعر وناسخ يكتب بخط جميل في وسط مجتمع لا يهتم، مجتمع يهتم باللقمات على حساب الكلمات. اللقمات وحدها تحقق التنمية أما الكلمات فيجب أن تكون من فضة والصمت يجب أن يكون من ذهب.

مات خالي غريبا، فسرقت مكتبته ونهبت مخطوطاته ووقع الميراث الحزين في أيدي ورثة لا يأبهون. مات وترك صندوقا خشبيا كبيرا كان قد دفنه في زاوية من زوايا البيت، كما حكت لي أمي، احتوى على مخطوطات نادرة، وربما على كتاب مخطوط من تأليف خالي، ربما يكون قد كتبه وأخفاه عن عيون الناس. بعد موته لم يعثر على هذا الصندوق الخشبي. اختفى من البيت ولم ندر أي يد آثمة امتدت إليه. اختفى الصندوق الخشبي وخلف خرافة لا زالت تتردد أصداؤها في أعماقي. ضاع هذا الميراث ومعه ضاع كتاب أصفر، لا أذكر عنوانه. وبالأحرى لم أكن أهتم بالعناوين وفي الواقع لم أكن أعرف أن للكتب عناوين.

لم أذكر شيئا من هذا الكتاب سوى فتنته. كان مكتوبا بخلاف مخطوطاته بحروف سوداء مطبوعة على ورق أصفر.. استطعت أن أقرأ منه أو خيل لي ذلك عن طيور أسطورية، تعبر البلدان والأقطار.. طيور ضخمة.. كواسر بأجنحة كبيرة، طيور

كالرخ، تخفي الشمس تعبر إلى الأندلس والسودان وحتى الوقواق وإلى جزر نائية في حدود الدنيا...

مضت تلك الطيور بتفاصيلها الدقيقة وأنوعها المختلفة وخلفت في خيالي الصغير هالة أسطورية، بها أنظر إلى أسراب الطيور المهاجرة من الشرق إلى الغرب. ليكتمل علم البصريات، لا بد من إضافة البعد الشعري للأشياء. فنحن لا نرى الأشياء أبدا بنفس الطريقة. ثمة أبعاد أخرى تحيط بالأشياء، نعيشها، نتذكرها بشكل غامض ولا نقول عنها شيئا. في المنطقة الغامضة الفاصلة بين الخيال والذكرى يومض الشعر.. والشعر ليس شيئا آخر غير الصور الأولى التي سكنتنا في طفولتنا وغذت خيالنا وعقلنا على السواء.

إن الشعر بالنسبة لي قافية جائعة. الشعر صحراء تعد بمزيد من الظمأ.. سراب يوقظ العطش الأزلي للأشياء. والكتاب بالنسبة لي، يعني الفقد. الكتاب الحقيقي يبقى دائما مخطوطا مفقودا، انقرضت نسخه، أو طرسا كتب فوقه عدد من المرات، يغري دوما بالبحث عن الحروف الأولى. كل قراءة هي بحث في الطرس عن شيء عزيز فقدناه. وكل كتابة هي بحث عن هذا المفقود الأزلي والذي يسبب لنا حزنا غامضا وقلقا ملتبسا لا ندري في أغلب الأحيان مصدره.

كثيرا من الذكريات تخزن في الذاكرة ولا تشتغل أو يخيل الينا أنها جامدة، كما نتخيل الوثائق في الأرشيف. لا تموت، تبقى، على الأقل، نائمة أو صامتة، تنتظر أحداثا طارئة، قد تكون تافهة، لتستيقظ من جديد.

أستغرب كيف نامت هذه الذكريات في جمجمتي التي أحملها معي أينما ذهبت ولا أعرف ماذا يوجد فيها. غريب أمر الذاكرة. أي سر هذا، يشعل فتيلها ؟ أي شمعة هذه، تضيء ظلماتها لتظهر أشباح مهاجرة من الماضي السحيق، تلح علينا لنسميها بأسماء قد تكون حقيقية أو متخيلة.

وعندما تقترن الذاكرة بالكتابة يصبح لهذه الأخيرة معادل آخر. إنها استرجاع المفقود. بها نسترجع ما ضاع منا. عن طريق الكتابة، نسترجع أحلاما كان من الممكن أن ننساها. كل صندوق خشبي قديم يذكرني حالا بهذا الكتاب الذي فقدته الذي يتحدث عن الطيور المهاجرة التي تخفي الشمس بجناحها الكبير. كتاب قد يكون في هذا الصندوق المدفون بدوره في مكان ما...

كدت أنسى هذا الحدث. خبأت هذه الذكرى سنين طويلة تحت جلدي وهاهو يوسف يوقظ في هذه الذكرى الحالمة، الذكرى الجريحة. ذكرى عصفور خذله جناحه ذات خريف وترك السرب يبتعد. ذكرى طفل فتنه كتاب ذات يوم، دون أن يدري لماذا، دون أن يعرف سر هذه العلة التي أصابته دون سائر زملائه ممن يبتلعون اللقمات ولا تؤثر فيهم الكلمات.

وجدت يوسف يحمل بين جوانحه نفس الذكرى ونفس الجرح ونفس الفقد. رجعت إلى الملف البنفسجي لأتأمل ذكريات الفقد التي مضى عليها ما يزيد على عشرين سنة فوجدت الوثيقة الحلمية التالية بخط سناء. وحرصا على الأمانة العلمية والأدبية، سأنقلها كما هي، بدون زيادة ولا نقصان، وأضعها بين يدي القارئ كمادة خام قد تسعفه لكتابة روايته الخاصة وحتى على كتابة دفتره الداخلي الأزرق، كما سبق لي وأن قرأت في إحدى الروايات.

هذه الوثيقة عبارة عن رسالة وجهتها سناء إلى يوسف:

عزيزي يوسف:

لقد سبق لي أن وعدتك بالكشف عن أسرار مهمة، لم أبح لك بها من قبل، وبكتابات جمعتها في دفتر لا زلت أحتفظ به، ولا أحد يعلم بوجوده إلا الله وأنا، وقد عزمت على إطلاعك عليها في الآونة الأخيرة، إلا أنني ترددت لظروف سبق لي وأن حكيت لك عنها.

في هذا المساء ذاته ونحن نفترق، وعدتك مرة أخرى، لكني لما وصلت إلى البيت، فكرت واستنتجت أنني سأسبب لك اضطرابا وارتباكا، إن أقدمت على هذه المغامرة. وكما تعلم فلدينا هذه الأيام الكثير من الأعمال والواجبات التي يجب القيام بها وليس لدينا الوقت الكافي لنضيعه.

مرة أخرى أعتذر لك، وتأكد بأن الأوراق ستكون بين يديك. أقسم لك، لأنني أنا نفسي لم أعد قادرة على حملها لوحدي. أسرار ثقيلة أضنتني وأريد في نفس الوقت، أن أجربك لأرى ما إذا كنت قادرا على وضعها في مكان أمين إلى جانب أوراقك السرية الخاصة بك.

ومن جهة أخرى أريد أن أؤكد لك بأنك فعلا موهبة نادرة، نعم موهبة بمعنى الكلمة. فأنت الشاب الوحيد الواعي الذي صادفته في حياتي ولا أريد أن أقارنك الآن مع عثمان وأحمد. وعندما أقول لك هذا، ليس بغرض إضفاء طلاء لامع على شخصيتك، فأنت في غنى عن ذلك، ولكن لأني جربتك وعاينت بنفسي أعماقك ومشاعرك وأحاسيسك الإنسانية المرهفة.

عزيزي يوسف:

أعود مرة أخرى لأعتذر لك، لأستسمحك وأرجو أن تتقبل ذلك وأرجو أن تتابع طريقك وسنرى، إن شاء الله، ذلك اليوم الذي ستحقق فيه أحلامك.

بالنسبة للقصيدة التي منحتني، فلن أرجعها لك الآن. أريد الاحتفاظ بالنسخة الأصلية وبعد العطلة، عند رجوعنا إلى مقاعد الدراسة، سأعيد كتابتها وأعطيك المنسوخة وأحتفظ بالنسخة الأصلية.

نهاية

إلى اللقاء يا أغلى عزيز.

يالها من وثيقة سرية غريبة متخنة بالخيانة والسرقة والحرقة والحيرة والغموض. ثمة جدار لا مرئي يصل ويفصل، في نفس الوقت، بين كائنين تعيسين، جمعهما الحب الأزلي وفرق بينهما حجاب لا أعرف طبيعته ولا مصدره.

ثمة شيء ليس على ما يرام، غير واضح في الرسالة ولم يحدثني عنه يوسف. لكن الأكيد أن يوسف تعرض لسرقة شعرية. كان من الممكن الحصول على الدفتر السري ولم يحصل عليه. ثمة مخطوط هربته سناء معها إلى العالم الآخر، مخطوط كان من حقه الحصول عليه، وعدته ووعد سناء دين. ألم تعده ؟ ألم تقسم باليمين المغلظة ؟ ألم تؤكد له باليمين المطلقة أن هذه الأسرار ستؤول إليه يوما ليضعها إلى جانب وثائقه السرية الأخرى ؟ هل يعقل أن تخذله هذه الأنثى الشامخة بكبريائها وعزة نفسها ونبلها ؟ وإلا كان كلامها خداعا.

يوسف لا يصدق أبدا أن تكون سناء خدعته، فقلبه المحترق بعشقها لا يمكن أن يبادل قلبا خادعا بحب صادق. عندما يستفتي قلبه، يجدها حاضرة فيه وإلا لماذا استحقت منه هذا الوفاء الأسطوري. حتى في غيابها، فهي حاضرة دوما في أيامه ولياليه وأطلاله.

كل الأماكن التي شهدت لقاءهما يوما، تحولت إلى أطلال يقف عليها دائما وينتظر مجيئها المباغت وحلولها المفاجئ. رآها مرارا بقلبه تمشي هنا وهنالك حافية القدمين في أفق نظره، تمشي حافية على أمواج بحر أحاسيسه وأشواقه. ومتى هدأ البحر وهل يمكن للبحر أن يخون أمواجه، أن يكون غير نفسه، أن يخون نفسه. أن يكون البحر غير البحر ؟ هل يعقل أن يتنكر القمر لرسالة الجاذبية ؟ أن يتنكر لنوره ؟ ومتى صار القمر قمرا بدون نور ولا جاذبية ؟

كانت سناء، بالنسبة ليوسف، كل النساء المفترضات، كل الإناث الممكنات، بل الأنثى الوحيدة القابلة للتحقق، للإبداع والخلق والخيال. هل أعماه الحب إلى هذه الدرجة ليرى ما لا يراه الآخرون فيها. فلماذا اختفت من حياته بهذه الطريقة المتوحشة

بدون سابق إنذار ؟ لماذا رحلت إلى غير رجعة ؟ هل كانت في بدء الأمر وآخره سرابا في سراب ؟ هل كانت حلما ؟ وهما ؟ ضبابا انقشع ببزوغ حقيقة الشمس الملتهبة الحارقة لكل براعم الحلم والأمل ؟

أمضى، على ما حكى لي، ثلاث سنوات إلى جانبها ولم تكن هذه السنوات إلا وعدا خالصا، سرابا في صحراء، يضاعف الظمأ في قلب الفتى الحالم. حصل على البكالوريا الذي نجح فيها بامتياز إلا انه كما قال كانت البكالوريا سقوطه الأول. وسقط أيضا في نجاحه في الجامعة، لأنه كلما نجح، ابتعد عنها أكثر. اشتغل بالمخدع الهاتفي وركب كل الأرقام الممكنة لعله يسمع صوتها ذات يوم ولم يسمع إلا الخيبة تلو الخيبة.

استعبد على مرأى من العالم ولم يجد عملا شريفا، يكبر به في وجه سناء.. دراهم معدودات يعود بها كل يوم، تقيه من الفقر المدقع الذي يهدده دوما بالظمأ والجوع. ألهذا انسحبت سناء مبكرا قبل أن ترى الهزيمة في عيني يوسف، فهي، ربما، لا تطيق أن تلحق يوسف الحالم الهزائم الكبرى ؟ ألهذا انسحبت ليكبر الانتظار ويتغذى الحلم وهي بعيدة وفضلت ذلك على أن تكون قريبة من الهزيمة التي اكتسحت كل شيء، الصحف والبرلمان والسجون والجامعات والشوارع والسياسة والشعر والاقتصاد. هزيمة غير شريفة في حرب لم تقع.

إلى أي ملجأ التجأت سناء ؟ إلى أي كهف أوت ؟ هل تكون أحرقت حياتها هي الأخرى على متن مركب خشبي عتيق ؟ هل هربت أنوثتها إلى الغرب لتكتب بكل حرية عن كوابيسها وخيبات آمالها دون رقابة ولا نفاق ولا تملق ولا خوف ؟

بحث عنها يوسف في الشوارع الطويلة التي كان يعشق المشي فيها وفي الأزقة الضيقة وفي بلاد الحشيش وبلاد الورد المعلب ولم يجدها. اختفت كما تختفي قطرة الماء في يوم قيظ عظيم..

ألهذا السبب رحل يوسف أيضا بحثا عن إمكانية أخرى يصوغ بها من السراب حقيقة ؟

. استطراد .

لا أدري إن كانت الأعراف الأدبية تسمح لي بهذا الاستطراد. لا أدري إن كان الكاتب نفسه، سيوليه اهتماما، إن كان يقبل بنشر ما يطرأ أحيانا في كواليس الكتابة على هامش ما يسميه متنا. كان بودي أن أضع هذه الاستطرادات على هامش كل صفحة، كلما دعت الضرورة إلى ذلك، لفتح حوار مباشر وحر مع القارئ، لكن لا

سلطة لي على قرارات الكاتب الذي تعود له وحده الكلمة النهائية. فالكتاب كتابه. هو المسؤول عنه أمام القانون والمجتمع والتاريخ.

هو يعرف أنه لا يستطيع أن يتكلم مباشرة مع القارئ وإلا طرد من خريطة الرواية شر طردة وأبرز له النقاد أنيابهم. العقدة التي ربطتني به لا تختلف عن العقد الكثيرة المبرمة بين الكتاب والرواة. هو الذي يرسم الطريق، وعلي أن أتبع خطواته، أن أصاحبه في يقظته وأحلامه، في واقعه وهلوساته لأكتب ما يمليه علي. فأنا بكل ببساطة مكلف بمهمة السرد في ديوانه وعلي أن ألتزم بالمسطرة وإلا أجدني مطرودا من عملي هذا وبحث عن راو آخر يقبل لعبة الأقنعة ولعبة استبدالها إلى ما لا نهاية لإخفاء الوجه الحقيقي للكاتب.

يدعي أن الاختفاء وراء الراوي، يمكنه من الحديث بكل حرية خصوصا في بلد منتم إلى العالم الثالث تنشط فيه الرقابة كثيرا. لا يمكن أن تعيش فيه إلا بارتداء ما لا نهاية له من الأقنعة.

كنت أتساءل هل وجودي مرتبط بوجود الرقابة ؟ هل وجودي مرتبط بلعبة القناع ؟ ماذا لو رفعت الرقابة وقرر الكاتب الحديث إلى القارئ مباشرة ؟ ماذا يمكن أن يلحق خريطة الأدب من تشويه ؟ ماذا يمكن أن يلحق مؤسسة الأدب المحترمة من دمار؟

أدركت، بحدسي، أن لعبة الراوي ليست لعبة شكلية للتزيين والتجميل فقط، كما يدعي البعض وإنما المسألة لها علاقة بالرقابة والحرية في بلدي على الأقل، وأن بهذه اللعبة يمكن إنقاذ ما يمكن إنقاذه من قيم، يمكن أن تهدد أمن هذا البلد المعروف بالأصالة، لو فتح المجال أمام الكتاب لعرض غسيلهم وعوراتهم بجسارة على رفوف المكتبات أمام قراء غير محصنين، يحتاجون إلى مزيد من الوصاية إلى أن تنضج حضارة التخييل وديموقراطية السرد.

إلى أن يتحقق ذلك، علي أن أكتم أنفاسي وأخفي تعاليقي وأن أروي ما يريده هو على لساني. كان من الممكن أن لا أتدخل، أن أبقى محايدا لو اختار لي الكاتب ضمير الغائب حيث أرى ولا أرى وأكون عينا خالصة له، تنقل بوفاء ما يريده حتى وإن كان غيبا. ولكن الكاتب أراد أن يحملني مسؤولية الكلام. أوهمني بالحرية في القول والتعليق وأن أتحرك كشخصية مستقلة وأنقل ما يقوله وما تدعيه الشخصيات الأخرى.

تظاهرت أنا أيضا بالفهم وادعيت ذلك لألعب هذا الدور الجديد. فهو بالنسبة لي أول تجربة، أول مهمة، بعد تسلمي لهذا العمل. ولا أدري إن كنت سأوفق في هذا أم لا. ولكي أوفق، علي الصمت والكتمان وألا أتدخل وأن أكتم فضولي، وألا أشكك في قواعد الأدب، وألا أنقل الكواليس إلى الفضوليين أمثالي. ثمة أسرار لا نهاية لها، تملأ الرأس الكبيرة لكاتبنا وهو لا يكشف عنها إلا بالتقسيط.

يمر كاتبنا هذه الأيام بفترة نقاهة. فقد أصابه مرض جفاف الأفكار والأخبار، وهو عرض من أعراض الرقابة التي تصيب كتاب العالم الثالث. مرض أقرب إلى فقر الدم حيث لم تعد الكويرات البيضاء والحمراء تحمل ذلك الكم الهائل من الرسائل التي كانت تتساقط عليه في أحيان أخرى زخات، زخات، إلى الحد الذي يصعب علي مسايرته ومواكبة إيقاع تتابع المعاني السريع...

كان يقول لي، لم تدجن اللغة بما فيه الكفاية لتكون قريبة منا وتنقل دبيب ما يسري تحت الجلد. كان يقول لي بأن التعبير في العالم الثالث يتم بالجسد وبحركاته غير اللفظية ورموزه أكثر من اللغة التي تعرضت للقمع والرقابة وابتعدت عن الوجدان والجلد والعقل بمسافات كثيرة.

لا نستطيع أن نتحدث عن أنفسنا إلا بلغة زمن غير زمننا، وبلغة مكان غير مكاننا، وبثقافة غير ثقافتنا، لذلك تنشط الهجرة إلى المدن السفلى والعوالم الأخرى كجدبة كناوة وشرب الماء الساخن في حلقات عيساوة.

لم تتسع اللغة بعد، لأشواقنا واستيهاماتنا، لذلك نلتجئ إلى حلول ترقيعية، كما نفعل في جميع المجالات للفت الانتباه إلى هذا العفريت الكائن بداخلنا والذي لم يستطع الكتاب بعد إخراجه من القمقم منذ مات سليمان.

كم من فكرة شردت وسقطت سهوا وكان من الممكن أن تقلب الموازين. ثمة بركان من العوالم مختوم بالرصاص، لا يمكن فتحه. كان لا بد من الراوي لمراقبة عبور البضائع من العوالم السفلى إلى عوالم الصفحات البيضاء التي يجب أن تعرض الأفكار والأحاسيس على المواطنين من وراء واجهات الزجاج بحس حضاري حتى لا تحتقرنا الشعوب الأخرى.

في الحقيقة أنا أتفهم هذه الأفكار السوداء التي تهاجم كاتبنا بين الفينة والأخرى وقد سبقه الجاحظ إلى الإشارة إلى هاته الإشكالية عندما قال بان المعاني مطروحة في الطريق، مع فرق، هو أن الجاحظ كان يتكلم بلغة كانت قريبة إلى حد ما من لغة أمه، من لغة زمنه. أرى والله أعلم أن الجاحظ، في قولته المشهورة هاته لا يقلل من قيمة المعاني كما يزعم كثيرون وإنما يقصد أن اللفظ مهما بلغ من الفصاحة لا يمكن أن يستوعب هذا الكم الهائل من الأفكار، هذا التداعي السريع للأحاسيس والصور كشلال منهمر يجرف معه الحروف والكلمات، يجرف الرواية والرواة.

الكتاب مفطورون على الإلهام المقدس ونحن مفطورون على الكتابة. لهم الوجود الأول الذي يفيض باستمرار ولنا الوجود الثاني. فنحن لا نكتب إلا ما يفيض عنهم. نكتب أفكارهم العظيمة وأيضا خزعبلاتهم وأوهامهم.

أما الآن، وقد نضب معين كاتبنا، فقد رأيت أن استغل هذا الفراغ الناتج عن غياب الكاتب عن ساحة الرواية بين الفينة والأخرى، لأكشف عن بعض الحقائق التي لا يجب أن تبقى كلها سرية. ويتعلق الأمر بقضية نقدية، لم تثر لحد الآن، حسب علمي، ألا وهي حقوق الرواة. فقد مل الناس من الحديث عن حقوق المؤلف التي لم تحترم حتى الآن، حقوق ضيعتها دور النشر والطباعة والقراء والوزارة الوصية ووسائل

الإعلام ومؤسسات أدبية وغير أدبية، لا تعد ولا تحصى. ولكن لا أحد تحدث عن حقوق الرواة. فعلى الراوي واجبات ثقيلة.. عليه أن يلازم الكاتب أينما ذهب وعليه أن يحضر حالا كلما عنت لكاتبنا المحترم فكرة حتى وإن كانت وهما. الإلهام مقدس وسريع ومفاجئ، وعلى الكتبة الامتثال لأوامر الآلهة، لربات الشعر والنثر وإلا تعرضوا لغضب أبولو الذي فتح سفارته في كل مكان. الآلهة سريعة الغضب لأقل تهاون نسبب فيه ولو بحسن نية ودون سبق إصرار.

كم من كاتب اندس في فراشه عاريا وتمدد إلى جانب زوجته، ففوجئ بفكرة عابرة للقارات، تطرق رأسه، فما عليه إلا أن يكتبه وما على الراوي إلا أن يحضر حالا ويرى أشياء حميمة وأحيانا مخجلة ليكتب عن النيازك والشهب التي ظهرت في سماء خيال الكاتب قبل أن تنطفئ، نعم، أشياء مخجلة نضطر كرجال الإسعاف تماما أن نقتحم خلوة الكاتب دون سابق إنذار حتى عندما يتعلق بأوضاع مشينة.. فكم مرة اضطررت أن أداهم المرحاض لإنقاذ فكرة مصيرية حول مسار أحداث الرواية.

كلما أديت المهمة على أحسن حال، إلا وابتسم الكاتب وشكرني على سرعة التدخل وطلب مني بالمقابل إخفاء التفاصيل على الفضوليين وضبط سر المهمة وإلا تعرضت للطرد.

علينا دائما أن نحمل معنا ورقة وقلما أو تكون لنا ذاكرة قوية ودقيقة تحفظ عن ظهر قلب مؤشرات الدماغ التي تتحرك بسرعة البرق وهذا ما لم يتوفق فيه إلا رواة قليلون كراوي بروست مثلا الذي حطم الرقم القياسي وسجل ما لا تتحمله الدقيقة والثانية نفسها.

إن لم تكن لنا هذه الذاكرة، يمكن أن نسجل ما يخطر على بال الكاتب على أي شيء.. على الحائط.. على الجدران.. كما كان يفعل الإنسان القديم قبل أن يكتشف ورق البردي، وقبل أن يكتب على جلود الغزلان ويحكى والله أعلم أن الشعر كان وحده يكتب على جلود الغزلان لأن جلود الغزلان كانت قادرة على البوح بمكنون

الشعر حتى وان تعرضت للمحو. الغزلان قادرة على البكاء، قادرة على الاحتفاظ بحزنها في جلودها، تتحدى قساوة الصيادين والجلادين وأعداء الكتب بصفة عامة. بينما الملاحم كانت تكتب على جلود الحيوانات الأخرى. جلد الغزالة مقدس، يحفظ الاستعارة الطارئة والبارقة الشاردة من بنات الأفكار العابرة لأمد طويل.

لا أخفيكم أني تعاطفت كثيرا مع من أراد الكاتب أن يسميه "خالي" ذلكم الفقيه النساخ الذي كان يخاف من دم الشيطان لأني كنت بدوري أخاف من العوالم الغريبة والعجيبة التي تتقاطر على كاتبنا بغزارة وكثافة في زمن قياسي يصعب معه الإمساك بالقليل منها. ما أرويه ليس إلا بقايا وأصداء لما يحدث هنالك.

من حسنات الرواية أنك تجد نفسك منخرطا في دور لم تحلم به من قبل وتكتشف أن بإمكانك أن تعيش حياة أخرى ليست طارئة عليك. حياة كامنة في أعماقي ولم انتبه إليها قبل هذا العرض السخي وهذا الفضل الذي من به علي الكاتب.

اكتشفت لأول مرة الحب الحقيقي مع نجاة، حب قادر على المنازلة والمباغتة، حب قادر على تغيير درجة الحياة التي أعيشها. اكتشفت أن الحياة الحقيقية هي حياة المفاجأة. أن أعيش ما لم أنتظره. لقد أكسبتني هذه التجربة الأولى المتواضعة، على أية حال، كيف أشرع حواسي وافتحها للآتي، للآفاق حيث تتوالد الإناث بآلاف الألوان والأشكال ويقع النكاح الحقيقي الذي يتحقق فيه توالج النظرة في النظرة والفكرة في الفكرة والإحساس في الإحساس.

لا أنكر أني شردت هذه الأيام الأخيرة عن حياتي الاجتماعية العادية وصرت أدمن الخيال أكثر مما أدمن على ما يسمونه الواقع والحقيقة. بعيون نجاة رأيت الشلال وبعين يوسف رأيت وقل تأكدت أن في الأحلام حياة أخرى.

مضى زمن طويل على هذه التجربة والتي تزيد على سنتين بمقادير الحساب وآلاف السنين بمقاييس أخرى لم أدركها حتى الآن. مضى زمن طويل ولم تنته الرواية،

وعلي أن اذهب حتى آخر الشوط كما تقتضي العقدة المبرمة مع الكاتب. مضى زمن طويل، كدت أن أنسى فيه وجودي الأول، وجودي الاجتماعي العادي.

استغللت فرصة نقاهة الكاتب لأفاتحه في الموضوع وأشكو له حالي مع المتع الجمالية التي أضنتني وأنستني عائلتي وعملي. اتسع صدر الكاتب لأول مرة وأبدى تفهما بشكل لم يقم به أي كاتب مع راو في نفس الوضع باستثناء ما سبق لي أن اطلعت عليه وما قرأته عن راوي العلامة ابن خلدون الملقب الحيحي.

فقد غفر لي تدخلي فيما لا يعنيني: فكيف يمكن لشخصية ورقية أن تتجرأ على مواجهة قدر أراده الكاتب أن يكون طبيعيا للأحداث والشخصيات. قلت له، أي للكاتب: لقد حولتني في عملك هذا إلى طيف خالص لا يرى إلا عندما تشتد الحالة ويشتعل الخيال. لا يعرف القارئ عني شيئا، عن حالتي المدنية ولا عن وضعيتي الاجتماعية. استرسالك على هذا الإيقاع والحالة هذه، سيؤدي بالقارئ إلى إنكار وجودي ويعتبرني مجرد مزحة خيالية وطيش فكرة ويتهمك قبل أن يتهمني بالهلوسة.

ابتسم الكاتب لهذه الثورة الهادئة ولهذا التمرد اللبق لراو عن كاتبه. كان من الممكن أن يغضب غضب زيوس على هذا الكائن الورقي الذي سولت له نفسه سرقة النار من مجمع الآلهة، راو لم يعد مكتفيا بالنسخ وكتابة ما يملى عليه، وإنما أراد أن يحسن وضعيته الاعتبارية ويرقي من وجوده ويكون له نصيب من الاقتراح وبعض السلطة للمساهمة في الحل والعقد ولما لا في السياسة.

كان الكاتب في حالة نقاهة. كان متعبا ولا زال في حاجة ماسة إلى الراحة. كان غير قادر على المواجهة. ابتسم متفهما لكن دون أن يقبل هذا النزقق كما هو على علته. قال لي: أنا لا أسعى فيما أكتب إلى تكرار النسخ كما يفعل خالك الذي ملكه الخط وصار ينسخ إلى ما لا نهاية. أنا أريد أن أقارب في حالة الكتابة التي أعيشها، حياة مهمومسة صامتة قريبة منا، يعيشها كل واحد منا ولا يهتم بها، حياة غامضة لكنها

مألوفة، محسوسة لأننا نعيشها باستمرار، لكنها لا تجد طريقها إلى كلامنا بسبب الرقابة الناتجة عن المواضعات الاجتماعية.

ابتلعت ريقي وسلمت له أمري وقلت سأتبعك طائعا وسأكتم فضولي، لن أسأل ولن أتدخل ولن اعصي لك أمرا. طلبت من الله أن يمدني بالصبر اللازم لتحمل ما لم أحط به علما.

كانت علامة التأثر بادية عليه. جلس قبالتي على الأريكة، ينفث دخان سيجارته، يتتبع سحابة الدخان وهي تتلاشى في الهواء كخيال طارئ، يحتسي قهوته وينظر إلى البعيد، يهذي بكلام أقرب إلى الكتابة. استغرب لازدواجية التفكير والكلام والفعل الناتجة عما سماه بالوجود الداخلي حيث نكون مع أنفسنا، والوجود الخارجي حيث نكون تحت رحمة الآخر بمواضعاته الاجتماعية. نظر حيث أجلس إلى طاولة الكتابة وهو يبتسم.

أشار بيده أن لا أكتب ما حدث بيننا وقال أن كلامه الذي باح به الآن غير صالح للنشر.. حديث كواليس ليس إلا.. يجب أن يبقى في الكواليس ولا يريد أن يثقل كاهل القارئ بكلام لا يهمه.

واعترف أن الكتابة فعلا تفتح أمامه عوالم خيالية رائعة، غنية ممتعة كثيفة، سريعة الإيقاع، جميلة متعبة، متناقضة لا يمكن لإيقاع الكتابة مهما كان أن يسايرها ولا يمكن للأنواع الأدبية أن تستوعبها.

واعترف أيضا بان الدور الذي أسنده إلي صعب، معقد: علي أن أتفاعل مع الشخصيات الأخرى وفي نفس الوقت أتتبع أنفاسه وأهرول وراء أفكاره وأوهامه. قال لي:

– تمنيت لو استقللت بنفسك وأن تكتب ما يعن لك وتتخلص مني ما أمكن. أن تكتب قلقك أيضا. أرأيت من الأحداث السابقة أني لم أرد أن أستغلك كيد عاملة

فقط لتفريخ القصص بلا معنى دون أن يكون لك وجود وأفكار وأوهام وأحلام خاصة بك. لم أكلفك بالرواية منذ البداية، بل حاولت أن أقنعك وأقنع نفسي بجدوى الكتابة. أرأيت كيف همست ليوسف، بطلي المفضل، ليغريك بالكتابة غير ما مرة لأنني مقتنع أنك لا يمكن أن تنجح في عمل الرواية ما لم تحب الكتابة. ورأيت كيف ضيع خالك مخطوطا مهما لأنه كان يفضل النسخ على الكتابة ولا شك أنه سيكون نادما على إهماله هذا في موته بعد أن اجتاح المغول خزانته ومزق ما مزق وأحرق ما أحرق...

قبل الرواية كان علي إجراء تعديل في وجودك لتشاركني في قناعاتي كراو مختلف، يتطلع بدوره إلى الكتابة. كان لا بد من تغيير إيقاع حياتك ونمط تفكيرك وأحاسيسك والأمر كما ترى ليس سهلا ولا يتعلق بتاتا بوصفة جاهزة، خصوصا في ظل واقع لا يعترف بالكتابة ولا بالكتاب ولا بالكاتب، في ظل مجتمع يفضل تصريف طاقته في الثرثرة اليومية والنميمة ولعب الورق ومشاهدة مقابلات كرة القدم والقهقهة بصوت عال لأتفه الأشياء. كان من الصعب علي أن أقنعك بذلك في وقت أصبح الكاتب ينوء بثقل غربة بين أهله وذويه وأصدقائه وذويه. ألهذا السبب أيضا ربما جعلت منك صديقا لتخفف من ثقل وكآبة هذا الاغتراب الذي يؤدي بي أحيانا إلى عزلة قاسية أعيد بها النظر في كل شيء وأكاد أقطع مع كل شيء، لكن الحياة أروع وأجمل ولا يمكن لي أن أفرط فيها ولذلك كان لا بد من الكتابة ولا بد لي من صديق مختلف عني أشاطره أحلام اليقظة الجميلة التي تزورني. كان لا بد من النفاذ إلى أعماقك، إلى ذاتك الأخرى حيث أنت تسكن حقيقة دون أن تعي ذلك، في أعماقك حيث بقايا أسطورة قديمة هاجعة، حيث ترسبات أخيلة وأحلام خلفها الزمن الأول في قعر وجودك. كان يؤلمني أن يمضي الناس حياتهم من المهد إلى اللحد دون أن يشغلوا في أعماقهم آلة الحلم والشعر ولو مرة واحدة، ولم يجلسوا، ولو لمرة واحدة، لشمعة تضيء نورا وخيالا، ولم يجلسوا ولو لمرة واحدة، لعزلتهم يحادثون أطيافهم وينظرون إلى أنفسهم ولو لبعض الوقت في بركة نرجس الصافية...

في رأيي ليس نرجس أنانيا، كما يزعم الكثيرون. إنه لا ينظر إلى وجهه الواقعي الذي يعرفه به الناس، بل ينظر إلى وجهه الآخر. اسمح لي، يا إدريس، أن أقول لك بأن الكتابة ليست امتيازا، ليس يافطة النخبة التي تسمي نفسها نخبة، بل هي طريقة في الوجود، كيفية وجود، وقفة استثنائية لممارسة عزلة، عادة ما لا يتيحها لنا الآخرون. نعيش طوال حياتنا سطحيين في وجودنا الدائم مع الآخر، وفقا لقواعد ومراسيم اجتماعية غير مقتنعين بها. قليلا ما نكون أنفسنا. عندما نطرح السؤال نصاب بالبركان، وتلوث البركة وتشوبها الشوائب فنضيع الصورة في معمعة الأحداث.

أتساءل دائما لماذا تزورنا الأحلام في الليل ونتذكر بعضها عندما نفتح أعيننا ليتبخر بعضها بعد ذلك ويخلد البعض الآخر في انتظار قصيدة شعر أو خربشات رسام ؟ هل تعتبر هذه الكيمياء عبثا ؟ لو كانت كذلك لماتت في المهد، في سواد العدم الذي ولدها ولما عرفنا أننا نحلم، ناهيك عن أحلام اليقظة التي تتجبر داخل أنفسنا وتفرض نفسها فتخلق، بدل القصائد، روايات. أردت يا إدريس أن أرفعك إلى النجوم لتشتغل على نفسك ولا أريد منك أن تكون مجرد موظف في شركة للسرد لتعليب الأحلام بالوقع. لا أريد منك أن تكون نساخا ولا راويا، تنقل إلى الآخرين ما لا يمت لك بصلة، لذلك مددت خيوطا نورانية بينك وبين يوسف ونجاة لتكتشف نفسك...

إياك أن تسيء الظن بي: الكتابة تنتهي حيث تنتهي الحالة المصاحبة لها. ما يتبع ذلك من قرارات وإجراءات من طبع ونشر وطلب للدعم وتوقيع واستجواب لا علاقة له بالكتابة. وهذا ما لا يفطن إليه كثير من الكتبة الذين يستغلون الكتابة لأغراض أخرى تخرجها عن طابعها الإنساني لتسقط ضحية لنوازع اجتماعية وحسابات ضيقة وأوهام لأقلية تسعى لفرض نفسها على الآخرين. يريدون احتكار الحرف بطريقة وأخرى وإقصاء الآخرين من حق الشعر، أي من النظر إلى صفحة الماء الصافي بين الفينة والأخرى...

أقنعتك بالسفر إلى الشلال وكنت مترددا في البداية. هنالك تآمرت مع نجاة للإيقاع بك في فخاخ الحب، الحب القوي، المفاجئ، المحطم، المدمر، الحب المتدفق بغزارة. أردت أن تقطع مع التردد، أن تنجرف، أن تسيل بقوة، أن تصير ماء خالصا. إن حركة الماء القوية تولد النار في الماء وقدرة تحول الماء إلى نار عن طريق الحركة. وليست الحركة سوى الحب والكتابة. تفهمت نجاة اللعبة واندمجت معها، بل صدقتها، عاشتها بكامل حواسها.

ولا أنكر أني عشت معكم هذه اللحظات الجميلة الساحرة الرائعة ونسيت أنني في محراب التخييل ونسيت الدور الذي يمكن أن يتوهمه الآخرون والذي يتحدد بالمسافة التي تفصل بين الكاتب وأصدقائه وشخصيات الرواية. بل وصل الأمر في بعض الأحيان إلى أني صرت أغبطك، تمنيت لو أكون مكانك لأرى ذلك الوجه الملائكي الذي رايته أنت وللقاء تلك الأنثى المتوحشة في ظهورها، ليتساقط ذلك الشعر الناعم الأسود على يدي هاتين التي ضممت بهما نجاة... عفوا التي أردت أن أضم بهما نجاة. تألمت لحزن الحناء في يديها لهذا الحفل الجنائزي الكوني.

قد لا تتصور، يا إدريس، مقدار ما أضمر من حزن الفقد.. لن تشفي كتابة رواية ولا حتى عشر روايات غليلي، فالفقد أكبر بكثير. ومن منا لم يفقد شيئا ولم يسع إلى استرجاعه، كل بطريقته. لن يشف هذا الجرج القديم، جرح الفقد.

تمنيت لو يطول اللقاء بينكما، لو رافقتك أو رافقتها في أثناء العودة في الحافلة. تمنيت أن أرسم مشاريع من الحب والنسل والحرث والنبات والبنين والأشجار الواقفة والعصافير الذكية، الشادية، الشجية، لكن نجاة أنثى متوحشة ركبت رأسها، ركبت جنونها. كان حزنها أقوى منها، أقوى من المنطق والعقل والمشاريع. غادرت وتركتك لتلتحق بطبيب العيون.

هل تذكر ذلك يا إدريس. صدقني، يا إدريس، لم أكن، حينها، قادرا أن أوقفها عند حدها، ضد قرارها الذي كان قاسيا. ماذا يمكن لكاتب أن يفعله أمام أنثى،

كنجاة تقتل القلب وتحييه، تمسح الشجن القديم الكامن في العظام وهي رميم، تقلب تلك المضغة الحزينة في كفيها، قد يكون قلبك أو قلبي أو قلب قارئ يقبل المشاركة في هذه المغامرة والوجودية وينخرط في هذا السفر الكوني إلى شلال أوزود. ألم أقل لك بأن الشخصية مستقلة بنفسها تختار حتى موتها ولو كنت أنا الكاتب أو أنت الراوي نريد لها الحياة. كانت نجاة قاسية ولكن كانت نفسها وهذه ظاهرة نفسية ووجودية أحيلها على خبراء الشعر والنفس ليفصلوا فيها.

عدل الكاتب من جلسته تتبع بقايا سحب السيجارة في جو الغرفة وأومأ لي أن أنصرف إن أنا أردت ذلك، فأمامه أشغال أخرى، عليه القيام بها.

كان الجو باردا. ارتدى معطفه. لم ينس ربطة العنق رغم أنه لم يكن في حاجة إليها. نحن نلبس لعدة اعتبارات لمقاومة البرد بنوعيه الطبيعي والوجودي، وستر العورة، وللظهور بالمظهر المناسب في المقام المناسب. كان عليه أن يلتحق بمقر جريدته لتحرير مقالات وتقارير وتصحيح أخرى تتعلق كلها بمؤتمر الشباب الدولي الذي يعقد، قرب العاصمة، هذه الأيام.

كان لهذا الاعتراف الذي خصني به الكاتب، أثر كبير على التصور الذي كونته على الدور الذي أراده لي. وجدت نفسي، أنا إدريس الذي رفعني إلى مصاف أصدقائه وخلانه، أعيش وجودا آخر ليس طارئا وإنما وجود قلت كثافة الغموض فيه شيئا ما بالمقارنة مع ما كنت عليه من قبل. اكتشفت أني شخصية ورقية، قادر على الحلول في حياة الكثيرين عندما يقتربون من خط الصفر في الكتابة، بما في ذلك تلك الكتابة التي تفاجئ بمخاضها أناسا كثيرين عاديين جدا، لا يعرفون شيئا عن الأدب ولا عن أنواعه ولا عن الفرق بين الراوي والكاتب ولا بين الواقع والخيال.

أعرف امرأة، لا داعي لذكر اسمها حتى لا أحرج الكاتب، غادرت المدرسة مبكرا بعد حصولها على الشهادة الابتدائية، لإنجاب الرجال للقبيلة وتزويد الحياة الاجتماعية بما تحتاج إليه من سواعد. انخرطت في الحياة الاجتماعية، تطبخ وتلد،

كسائر النساء، بعيدا عن الكتابة والأدب الذي لا تفقه فيه شيئا. تضجر وتضعف، أحيانا، أمام مشكلة صغيرة، يعتبرها البعض تافهة لكنها تثير في نفسها قلقا غامضا هو خلاصة لحزن الأنثى عبر التاريخ. وبدلا من أن تجهش بالبكاء كما اعتادت، تكتب على ورق أبيض أي شيء.. جمل قد تكون ركيكة، غير مفيدة ولكنها صادقة.

وهذه ابنتها لم تتجاوز تسع سنوات رأتني ذات يوم منشغلا بالاستماع إلى برنامج حدائق الشعر الذي كان ينشطه علي الرباوي وبين يدي قلم وورق أسجل أسماء شعراء شباب وبعض الاستعارات التي استطعت أن أقبض عليها. اقتربت مني وسألتني ببراءة عن حقيقة هذا الكلام الذي أسمعه عبر الأثير ويستحق الكتابة والتسجيل، فقلت إنه شعر الشباب الذين قرروا أن يؤثثوا حياتهم بالشعر. فقالت إن كان ما يقولونه شعرا، فإنني أستطيع، يا عمي، أن اكتب مثله. اشتر لي دفترا كدفترك هذا وأعدك أن أكتب شعرا مثل هذا. نظرت بعمق في عيني الطفلة ورأيت شعرا يترقرق، يلمع يفيض في مقلتيها. نظرة سادرة تعد بدواوين أشعار آتية.

وفي الغد سألتها عما فعلته بالدفتر الصغير الذي اشتريته لها. فتحت، بيديها الصغيرتين، الدفتر الصغير، الجديد، وفوجئت بها قد سودته بجمل ركيكة، غير مفيدة تحكي عن قصة طفلة ارتدت ثوبا أسود طوال أسبوع ورفضت أن تخلعه.. اتسخ الثوب الأسود ومع ذلك بقي في عينيها جميلا. تأكدت أن في إصرار هذه البنية على ارتداء الأسود، شعرا لايحسن الكبار التعبير عنه بجملهم البليغة... كان كل ما يكتب على صفحة بيضاء، شعرا، بالنسبة لها. قصتها الصغيرة مع الثوب الأسود شعر. كانت تمرح وتلعب وتضحك لكن ثمة شيئا غامضا يصعب فهمه، جعلها تتعلق بهذا الثوب الأسود.. ما الذي أغراها فجأة باللعب بالقلم والورق والحزن واللون الأسود ؟

تذكرت زميلة لي في الكلية، حكت لي أنها كتبت غير ما مرة خواطر كثيرة لأسباب غامضة ولكن سرعان ما تندم على ذلك فتمزق ما كتبت أو تحرق أوراقها الغامضة حتى لا يعثر أي أحد على حرف من حروفها السرية. تكتب بطريقة سيزيفية

تكتب وتمزق، تكتب وتحرق إلى ما لا نهاية. تتلذذ وهي تحترق، هي بدورها، وهي ترى الصخرة تتدحرج إلى ما لا نهاية في مجتمع ذكوري يحول بين الأنثى والبوح.

لم تكن صديقتي هاته تطمئن للأدب ولا للأدباء ولا للنقد ولا للنقاد. كانت تدمن تعلم اللغات. كانت تعجبها البدايات. بداية كل لغة.. كانت تقرأ العبرية بيسر في الوقت الذي كنت أجد صعوبة في التمييز بين حروف أبجديتها. وقد كانت تردد كثيرا على مسامعي: مشيم دمعيتوف التي تعني: السماء تبكي. نسيت بدوري كل الجمل التي تعلمتها ولم أدر كيف استقرت هذه الجملة الحزينة المصوغة باللغة العبرية في قلبي.

أما خطيبتي الأمازيغية الأصل والتي لم أتحدث عنها بعد، مسايرة لمزاج الكاتب وشطحاته، فهي ترفض تعلم الأمازيغية بخط تيفيناغ وترى من المناسب تعلم الأمازيغية بخط عربي. ولم تذكر سببا مقنعا. هل تخاف على رصيدها الثقافي اللغوي الذي راكمته سنين طويلة وأهلها أن تقف في مرافعاتها التي تفوقت فيها مدافعة عن الأقليات ببراعة مهنية عالية ؟كانت تدعي أن الخط العربي له تاريخ طويل، تمرس بالحضارة واحتك وتفاعل مع الشعوب الأخرى عبر العصور والحقب ليحقق هذا النضج الذي يتمتع به الآن الذي مكنه ومكن معه اللغة العربية من أن تعمر طويلا، بينما انزوى خط تيفيناغ في النقوش الصخرية المتناثرة والمهملة في هامش الجنوب المغربي، في البوادي والصحاري والجبال، ولم يجرؤ على الدخول إلى الحواضر.

وعندما أدعوها إلى المقارنة مع العبرية التي نجت من الموت بأعجوبة بفضل مجهودات أبنائها... وكنت أتحداها أن تكشف سر هذا الشعر الصخري الذي قاوم الأمطار والرياح والأعاصير وشمس الصحراء الحارقة والتعرية بكل أشكالها...

كانت تتهرب من المواجهة، مدعية أن لا مجال للمقارنة مع وجود الفارق ولا أدري عن أي فارق تتحدث. وتتهمني كعادتها بالإغراق في الماضوية والأوهام والأحلام والتشبث بما تسميه بالهوية المغلقة... وتتبع آثار كائنات ميتة غير قادرة على الحياة... فكيف والحالة هذه يمكنني التفكير بعقلانية لمواجهة قضايا العصر وتقول وهي

تضحك مستفيدة من خبرتها في المرافعة في محاكم البلد: لا وقت للقاضي يضيعه معك ولن يمهلك حتى تتمكن من جمع وثائقك القديمة وآثارك العريقة المتناثرة ونقوشك المبعثرة هنا وهنالك.

كانت تقصد، فيما أظن، قاضي العولمة الذي يمكن له، وحده، أن ينصف جميع الأقليات لكن بشرط تخليها عن العصبيات وما سمته التشبث بالهويات المغلقة التي تتعلق بالجزئيات والتفاصيل التافهة. كنت أبتلع ريقي وأنسحب..

كانت المسافة كبيرة بيني وبينها.. كنت أدرك أنها مستعجلة كعادتها.. وأنا لا أملك الوثائق المادية التي تطلبها بسبب غياب الشهود وقلة المتاحف وفقرها في هذا المجال وافتقار الأثريين لأبسط الوسائل لإيقاظ تاريخ قديم يتجاوز ما كشفته فرنسا من مآثر رومانية في المنطقة. كانت فسيفساء روما ولقاها في وليلي تغطي على ما سواها. كان من الصعب إقناع خطيبة، عنيدة تعتبر نفسها مناضلة من مناضلات شهر مارس العظيم، شهر الخصوبة والحرب أيضا.

- بداية -

مضت ثلاثة أشهر على سفر يوسف. أمعن في الغياب ولم ترد منه إشارة تحدد موقعه ولا مكانه. غيبته القرعة الأمريكية ولم يصل منه أي خبر ولم يكتب أي

رسالة. كان علينا الانتظار. تساءلت بيني وبين نفسي: كيف سيكون موقف يوسف من الأحداث الأخيرة التي شهدها البلد ؟

يوسف يحلم بطبيعته ويحتفظ داخل نفسه بإمكانيات أخرى للحياة لم يكشف عنها، هربها معه إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ينظر إلى ما يقع أحيانا بسخرية سوداء.. فيها انكسار الحلم ومرارة الهزيمة. جرب المبادرة وقال إن البلد في حاجة ماسة إلى ثقافة حقيقية، تتغلغل في الوسط الاجتماعي لإنجاح أي مشروع سياسي أو اقتصادي وإلا كان مصيره الفشل.

استقال اليوسفي من الحكومة ومن الحزب وفضل الرجوع إلى فرنسا. كان يبدو أن الانتقال الديمقراطي لم يصر حقيقة واقعية وإنما هو مزاج شخصي، يطبع السياسة المغربية كعادتها. سياسة تبني على ردود الأفعال وطبائع الزعماء الذين يتعلقون بكراسيهم إلى آخر رمق، معبرين بذلك عن وطنيتهم التي تقاوم عوادي الزمن الذي يتغير وهم لا يتغيرون. حبهم يقوى وخوفهم أيضا يقوى من الفراغ الذي يمكن أن يخلفه غياب زعيم سياسي أو نقابي.

ثمة زعماء أنصفهم الماضي والحاضر واستمروا في حركاتهم وسكناتهم يقودون الموكب إلى المجهول. لا يهم أن يكون لهم ماض أسود في الزنازن السوداء، هؤلاء الذين جلدوا وعذبوا من سخنت عليهم رؤوسهم. مصلحة البلاد تقتضي ذلك. وقد برهن هؤلاء الزعماء على ولائهم في الماضي ويرجع لهم الفضل في الحفاظ على أمن البلاد ولا تهم وقفات الشموع لمحاصرة ما تبقى من ذكريات التعذيب في سجون درب مولاي الشريف ولا سجون قصبات الجنوب المغربي حيث اعتقل الورد والنهر والشجر.

في خضم هذه الأحداث التقيت مع عبد الرزاق في حفل غذاء أقامه رئيس جمعية تنموية ثقافية واجتماعية في منزله. فوجئت بحضور القشيري عبد الله الذي لم ألتق به منذ مدة. حضر مجموعة من الأعيان وأسماء أخرى وازنة معروفة ونصف متألقة

في مجالات مختلفة. كان حفل الغذاء فرصة مناسبة لتعريف الحضور بمنجزات الجمعية الاجتماعية والفنية والرياضية والتي يقال بأن صاحبها سيدخل غمار الانتخابات المقبلة بينما هو ينفي ذلك.

كنت مسرورا لوجودي إلى جانب عبد الرزاق والقشيري اللذين تعرفا على بعضهما لأول مرة. كان الحماس باديا على القشيري الذي حيى في كلمة ألقاها الحضور ورئيس الجمعية وهنأه على هذه المبادرة التي أقدم عليها، حيث أتاح، أمام الجميع، فرصة للقاء والتعارف بين شخصيات وازنة، في زمن غلب عليه التمزق والتشرذم والتنافر. أسماء لها ثقلها ورصيدها، تعيش منفردة ومنعزلة وكأنها لا تقيم في نفس المدينة. وأبدى استعداده للتعاون وبذل المجهود في سبيل الرفع من قيمة أداء الجمعية لكي تسهم بدورها في التنمية وبناء المجتمع المدني الذي يعول عليه اليوم للإسهام في الإقلاع الاقتصادي والاجتماعي.

وتناول الكلمة باقي الحاضرين. وكان رئيس الجمعية طوال الوقت يبتسم في لباقة، معبرا عن ترحابه وحسن نيته للعمل في سبيل الله، لا ينتظر جزاء ولا شكورا، كل ما يهمه هو مصلحة البلاد والعباد وكان يقاطع المتدخلين بين الفينة والأخرى طالبا من كل متدخل ذكر الاسم والمهنة.

دارت كؤوس الشاي على الجميع ومعها أصناف الحلوى وشتى عبارات المجاملة، وأحيانا مزاحات لرفع التكلف والرسميات والتحفظات التي طبعت اللقاء في البداية. كانت الكؤوس زجاجية مزخرفة، نقشت عليها عبارة أهلا وسهلا بخطوط صفراء لامعة.

كان الحضور متنوعا.. دكاترة في مختلف التخصصات.. مهندسون.. أساتذة جامعيون ورجال أعمال، معظمهم أميون، لكن حضورهم كان بارزا وملفتا. فقد كانوا طوال اللقاء، كما قال أحد المتدخلين، واضحين وعمليين. والأمور يجب، كما أردف الشخص نفسه، أن تكون واضحة.

الجمعية محتاجة إلى عمل حقيقي لتقف على رجلها ولا داعي، في هذه المرحلة الجديدة، إلى شعارات ولا إلى نظريات مغرقة في التجريد والعمومية. كما أن الجمعية في غنى عن التأويلات المغرضة والأسئلة المحترزة لمعرفة النوايا والأهداف.

قال الشخص نفسه بأن الجمعية في حاجة إلى موارد مالية وأنه سيكون مبادرا وعمليا وسيتبرع ب مائة ألف درهم في خطوة أولى. صفق الجميع لهذا الكرم المفاجئ، غير المتوقع ولم يهتم الحضور بجمله التي لم تكن بليغة على أية حال. تأثر رئيس الجمعية لهذا الفعل النبيل وزادت خفة دمه وتخلى عن فصاحته قليلا وزادت صراحته وذهب المزاح به بعيدا إلى حد مطالبة أحد الحاضرين بدفع واجب الانخراط قبل السماح له بتناول الكلمة فضجت الصالة بالضحك وسرى اللغط والهمس وزاد الكلام وخرج الحضور عن سلطة المنسق الذي كان يسير التدخلات.

طلب نقطة نظام ورجا من الجميع الالتزام بالصمت، متذرعا بضيق الوقت الذي لا يتسع لبرنامج العمل المكثف، لذلك وجب أن تكون التدخلات مختصرة ودقيقة. وهو ما شجعه أكثر على مقاطعة بعض المتدخلين المبالغين في التعبير عن الشكر والامتنان والتقدير للجمعية وصاحبها، راجيا منهم المساهمة باقتراحات عملية لتفعيل نشاط الجمعية وخصوصا المشروع المطروح للنقاش والذي يتعلق بتنظيم ندوة حول المعمار التقليدي والآثار التاريخية بمنطقة الجنوب المغربي.

في هذه اللحظة فوجئت بصديقي القشيري عبد الله يطلب الكلمة في لباقة وأدب، يقف.. كانت وقفته مسرحية، نبيلة، رزينة، أضفت على الجمع هيبة ووقارا واحتراما وألزمت الحاضرين بالصمت والهدوء وقال:

– استأذن السيد رئيس الجمعية في الإعلان عن مفاجأة احتفظت بها حتى الآن لنفسي، ولا يعرفها إلا القليلون منكم.. يشرفني ويسعدني أن أقدم لكم شخصية مهمة لم تكونوا ربما لتتوقعوا حضورها بيننا. علم من أعلام الجنوب أستاذ باحث وكاتب وأديب له أعمال أدبية وعلمية رصينة اهتم فيها بالتراث المعماري. لا شك أن

مساهمته ستغني هذه الندوة وأقترحه أن يكون ضمن اللجنة الثقافية المنظمة للاستفادة من تجربته في هذا المجال. ثم نظر إلى أحد الأشخاص الذي كان منزويا في الركن الأيسر من الصالة. كان هادئا خجولا بعض الشيء، لم يتدخل حتى الآن ويتعلق الأمر بالباحث والكاتب "أبو بكر الدرعي". فهو شخصية معروفة في أوساط الجامعة المغربية، ولكن لتواضعه وهروبه من الأضواء، غير معروف لديكم.

وأستسمح على هذا الكلام، فليس استصغارا لكم ولا له، ولكن الأمر يدل على حقيقة وضعية الثقافة في بلدنا. فرغم انه ينحدر من الجنوب، فهو غير معروف بين بني جلدته. الواقع واقع، لا يرتفع. حضوره معنا اليوم شرف لنا وشرف للجمعية وأعتبره، أنا شخصيا، حدثا استثنائيا ولبنة جديدة دالة على أن ثمة تحولا يحدث في جسم الثقافة والحياة الاجتماعية في البلد. يمكن أن أسميه تحولا حضاريا، ما يؤشر عليه هو بداية تعرف الأمة على أبنائها المثقفين الذين قتلتهم العزلة، فماتوا كمدا أو هاجروا إلى ديار الغربة، مؤشر على أن عصرا جديدا قد بدأ وعلامة على أن مرحلة جديدة قد دشنت...

لم يقاطعه رئيس الجمعية وإنما تركه يتكلم كما يشاء، ولما انتهى كان أول من صفق لتتلوه موجة عارمة من التصفيقات.

رجعت إلى البيت ذلك المساء وأنا أتساءل بيني وبين نفسي: هل هذه هي بداية انخراط الكاتب في المجتمع المدني ؟

- صمت -

عدت ذلك المساء إلى البيت. طلبت من سائق سيارة الأجرة التوقف. كان من المتعذر على السيارة اختراق الزقاق الضيق. ناولته عدد الدراهم التي سجلها الحاسب. شكرته. عد الدراهم ولم يجب... طوال الطريق لم ينبس ببنت شفة.

دلفت إلى الزقاق. خفت الحركة شيئا ما. أسرعت الخطو. كان لا بد من قطع مسافة لا بأس بها قبل أن أصل إلى البيت الذي أقمنا قيه ما يزيد على ثلاثين سنة. في

الطابق السفلي الذي اكتريناه مقابل أجر بسيط، ندفعه في آخر كل شهر للحاج التهامي أو عمي الحاج كما نناديه وعمي التهامي قبل أن يحج.

تربطنا به علاقة قرابة. فقد هاجر من مكناس قبلنا منذ زمن ليس باليسير ليتاجر في كل أشكال الثوب وألوانه بقيسارية الحي المحمدي. بيت بسيط متواضع، يحتوي على مطبخ وحمام و ثلاث غرف مفتوحة على فناء أو مراح مبلط بمربعات من الزليج الأبيض والأسود منتظمة بشكل متناوب كرقعة شطرنج كبيرة، نتحرك فيها كقطع الشطرنج ذاتها باستثناء قطعة واحدة ثابتة في مكانها دائما وأبدا ويتعلق الأمر بجسد أبي المسمر في الركن الأيسر من المراح.

أبي المسكين الذي أنهكه الروماتيتيزم أو داء المفاصل كما تسميه أمي. أقعده المرض ولا يتحرك إلا بصعوبة. صار قطعة حزينة، عاجزة، صامتة، لا تريد الخوض في اللعب أو فقدت تماما الرغبة في اللعب. صار أبي قطعة شطرنج تنتظر من يحركها، تنتظر أمي لتحركها بين الفينة والأخرى بعيدا عن مجرى الوادي الذي يسميه هواة لعب ضاما ب"الواد". الويل لمن يدخل الوادي. سيجرفه بدون شك سيل اللعب، سيل الزمن المغربي. قطعة حزينة، قابعة في الركن الأيسر، لا تحركها أمي إلا لماما، وإن هي حركتها كانت تخاف أن يجرفها تيار الوديان المتقاطعة. يمكن للبيادق الكبرى ذات التجربة الكبرى في المال والجاه والسلطة أن تتحرك في الوديان وتأكل ولا تؤكل.

لم يكن بيتنا البسيط قادرا على صد هموم البلد وعذابات الشارع وأزمات الوطن. لقد تسربت من بابه ونوافذه، من شقوقه وثقوبه. مرض أبي بالوطن ودفع حياته ثمنا لذلك في فترة ما سمي ب سنوات الجمر والرصاص. دفع الثمن غاليا، ثمانية عشر عاما من السجن بتهمة الانتماء إلى الوطن.

لم يكن أبي ليجيد اللعب في السياسة ولم يكن بيدقا كسائر البيادق. اختفى ذات يوم دون سابق إنذار. قبض عليه متلبسا بغرام الوطن الذي رفض أن يبيع قيمة من قيمه. لم يكن سياسيا، كان إنسانا بريئا تحركه الفطرة والنوازع الإنسانية وما تبقى من

فروسية الجبال التي سكنها أجداده وسكنت هي في لا وعيه. كانت الجبال لا تنحني أبدا، كانت تعلم السمو والصعود ولكنها كانت محفوفة دوما بالمخاطر.

لم يكن سياسيا ومع ذلك كان معتقلا من معتقلي الرأي. لم يكن له رأي. كان له سلوك وعمل ليس إلا. لم يقدم للمحاكمة أبدا ولم تثبت في حقه أية جريمة جنائية ولا حتى سياسية. لم يشوش على أصحاب الكراسي ولم يقترب منها حتى. كان التيار قويا وكان طبيعيا أن يجرف معه الطحالب والأعشاب البسيطة والأسود والقطط والماشية. كان السيل يخبط خبط عشواء ومن لم يمت، يعمر فيهرم. لم يمت أبي وكان على وشك الموت وعمر حتى هرم وصار قطعة شطرنج غير قادرة على اللعب.

اتهم باللعب بالنار ولم يكن يعرف حينها المقصود بالنار. لم يكن يفرق بين النار والسياسة وحب الوطن. لا ينكر أنه قاطع الانتخابات في فترات الرصاص. لم يذهب إلى التصويت. ولم يرم لونا محددا في الصناديق الخشبية غير الزجاجية التي كانت محكمة الإغلاق حينها.

كل الألوان المعروضة أمامه لم تعجبه ولكنه أسر ذلك ولم يفصح. صمت في عهد كان الصمت جريمة، كان الصمت خطيرا. ولكن لم يكن يعرف أن للصمت هذه الدلالة.. فقد كان أميا ولم تلقنه مدارس الوطن حرفا ولم يدخل حتى الكتاب. لقنه عمي سورة الفاتحة والإخلاص حفظهما بيسر وسهولة لأنه كان يقرأهما في كل صلاة أكثر من خمس مرات في اليوم. وحفظ بصعوبة آية الكرسي التي كان يرددها قبل نومه.

علمه عمي كيف يستغرق في الصلاة ويتواصل مع الخالق مدة طويلة. كان يطيل الركوع والسجود. كانت أمي تقول إنها كانت تغادر المنزل للتسوق وتتركه وهو يصلي وتعود لتجده حيث تركته يناجي ربه بلغة خاصة لم نكن ندري عنها نحن الأطفال شيئا. غير أنه بالكاد ورث بعضا من تقوى الأب والعم الذي كان يخاف الحياة ويخاف الكتابة أيضا مع وجود الفارق بينهما بطبيعة الحال.

في الوقت الذي كان فيه عمي يلازم الكتاب ويتابع التعلم في المدارس العتيقة، كان أبي ملازما لبغلة جدي. كان في صغره يمسك زمام البغلة التي يركبها جدي في طريقه إلى المسجد، يتقدمها، يقودها ذهابا وإيابا من البيت إلى الجامع ومن الجامع إلى البيت في كل صلاة. وكان ينتظر بجانب البغلة تحت شجرة وارفة الظل إلى أن يخرج جدي من المسجد.

هنا تحت الشجرة أدمن الانتظار بجانب البغلة، تراقبه ويراقبها.. إلى أن سولت له نفسه ذات يوم فكرة شيطانية من أفكار الجن والعفاريت. سولت له نفسه أن ينزع شعرة طويلة من ذيل البغلة. كان يظن أن البغال لا تحس بالألم. كان في حاجة لهذه الشعرة ليستعملها كوتر لقيثارته اليدوية والتي صنعها بنفسه من علبة فارغة من علب الزيت وعصا أدخلها في العلبة بعد غرز مسمار أو مسمارين على طرف العصا لشد الوتر. كان يريد أن يعزف لحنه الخاص، أن يدندن بإيقاع مرتجل كما يفعل باقي الأطفال في ذلك الوقت.

كنت أتخيل عندما سمعت هذه القصة من أمي وأتساءل أي نغمة شجية أثارت شجونه وأراد القبض عليها بيده ؟ أي نغمة هاته انفلتت من قيثارة أحد العازفين فأيقظت كينونته الداخلية فأراد أن يعيش الإيقاع والشجن ؟ أي نغمة فتنته، آسرته وأراد محاكاتها فدفع الثمن غاليا ؟

جذب الشعرة من ذيل البغلة بقوة، فسرى الألم في الجسم القوي، فما كان من البغلة إلا أن ركلته وطرحته أرضا وأصابته بجرح عميق فوق حاجبه الأيمن، لا زال أثره باديا على وجهه كوشم قديم، خطته يد الألم على طفولة أرادت أن تشاغب على طريقتها بالموسيقى على حساب بغلة يقال بأنها تتأثر بالنغم أيضا لكنها لا تعيها. ولو كانت تعيها، لما أقدمت على فعلها. صار الجرح ندبا والندب وشما والوشم لحنا يسمع من بعيد همسا رقيقا، يتردد في قعر الذاكرة لا يسمعه إلا هو. صار الوشم لحنا منظورا. تعثر اللحن في أول امتحان له فصار جرحا. شفي الجرح.. كلا لم يشف..

صار وشما يراه أبي دائما في العيون الفضولية التي تحدق فيه من كثرة السؤال الذي تصوغه العين الفضولية على طريقتها.

لم يعد أبي الآن قادرا على الوقوف طويلا. في أغلب الأحيان كان يصلي جالسا. لم يعد قادرا على الكلام. انزوى في الركن الأيسر وغاب عن عالمنا ولم يعد يبدي أي رد فعل. صار محايدا أو شبه محايد، غارقا في صمت ثقيل، ينذر ببركان لم ينفجر حتى الآن ويا ليته انفجر.

حيرني صمته وصار أبي كله لغزا. تتكلم غضون جبهته التي استحالت جراحا للزمن وندوبا للشهور والسنين، تتكلم دائما وتخبر عن نكبات لا زال يخفق لها قلبه. غضون، بل جراح، بل آثار سياط التعذيب التي تعرض لها في السجن دون وجه حق. ركلته البغلة لأنه أحب الموسيقى، وركله الجلاد لأنه أحب الوطن.

الغريب أنه منذ غادر السجن لم يقل شيئا عن جلاده.. ابيض شعر رأسه وصار كقطعة ثلج سقط ذات شتاء قاس لم يقل عنه أبي شيئا.. غارت عيناه في محاجرهما كبئرين عميقتين مهجورتين، لا تصلح مياههما لري ظمإ العابرين لصحراء هذا الوطن الذي مرض بحبه بعيدا عن لعب السياسة التي تداولها الآخرون. برزتا عظمتا فكيه وصار وجهه نحيلا وروحه معذبة معلقة بين السماء والأرض ولم يقل شيئا.. آه لو تكلم، لو انفجر لكان أرحم.

هل صار صمته كفرا بالوطن ؟ هل صار صمته إيمانا بوطن آخر يراه في السماء ولا نراه معه ؟ صار الوجه طللا، وصار الجرح وشما على وجه أبي الذي خربته الصفعات، صفعات أيد ملطخة بدماء ضحايا آخرين، أياد فازت في الانتخابات وبات من حقها المشاركة في الأغلبية وأن تظهر بين الفينة والأخرى في كل أربعاء على شاشة البرلمان باسم الديمقراطية وصار من حقها أن تسائل الحكومة على التساهل واللين الذي تتعامل به مع الرؤوس الساخنة. لا زال من حقها أن تقارن وأحيانا أن تبكي زمنا كانت القبضة الحديدية تساوي قبضة الرجال.

هذا الوجه الطللي وجه أبي الذي خربته صفعات الاستنطاق ليقول ما لا يعرف. أساءت إهانات البوليس لهذا الوجه الأبوي، فغاب عنه الأمن وغابت الحياة.. صار الوجه حجريا.. صحرته الزوابع الرملية القوية وقهرت نبله وفروسيته في زنازن السجن التي طالت لياليه ونهاراته إلى ما لا نهاية.. زوابع من القهقهات والكلام الفاحش والبصاق والغضب الجهنمي الذي يثيره صمت أبي الذي لم يعترف بما نسب إليه.. انتقام أسود..

أكثر ما كان يهيج رجال الاستنطاق، إن كانوا رجالا فعلا، هو صمت السجين المعتقل وإنكاره لما ورد في التقارير المزورة. يفهمون هذا الصمت على طريقتهم.. فهو دال على تحدي السجين لهم.. واتهام بالعجز عن الوصول إلى الحقيقة التي كانوا يظنون أنهم قادرون على الوصول إليها.

كان على الأب أن يعترف بما لم يقع. لماذا آوى في منزله اجتماعا سريا لطلبة يحلمون بالوطن ويفكرون بطريقة مختلفة.. يحلمون بالسير على طريق لم يرسموه.. طلبة يضربون وإضرابهم حسب التقارير الموضوعة ليس بريئا ما دام يتم في أيام بعينها ويتزامن في بعض الأحيان مع مزاج قمة عربية أريد لها أن تحسن صورة البلد في الأوساط الدولية. قمة سياسية، معينة لا يعرف عنها أبي شيئا. كان على أبي المعتقل أن يقول ما لا يعرف. كان عليه أن يوقع على اعترافات مكتوبة مسبقا لا يحسن قراءتها.. كان عليه اختصار الطريق ويختار الطريق السهل ليصدر العفو قريبا في حقه. فلماذا يركب رأسه ويقع ضحية لطيش شباب لا يعرفون مصلحتهم.. كان للجلاد منطقه وكان لأبي منطقه.

بعد خروجه من السجن استمر في صمته لدواع أخرى وأسباب أخرى مختلفة. قرر أن يصمت بصفة نهائية وصار الكلام بالنسبة له عقدة. كل كلام مشروع اعتراف. طال السجن وطال الصمت وصار من الصعب العودة إلى الكلام بعد ثمانية عشر عاما.

كانت خطيبتي مناضلة حقوقية في منتدى من منتديات الإنصاف. حاولت أن تنتزع منه شهادة للتاريخ لطي صفحة الماضي. كان أبي أميا خارج الإيديولوجيا، يفكر في حدود الخبز والبصل والصبر والعمل وحصاد السنة والكرامة والخير والنبل... كان بسيطا، لم يقرأ لا عن كاليلي الذي تمسك بدوران الأرض ولا عن نهضة أوروبا ولاعن الإصلاح..

استعانت خطيبتي بتقنيات عصرية حديثة لإثارة أبي ودفعه إلى تركيب جملة مفيدة.. حول ما وقع.. صور الضحايا.. أصوات تصرخ من شريط آلة التسجيل.. لتذكير الجسد ولتطهيره.. أكد الطبيب أن جهاز نطقه سليم.. الوتران الصوتيان سليمان.. كان الجرح قديما، كانت ركلة البغلة قوية، غاب اللحن في قعر الذاكرة.

حكيت لخطيبتي قصته مع البغلة التي قضت على مشروع أول لحن كان من الممكن أن يأسر أبي.. كان من الممكن أن يعلمه الكلام الشجي. خطرت ببالي فكرة جهنمية لإيقاظ هذه الذكرى القديمة التي قد تكون سبب هذا العي الذي أصاب أبي. فأتيت بلوحة فنية رسمت عليها بألوان قوية وعنيفة صور لخيول عربية أصيلة مطهمة بيضاء تجري على أديم البحر الأزرق تخترق الأمواج العاتية.. تجري ولا تغوص في البحر الأزرق.. قرنت اللوحة بموسيقى صاخبة لأهل الحال لعل وعسى يذوب القلب كمدا، يتفطر، ينفجر الوجدان ويتكلم اللسان.. عبثا أحاول كان وجه أبي حجريا، لا يتكلم. تنحدر دمعة يتيمة على خده الأيسر ويخلد إلى صمته الأبدي.. يخيل إلي أنه صمت الدهور، صمت قديم قدم الخليقة منذ قتل هابيل قابيل، منذ ارتفع الغراب في عنان السماء وأعطى درسا للإنسان وعلمه كيف يدفن سوءة أخيه الإنسان بعيدا عن تقارير حقوق الإنسان.

لو عرف الكاتب أبي عن قرب لعجز عن تكليمه، لعجز عن ترجمة هذا الصمت الذي يتحدى به العالم. حدثته عنه ولكن لم يلتق به حتى الآن. تخوننا الكتابة أحيانا: الكاتب يرسم لها طريقا لكن الراوي يستغل هامش الحرية الذي يمكن للكاتب

أن يسمح به ليتحدث عن أشياء لم تخطر ببال الكاتب في البداية. لكن ما شجعني على هذا الاستطراد أن الكاتب قال لي يوما أن مهمة الكتابة الحقيقية هي أن نكلم الأشياء والكائنات التي من حولنا والتي تبدو لنا أول الأمر وكأن لا لغة لها. هو الذي أوحى لي بتتبع صمت الغزالة الممسوخة التي كانت في أصلها امرأة غير ولود. دخلت المسرح فخنت المسرحية المعروضة وشرد خيالي، يتتبع وقع صمت الغزالة الخرافية.

هناك أشياء لا يريد الكاتب أن يخوض فيها، أو يظن أن الوقت لم يحن بعد لتناولها... لا يريد أن يخوض في مياه السياسة العكرة لأنها تبتعد عن الأدب بمسافة أو مسافتين. ويقول لو سمحت له مؤسسة الأدب بالحديث عن السياسة، لما كان باستطاعته الكتابة بحرية عن كل ما يخطر على باله. ثمة مقدسات وخطوط حمراء لا يمكن للقلم أن يقترب منها.

مصيبة الكتابة في الجسد الذي له مصالحه الخاصة. الجسد الذي يراهن على الحياة حتى لو اقتضى الأمر بدل قطع الرأس، قطع الكتابة. الكتابة يجب أن تكون في الهامش المسموح به. بدون شك فالكاتب يخاف وجه أبي، يخاف صمته.. له وضعية اجتماعية تفرض عليه أن يكون بليغا، أنيقا، مرنا، سياسيا، ذكيا، أن يقول ما يمكن قوله. إذا أراد أن يكون صريحا، فهو لا يستطيع لان هذا يسيء لسلطة الأدب الخامسة. الأدب سلطة خامسة نخاف منها ولا نقرأ ما تنتج. لا يستطيع أن يفكر خارج اللغة المتداولة.

أحيانا يخطر ببالي التدخل في شؤونه لأقول له بأن الزمن تغير ولا داعي للخوف. فهو متوهم، يحتفظ بخوف قديم في منطقة الإبداع التي يقول الخبراء أنها تنشأ في الزمن المبكر ويقصدون به الطفولة. وحسب ما فهمت: إما أن نكتب من طفولتنا وبطفولتنا أو لا نكتب. ولكن ألا يمكن من تعديل كينونتنا بالكتابة لنحصل على قدر كبير من الحرية ؟. وكلما هممت بمفاتحته للحديث في مثل هذه المواضيع إلا

وترددت.. مواضيع يعتبرها من قبيل ميتافزيقا الكتابة.. مواضيع تستنزف طاقة كبيرة هو في حاجة إليها.

هو يعرف أن للكتابة وسائلها الخاصة للتحايل ليس على الرقابة السياسية التي صارت تخف، وإنما على الرقابة الاجتماعية والثقافية الناتجة عن ظروف مجتمع حديث عهد بالطباعة. لقد طورت الكتابة على مدى التاريخ ترسانة مهمة من الخيال والمجاز والرمز، تمكن الكاتب من الاختفاء وراء مئات من الأقنعة وآخر هذه الأشكال التي يدعي أنه توصل إليها هو إتاحة الفرصة للراوي للتعبير عن رأيه وعرض آرائه في الكتابة والسياسة واصطناع الخلاف مع الراوي حول أمور جوهرية يتوقف عليها نجاح الرواية. وهذا الإدعاء ليس صحيحا.. فقد تفوق فيه آخرون قبله.

على أي، لنعد إلى موضوعنا... ألا يعلم الكاتب بان السوق أصبحت تعج بمئات الكتب التي تتحدث عن السجن، عن الزنزانة السوداء..؟ بالنسبة لي، لم أجد ما يشفي غليلي، ما يمكن أن يكلم أبي الذي رفض الكلام في زمن الحرية. هل هو احتجاج على حرية مزيفة أو عقدة لسان يصعب حلها. ينظر إلي أبي أحيانا ويطيل التحديق ولا يقول شيئا. هل يتباهى بصمته الذي جربه مع الجلاد ووجده فعالا وأراد أن يجربه معي ومع خطيبتي ومع الخطاب السائد اليوم الذي ينتصر لفكرة طي صفحة الماضي ؟ هل يسمع ما نقول ؟ هل يرانا استمرارا لجلاد الأمس الذي أصبح وسيما يتكلم لغة العصر وصار أكثر ديمقراطية وإلا لماذا تطل علينا من شاشتنا وفي عقر دارنا وجوه عذبت وجلدت وشردت وأصبحت اليوم تتحرك على طريقتها، تمثل حركة العصر كما يجب أن تكون، تطل علينا بدون حياء ولا خجل تتحدانا، تتحدى وجه أبي الذي لا يريد الكلام.

لم أعد قادرا على التحديق في وجه أبي الذي لا يريد أن يتكلم.. صرت أتحاشى نظراته الخطيرة.. وقعت في ورطة كبيرة: لا أنا قادر تماما على تجاهل وجه أبي الصامت، ولا أنا قادر على الحديث عما عاناه ولم أحط به علما. لا يمكن أن أتحدث

عن تجربة لم أعشها ولا يمكن أن أكون مكانه بأي حال من الأحوال. لا يمكن أن أتحدث بكامل الحرية لأنني مجرد راو لكاتب لا يريد أن يقول كل شيء. كاتب له حساباته الاجتماعية والسياسية يعرفها وحده. وكثيرا ما كان يهرب من المواجهة أو يهددني في حالات أخرى بالتخلي عني إن أنا فكرت أن أكتب على منوال كتاب الاعترافات وكتاب الالتزام الذين عجت بهم ساحة الأدب في الستينات والسبعينات والثمانينات من القرن الماضي.

أتساءل الآن، هل صارت هذه الكتابة الآن متجاوزة ؟ هل قالت كل شيء وماذا غيرت في عقلية المجتمع ؟ سؤال يؤرق الكاتب ويتهرب دائما من مواجهته بدعوى هروبه من السقوط في الأجوبة الجاهزة. لا أستطيع أن أواجهه، فأنا مجرد شخصية ورقية وهذه نقطة ضعفي، يمكنني أن أموت في أية لحظة، طلقة رصاص واحدة من الكاتب في لحظة غضب ترديني قتيلا، ويمكن لكاتبنا أن يغضب لأبسط شيء، فكيف يمكن لي أن أواجهه بهذه الحالة المعقدة التي يمكن أن تهدم الأدب برمته. وجه أبي قادر على إلحاق الهزيمة بالأدب والكتابة، إن لم تفلح البلاغة في تكليم صمته.

غاب أبي عن البيت طيلة ثمانية عشر عاما وعاد مهزوما، يتحدانا بصمته. لم يكن مثقفا ولا متعلما حتى ولا سياسيا، لم ينحدر من عائلة نبيلة، تعشق السياسة والفن، يمكنها أن تثير شفقة الرأي العام. لم يكن وجها بارزا ولا لامعا.. كان أبي فقط.. كان أبي فقط.. أراد أن يعزف لحنه القديم الذي لم يكتب ولا أظن أن أحدا قادر على كتابته. أراد أن يدندن شغبه الخاص.. أراد أن يعزف على وتر شعرة البغلة التي طالما قادها فانقادت له ولم تسمح له أن يسرق لحنا شاردا على حسابها، فدفع الثمن غاليا. تحول اللحن المؤجل إلى ندب، إلى وشم على وجهه..

تساءلت مرارا بيني وبين نفسي عن سر اندماجي في هذا الدور الذي أسنده الي الكاتب: هل يرجع الأمر إلى الأمل الذي بعثه في الكاتب عندما قال لي ذات يوم

بأن الكتابة ليست قول ما كان وإنما قول ما يمكن أن يكون. ألهذا السبب قبلت اللعبة وصرت أطارد غزالة يوسف الخرافية وأنتظر مكالمة نجاة في كل ليل وأتجسس على الألم الذي يمكن أن تحس به البغلة التي ركلت أبي وأبحث عن أنين الجرح الذي سببته تلك الركلة العجيبة ؟ هل لصمت أبي علاقة بهذه الأمور ؟ هل أسعى بهذه الوسائل أن أصل إلى حقيقة صمت أبي الذي قضى ثمانية عشر عاما في السجن ؟ ألهذا السبب صرت أتعطش أن أعيش الممكن والمستحيل والخيال، أفتش عن بقايا جمال في صفصافة تصر على الوقوف، عن بقايا دفق في نهر لا يريد أن يتوقف، وعن وردة تصر على أن تنبت بين مفاصل صخرة ؟

عدت إلى البيت.. كان الفصل خريفا غامضا، لم تدركه مدينة البيضاء التي تعيش كعادتها خارج الفصول. تمر قريبا منا ولا نراها. وجدت قريبا من عتبة البيت أخي الأصغر المهدي، يقف كعادته مع رفقاء دربه، يتحدثون كعادتهم عن مستجدات الهاتف المحمول الذي صارت أثمنته تنخفض يوما بعد يوم وأجياله تتوالد يوما بعد يوم.

عبرت الباب إلى المجاز ثم إلى الفناء المربع.. كان أبي يجلس كعادته مع عزلته، مع صمته، وكانت أمي في المطبخ . دلفت إلى غرفتي. نزعت حذائي. كنت في حاجة ماسة إلى أن أتخلص من ملابسي.. نظرت بعيون نصف مفتوحة إلى منامتي المعلقة على الحائط قرب النافذة المحاطة من الخارج بسياج حديدي على شكل مربعات قادرة على صد كل محاولة اعتداء واقتحام يمكن أن تأتي من الخارج. بالقرب من سياج النافذة، إطار احتوى داخله صورة بالأبيض والأسود، صورة الطفل الذي كنته، صورة طفل يشرف على رجولة محتملة، صورة طفل بلغ سن المراهقة دون أن يعرف ذلك.

غمضت عيني قليلا واسترجعت صورة الجدارين اللذين بنتهما الجماعة الحضرية أخيرا على جانب الطريق الرئيسة.. التي "مشيتها" هذا المساء أثناء عودتي إلى البيت، جداران ممتدان على طول الطريق، حديثان، يرتفعان قليلا فوق قامة

العابرين، مطليان بالجير الأبيض الناصع. رسمت عليهما إطارات، مربعات ومستطيلات، احتوت على جداريات رسمت داخلها شموس وأشجار وطيور وبحر وفي بعضها الآخر كتبت حكم وأقوال مأثورة وحكم تشيد في معظمها بالبيئة والجمال والنظافة: "النظافة من الإيمان".. "حيك مرآتك"... ...

أثارني مربع آخر مختلف حاضر بقوة داخل الإطار وهو شطر لبيت أبي ماضي: "كن جميلا تر الوجود جميلا" وما أثارني هو توقيع يد ثانية ولكن هذه المرة بفحم أسود. يد ربما غير جميلة، لا يهمها أن تكون جميلة، خطت على العبارة داخل الإطار الأبيض خطين أسودين متقاطعين. بدا لون الفحم واضحا وسط البياض. في هذه العلامة: ... ><...... إشهار لليد التي لا تريد أن تكون جميلة، رفضها لمحتوى هذه الكلمات المكتوبة باللون الأزرق وسط المربع والمربع على الجدار، الجدار الذي يرتفع قليلا عن قامة الرائحين والغادين... يخفي على المارة والسيارات دور الصفيح الممتدة في شريط طويل على يمين الطريق المعبدة وأعيد تعبيدها في الفترة الأخيرة ما قبل الانتخابات. كانت هذه المساكن القصديرية واطئة جدا بحيث لا يمكن أن تراها إلا عين السيكلوب ذي العين الواحدة، العين الكبيرة والجريئة. وحدها عين السياسي المحنك الذي لا تخدعه المظاهر ولا الأقنعة.. عين الفضولي الذي يمكن أن يشرئب بعنقه عاليا ليرى ما لا يجب أن يرى. وكل هؤلاء لا يهم أمرهم. ما يهم هو عين المواكب الفارهة التي يمكن أن تمر بين الفينة والأخرى والتي لا يجب التشويش عليها إذا قدر لها أن ترى ما لا يجب أن يرى.

فكرت في هذه اليد النحيلة التي شطبت على هذا الشطر الجميل من بيت أبي ماضي، قد تكون يد طرية لا تفهم في السياسة شيئا، ربما لا زالت تحتفظ بأثر الفحم على الأنامل التي كتبت.. الفحم يكتب وينكتب.. لن تكون غير يد مراهق، لا يختلف كثيرا من حيث العمر والمزاج عن هذا المراهق الذي كنته ذات يوم في هذه الصورة بالأبيض والأسود. في هذه السن يبدأ التفكير في تأليف اللحن الخاص بنا.

لست الأول، على أية حال، لقد فعل أبي ذلك من قبل.. ربما قد كان مراهقا رغم أن المراهقة، كما يذكر العلماء المحترمون، لم تكن موجودة في ذلك الوقت. كان مراهقا خارج وقته، فدفع الثمن غاليا عندما ركلته البغلة ولم يتمكن من صنع قيثارته التي طالما حلم بها وهو يسمع دندنة هجهوج كناوة الآتية من الأعماق السوداء لإفريقيا.

تمددت على السرير.. عيني نصف مفتوحة.. تعب من نوع خاص.. تعب غامض ناتج عن تكاثف وازدحام.. عدة أفكار وأحاسيس متناثرة، متناقضة، متباعدة.. تتجمع الآن كسحب خريف يقترب من فصل الشتاء. تلبدت سمائي.. قلق.. دهشة.. متعة من نوع خاص ناتجة عن حالة من يترقب أو على وشك اكتشاف شيء ما.. متعة حزينة وقلق نشيط يسري في الخلايا عبر المسام.. حالة قريبة إلى الكتابة.. كنت في حاجة إلى أن أكتب هذا التناقض، هذا الغموض، أن أكتب عن هذه الأشياء التي توشك أن تمطر داخلي.. أشياء غامضة، لم ترتد بعد ملابسها الداخلية، لم تركب بعد في جمل مفيدة. صور طازجة، طرية، دافئة. صرت أنا بدوري في حاجة إلى من يكتب عني، من يروي عني، بحاجة إلى راو آخر.

لأول مرة اكتشفت وقدرت حاجة الكتاب إلى رواة.. كان علي أن أبقى ممددا على سريري وعليه أن يكتب. أخاف إن أنا تحركت أن تزول هذه اليقظة الشعرية، هذه الدهشة الغامضة الممتعة. ثمة مراهق داخلي يتحسس جسده وخياله يريد أن يكون رجلا، يريد أن يكون كاتبا، أن يفك لغز اليد السوداء التي شطبت في رفض واضح على جمال إليا أبي ماض الذي سارت بذكره، بإيقاعه، الركبان ولم يستطع أحد أن يطعن فيه... كيف يمكنني أن أكلم هذا المراهق في ؟

فجأة سمعت طرقا خفيفا على الباب.. علي أن أقوم وأدع اليد الفاحمة لحالها.. أن أنسى أن ثمة كتابة تنتظرني. فتحت الباب.. أمي تخبرني بقدوم خطيبتي.. لم أقل لها شيئا عن الكتابة طبعا وإلا اعتبر ذلك سوء أدب لا ينبغي أن يظهر على موظف محترم مقدم على الزواج... سألتها أين هي، قالت، في المطبخ: "حياة في

المطبخ أتسمع ؟" قلت في نفسي حياة في المطبخ وفي هذا الوقت ؟ قلت زيارتها هذه الأيام.. انقطعت. لم أرها منذ أكثر من أسبوع.

عدلت من مزاجي. نظرت في المرآة. ثمة شبه كبير بين الصورة في الإطار والصورة في المرآة. امتلأت حماسا وشبابا وغموضا وقلقا في نفس الوقت. تناقض ينمو داخلي على مسيرة يوم من المسافة بين الكتابة والواقع.. تناقض لم أستطع أن أخرج منه. وكان علي أن أكتب، أما الآن فعلي أن أتكلم مع خطيبتي في أمور تبدو مهمة، أمور عالقة يجب البت فيها، أمور جدية. وخطيبتي بالمناسبة حازمة، صارمة وإن بدت مع أمي غير ذلك. كان صدرها يتسع لثرثرة أمي التي لا تنتهي.

كانت أمي على عكس أبي تماما، تتحدث عن كل شيء: ادريس تغير يا حياة.. خرج من الصباح الباكر ولم يتناول فطوره كعادته ولم يقل لا طابت ولا تحرقت.. لم يعد يعجبني هذا الولد هذه الأيام.. صار منشغلا لا أدري بماذا.. لم يعد يهتم بنفسه ولا بنا... قل كلامه معنا ولم يعد يجالس أباه ويجالسنا كما كان يفعل.. داخل، خارج... كتب، كتب، اجتماعات، اجتماعات، لا أدري ماذا يفعلون في هذه الاجتماعات.. انفضوا جميعا وتركوا لي هذا العجوز.. إن لم أحركه لا يتحرك.. إن لم آته بالأكل لا يطلب ذلك حتى وان مات جوعا. حطموه أطلب من الله ألا يسامحهم.. عذبوه قتلوه.. صار، ميتا، جثة. غيبوه لأنه كان كما يقولون من الرؤوس الساخنة. سخنته السياسة لعنة الله على السياسة والسياسيين وعلى من يأتي من طريقهم. ماذا تبقى له الآن من سخونة الرأس ؟ وماذا فعل له هؤلاء الذين دخل السجن بسببهم ؟ اتهموه بالسياسة من أين له أن يكون سياسيا ولم يتعلم حرفا واحدا. كان عليه أن لا يتدخل فيما لا يعنيه.. الفضول لعنة الله على الفضول.. مالنا والسياسة.. تدير الخير ويرجع ليك بومزوي.. لمخزن ما معاه لملاغة.. واش سي احمد عندو شي عقل دار راسو ف الدراري.. ولكن أش دار كاع.. لمخزن عندو بحال اللي دار بحال اللي ما دار...

كانت طنجرة الضغط تهدر وكانت أمي تسرد كلاما تكرره دائما دون أن تمل من ذلك.. سكتت برهة وخطيبتي تتابع حركاتها وهي تنتقل عبر أرجاء المطبخ وتتكلم.. ثم تابعت كلامها: الله ابنيتي.. لمن نقول هذا الكلام ؟ من يسمعه ؟ المخزن في هاذ البلاد له أن يتكلم أن يقول أن يفعل ما يريد. المخزن وحده يعرف ما لا نعرف ونحن مساكين، بسطاء لا طاقة لنا به. همنا الوحيد هو الزمن الذي غلب علينا هو الآخر وقصم ظهرنا. الإنسان العاقل هو من يتجنب مواجهة الزمن والمخزن. كان على الرجل أن يعرف ذلك، كان عليه أن يبتعد عن السياسة. كان عليه ألا يتعاطف مع أحد. اسي أحمد نية وحدة، يفرغ ما في قلبه ويقول ما يعن له ويحسب الناس سواسية ولا يعلم الصديق من العدو ولا الحبيب من الحسود. ولم يكن لينتبه للمخبرين الذين كانوا منبثين هنا وهنالك يلتقطون كل صغيرة وكل كبيرة.. شاذة وفادة.. ويجعلون من الحبة قبة ليورطوا السذج أمثال اسي أحمد...

كانت أمي تغسل الأواني على إيقاع الطنجرة التي لا زالت تهدر. حياة جالسة على كرسي، لم تخلع معطفها كما اعتادت أن تفعل، تستمع وتعلق بين الفينة والأخرى بكلمة. تبتسم حينا لهذا النوع من السياسة الشعبية التي تتكلمها أمي.

تسللت وانخرطت تدريجيا في المشهد وجلست إلى جانب خطيبتي أومأت لها أن تصمت، وأنا أضع سبابتي اليمنى على شفتي المعقودتين، المزممتين. أما أمي فاستغرقت في حديثها وهي تنشف كؤوس الشاي بمنديل أبيض وتتطلع دون أن تلتفت إلى شجرة التين العتيقة التي أرسلت فروعها قريبا من نافذة المطبخ بالقرب من صنبور الماء حيث تقف أمي. تفوح شجرة التين برائحتها العطرة كما اعتادت منذ سنين. نمت هذه الشجرة معنا وكبرت مع آلامنا وهمومنا وأحلامنا. كانت هذه الشجرة على علم بما يدور في البيت وتفهم جيدا هذا الحزن الذي أثقل كاهل هذه الأسرة منذ اعتقال الأب.

فجأة التفتت أمي إلى الخلف وهي تقول: أنت هنا، تتلصص على أحاديث النساء. مسحت يديها بمنشفة معلقة قرب صنبور الماء. اقتربت منها وقبلت يدها وترددت في أن تسلم لي يدها وهي تقول معاتبة:

- تريد أن تتملق.. تريد أن تظهر لخطيبتك وجهك الآخر وتخفي عنها وجهك الحقيقي الذي لا تعرفه. لا داعي لذلك فهي تعرف عنك كل شيء. حكيت لها كل شيء. "حياة" بنت طيبة وأصبحت الآن جزءا منا ويجب أن تعرفك على حقيقتك. يجب أن تعرف أي مشاغب أنت.. تدخل إلى البيت متسللا إلى غرفتك كاللص دون أن تسأل عن أمك.. صحيح صرت ترى أن أمك لم تعد تساوي شيئا عندك.. لا تفهم لا في السياسة ولا في الاجتماعات التي عدت إليها من جديد تريد أن تورط نفسك.. لم تستفد مما وقع لأبيك.. ماذا أعطته سياستكم هذه غير الشلل والبكم والعته صار يحدق فينا ولا يقول شيئا.. ما عاد يهمه أمرنا.. طالما قلت لك ابتعد من السياسة، فقد رملت نساء ويتمت أطفالا وفرقت أصولا وعائلات.. لم تسأل لا عن أمك ولا عن أبيك ولا عن أخيك المهدي الذي ضيع اليوم جهاز المحمول الذي اشتراه وأراد أن يبيعه ثانية ليربح فخسر الربح ورأس المال. مهما يكن، فهولا يشغل نفسه بالترهات.. ضاع منه المحمول ولكن يستطيع أن يعوضه، أما أنت... منذ صغره كان يعتمد على نفسه ويدبر أمره للحصول على ما يكفيه من حاجيات واقتناء ما يلزمه من أدوات مدرسية.

- لا تقولي يا أمي مثل هذا الكلام ما بيني وبين السياسة إلا الخير والإحسان.

تطلعت إلى حياة بنظرة دالة لألفت انتباهها الشارد وتابعت الكلام:

- .. تركت السياسة لأصحابها، للذين يجيدون الخطب والمرافعات. السياسة اليوم لم تعد مواقف ولا فلسفة ولا ثقافة وإنما بلاغة تخفي وراءها ما تخفي لذلك لم تعد تخيف أحدا. دعينا أمي من هذا الكلام حتى لا نثقل على ضيفتنا الكريمة... قولي

لي أين هو المهدي الآن فقد رأيته قبل قليل عند عتبة الباب، كان واقفا يتحدث مع زملائه. لم يقل لي شيئا عن موضوع الهاتف المحمول.

أجابتني أمي وهي تضحك:

– لأنه يعرف بأنك لن تهتم لأمره.. مشغول بهاديك السوسة التي لا تنفع ولا تضر.

اقتربت أمي من "حياة"، وقفت في مواجهتها وقالت وهي تضع يدها على كتفها:

– أليس ما أقوله صحيحا ؟ قولي بالله عليك يا بنتي.

أخفت حياة ابتسامة كادت أن تطل من وجهها. كانت في موقف حرج بين الهزل والجد، إلا أن ملامحها سرعان ما اكتست جدية وحزما لتظهر لأمي الاحترام اللازم.

حياة معجبة بأمي وتعتبرها مناضلة مجهولة كمئات النساء اللواتي تحملن مشاق كثيرة وقاسين الكثير في سبيل إعالة أبنائهن بسبب غياب الزوج أو مرضه دون أن تعرف عنهم الصحافة شيئا. كانت تقول عن أمي بأن جسدها وحركتها وعملها أكبر بكثير من وعيها الذي لم يتشكل في مدرسة ولا في جمعية ولا في صحافة. علمتها الحياة أشياء كثيرة بسبب معاناتها. صحيح أنها كانت تتكلم كثيرا تشكو وتلوم إلا أنها بالمقابل كانت طاقة للعمل والحركة من أجل إعالة أسرة كانت ستعصف بها رياح المحيط. كدت وتعبت لوحدها قبل أن يشتد عضد أخي الأكبر ويعمل ليساعدها على حمل هذا العبء الثقيل الذي خلفه أبي وراءه عندما اختفى فجأة وراء القضبان، أو في زنزانة مجهولة أو مكان مجهول لم نعرف عنه شيئا حتى الآن.

كانت خطيبتي ترى فيها الأم المناضلة، المرأة القوية التي تستمد طاقتها من سذاجة عجيبة، تلهمها وتلهب حماسها لأداء الواجب المقدس. أخذت "حياة" يد أمي

بين يديها لتطمئن إليها أكثر، لتؤكد لها بأن ما ستقوله لها لا ينقص في شيء من بطولتها. وقالت:

– خالتي حليمة.. إدريس ابنك ولكن اسمحي لي، فأنت لا تعرفينه جيدا. لا تعرفين عن اهتماماته الآن شيئا. لا تخافي، اطمئني فهو بعيد كل البعد عن السياسة، لم ينخرط في حزب ولا في جمعية ولا أي نقابة شرقية أو غربية، محسوبة على اليسار أو على اليمين. وليته كان يفعل. أصبحت لإدريس اهتمامات أخرى ثقافية بعيدة عن السياسة، يقرأ كتبا أدبية مغرقة في الخيال لا علاقة لها بالواقع. السياسة يا خالتي لم تعد تخيف بعد إطلاق جميع المعتقلين وعودة المنفيين وإعفاء المسؤول عن الجهاز السري من مسؤوليته. تغير الوضع اليوم وصار بإمكان جمعيات الإنصاف أن تقف حاملة الشموع أمام المعتقلات القديمة حيث ارتكبت جرائم كبيرة ضد الإنسانية، محتجة ومطالبة بالكشف عن الحقيقة التي لم تظهر حتى الآن. وسنسعى إن شاء الله إلى البحث لمعرفة ملابسات وظروف اختفاء واعتقال عمي سي أحمد. الظروف اليوم تحتاج إلى العمل لبناء مجتمع جديد، لا يخاف السياسة. وكنت أتمنى أن ينخرط إدريس في هذه الروح الجديدة للعمل ويتخلص بدوره من أوهام الماضي.

– الله يرضي عليك يا ابنتي. كوني عاقلة واحذري. تغيرت أشياء نعم ولكن لا أعرف أنا ما يدور وما قد يحدث... السياسة والمخزن لا أمان لهما. على الإنسان أن يحذر... أنا لم أعد أعرف ما يقع الآن ومن أين لي ذلك.. الأبناء مشغولون بعالمهم وزوجي كما تعلمين صامت لا قدرة له على الكلام. يعيش في زمن آخر وفي مكان آخر. أما أنا فلم يعد يهمني أن أعرف هذه التفاصيل التي ذكرتها. لا افهم فيها شيئا. لم أدرس... ولا أقرأ الجورنال ولا يمكنني أن افهم ما يقع. ما يهمني هو مستقبلكم أنتم، سلامتكم أنتم، أما نحن فقد أمضينا حياتنا كما كتب علينا أن نعيشها. والمكتوب لا هروب منه. عانينا كثيرا ولم نعد ننتظر شيئا. ما يقلقني أكثر هو ابني أمين الذي غادر المدرسة ولم يستطع متابعة دراسته ليعينني على تحمل مصائب الزمن الغلاب. الزمن

يكسر ظهر من لا ينكسر. والعين الشريرة تؤدي يا ابنتي. ف سي أحمد لم يفعلها لا بيده ولا برجله. خرج ذلك اليوم المشؤوم ويا ليته لم يخرج. العين الشريرة حقيقة يا ابنتي لا أحد يمكنه أن ينكر ذلك. رحمة الله على المرابطة للا الضاوية. كانت تقول بأن العين قتلت ثلث سكان المقابر.. كانت، الله يرحمها، تساعدني كلما حلت علينا مصيبة من مصائب الزمن. تطفئ الشبة في جمر فوق رؤوس أبنائي لتفادي أذى العين وتقيس الشم وتنتبه وتنبهني إلى ذلك. ماتت للا الضاوية واختفى زوجي وتركت وحيدة ولولا الحاج التهامي بارك الله فيه وفي تجارته وأكثر من أمثاله، لمتنا جوعا وتشردنا. لم يأخذنا منا فلسا واحدا طوال المدة التي أعقبت اختفاء اسي أحمد. كان يقول الله يجازيه كل خير: عيب يا حليمة.. أن آخذ منكم أجر الكراء في مثل هذه الظروف الصعبة.. ألسنا أبناء البلد، ألسنا مسلمين.. وأكثر من ذلك اقترح على أمين الاشتغال معه. وبدون تردد قبل أمين العمل معه في متجره لبيع القماش.. لولا ذلك لمتنا جوعا. اختفى السي احمد ذلك اليوم المشؤوم.. لم يعد.. انتظرنا: هل جن وضل الطريق ؟ هل أصابه مرض ؟ هل اضطر إلى سفر مفاجئ من أجل قريب أو صديق ؟ لا هذا ولا ذاك. بحثنا في كل مكان يمكن أن يخطر على بال...

كانت أمي تحكي وأنا أعيد تشكيل الأحداث في المنطقة الغامضة بين ذكريات الطفولة وما سمعته عن الاعتقال هنا وهنالك... توالت قصص الاختطاف التي تكررت هنا وهنالك عقب ذلك الإضراب الأسود الذي خاضه تلاميذ المدارس.. رجح لدينا أن يكون قد اختطف.. أو هجر أو رحل إلى صحراء حيث منافي السياسيين.

من القصص التي كانت تحكى عن الاختطاف رجحنا ذلك وصار كل من اختطف أو اختفى في ذلك الوقت، يرجح أن يكون سياسيا أو مضربا. ولم نكن نعرف عن المعتقلين السياسيين أي شيء. صار كل اختطاف لسبب غامض بدون ارتكاب سرقة أو ضرب أو جرح أو اعتداء، كنا نعده سياسة.

لا زالت أمي ترى السياسة لحد الآن اعتقالا أو اختطافا.

اختفى أبي السي أحمد، كما تناديه أمي ولا تزال، فصار معتقلا سياسيا رغم أنه لا يفهم في السياسة شيئا.. فكيف وقع ؟ ماذا وقع ؟ أي باطل نزل عليه ؟ من دبر له هذا الاتهام ؟ من أوقعه في حبائل السياسة ؟ أسئلة كنا نطرحها ولا نجد لها جوابا.

مضى زمن طويل قبل أن يعود السي أحمد ذات يوم معصوب العينين وعلى فمه قفل حديد. عليه أن لا يرى ما يراه الناس وأن لا يتكلم ليقول ما وقع. وان يبتلع كلماته. كان الجرح كبيرا وعميقا. قتلوا في الأب الرجل الطيب الصادق وتركوا لنا جثة رجل آخر لا نعرفه لم يعد يحس ولا يبالي ولا يتكلم. تركوا حجرا جريحا لا نعرف شيئا عن ألمه ولا عن جرحه.

ماذا وقع ؟ لا نعرف شيئا. الله وحده يعلم ما وقع.. وكان علينا أن نسكت نحن أيضا، علينا أن لا نقول شيئا وإلا لن نأمن خطرا غامضا يمكن أن يحدق بنا في أي لحظة.

في بعض اللحظات التي نظنها عابرة، تشتعل نار السياسة في قلوبنا الساذجة ننكرها نهرب منها، نهرب من ماض ساخن، جرم حواسنا السياسية. لا زال الماضي ماثلا أمام عين أمي، أمام أعيننا. نتحدث في السياسة لننفي أن نكون سياسيين وكل واحد يهرب بطريقته.

لا أخفي أن السياسة في هذه المرحلة التي أتحدث عنها، التي أعقبت الخروج من سنوات الرصاص، لا زالت غامضة، فعلها ملتبس، علاقاتها مشبوهة، خطوطها غير واضحة علاقاتها بالإنسان غير إنسانية.

فشلت السياسة حتى الآن في تحقيق التواصل بين الفرد والجماعة، لم تستطع بعد إدماج الفرد في الجماعة. لا زال الفرد غاضبا منها ولم يقو بعد على إسماع صوته داخلها ومن خلالها. لم تستطع السياسة ولا الكلام في السياسة، أن يزيل الغموض على علاقتي بأمي ولا لم تستطع أن ترفع اللبس عن علاقتي بخطيبتي.

تتهمني أمي بالتورط في السياسة حتى النخاع ودليلها في ذلك حضور الاجتماعات الغامضة والتي يمكن حسب اعتقادها أن تكون سرية. يمكن للماضي أن يتكرر. يمكن للابن أن يكرر قصة أبيه. أنا، في اعتقادها، متهور ومندفع. كيف يمكن لطي صفحة الماضي أن يساهم في تنوير وعي نساء كن ضحايا للسياسة السوداء ؟ سؤال لم أجد له جوابا.

خطيبتي تتهمني، على العكس من ذلك، بالهروب من السياسة وبالعجز وبأنني لم أستطع أن أتخلص من عقد الأمس وأنني أهرب إلى الحلم، إلى الخيال. لم تعد تتحمل هذا الغموض لذلك ترى أن من الواجب وضع النقط على الحروف.

قالت لي، يجب البث في أمور مصيرية طالما أجلناها. يجب وضع النقط على الحروف. قلت نعم، وأنا لا اعرف عن أية كلمات تتحدث، أي كلمات يمكن أن تتشكل من هذه الحروف. الكلمات غامضة، ولا اعرف في أي حقل تريد أن تضعها. لم أفهم كيف يمكن للسياسة أن تشوش على الكلمات داخل مربع الأسرة التي نسعى إلى تكوينها ؟

كان علي أن أجلس معها لأول مرة وجها لوجه. خارج إطار المربعات السوداء والبيضاء التي تم بها تبليط مراح البيت الذي نشأت فيه. تغيرت المربعات وتغيرت الألوان وركبت كلمات جديدة من حروف قديمة ويجب وضع النقط على تلك الحروف.

في اليوم الموالي جلسنا متعبين، نرتشف القهوة في مقهى بعيد عن الحي الذي نسكنه. في حينا الشعبي لا وجود لمقهى من هذا النوع في حينا، يتسع صدره لمناقشة السياسة ولوضع هذه النقط.

كانت ملامح حياة جادة، صارمة، واضحة، لا أثر فيها لحلم من الأحلام التي راودتني في الأيام السابقة.. كان الصمت يقطع كلامنا إلى جمل غير مكتملة.. إلى حروف سقطت عنها نقطها.

قالت، بعد أن ارتشفت جرعات متتالية من القهوة غير السوداء، وأتبعتها بماء بارد لتشد بها عضد الكلام البليغ الفصيح الذي يجب أن يلائم مقتضى الحال، قالت بأن والدي أهمل إلى درجة لم تعد متحملة، وأن أخي أمين غارق في العمل، وعلي أن أتحمل المسؤولية لمعالجة الوضع. قالت بان المشكلة عويصة ولكن المرحلة الجديدة مواتية وملائمة لحلها.

قالت بأن صمت أبي لم يعد مبررا، لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، وأن على أبي أن يعرف أن الظروف تغيرت، وأن بإمكانه أن يتكلم الآن، وأن المجلس الأعلى لحقوق الإنسان نظم ولا زال ينظم جلسات للإنصات والاستماع، وأن تجربة المغرب ستكون رائدة في هذا المجال.

وقالت بأن علي أن انخرط في السياسة، وأن السياسة أصبحت فنا ممكنا..

قلت لها بأن صمت أبي لا علاقة له بالسياسة وأن السياسة، كما تصنع في الواجهات وتطبخ في الكواليس، لا تستطيع أن تكلم أبي. ثمة حقائق لا زالت مطمورة تحت الأرض ولا أحد يملك القدرة الكافية على الحفر. موتى وجثث مدفونة لا أدري أين وجثث أخرى غير مدفونة، قطعت إربا إربا بأياد لا زالت تنعم بالحياة، وتتطلع إلى ممارسة السياسة بالواضح وبمشاريع عصرية وتسطر برامج وتصاميم للتصويت عليها في مجلس الأعيان.

قلت، ثمة مختفون مجهولون، لا نستطيع حتى الآن أن نركب بصددهم جملا مفيدة ودالة، فكيف تريدين أن تضعي نقطا على حروف لم تتشكل بعد. قلت لها، صمت أبي أكبر من السياسة وعقدته أكبر من النضال الذي تتحدثين عنه. جرحه أعمق وكوني على يقين أنه رفض الكلام لأنه رأى ما لا ترينه وما لا نراه جميعا. وحده يرى الحقيقة ولا يريد الكشف عنها.

نظرت في عيني حياة، رأيت الخيبة تلقي بظلالها على البريق الذي صار يتراجع ومساحيق البدرة تطغى على ما سواها وفجأة غابت حروف الزين من ملامحها، صارت حروفا بلا معنى ولم تعد توحي بالذكريات التي أشعلت نار الفتنة ذات يوم.

حدثتها عن يوسف الذي أرادت له القرعة أن يسافر إلى أمريكا بحثا عن شمس أخرى. قالت بان أمره لا يعنيها وأن القرعة هروب من الواقع، والهروب عجز عن حل المشاكل، وأن السياسة مواجهة لهذا الهروب.

حدثتها عن شلالات أوزود التي زرتها والتي سقطت مياهها بقوة داخلي، فجرفتني إلى نفسي. قلت لها إنني كنت على وشك البكاء هنالك، على وشك الكلام، وان الشلال فجر في صمتا عمرا طويلا. لم تستسغ هذه المبالغة واتهمتني بالهروب أنا أيضا.

أردت أن أتحدث لها عن نجاة ببراءة الطفل الذي كنته، فتراجعت ولم أفصح عن خيانتي.. قلت لها إن السفر إلى المناطق العليا والأقاليم السفلى، يكشف للإنسان ذاته ويعرفه بنفسه أكثر. اتهمتني بالمثالية والسوريالية وقالت السياسة ليست هروبا الى الخيال ولا انتظارا للذي يأتي ولا يأتي. ليست تفرجا على الأوضاع من بعيد.. فهذا لن يغير شيئا، وهروبي مرة إلى الأمام ومرة إلى الخلف، لن يغير شيئا من وضع الخريطة.

قلت لها صمت أبي اكبر مني ولا يمكن للإيديولوجيا المنتفخة بالشعارات أن تفك عقدة أبي. سخرت أمامها من الحروف التي تريد أن تضعها على الحروف، على مقربة من أحزاب بلا أفكار وزعماء بلا قناعات ونقابات بلا رأسمال إنساني. نقابات تفاوض على المصالح ولا تهتم بالإنسان ولا بحقه في الثقافة والجمال والحب. اتهمتني مرة أخرى بالهروب وأنني أعيش في زمن آخر غير هذا الزمن.

قلت لها هذا شيء منتظر منك ومن غيرك في مدن وقرى تشيد بالاسمنت المسلح بدون مكتبات، مدن مكدسة، أعيانها لا يقرأون وقراؤها مفلسون. وكتابها

مفلسون، شاءت لهم الأقدار أن يروا الحياة في مكان لا حياة للكتاب فيه. اتهمتني بالتشاؤم والسودوية والتحجر وقالت بأنني أفكر بعقلية من سبقوني.

قلت لها، من نطفة أبي الحزينة خلقت وأن حزني أصيل، قابع في الطبقات السفلى من كينونتي وأن السياسة الناشفة لا يمكنها أن تصل إلى عمق الجرح، لا يمكن أن تفهم سر الصمت الذي اختاره أبي لمواجهة الشعارات الجوفاء..

قلت لها بأني حزين. نعم.. ولكن لست سوداويا كما تدعي. أحاول أن أفهم هذا الحزن الأصيل عن طريق الثقافة وأسمو به عن طريق الجمال، بما تبقى من زرقة السماء ونزق البحر، وأشرت إلى لوحة معلقة على الجدار قريبا منا فيها أحصنة سوداء تقتحم زرقة البحر تغسل وجهها بالزبد الأبيض المتلاطم. التفتت حياة لم يقنعها الرسام الذي كان عليه أن يرسم الواقع.. بؤس الأطفال وتسول الرجال، أن يرسم الميزان.

تذكرت نجاة التي كانت تحب في جمال رسم الحياة بألوان قوس قزح... تذكرت يديها المخضبة بالحناء الحزينة... تذكرت حلم فاطمة التي كانت تصرخ في فضاء البحر الأزرق، تستنجد وتستغيث لإيقاف القتال العنيف بين الفارسين المدثرين بلباس أبيض ناصع. ابتلعت الذكرى وارتشفت نخب الحلم على شرف هذه اللوحة الرائعة لوحدي ولم أقل شيئا للآنسة المحترمة والتي لا يجوز الحديث عن اللامعقول بحضورها وإلا اعتبرت ذلك إهانة لها في الوقت الذي أرادت أن تجزم في كثير من الأمور وتضع النقط على الحروف.

قلت لها إن الثقافة تمكننا من فهم جرح هويتنا، تمكننا من فهم حزن الحناء ووشم الذاكرة وقلق الحرف الأمازيغي ورمز الزربية والعمارة وفهم هسيس صمت أبي المعذب في سكوته.

قلت لها لست متشائما ولا هروبيا وإنما أريد أن أفهم صمت القرون بكل جوراحي، بدل التهافت على النماذج والموديلات الجاهزة. قلت لها أريد أن أفهم تاريخ الصمت الطويل وأفهم ذاتي وأفهمها لتتلاقى الحلقات المعزولة.

قلت لها أن صمت أبي احتجاج على عجزنا عن فهم التحول: اضمحلت الأسرة الكبيرة والقبيلة والزاوية ولم نستطع بناء مؤسسات بديلة، لم نستطع أن نقيم على أطلالها مؤسسات أخرى أصيلة، قادرة على لم الشمل وإيقاف نزيف الهجرة السرية وإدماج الفرد في الجماعة.

تحديتها وواجهتها بأسئلتي المقلقة: لماذا لا يبدع الفرد في بلدنا إلا في العزلة أو في أعالي البحار؟. لماذا لا يبدع في الحزب والجمعية والنقابة في الفن والأدب والرياضة؟ كيف تفهم حياة هذه البطولات الفردية التي لا تظهر إلا إذا شاء الحظ للقرعة أن تنجح؟ اتهمتني حياة بالغرور والتعبقر والتقعر والتفصح والتعظم والنخبوية والمثالية ولم يرضها أبدا هذا العناد والإصرار على الغموض والسعي إلى التعقيد والهروب من العمل والانخراط في الأوراش الكبرى.

عدلت حياة من جلستها. قامت من فوق الكرسي وحركته إلى الأمام وتقدمت بجذعها إلى الطاولة لتقترب مني أكثر. أخذت بيدها اليمنى، طبعا، قطعة سكر وأخذت تدعكها بسبابتها وإبهامها. تطلعت إلي بعيون حادة. تجهم وجهها قليلا وهي تقول:

– ماذا أصابك هذه الأيام ؟ تغيرت كثيرا. صرت شخصا آخر. تتحدث عن عوالم أخرى، تظهر لك أهم مني ومن أبيك وأمك ولم تعد تعيرنا اهتماما. منذ التقيت ب يوسفك هذا وأنت تهذي وتحلم. انسحبت مني تدريجيا. لم تعد تتحدث ولا تسأل عن همومنا الصغيرة ولم يعد يهمك مصير علاقتنا. مضت سنتان على خطوبتنا ولم تحرك ساكنا... ماذا سنفعل بتلك الشقة التي اشتريناها معا، نتركها فارغة بدون فراش ولا أثاث ؟ هل تريدني أن أجهزها لوحدي وكأنني أنا التي طلبت يدك ؟ ما قالته أمك صحيح وأنا صراحة لم أعد أتحمل المزيد. يجب وضع النقط على الحروف.

تعجبت لهذا الانتقال السريع والمفاجئ من الخوض في ما تسميه هي بالسياسة إلى الحديث عن أمور شخصية، كان من الممكن أن نناقشها في سياق آخر. قلت مازحا:

– تريدين أن نعجل في كتابة عقد الزواج ولا شك ؟

– اسمع. لا تضحك. أريد أن أقول لك شيئا مهما اليوم، يجب أن تصبح علاقتنا رسمية.

– صحيح. تريدين أن نكتبه بخط تيفناغ.

ضحكت أنا. وأجابت هي بنفس اللهجة الجدية:

– لا. بخط عربي ولغة عربية فصيحة واضحة ونترجمه بعد ذلك إلى لغة فرنسية مفهومة مضبوطة وندفع نسخا منه إلى مختلف الإدارات التي يهمها أمرنا.

– هذا إذن كل ما يقلق بالك ؟ حياة دائما هي حياة..

– الحياة بين الرجل والمرأة لا يمكن أن تستقيم إلا بالقوانين والأعراف.

– حياة هي التي تريد للحياة أن تكون هكذا. والحياة أكبر بكثير من ذلك.

– حياة أو الحياة هي التي ستضع حدا لأوهامك وترهاتك وأحلامك.

– هذه الترهات التي تمنيت أن تفهميها منذ سنتين ولم تحاولي.. قلبي يشبه وجه أبي وصمتي يشبه صمته. صمته أصبح بديهيا، مألوفا، يعرفه الكثير من الناس، أما صمتي فغامض لا يعرفه حتى أقرب الناس إلي.

– أنت دائما غامض.. تريد الغموض وتسعى إليه. تخلط الأوراق دائما...

– لا يمكن أن أكون غير أنا. نطفة أبي الحزينة. صمت أبي. لا أريد أن تجزئيني إلى ملفات كما تفعلين مع زبنائك.

ودعتها مساء ذلك اليوم، بعد أن خيم صمت ثقيل على جلستنا التي أرادت لها أن تكون رسمية ابتداء من تلك اللحظة. كان صمت ذلك المساء مختلفا. رأيت آثارها بعيني في وجهها الذي لم يقو على النظر إلي. ثمة شيء انكسر بيننا ذلك المساء أو صار قابلا للانكسار.

كان بودي أن أحدثها عن يوسف وغزالته التي احترقت ذات يوم بشمس الرحيل ولم أفعل. كان بودي أن أحدثها عن مشروع الرواية التي اسند لي الكاتب روايتها ولم أفعل. كان بودي أن أحدثها عن نجاة التي بزغت ذات شمس بحلة قوس قزح في شلالات أوزود ولم أفعل. كان بودي أن أحدثها عن حزن القصبات وعن معمارها الصامت الذي لم يستطع أي احد أن يكلمه لحد الآن، ولم أفعل. كانت كلماتها قصيرة جازمة وحازمة. كان بودي أن أحدثها عن كل هذه الأشياء ليطول اللقاء أكثر، ولم أفعل.

كان بودي أن أحدثها عن تفاؤلي الكبير عن حلمي الجميل، عن رغبتي في أن أرسم وجه أبي بالألوان والكلمات، أن أرسم الوجوه المحتملة لأبي ليرى وجهه الحقيقي الذي لم يره في المرآة، عن وجه أريد أن يذكره بالوشم الجميل، بالجرح الرائع، بوجه يسمعه ذلك اللحن القديم، وجه يرقص يجذب كما يريد على إيقاع الكناوي، ولم أفعل ولم ترغب هي...

كان بودي أن أسمي كل الوجوه الممكنة لأمي لتكف عن ثرثرتها وتتأمل أكثر في تفاصيل الجبين وشامة الخد الأيسر، لترى بنفسها أي أنثى يمكن أن تكونها، أي أنثى فاتنة قادرة بسحرها على أن تتغلغل في قلب أبي ليتكلم ويتغنى بغزل، يمدح فيه خصلة من خصلات شعر أمي. أردت أن أحدثها عن كل ذلك، فلم أفعل.

لا وقت لديها لمثل هذه الترهات. تألمت وتيقنت ذلك المساء أن خطيبتي لن تزور مرسمي المحتمل، لن تقرأ أشعاري. تألمت لكل أصدقائي الذين كانوا يسألوني عن الزواج والمال والعقار... ولا يسألونني عن هذه الوجوه التي أحلم أن أرسمها.

تألمت لغربتي بينهم. تذكرت يوسف وفهمت ذلك المساء لماذا تبكي الكواكب الوحيدة البعيدة التائهة في سماء لا حد لها. لا أحد يعدها في وطني الحزين.

فهمت لماذا سرقت القرعة يوسف مني.

علي أن أنتظر طويلا قبل أن تتفتق زهرة الصبار.

الصبار الذي يذكرني بالعطش الأزلي.

- تواصل -

اكتشفت في تجربة الكتابة التي خضتها لأول مرة مع الكاتب أن الحياة ليست واحدة. نعيشها بإيقاعات ومستويات وجودية مختلفة. بمجرد ما تطرح سؤالا

صغيرا حول ماهيتها وجوهرها حتى تنسحب منك وتأخذ منك كل الرصيد الذي جمعته وكل التجارب التي خضتها.

كان الكاتب واعيا بهذه اللعبة المأساوية التي تمارسها علينا الحياة، عندما نتجرأ على طرح السؤال. لا شك أن الكاتب يفوقني تجربة، فهو أكبر مني سنا وكتابة. كتب كتبا عديدة لم أقف على عددها، مما مكنه من الحصول على بطاقة الانتماء إلى اتحاد كتاب المغرب الذي كان يتغيب عنه باستمرار لا أدري لماذا.

أسر إلي، عندما أسند لي مهمة الرواية، أنه يعرف الشاعر الذي تقلد وزارة الثقافة ووزارة الاتصال أو هما معا. وقد سر لذلك واعتبر أن الحدث له أكثر من معنى. وقد وضع حدا للمتطفلين على وزارة الثقافة ممن لا علاقة لهم بالشعر ولا الكتاب. وفيما يخص جمع نفس الوزير بين الثقافة والاتصال، قال بأن الأمر، في نظره، منطقي. لا يمكن أن يتحقق الاتصال بدون ثقافة ولا معنى للثقافة بدون شعر. كان صاحبي معجبا بعباراته الباذخة وهو يعلق على قرار أصدرته وزارة الثقافة ويواجه عدسات كاميرا الصحفيين أثناء إدلائه بتصريح عقب انعقاد مجلس للحكومة، بصفته ناطقا رسميا للحكومة في أول أو ثاني حكومة يسارية بالمغرب.

المهم من هذا كله وباختصار، فقد كانت علاقة كاتبنا القديمة بالشاعر الذي أصبح وزيرا، سببا مباشرا في عملي بوزارة الثقافة. عمل ما بوسعه لإدماجي بسلك الوزارة في السلم العاشر كما تقتضي شهادة الإجازة التي حصلت عليها. واقترح علي كاتبنا بالمقابل أن اشتغل معه راويا في العمل الجديد الذي يفكر في إصداره بعد أن وصلته أصداء الوضعية الخاصة المستعصية التي أعاني منها. حكيت له عن تفاصيلها عندما التقيت به لأول مرة بصحبة أصدقاء آخرين في قاعة السينما التي كانت تعرض فيلم "المصير" ليوسف شاهين.

حكيت له عن عقدة أبي الذي أضرب عن الكلام. خرج من السجن الذي قضى فيه ما يزيد عن ثمانية عشر عاما، أبكم، لا يستطيع أو لا يريد النبس ولو بكلمة

واحدة. أضرب عن اللغة أو أضربت عنه. تكور على نفسه وانسحب إلى عالم خاص به لا نعرف عنه شيئا. صار لغزا كبيرا لم نستطع حل طلاسمه. حتى ملامح وجهه تحجرت ولم تعد تعبر عن شيء، أو ربما تعبر عن لا مبالاة بما يقع.

لا مبالاة ساخرة من كل شيء. لم يعد يعبأ لا بأسرته ولا بوطنه الصغير ولا الكبير. قتل فيه الجلادون الوطن الذي كان يحلم به يوما. تأثر الكاتب لحال أبي واندهش لهذا المسخ الكبير الذي شوه الإنسان في أبي، فصار شيئا كباقي الأشياء ورقما من الأرقام، يتردد بين الفينة والأخرى في الإحصاء العام الذي أجرته الحكومة مؤخرا أو في لوائح المعتقلين لأسباب سياسية أو معتقلي الرأي كما يحلو للبعض أن يسميهم.

قلت للكاتب لم يكن لأبي رأي في ثقافة أو سياسة. كان يملك فقط قلبا يحب به الوطن ويحب من يحب الوطن ويتعاطف مع المرابطين على جبهة الوطن. قلت للكاتب لم يكن أبي، كباقي المواطنين البسطاء الطيبين، يفهم شيئا في الإيديولوجيات. لم ندخل بعد عصر الإيديولوجيات، لأننا لم نصل بعد إلى مستوى يمكننا أن نتصارع بالأفكار. صراع الأفكار يقتضي احترام فكرة الخصم ومقارعة الحجة بالحجة في ظل قانون واضح، يحمي الحريات وينظم قواعد اللعبة.

الصراع الذي كان أبي ضحيته، كان صراعا أخلاقيا بين مواطنين بسطاء تربوا على الكرامة والكبرياء وبين جلادين، يبصقون على مواطنيهم ويبولون على مشاعرهم، يعذبون وينكلون ويدفنونهم أحياء في المزابل ويحبسونهم في قصبات عتيقة وكهوف مظلمة، لا تدخلها الشمس ولا يدخلها طبيب. يدخلها الموت يوميا معززا مكرما..

جلادون مرغوا كرامة الوطنيين الحقيقيين في التراب، أقاموا حربا من جهة واحدة على مدنيين عزل لتطهير الوطن من الحب والسياسة وأنشأوا أحزابا قادرة على التضحية بكل شيء وبيع كل شيء لشراء مقاعد مشرفة تليق بأعيان القبائل.

قال لي الكاتب بأنه يعرف كل هذا ولكن حالة أبي حالة خاصة، مستعصية على الفهم. لا يمكن لجلسات الإنصات والاستماع رغم أهميتها، أن تنفع معه... قال لي إن المرض بالوطن، لا يمكن أن يشفى إلا بالوطن. شفاؤه شفاء للوطن وشفاء الوطن شفاء له. انه الجرح الحقيقي الذي يجب أن يعالج من الداخل بعيدا عن الكليشهات والماكياج وابتسامة المعارضة لأول مرة أمام عدسات المصورين، وهي على شفا حفرة من حكومة لا تحكم.

قال لي بأن أبي حالة روائية. ابتسمت، فاستطرد ليزيل الغموض الذي سببته هذه الكلمة التي بدا لي، أول الأمر، أنه ذكرها في غير سياقها. بدت لي كأنها إعلان مفاجئ بدون مقدمات. وقال، لإزالة الالتباس لما انتبه إلى الدهشة التي ارتسمت على ملامحي، وهو ينظر إلي يريد معرفة آثار كلامه علي، بأنه يقصد بحالة روائية، إشكالية معقدة تتداخل فيها عدة عناصر، للأسف غير واضحة. حالة غير قابلة للفهم، إلا أنها قابلة للمساءلة، يصعب التعبير عنها بالخطابات الجاهزة، ولكن يمكن صياغتها روائيا لإيقاظ كل الأسئلة الممكنة وتجريب كل الافتراضات الممكنة.

إنها الحالة التي تتكسر عليها التعابير النمطية والأفكار الجاهزة. اقترح علي العمل سويا لكتابة هذه الرواية، أو على الأقل، للفت الانتباه إلى هذه الحالة المستعصية. قال لي إن صمت أبي هو الصمت العميق في أعماق كل واحد منا، هو هذا الغموض الجارح الذي يلازمنا، يسكننا لذلك لابد من الذهاب بعيدا في دمائنا، لا بد من السفر إلى الأبعاد القصوى من وجودنا، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بالفهم العميق والإنصات الخالص لهذا الصمت الضارب في أعماقنا والذي يحول دوما بيننا وبين أن نقول ما نريد، لأننا نتكلم كثيرا لنقول في النهاية ما لا نريده.

من جهة ثانية، لا بد من زلزلة الطبقات المترسبة في أعماق كياننا ولن يتم ذلك إلا بالجنون القاسي حيث الجمال والألم ولهذا يجب علي، كراو، أن أستعد بما فيه الكفاية لتلقي صعقات ضوئية جمالية يمكن أن تقلب حياتي وجها على عقب، تصل

أحيانا إلى حد ما سماه هو "الكتابة بالرأس المقطوعة" وتساءل بصوت مرتفع وكأنه يتحدى خوفا قديما عمر كثيرا في أعماقه: ماذا يمكن للرأس المقطوعة أن تقول بعد أن تنفصل عن الجسد المترنح ؟

قال لي بأنه لا يدري لماذا قفزت إلى ذهنه مباشرة حكاية قديمة، لا يدري متى سمعها ولا أين عندما علم بقصة أبي... يحكى أن شيخا يطلق عليه المجذوب، ولي من أولياء الله الصالحين، فر من إحدى سجون مدينة مراكش بمعية أصحابه أيام حكم القايد الكلاوي الذي عرف باستبداده واضطهاده للناس.

كان الكلاوي يحرق المتمردين أحياء ويرمي بالآخرين أحياء في بئر عميقة مع الأفاعي والثعابين. يمنع الناس من الصيد في الغابة، ومن اصطاد غزالة في الغابة، فلا تكون من نصيبه، يجب أن يأخذها حالا إلى قصبة القايد، مقابل صاع من الحبوب أو أنية من الحساء لا تسمن ولا تغني من جوع... هذا في أحسن الأحوال وإلا تعرض لكل أصناف التعذيب والتنكيل.

كان المجذوب يركب نفسه يقول ما يعن له.. يهلل ويكبر.. ويصدع بالأمر بالمعروف دون خوف لأنه مجنون، رفع عنه القلم، في كلامه حكمة، في كلامه حقائق قاسية تحرج حتى من يستمع إليها. هو وحده القادر على قول ما يكبته الآخرون.

وحتى لا يفتن الناس، اضطر القايد إلى حبسه مع مريديه ممن ثبت تورطهم في الاستماع إليه وترديد بعض كلامه. في جنح الليل أيقظ المجذوب أصحابه وضرب بقبضة يده جدار الزنزانة وبقدرة قادر انشق الحائط، ففر المجذوب ومعه السجناء، تسللوا عبر دروب المدينة.. كان المجذوب القنديل الذي أنار طريقهم. وقيل إنهم ركبوا ظهور السباع وطووا المسافات الكبيرة في لمح البصر.. يسبحون في فضاء الله بلا حدود ولا قيود. كانت الصحراء تناديهم فيستجيبون..

شمس الليل

كانت للزاوية الناصرية رائحة روحية، انسابت إلى مسام أرواحهم، مضمخة بأنسام الفجر ونوره السماوي، فأنعشت أفئدتهم، فصاروا نسورا نورانية، تسبح في ملكوت الله وما انقطعت ألسنتهم عن التهليل والتسبيح لله الواحد القهار.

طرقوا باب الزاوية.. زاوية تمكروت، فجرا، فاستقبلهم الشيخ كما يستقبل خيوط الفجر. عانقهم ورحب بهم وامتزجت الدموع والأدعية والأشواق ومشاعر الأخوة. صاروا كيانا واحدا، كفا واحدة تتضرع تسأل اللطف فيما جرت به المقادير دعاء نوراني... يرتفع عبر الأكف الضارعة والقلوب الخاشعة إلى الله.. تقاسموا شرب الحساء وأكل خبز الشعير والتمر.. انخرطوا في العمل إلى جانب إخوانهم في درعة. أعانوهم في كل شيء. حفروا الخطارات وتسلقوا أشجار النخيل..

استمروا على حالهم إلى أن فوجئوا يوما بجحافل خيول القايد، تضرب المدى وتحاصر الزاوية من كل الجهات.. قتلوا ونكلوا ونهبوا وجردوهم من كل أسلحتهم.. اقتادوهم إلى مكان قفر وكانت الشمس حارة.. ساروا حفاة عراة عيونهم شاخصة إلى السماء.

تقدم مسعود، العبد المأمور، جلاد القايد، من المجذوب وضرب عنقه بسيفه البتار، تفجر الدم الأحمر القاني من الجسد الطاهر.. طارت الرأس وقيل إنها ما انقطعت عن التسبيح والتهليل.. أما الجسد فهب واقفا منتصبا.. بدأ يدور ويدور دورات حلزونية وسط جموع الناس.. طال دورانه. أما مسعود العبد فقد بهت وتسمر في مكانه.. لم يصدق ما كانت تراه عينه.. لم يجرؤ على الحركة..

أمره القايد أن يطعن جسد المجذوب في بطنه وفي صدره ليسقط.. لم يستجب ولم يكن قادرا على فعل أي شيء.. كانت الرأس لا زالت تسبح وتكبر وتهلل.. تفجرت زغاريد النساء.. أتت الشيخة آمنة وكانت خادمة للزاوية لسنين طويلة... تكنس وتطبخ الطعام لضيوف الزاوية.. اقتحمت الحلقة وفي يدها إناء حليب أبيض، ناصع، وتقدمت من الجسد المذبوح المنتصب أمامها وأخذت يد المجذوب

وغمستها في الإناء وهي تردد في بكاء وتوسل: ارض بقضاء الله، قضاء الله لا مرد له... ارض بقضاء الله، قضاء الله لا مرد له... صل على النبي الكريم.. صل واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأغمضت الرأس العينين وسقطت الجثة على الأرض.

أما القايد فقد استشاط غضبا وهو يسمع التهليل والتسبيح والتكبير وقراءة اللطيف، فأمر جنوده وأعوانه بقتل جميع سكان القرية.. كانت مذبحة رهيبة، لن ينساها التاريخ أبدا. بل نسيها ولم تكتب حتى الآن، لم تكتب ولكن تتردد في مجالس الكرامات الخاصة، لا زالت رواية شفهية.. لم تعد تحكى الآن، كما كانت تحكى في الماضي بنفس الدقة والحماس.

كان الكاتب يحكي ما سمعه في طفولته. تساءلت ماذا سيكون مصير هذه الرواية لو لم تتبادر إلى ذهن الكاتب الآن وهو يعد العدة لكتابة الرواية ؟ تساءلت بيني وبين نفسي عن سر اهتمام الكاتب بهذه الحكاية البعيدة ؟ وما علاقتها بما سماه "الكتابة بالرأس المقطوعة" من أوجد الآخر، الحكاية أم التسمية التي اختلقها هو نفسه، مرة على لسانه ومرارا على لسان شخصياته الروائية الكثيرة التي لم يعرفني عليها كلها حتى الآن؟

هذه الكتابة المطلقة التي يمكن أن نقول فيها كل شيء ؟ هذه الكتابة الحرة القادرة على قول كل شيء.. هل هي ممكنة؟ هل هي أسطورة جديدة من أساطير كاتبنا، يغامر من أجلها أو يتوهم ذلك ؟ لم أسأله عن ذلك وما كان ينبغي لي ذلك لكن أحس بتواطؤ غريب مع ادعاءاته.

صمت أبي يقهرني وأنا بحاجة إلى الكتابة برأس مقطوعة لأفجر صمت أبي الذي يدفن داخله آلاف الحكايات التي لم تصل إليها أقلام الرواة ولا أفكار الأنتربولوجيون. وجوه الصمت عديدة في وجه أبي.. الندب على جبينه واضح كوشم

جريح... كنقوش الصخر في صحاري الجنوب.. اللحن المجهض في أعماقه موجود في الطبقات المترسبة من نفسه ؟

أحسست في داخلي بتواطؤ غريب، وإن بدا لي أن الأمر مستحيل وأنه خرافة، لا يمكن القبض عليها في هذا العصر الذي نتكلم فيه كثيرا عن الحريات ولا نعيشها على عكس الإنسان الحجري الذي كان يعيش الحريات ولا يقول عنها شيئا، بل لم يكن يسميها حتى. لم يكن بحاجة إليها، ما دامت تجري في دمه.

كان لابد من إجراء تغيير عميق في وجودي لاستيعاب ما يهمس به الكاتب، ما يجيش في صدره عندما يكون في حالة كتابية. صارت رائحة الحبر مملكتي الجديدة، لا تكاد تصل إلى النخاع، حتى أصير شخصا آخر. صارت الحروف والكلمات خلايا سرية، تتجدد داخلي فأصبح وأمسي على حيوات غريبة لا عهد لي بها. قلبت وضعي الاجتماعي وغيرت علاقاتي مع الآخرين.. صار أبي يتكلمني في صمته وصرت أحلم، أكثر من أي وقت مضى، أحلم بكتابة صمت أبي.

لم أعد أتحمل كثيرا ثرثرة أمي التي تتحدث عن كل شيء وفي كل شيء. أقدر ذلك وأتفهمه. فهي لم تعد قادرة وحدها على تحمل مآسي وتبعات سنوات الجمر والرصاص التي أخذت منها روح زوجها وسلمتها جثة صامتة غير قابلة للحياة ولا للموت. أعرف أن الأمهات يدفعن أكثر، يصبرن أكثر، ولهذا فهن يتكلمن أكثر، ويبكين أكثر لأبسط الأسباب. لكن لم اعد قادرا على التحمل. صرت أميل إلى العزلة، أعيش وأعايش أطياف مخلوقات روائية، شفيفة، رقيقة، شجية، لا تشبه أبدا خطيبتي.

صارت ملامح هذه الأخيرة، تبتعد عنهم أكثر فأكثر. صرت غامضا بالنسبة لها، صرت عبثيا لا أبالي بالأمور التي تراها جدية ومصيرية. خطيبتي واضحة أكثر من اللازم. صارت تبتعد شيئا فشيئا عن الغموض الأنثوي الذي كان يوحي به ذات يوم البريق الأمازيغي في عينيها.

صارت ملامحها صارمة، جادة بفعل متابعتها وانهماكها في دراسة الملفات والوثائق. صارت الوثيقة أهم شيء في حياتها. فهي قادرة على قلب البراءة إلى ظلم والظلم إلى براءة. وصار الكلام بالنسبة لها شهادة على قضية، على موقف، يمكن أن تترتب عنه نتائج، قد تكون خطيرة.

صارت تدافع، كمحامية، عن كل شيء إلا عن عالمنا الداخلي الذي انهار ولم تستطع الترسانة القانونية التي تحفظها عن ظهر قلب من حمايته. صارت علاقتي بها مجمدة حتى إشعار آخر. أنا انتظر مذكراتها في هذا الشأن. انتظر مداولات الحكم النهائي. لن أدافع عن نفسي أبدا. سأعلن الصمت في وجهها، صمت أبي، الصمت الجارح والجريح، الصمت الذي عمر قرونا ولم يجد طريقه حتى الآن إلى السياسة ولا الفن ولا الأدب، الصمت الذي ملأ صدر أبي منذ مئات السنين، الصمت الذي طبع عليه في قمقم من القماقم السليمانية التي حكت عنها شهرزاد.

كيف يمكن أن نكلم الصمت المخزن منذ آلاف السنين في هذه القماقم ؟ كيف نفرج عن العفريت الذي لا يزال يظن أن سليمان لا زال حيا، لا يزال يظن أن الرقابة لا زالت قائمة ولم تستطع الآداب القديمة ولا الآداب الحديثة الإفراج عنه حتى الآن ؟

بعد مضي ما يزيد على ثلاث سنوات على رحيل يوسف، اقترح علي الكاتب حضور ندوة نظمتها جمعية "شمال جنوب" حول موضوع التواصل. كدت اعترض على فكرته: فالتواصل أصبح موضوعا نمطيا تلوكه المنابر والألسنة للتظاهر بالانتماء إلى الحضارة والى الحداثة.

والحديث الكثير عن التواصل دليل على انعدامه حتى بين المنظمين لمثل هذه الندوات. لا أحد منهم يسمع للآخر. الحدث واحد ولكن النوايا مختلفة. ما يهم، هو الوقوف أمام عدسات الكاميرا لتسويق ابتسامات رباطات العنق على نحو واسع بواسطة قنوات الفضاء التي أصبحت تتكاثر، تنمو كالفطر، وتنقل أي شيء. ما يهمها

هو الانتشار. ما يهمها، هو التغطية وزيادة رصيد المشاهدة الذي أصبح في عصرنا اليوم يقاس بطريقة علمية دقيقة.

قال الكاتب بأن المسألة أصبحت تطرح بحدة هذه الأيام بعد الحدث الذي هز البلد، حدث السادس عشر من ماي الذي كشف عورة أللا تواصل قال بأن هذا الحدث كشف الغطاء عن قارات منسية بكاملها، بعيدة، تعيش في الدار البيضاء دون أن نعلم ذلك. اكتشفت واكتشافها جديد ولذلك لا بد من الحضور والمتابعة لفهم ما حدث.

قال، في نبرة غضب، يؤسفني أن الكثيرين من أصحاب رباطات العنق، لا زالوا متمسكين بلغتهم الخشبية ويلوكون أن هذا الحدث غريب عن جسم البلد وأن الأمة محصنة، ملقحة ضد هذا الفيروس منذ آلاف السنين. كثيرون لا يهمهم معرفة هذه القارات المنسية البعيدة المتواجدة قريبا منا في مدينة الاقتصاد التي يحافظ على معدل النمو والذي يشيد به صندوق النقد الدولي.

قلت للكاتب مازحا: إذا كان الأمر كذلك، فهل له علاقة بصمت أبي ؟ قال وهو ينفث دخان السيجارة عاليا و يضحك: يجب ألا تفهمها وهي طايرة فالسما ؟ قلت له، معك لا أفهم شيئا ولا أريد أن أفهم أكثر مما ينبغي. أريد فقط أن أعيش ما تقترحه علي. ولا أدري لماذا قفزت إلى ذهني مجموعة من الصور العنيفة وأنا أفكر في اقتراح الكاتب الذي كان مفاجئا لي.

سمعت بأذني الداخلية هدير الشلال يرتفع عاليا، صاخبا، يكاد غضبه المزمجر يحول بيني وبين كلمات الكاتب والتي لم أقو على معارضتها. فهو وحده يرى ما لا يراه الآخرون، ولن يستطيع أن يتخلص من الدكتاتورية الأدبية السائدة والتي تميز أغلب مثقفينا حتى وان ادعى عكس ذلك. في داخل كل واحد منا دكتاتور صغير قادر على التكيف مع الحداثة والعولمة بشكل عجيب، دكتاتوريات في السياسة والمال، في الأسرة في المدرسة، في النقابات، في الأحزاب، في الرياضة، في الأدب....

رأيت أبي يصرخ في فضاء الشلال بأعلى صوته، يصرخ بعنف، بقوة ولا أحد يسمعه. انفجر صمت أبي في خيالي، رأيته طفلا يصفع، يصرخ.. تركله البغلة فيتحول اللحن إلى صراخ عال. صراخ عال في مغارة من صمت.

من يسمع الصراخ داخل الصمت ؟......

لا أحد يسمع. كنت سأسأل الكاتب إن كان سمع شيئا، لكني خفت أن يظن أو يفهم من ذلك أني أتهمه بالخرس، بالعي، بالعجز عن سماع الصمت....،

... صمت أبي الذي قضى في المعتقل ثمانية عشر عاما.

خفت أن يؤول انفجار الصمت الذي حدث داخلي تأويلا خاطئا....

تناولت الغذاء بسرعة.. انسحبت إلى غرفة نومي.. أخذت سجلا أسود، أخصصه لكتابة مذكرات استثنائية..

كانت المقاعد الأمامية فارغة.. قبل التحاق المتدخلين بالمنصة، ربما قد تكون محجوزة لشخصيات مهمة.. لست على يقين وإنما أرجح ذلك لأن الجو العام في البلد يوحي بذلك.. زيارات رسمية مكثفة إلى الأحياء الهامشية... شخصيات، من مستوى عال، تحضر لقاءات من هذا النوع لتنشيط دبلوماسية التواصل مع الشعب.. هذه الدبلوماسية التي كان يؤاخذ عليها اهتمامها بالسياسة الخارجية أكثر من اهتمامها بالقضايا الداخلية. علقت على الواجهة الأمامية للمنصة لافتة كتب عليها:

تنظم جمعية "شمال جنوب" لقاء تواصليا حول التواصل بتنسيق مع معهد التدبير والتسيير.

التحق المتدخلون بالمنصة بعد مصافحتهم للشخصيات المهمة التي حضرت، حليقة الذقن، ببدلات ورباطات عنق أنيقة وأحذية لامعة وابتسامات صفراء توزع بسخاء لتلتقطها عدسات وسائل الإعلام الوطنية بمختلف أنواعها.

قدم مدير المعهد ضيوفه للحاضرين في كلمة بالفرنسية ركز فيها على السياسة الجديدة للدولة القائمة على الإستراتيجية التشاركية التي يجب أن تقوم بين الدولة والقطاع الخاص وعلى ضرورة مساهمة هذا الأخير في تبني مقاربة جديدة للتنمية، يتفاعل فيها الاقتصاد مع الثقافة والاجتماع.

صفق الجميع وتوالت المداخلات بالفرنسية، طبعا، توضح واقع التواصل والأطراف المساهمة فيه وطرق تفعيله للقضاء على التطرف بكل أنواعه...

انسحبت الشخصيات المهمة في هدوء قبل انتهاء المداخلة الأولى التي ألقاها شاعر يكتب بالفرنسية، عانى من الاعتقال والمنفى الشيء الكثير. استعرض الكثير من المفارقات التي تطبع السلوك الثقافي المغربي. مما أدى، حسب زعمه، إلى غموض موقف الشخصية المغربية التي تقول نعم ولا في نفس الوقت لأي شيء. غموض أدى إلى اختفاء الحدود بين اليسار واليمين والوسط الذي اتسعت رقعته بشكل مخيف، يسر وسهل انتقال المنتخبين من لون إلى آخر وبعد ذلك من رمز إلى آخر واستبدال معطف بجلباب والعكس صحيح.

توالت المداخلات التي احترمت الوقت المخصص لها بفضل حسن تدبير مسير الندوة الذي كان مرنا، عادلا في كل شيء، إلا في تأخيره لهذا الصوت الأنثوي الذي طال صبره ولم يتكلم بعد.

جاء دور المداخلة الأخيرة، ويا ليتها كانت الأولى.. قدمتها أنثى.. صعقت لما سمعت المسير ينطق اسمها: سناء الرمادي.. صحفية.. كاتبة قصة.. وفاعلة جمعوية قال بخفة دم: والبقية ستكتشفونها على لسانها. فلتتفضل السيدة سناء الرمادي مشكورة..

صفق الجميع.. لم أصفق.. صعقت، اندهشت.. سناء.. أيوجد في العالم بأسره أنثى تستحق هذا الاسم غيرها..؟ لا أدري لماذا هزتني التصفيقات من الداخل

وحملتني إلى عالم آخر. في لحظة قصيرة، في ثوان معدودة، دق جرس القدر في أذني، وعلى قلبي، نطق اسما لا كالأسماء.

اسم حزين، مضيء، تردد في القاعة... وإذا الدنيا غير الدنيا وإذا التصفيقات طيور رمادية، تقفز، تطير، تحلق في سمائي أنا..

لا احد غيري يدرك أبعاد هذه الحروف البلورية التي ترددت داخلي كقطرات صافية، براقة، تساقطت على بركة مغارة قديمة لا شيء يسمع فيها غير صدى القطرات، غير

س.. ن.. ا.. ء

لا شيء يقطع صمت هذه المغارة، غير هذا الاسم الحزين الذي زارني هذا المساء..

كدت أصرخ بأعلى صوتي وأنادي: "يوسف... أنا صديق يوسف"

كدت أخرج من الورق حيث دون الكاتب اسمي في الرواية..

كدت أتمرد على قلم الكاتب الذي زج بي في هذا العالم من الخيال الذي كاد يصير حقيقة.

قلت في نفسي، ألهذا السبب لم يحضر الكاتب بنفسه لمتابعة هذه الندوة، متذرعا أنه يتجنب قدر الإمكان الحضور، حيث تحضر شخصياته الروائية، تجنبا لأي خلط يمكن أن يقع بين الواقع والخيال.. له أدوار اجتماعية أخرى لا بد من مراعاتها وحمايتها من طيش وجنون الخيال ولهذا السبب يوقع كتبه باسم آخر غير اسمه الحقيقي..

كدت اصرخ في وجه الكاتب.. كدت أخرج من الورق.. كدت أتمرد على الكاتب وأقول له:

أنا حقيقة

وسناء التي تحاضر الآن حقيقة

وصمت أبي حقيقة

وانفجار 16 ماي حقيقة..

سناء حقيقة

وما أسمعه الآن حقيقة.

قالت بصوتها الرخيم الشجي: التواصل يجب أن يكون تلقائيا في ذواتنا ومع ذواتنا. يجب ألا نتصنعه. وليكون كذلك لا بد من العودة إلى الإنسان فينا، إلى الإنسان الأول.. خارج الكليشهات خارج البرتوكولات.. خارج تقاليع الحضارة التي تريد منا أن نؤدي أدوارا رغما عنا، رغم عدم اقتناعنا، لنكون، في أعين الآخرين، حضاريين وحداثيين وحتى لا نتهم بالتخلف..

هل تساءلنا يوما: كم عدد الأفعال التي ننتجها في علاقاتنا الاجتماعية ونكون على يقين أنها تنتمي إلينا.

قالت، دعونا نتواصل مع ذواتنا أولا.. دعونا أن نتواصل مع الكائن الأصيل فينا.. مع الطفل الذي كناه.. مع الطفل الذي يجب أن يحيا فينا باستمرار..

كانت تتكلم وهي تشرئب بعنقها إلى الأعالي،

تنظر إلى هنالك،

إلى أفق تراه ولا نراه..

قالت، فقدان هذا التواصل هو الذي سبب لنا ولا يزال في نزيف فكري وفني وشعري وعلمي. كثيرون هؤلاء الذين أبدعوا أو بإمكانهم أن يبدعوا، لا نسمع عنهم شيئا، لا نعرف عنهم شيئا، يموتون في صمت منزوين في ركن منسي أو اختاروا التحليق

بعيدا في المنافي.. اختاروا المنفى رغما عنهم.. تعود الطيور وهم لا يعودون، لسبب بسيط، لكوننا مجتمع لا يتواصل مع ذاته..لا نقوى على النظر إلى وجوهنا في المرآة.. نخجل من صورنا في المرآة فنستبدلها بأقنعة سلفية أو حداثية.. نعرف عن العالم أكثر مما نعرفه عن أنفسنا. ضيعنا الطفل فينا وقتلناه..

صارت تتكلم منفعلة.. صوت جريح.. يخرج منها.. فيه حرارة حزن، وحده كان يتكلم.. تعني ما تقوله وتقول ما تعني. لا يمكن فصل صوت هذه الأنثى الجريح عنها..

صفق الجميع.. لم أصفق، ذبت في كلماتها.. صرت معنيا بكل حرف يخرج من شفتيها ولا أحد يعلم، وهي بدورها لا تعلم. لم تكتشف بعد أن ثمة كائنات يمكن أن تنتفض من الماضي لتكون شاهدة على ما تقول.. صارت عباراتها عبرات في مآقي، لو أطلقت العنان لها، لبكيت بدموع برية، متوحشة، ولكن كيف أقاوم الحضارة في داخلي.. بكيت في داخلي.. ولم أصفق..

قلت في نفسي، ماذا يجدي التصفيق إذا ضيعنا الإنسان فينا..

ماذا يجدي التصفيق إذا ضيعنا الطفل فينا..

ماذا يجدي التصفيق إذا هاجرت الطيور بعيدا عنا

كل الطيور تعود وطيورنا لا تعود..

تلبسني يوسف، وأنا أصغي للكلمات.. بأذنه الداخلية سمعت، وبعينه رأيت غزالته ترثي التواصل..

رأيت الغزالة تهتك سر الخرافة..

رأيت الغزالة تتكلم لأول مرة وتعلن قصة المسخ الذي طالها..

تتكلم بصدق، تسترجع، بصوتها الشجي، الأنثى الجميلة التي دوخت يوسف والتي أحبها بكل جوارحه..

لماذا ظهرت الآن بعد أن اختفى هو ؟ وعندما ظهر هو اختفت هي ؟ أي قدر حزين للتواصل أشهده هذا اليوم ؟ لا أحد يقدر أبعاد كلماتها سواي.. لا أحد يعرف قصة التواصل الحقيقية سواي ؟ فلماذا يصفقون ؟ ماذا جرى هذا اليوم، في هذا الكون؟ أي قرعة حزينة حملت يوسف إلى أمريكا وأتت بسناء إلى هذه القاعة ؟ أي حظ حزين أشهده اليوم ؟ هل ما أراه اليوم وأسمعه تأويل ما لم أحط به علما ؟ هل هو القدر يتكلم بطريقته الساخرة على لسان سناء وهي تتحدث عن التواصل ؟ من أنبأها بقصة الطيور المهاجرة التي لا تعود ؟ هل كانت تعرف تتمة قصة يوسف ؟ قصة هجرته إلى أمريكا، أم هو حدس الأنثى الذي كان يتحدث فيها ؟ حدس الأنثى لا يخطئ. كما أن حلم يوسف لا يخطئ وها هي الرؤيا تتجلى وهاهي الغزالة المذعورة تتألم، تشكو..

كان مسير الجلسة ذكيا بما فيه الكفاية. التقط إشاراتها الأسلوبية وأدرك قوتها الانفعالية لذلك نبه الجمهور أن ما تقوله سناء الآن، بهذه اللهجة الحزينة والنبرة العاطفية، ليس غريبا على كاتبة قصة، لذلك طلب منها أن تجود على الحضور بنماذج منها.. فهي قصص قصيرة جدا لن تأخذ الكثير من وقت الجمهور. صفق الجمهور مرة أخرى..

اضطرب قوامها الجميل الحزين، عدلت جلستها.. رأيت نصفها العلوي وقد انحني جانبيا إلى الأسفل لالتقاط الحقيبة السوداء، فيها زادها من الكتابة والخيال. فتشت بأناملها عن أوراق صغيرة الحجم.. رتبت صفحاتها من جديد وقبل أن تقرأ ما احتوت عليه هذه الأوراق الحزينة، عبرت بصوت أجش عن ارتباكها واضطرابها لأنها لم تكن مستعدة بما فيه الكفاية لهذا الأمر الجلل الذي تخاف منه وتريده في نفس الوقت.

قالت بأن القراءة بالنسبة لها هروب من الحقيقة والكتابة مرادفة للخطيئة. وككل خطيئة، تحس أمامها برغبات متناقضة، من جهة تدفعها الخطيئة إلى التكتم للتستر على الفضيحة ومن جهة أخرى يدفعها الإحساس بالخطيئة إلى الرغبة في التمرد وكشف عورة الخطيئة، يرغبها في تحقيق انتصار، ولو صغير، على الذات المتخاذلة وعلى الآخر الذي يراقبها باستمرار ويكاد يشل حركتها رغم انه غالبا ما يكون سببا في الخطيئة التي نرتكبها...

قرأت سناء بألم ومتعة بعد أن خيم صمت غريب على القاعة:

أبو لهب

أسس أبو لهب جمعية للحمير.. أعادته للبرلمان تحت وابل من التصفيقات. مات وهو يعتقد انه وحده يستحق الدخول الى الجنة.

شعرة معاوية

ما بين اليمين واليسار شعرة معاوية.

ما بين اليسار واليمين شعرة معاوية.

قطع المسافة في ظرف قياسي ونجح في الانتخابات الأخيرة. صفق له الجميع وندم على الدقيقة التي ضيعها مترددا في الوسط.

بروميثيوس المغربي

كان البرد قارسا.

سرق النار من أجلهم.

دعوا له بجهنم.

مات وما كان يظن أن السياسة، في عصر العولمة، يمكن أن تكون بردا وسلاما

مأساة شاعرة

كان الشاعر الجاهلي يقف على الطلل ويتذكر الحبيبة ويتغزل كمقدمة ضرورية للمدح.

أما هي فكانت مقدمتها ثورة وكان موضوعها غزلا، غزل الانثى بالحبيب.

لذلك لم ينشر ديوانها حتى الآن.

مأساة الحب

أحبها فشبهها بالشمس

أحبته فشبهته بالقمر

لم يكونا يدركان معا: لا الشمس يجب أن تدرك القمر ولا القمر يجب أن يدرك الشمس. فسبحان من صير التشبيه حقيقة.

قصة قصيرة جدا

اعتقلت حياتها قي رواية

واعتقل الكاتب الرواية في قنينة زجاج.. تماما كما اعتقلت هي صورتها في مرآة.

انفجرت القنينة وتكسرت المرآة..

في الغد فوجئت بالكاتب يركب الشظايا وينشرها في العمود الخاص بالقصص القصيرة جدا يقرأها المتعبون وهم يلوكون وجبة الماكدونالد السريعة.

....

......

شمس الليل

كان صوتها تاريخا يخفي الكلمات أكثر مما يعلن.. كانت كلماتها المقتضبة شجيرات خريفية، أخفت وراءها غابة مهزومة، غابة محروقة الأصابع، كانت كلماتها ما تبقى من حزن طويل، ما تبقى من صراع مع قوى لا مرئية.

من يرى ؟ من يسمع معي الآن هذا التاريخ ؟. من، من النقاد، يستطيع أن يكسو هذه الكلمات لحما ؟ من يعيد لهذه الأشجار الكلمات أوراقها ؟ من يعرف تفاصيل هذا الحزن ؟ من يخرج العفريت الهائل القابع في قمقم الكلمات التي جمعتها هذه الأنثى الحزينة في هذه القصص القصيرة جدا التي تقطر ألما ودما ؟

لا أحد غيري يعرف خبايا هذه القصص القصيرة جدا. لا أحد يعرف أن خلف هذه القصص، روايات وأن هذه الروايات، ليست خيالية، كما قد يتخيل الجمهور الذي صفق كثيرا لروعة الإبداع، إبداع ما لم يكن..

بكيت داخلي بنشوة وألم، رأيت نفسي عرافا، يعلم وحده تفاصيل القصة الحزينة ولا قدر الله، إذا تجرأت وكشفت للحضور التفاصيل، فإنهم لن يصدقوني. سيتهمونني بالجهل والتطاول والمبالغة والجنون. وحدها سناء تعرف الحقيقة، وحدها قادرة على أن تنصفني.

علي أن أتريث، علي أن أمسك بقلبي وأتحمل وأصبر.. تذكرت نجاة واحتفالها الجنائزي بشلال أوزود، تذكرت الحناء في يديها التي اختصرت قدرا حزينا بكامله.. في هذه اللحظة تساقطت كلمات سناء علي كمياه شلال أوزود. كلمات غاضبة جريحة كنمور منهزمة تنقذف من عال رغما عنها.. اختلطت ملامح نجاة بملامح سناء. في رمشة عين، صارت سناء نجاة وصارت نجاة سناء.

أشرقت الشمس في الليل وأطل الزهر من نبات الصبار واجتاح يوسف أعماقي ؟ ماذا أسمي هذه اللحظة ؟ هل هي الأبدية التي يتحدثون عنها، حيث تحل الأشياء في الأشياء والناس في الحيوانات والحيوانات في الناس والأشخاص في الأشخاص والصور في الصور ؟

يا إلهي أهذه هي الأبدية التي ترفع فيها الحدود عن الزمن والمكان والأشياء والناس ؟ أهذا هو التوالج الأعظم ؟ يا إلهي أعني على الضنى.. كدت أصرخ في القاعة: سناء لي وحدي أفهم ما تقول.. سناء لي وحدي، أتألم وأفرح لكلماتها ؟ وحدي أعرف الحقيقة ؟ وحدي أستحق أن أكون تجليا لحلم يوسف ؟

أنا يوسف وأنت سناء. أعرف قصتك مع الغزالة التي استطاعت أن تهتك سر الخرافة وأنا قادر على أن أدلي بالوثائق لأثبت ادعائي. في خزانتي ميراث حزين يؤكد أن ما قالته سناء حقيقة..

كدت أصرخ. لكن من يصدق صرختي.. من يقدر الألم الجميل الذي طفح به قلبي وسناء تقرأ هذه القصص القصيرة جدا وهي بالنسبة لها روايات كبيرة... كبيرة جدا... أعرف تفاصيلها الحزينة...

قبضت على قلبي بقوة، تماسكت.. أخفيت ارتباكي تحت جلدي وبكيت داخلي وانتظرت، غير أني لم أفارق سناء بنظراتي.. تتبعتها في حركاتها وسكناتها.. وهي تقف شامخة بقوامها الجميل تصافح مجموعة من المعجبين، فيهم الصادقون الذين أصابتهم سهام كلماتها في الصميم، ومنهم الأدعياء الذين يرتبط عندهم الأدب ب "الحضارة" وينتجون يوميا ما لا نهاية لهم من السلوكات ليظهروا للناس وللعالم أنهم حدثيون متحضرون..

أما أنا، فقد أيقظت هذه القصص الحزينة الكائن الدفين في، الكائن المتوحش. صيرتني هذه الكلمات وحيدا في القاعة وفي هذه المدينة العاقة ولم أعد قادرا، في هاته اللحظة، على أن أتكلم مع أي أحد. لم أعد قادرا على التفوه، ولو بكلمة واحدة، للتفريج عن هذه المشاعر التي تجمعت كغصة في قلبي وحلقي..

من يسمع صرختي ؟ أية حضارة هاته قادرة على امتصاص هذا الغضب الجميل الذي طق في أعماقي كشرارة قادرة على أن تشعل النار في داخلي، قادرة على أن تفنيني ؟

تتبعت سناء من بعيد دون أن أنبس ببنت شفة وهي توقع، في عجالة من أمرها، نسخا قليلة من كتاب لها، لم أتبين بعد عنوانه.. توقع لمن سيقرأ ولمن سيقتني النسخة ليضعها في الواجهة الزجاجية ليزين بها وجوده الاجتماعي..

اقتربت من المتحلقين أكثر وأنا أقول في نفسي، هذه النسخ قليلة وهاهي تنسحب من يد سناء واحدة، واحدة. ماذا سيتبقى لي أنا الذي أستحقها.. سناء لا تعرفني الآن، وأنا لا أجرؤ على الكشف عن هويتي. فالأمر جلل وخطير. وعلي أن أتريث..

قبضت على قلبي وأنا أرى الكتاب يستقر بين يدي سناء الناعمتين. قرأت العنوان بسرعة: "أحزان الغزالة" قبل أن تقلب صفحة الغلاف وتوقع في الصفحة البيضاء.. أول توقيع أدركه ببصري.. لم يكن على الورقة وإنما على قلبي. توقيع مرتبك، مضطرب، فيه خوف الغزالة وذعرها، فيه ترقب وتوجس من هذا الذي قد يحدث بين الفينة والأخرى ويقلب الأمور كلها..

كدت أجهش بالبكاء وأنا أرى الغزالة الخائفة، توقع في هدنة صغيرة مع الغابة ولا تدري ماذا ينتظرها.. قارئ يبكي بين يدي كاتبة قصص قصيرة جدا ؟ هذا ما لا تتحمله هذه المؤسسات الأنيقة التي نظمت هذه الندوة. لا يجب أن أفسد عليها هذا الحفل الثقافي الناجح بكل المقاييس والذي ستكتب عنه الصحف والمجلات ولا شك وسيلمع صورة هذا المعهد..

انسحبت وأنا أقبض على قلبي بين يدي حتى لا ينفلت مني.. تقدم مدير المعهد من الكاتبة المحترمة ودعاها ودعا الآخرين بالطبع إلى حفل شاي أقامته المؤسسة على شرفها وعلى شرف المشاركين في الندوة وعلى شرف الحضور الكريم.

انتقل الجميع إلى قاعة فسيحة مجاورة حيث توزعت الموائد المستطيلة على جنبات القاعة.. تقدم ما لذ وطاب من الحلويات والمشروبات.. تفرق المدعوون هنا

وهنالك يتجاذبون أطراف الحديث حول الأدب والثقافة والسياسة ووقائع هذه الجلسة المسائية التي كانت رائعة بكل المقاييس..

أما أنا فقد كنت غريبا في القاعة.. لا أعرف أحدا.. كان علي أن أتصل بصديقي القشيري ليحضر ويستفيد ويرفع عني هذا الحرج الذي أحسه.. إلا أن الكاتب فاجأني بهذا القرار المجنون ليضعني وجها لوجه مع سناء. أكان يعرف حقا بان سناء ستحضر هذه الندوة وأنها ستكون نجمة اللقاء بامتياز، ولم يخبرني بذلك ؟ لقد ورطني الآن في العزلة والارتباك والعشق الكبير لكاتبة قصص لا تدري بوجودي حتى الآن..

وحتى لا ينتبه الآخرون إلى وحدتي وعزلتي، صرت، أنا أيضا، أتنقل في أرجاء القاعة وانتقى من الحلوى قطعة من كعب الغزال وعصير عنب بارد لأتمكن من التغلب على الخجل ولاستمد منه شجاعة روحية، فانا مقبل على أمر خطير.

علي أن أتقرب من سناء أن أتكلم معها، أن أبين لها بأني غريب هنا وما تحملت قساوة هذه الغربة التي فرضتها طقوس شرب الشاي الحضارية إلا من أجلها.. تتبعت الغزالة الواقفة أمامي الآن، الممشوقة القد، ببذلتها البيضاء وحقيبتها السوداء التي لم تفارق يدها.. قوام جميل يوحي بالخفة والدقة..

رأيتها من الخلف تقف إلى جانب الشاعر الذي كان يجلس قربها في المنصة قبل قليل.. يتبادلان أطراف الحديث.. ويا للصدفة.. يا للمفارقة.. يرتدي هو النقيض. يرتدي قميصا وبذلة أسودين وحذاء لامعا أسود. يبدو من هيئته انه قد تجاوز الستين قليلا، حليق الذقن. يبدو وسيما ولم تزده السنون إلا أناقة ووسامة.. لا زال قادرا على إثارة الإناث، على الإيقاع بهن في حبائل استعاراته ومجازاته الفاتنة. لا زال قادرا على الإغراء..

ترى عن أي شيء يتحدث لها الآن.. كان هو يتكلم معظم الوقت وكانت هي تصغي، تبدي الاهتمام وتتفهم الأفكار التي تراود شاعرنا هذا.. إلهي كيف أبعده عنها ؟

كيف أقنعه أن سناء لي وحدي اليوم ؟ ساقها القدر إلي لنؤسس معا حدثا شعريا أو روائيا استثنائيا.. وحدي القادر على الربط بين الماضي والحاضر وحدي القادر على جمع شتات، الأمل والحزن في قصة سناء التي لا يعرفها. الرواية قادرة على احتضان الشعر، قادرة على إيواء مجازات الفتنة ومقالب التشبيه. لا أظن أنها ستدخل معه الآن إلى رواية.. هو طارئ، عابر وأنا المقيم. أنا من سيقيم معها في الرواية. أنا لا أظن أنها ستحكي له قصتها من ألفها إلى يائها في مثل هذا اللقاء الثقافي الرسمي الأول بينهما. ومن يدري أنه اللقاء الأول بينهما ؟ ومن يدري أنه سيكون اللقاء الأخير ؟

خطرت ببالي فكرة جهنمية، تمكنني من الدخول إلى العالم المغلق الذي يجمع بين شاعر وبين كاتبة قصص قصيرة جدا.. أردت أن أكون الطرف الثالث في المعادلة، أن أكون القارئ المحتمل للقصة والشعر. تمنيت لو كنت قرأت قصيدة من قصائد هذا الشاعر ذي اللباس الأسود لأفاتحه في كلماتها ومعانيها على الأقل حتى لا يظن أنني مجرد طفيلي دخيل يحشر نفسه فيما لا يعنيه.. لكن لا قصيدة تحضرني الآن.. وجهه ليس غريبا علي.. متى رأيته.. أين رأيته ؟

لا أعرف. ما أعرفه أن حضور سناء كان طاغيا يغطي على ما سواه.. آه تذكرت.. انه الشاعر السجين، من أحفاد أبي فراس الحمداني العصي الدمع.. تذكرت.. سبق له أن أصدر مجلة أنفاس مع باقي رفقائه الذين عرفهم في السجن.. أنفاس التي فتحت باب الزنزانة قليلا ليتسرب هواء خفيف ونسيم عليل، يلطف من عفونة السجن والأسر..

آه.. وجدتها.. كان شاعرنا معتقلا سابقا من سجناء الرأي من مناضلي مارس.. مارس، إله الحرب، الذي أساء إلى مواهبهم الشعرية.. بدلا من أن يهديهم وردة من وروده الحمراء، أعلن عليهم الحرب لأنهم أساءوا الحب للوطن.. أحبوا الوطن بطريقة خاطئة.. أحبوا الوطن أكثر مما ينبغي.. تجرأوا على الآلهة وادعوا حقهم في الحب والجمال والثروة التي يزخر بها الوطن.

ألهذا السبب يصر على ارتداء الأسود في هذا الفصل الخريفي.. أهو رسالة إلى العالم، إلى الوطن.. انه لن ينسى أبدا الحزن الأسود الذي ذاق طعمه المر في زنزانة الوطن.. لا شك أن الكاتب يعرفه أو ربما قد يكون صديقه في اتحاد كتاب المغرب.. لكن كيف سأتدخل كعنصر غريب في هذا الجو الحميمي بين شاعر مناضل لا يعرفني وبين سناء التي لم يسبق لها أن رأتني..؟

أنا أعرف وهم لا يعرفون.. فكرت في قضية مشتركة بيننا جميعا لها علاقة بالندوة وتهم التواصل الحزين بين الوطن وبين أبنائه.. فكرت في أن أسأله: لماذا يبعد الوطن عشاقه الذين يحبونه، المتيمون به حد الفناء ويقرب منه الوصوليين والانتهازيين الذين اختصروا الوطن في حفنة من المناسبات، يتزينون فيها ويلقون خطبا عصماء، يمجدون فيها التاريخ على طريقتهم الخاصة ويلعنون المتمردين والساعين إلى بث الفتنة بين ربوعه الخالدة وبين أناسه الطيبين الذين يملأون صناديق الاقتراع بألوان لا يعرفونها وأوراق لا يحسنون قراءتها ؟

فكرت في أن أخبره بقصة أبي الذي اعتقله حماة الوطن ما يزيد على ثمانية عشر عاما وأن أقول له بأنه ليس وحده من عانى من اضطهاد الدولة مع الإشارة بطبيعة الحال إلى الفرق بينهما وأن أقول له: أنت معتقل سابق محظوظ تنتمي إلى الثقافة والسياسة.. وقد مكنك الشعر من حفظ ماء الوجه ومن التعبير عن معاناتك الإنسانية.. وما استدعاؤك اليوم لهذه الندوة إلا دليل على ندم الدولة وعلى رغبتها في طي صفحة الماضي، أما أبي فلا يعرف شيئا عن الثقافة ولا عن السياسة.. لا يقرأ ولا يكتب.. أصيب، كما أصبت، بطعنة الوطن القاسية، فاعتقلوه فخرج من السجن.. أفرجوا عن جسده ولم يفرجوا عن لسانه.. ترك لسانه بين القضبان.. أو قل حمل السجن بين أسنانه، في لسانه.. لذلك لم يركب ولو جملة واحدة منذ خروجه من السجن غير الشريف. هل تعرف بأن الدولة أساءت إليه أكثر ؟ هل يعرف الشعراء أن الوطن قتل فيه

كل القصائد التي كان بإمكانه أن يقولها ؟ هل يعرف الشعر نفسه أن أبي ليس محظوظا بما فيه الكفاية ؟

اقتربت منهما. كانا منهمكين في الحديث.. صوبت نظري هذه المرة إلى سناء لتعرف أن ثمة شخصا يستحق أن تنتبه إليه، أن تجود عليه بالتفاتة... كان وجهها مشرقا جميلا رائعا.. عينان متسعتان اتساع الكون.. أنف رفيع، كبرياء وحزن.. جبهة بيضاء ناصعة.. هلالان يظلان العينين السودوين..

فوجئت بالشاعر يعتذر لسناء، يودعها.. يتمنى أن يلقاها في فرصة قادمة.. ابتسم إلي في أدب واحترام وغادر وتركني فجأة وجها لوجه لأول مرة مع الغزالة الخرافية.. لم تفزع ولم توجل.. حافظت على وقفتها الشامخة.. نظرت إلي بعينيها الحزينتين الكحيلتين..

استبد بي شعور غريب.. هذه الأنثى أعرفها.. ملامحها ليست غريبة علي.. هل رأيتها في حلم ؟ هل هي بقايا مترسبة من حكايات يوسف عنها ؟. هل هي أطياف حلم يقظة لأنثى مشتقة من نجاة التي أحدثت ثورة وجدانية في داخلي منذ رأيتها ذلك اليوم الرائع في شلالات أوزود ؟ أين الأصل وأين الفرع ؟ وأين أنا مما يقع ؟ من أكون وسط هذه الأحداث الجمالية التي تفاجئني وتقلب موازين حياتي ؟ بأي صفة سأكلمها ؟ كيف أكبح هذه المشاعر المتلاطمة داخلي كأمواج بحر تحركها رياح وتيارات مجهولة، لا أدري من أي مصدر تهب ؟

حضورها قوي ملأ كل كياني.. اجتاحتني في الصميم.. وها أنا استسلم كمادة خام بين يديها.. أترك لها نفسي لتصنع منها ما تشاء.

– مساء الخير سيدتي..

ردت بصوت دافئ واثق من نفسه:

– مساء الخير..

خفتت ابتسامتها شيئا ما واكتسحت الدهشة ملامحها وهي تحدق في بعينين جريئتين.. أحسست مع نظرتها أن ما تبقى من قلاع المقاومة تحطم.. بهتت .. سقط كل كياني عند قدميها. التقطت أنفاسي وحاولت أن أشد عضد جسمي ليتحمل وقع هذا الحدث الجمالي، الكوني، الرائع. التقطت ما تبقى مني لأنتعش وأقوى على التعبير..

التعبير عن ماذا..؟ من أين سأبدأ..؟ أي كلمة سحرية تمهد لي الطريق إلى قلب هذه الأنثى الهاربة من حلم، لا ادري متى رأيته ولا أين ؟ أي كلمة تحفظ اللقاء وتديم الاتصال يا سيدة الاتصال ؟ تسارعت دقات قلبي.. كيف أخاطب هذه الأنثى الكونية، بأي المفردات ؟ بأي الإشارات ؟ بأي ذكرى من الذكريات يا سيدة الذكريات..؟

يا إلهي، قوني على التحنين، فأنا أقف اليوم، على خلاف الشعراء القدامى، على طلل حي.. وحدي أقف أمام الحبيبة التي أرقت يوسف وزلزلت كيانه وشكلت حياته بأساطيرها التي لا تنقضي ؟

ها هي الأسطورة واقفة اليوم أمامي، تماما، كما حكى لي يوسف. ها هي ذي واقفة في شموخ حزين، تشهد على أن النجوم تنزل إلى الأرض مرة، مرة، لتغذية الإيمان بهذه الأسطورة حتى لا تموت.

عندما بسطت لها يدي المضطربة للمصافحة، سرى دفء عجيب من كفها وأناملها إلى يدي. من هذا الدفء، استمددت بعض الزاد لأصل إليها، بعد الصمت الذي خيم في غير موضعه.. تلعثمت وقلت متكلفا رباطة الجأش:

– اعتذر، السيدة سناء الرمادي، على الإزعاج.. لقد انتظرت طويلا لأتحدث إليك على انفراد

اتسعت عيناها وهي تقول مستغربة:

– على انفراد ؟ خيرا، إن شاء الله. أيعقل أن نبدأ حديثنا بالانفراد والأسرار وأنا لم أتعرف عليك بعد ؟

– أنا أعرفك جيدا رغم أنني لأول مرة أراك وجها لوجه ؟

– العفو ولكن أنا لا أعرفك.. اسمح لي.. قل لي أولا من أنت ؟

– أنا إدريس كرمي

– تشرفت بمعرفتك ولكن...

– لا يكفي الاسم وحده ليتحقق التواصل يا سيدة التواصل ؟

ضحكت وهي تقول:

– بالضبط يا سيد التواصل.

– في مثل هذا الموقف أعجز على أن اختصر نفسي في كلمات دقيقة وواضحة. لكن يمكن لي أن أقول لك بأنني، أنا شخصيا، تعرفت عليك عميقا من خلال اسمك، ومن خلال القصص القصيرة جدا التي قرأتها.. أستطيع أن أقول باني أنا وحدي من يدري حقيقة ما قرأته لا أحد في القاعة قادر على معرفة تفاصيل الرواية التي تهشمت وصارت قصصا قصيرة..

– يسرني ذلك. لكن لست وحدك من يقول ذلك، لست وحدك من يدعي ذلك.

ضحكت وهي تتفحصني بعينيها الكحيلتين، فيهما بريق غريب يقع بين الشك واليقين. واستأنفت كلامها:

– كل النقاد يحلمون بامتلاك نص المؤلف عندما يدعون أنهم، وحدهم، يعرفون المعنى الممكن للعمل الأدبي، بل يذهبون إلى أنهم يعرفون ذلك وأنهم أحق

بالعمل أكثر من المؤلف ذاته لان هذا الأخير يروي الأشياء حسب عواهنها بسذاجة لا تمكنه من معرفة حقيقة ما يكتب.

– عفوا، سيدتي، أنا لست ناقدا

– إن لم تكن كذلك، فأنت قارئ ذكي، يمكنه بين الفينة والأخرى أن يتحول إلى ناقد. وادعاؤك هذا علامة على ذلك. يعجبني ذلك وأشجعك وأتمنى أن تجد في قصصي ما يمتعك وما يغذي ادعاءك الجميل هذا.

انتبهنا ونحن نسير إلى أن القاعة فرغت تماما من المدعويين، من النقاد والقراء المحتملين. فمشينا بخطو سريع نحو البوابة الرئيسية. يجب ألا تفوتني هذه الفرصة يجب أن أستغلها قبل أن يطرأ طارئ يضع حدا لهذا التواصل بيني وبينها، تواصل يمكن أن ينقطع في أية لحظة ويصبح مجرد لقاء عابر بين كاتبة وقارئ معجب، يركب رأسه ويحلم باكتشاف المعنى الحقيقي لأعمال الكاتب.

وقفنا معا إلى جانب سيارة رمادية، يبدو أنها سيارتها. بدت متعجلة. فقلت لها:

– سناء.. أنا لست ناقدا ولا قارئا.. تعرفين أنا لم أحصل حتى على نسخة من نسخ قصصك التي وقعتها أمام عيني للقراء والنقاد المحتملين.. ولسوء الحظ لم أحظ بشرف هذا التوقيع ولم أحصل على نسختي كما حصل عليها الآخرون. يبدو أني لست محظوظا..

– العفو.. لم أحمل معي نسخا كثيرة ولم يكن في نيتي أن أوقع. حملت بعض هذه النسخ فقط للأصدقاء الذين يمكن أن أتعرف عليهم في هذه الندوة. فكما تعلم لم يكن في نيتي أن أقرأ القصص ولا أن أوقعها... فالحدث قبل كل شيء هو ندوة لا غير... ولم أكن أنا سوى متدخلة من بين المتدخلين الذين ساهموا في هذه الندوة التي كانت رائعة والتي لم أتوقع أن تكون كذلك...

أنا متأسفة... ولكن أعدك أن تكون النسخة بين يديك في أقرب وقت، إذا كنت مصرا على قراءتها..

كانت كلماتها بردا وسلاما.. يمكنني إذن أن ألتقي بها مرة أخرى. يمكن لخيط التواصل أن يستمر.. فرحت في داخلي لهذا القدر الجميل الذي صنعته كلمات ليست كالكلمات... نسخة... توقيع... كلمات كان من الممكن أن تكون عامة تقال في مثل هذه المناسبات ثم يحدث الطلاق الثلاث بين الكاتب والقارئ. ولإثارة حماسها أكثر وتقوية دواعي اللقاء، قلت لها بنبرة مؤكدة:

– ثقي يا سناء أني وحدي استحق هذه النسخة..

– اسمح لي لا تكن أنانيا إلى مثل هذه الدرجة.

– عفوا إن أخطأت التعبير.. أريد أن أقول يجب أن أكون أول من يحصل على هذه النسخة.

فكرت في يوسف واستطردت:

– أو قولي، ان شئت، الشخص الثاني الذي يستحق الحصول على هذه النسخة..

انقبضت ملامحها وارتسم على وجهها غموض جميل، ملائكي، حيرة أميرة ترى وجهها لأول مرة في المرآة.

– تتكلم بطريقة غريبة وملغزة. يبدو أن في الأمر سر لم أصل إليه حتى الآن. يبدو أنك أكثر من اسم عابر.. أكثر من أي شخص يمكن أن يكون اسمه ادريس كرمي... لست ناقدا ولا قارئا فمن تكون إذن ؟

– القصة طويلة جدا ويصعب علي أن أجيب الآن.. يبدو انك متعجلة... لا وقت لديك الآن لسماع تفاصيل الرواية..

– متى إذن ؟

– أترك لك أن تحددي الزمن المناسب.. ولكن لأؤكد لك أن المسألة لا تتعلق بقارئ معجب عابر أقول لك.. أنا لست قارئا ولا ناقدا.

– من تكون إذن ؟

– أنا شاهد.

– شاهد على ماذا ؟

– لن أقول الآن قبل أن أحصل على نسختي لتنصفي شاهدا معنيا بكتابك..

– طيب ما دمت مصرا على الانتقام مني بهذه الطريقة الأدبية الرائعة، ردا فيما يبدو على عدم إنصافك، يمكنك أن تتصل بي على هذا الرقم.... 077117721 إذا، غدا مساء بعد الرابعة. سأكون في انتظارك. لقد حيرتني بألغازك.. تبدو لي كشخصية هاربة من إحدى الروايات، تتحدى وقادر على أن تتحدى كبار المؤلفين بطريقتك الملغزة والمشوقة وحبكتك السينمائية. فكيف أقاومك..؟ أنا رهن إشارتك، يا عزيزي ادريس.. فلا تتأخر عني.. ولكن حتى لا أدعك تنفلت من بين أصابعي، قبل أن تخبرني بحقيقة هذا اللغز الذي أشعلت ناره بداخلي.. أكيد، أنا لن أنام الليلة.. أعطني من فضلك رقم هاتفك لأتصل بك.. إن كان الأمر ممكنا ؟ هل يمكن أن اتصل بك متى أمكنني ذلك ؟

– بالطبع في أي وقت. فانا أحرص منك على الاتصال. هذا اليوم لن أنساه أبدا، فهو توثيق حقيقي لما سبق أن سمعته عنك من أقرب الناس إليك.. بل قولي من أحب الناس إليك....

ركبت رقمها في هاتفي المحمول فرن وأخرجت محمولها من حقيبتها السوداء وتفحصته وقلت لها:

– هذا هو رقمي بين يديك. سأكون مسرورا، متشوقا في أن أسمع رنة هاتفك في أقرب وقت. سأحدد له رنة تميزه ونغمة حالمة تليق بصاحبة الرقم. ابتسمت.. ابتسامة ذات معنى فتحت أمامي الأفق للسفر إلى عالم آخر.

وقبل أن تودعني وتلتحق بالسيارة الرمادية التي تنتظرها والتي يوجد بها أشخاص لم أتجرأ على تفرس ملامحهم..، ناولتني بطاقة الزيارة التي تحتوي على اسمها ومهنتها وعنوان سكناها. شكرتها وانسحبت مني وتابعت طريقي بعد أن انطلقت السيارة الرمادية في الاتجاه المعاكس.

سرت في الشارع الطويل على قدمين من خيال، لم أفكر في أن أرفع يدي لاستقل سيارة أجرة رغم أن الوقت كان متأخرا. سرت شارد الذهن أخطو في عالم آخر بين الواقع والخيال، لم أصدق أن القدر صاغ هذه الصدفة الجميلة بهذا الإتقان وهذه الروعة وهذا الجمال. أحسست وكأن تواطؤا بين الكاتب والقدر حدث دون علمي.

فكرت في أن أتصل بالكاتب لأخبره بالمفاجأة والتي لم يكن ينتظرها. بدون شك، كان سيدفع بالرواية في اتجاه آخر، لا يعرفه إلا هو. يريد ربما نقل الحدث والانطباع الذي خلفه في نفسه والأزمة التي ترتبط به والتي تتعلق بغياب التواصل بين مكونات المجتمع المغربي والذي تراكم إلى أن استحال إلى انفجار قصف في دقيقة أفكارا وهمية جاهزة يعتقدها كثير من أعيان البلد.

أكيد لم يكن يخطر بباله هذا الانفجار الوجداني الذي أحدثه في نفسي. أكيد انه لم يكن يتوقع أن تظهر سناء بين أنقاض الفرح الذي تناثر أشلاء حزينة هنا وهنالك في مساء ذلك اليوم الأسود...

لم يكن يخطر ببال الكاتب أن تنبعث سناء من رماد الانفجار، كما ينبعث طائر الفينيق من رماد الحريق. ما كان الكاتب يتوقع أن تظهر سناء في هذه الأجواء الملتبسة الملغزة.. أجواء ملغومة، لم تتخلص بعد من تداعيات انفجار 16 ماي.. صار

الناس علامات استفهام، تسير في الطريق، يلفها الغموض والريبة والشك. يمكن لأي علامة استفهام أن تكون قنبلة أو ضحية في أي وقت، في أي مكان..

صارت علامة الاستفهام تبيع وتشتري في الأسواق، ترتاد الفنادق، تركب الحافلات.. تلبس أقنعة مجهولة وتغيرها باستمرار.. تدخل أحياء الفرح وأحياء الإيمان، تتلبس بالفقر والثراء، في الوضوء وفي الصلاة، في الخطب العصماء، في خطوط الهاتف وعبر شبكات الانترنيت، في الخبز، في الهواء...

لا يمكن للرواية، حسب الكاتب، أن تتجاهل علامات الاستفهام التي تترصد كلامنا صباح مساء.. بل ذهب إلى أكثر من ذلك، عندما انشغل بالبحث عن الخيوط غير المرئية التي يمكن أن تربط بين صمت أبي ودوي الانفجار الهائل... ألا يمكن للصمت الذي زاد عن حده أن ينقلب إلى ضده...؟ كان يرى في صمت أبي أكثر من علامة..

تساءل الكاتب وهو يقنعني بضرورة الحضور لمتابعة ندوة التواصل، ألا يمكن أن يكون هذا الحدث أول انفجار لصمت أبي الذي لم تستوعبه شعارات طي صفحة الماضي ؟ قال بأنه غير مطمئن للخطابات المتخشبة التي تهرب إلى الأمام والتي تردد أن هذه الأحداث غريبة عن الجسم المغربي وأنها لن تكون سوى سحابات صيف، ستتفرق من تلقاء ذاتها في سماء هذا الوطن الذي لا تسقط فيه الأمطار صيفا...

لم يكن الكاتب يتوقع ظهور سناء في مثل هذه الظروف.. ولما أخبرته بذلك، صعقته المفاجأة، جحظت عيناه، ولمع البريق في عينيه. طلب مني أن احكي له عن جميع تفاصيلها، عن ملامحها، هل لا زالت هي هي.

قلت له، كيف لي أن أعرف ذلك، ولم يسبق لي أن رأيتها. سألني كيف اهتديت إليها ؟ ألا يمكن أن تلتبس بغيرها، فالأسماء تتشابه... قلت له، لا يمكن للأرواح أن تتشابه.

سألني، كيف لي أن أتعرف على روحها ولم يسبق لي أن التقيت بها.. فذكرته بصفحات الرواية الأولى، ربما يكون قد نسيها. ذكرته بالملف البنفسجي الذي سلمه لي يوسف قبل هجرته إلى أمريكا.. قلت له بأني تعرفت على سناء من صوتها، من اسمها ومن القصص القصيرة جدا التي قرأتها في نهاية الندوة..

قال لي بأنه لم يكن على علم بذلك.. وكل ما كان يعرفه أنها سافرت إلى اسبانيا وأنها كانت تقيم هنالك بصفة دائمة ولم يسبق لها أن عادت إلى البلد ولو مرة واحدة.. قلت له باني أجريت معها حوارا قصيرا بعد انتهاء الندوة ولم يسمح الوقت بان أكشف لها عن هويتي ولا عن علاقتي بك ولا عن علاقتي بيوسف..

فرح الكاتب وتهللت أساريره. ابتلع ريقه وسألني إن كانت أمدتني بعنوانها وهاتفها للاتصال بها وقلت نعم ورتبت معها لقاء غدا. هتف بصوت عال وهو يعانقني: أنت رائع يا إدريس.. أنت رائع ومحظوظ. محظوظ لأن القدر هيأ لك فرصة اللقاء بسناء.. فرصة لم تتح لا ليوسف ولا لي. لو كنت أعلم بنية القدر الذي كان يرتب الأحداث بشكل فاق كل توقعاتي، لحضرت بنفسي إلى هذه الندوة. فقلت وأنا اضحك: بدون شك، ستذهب إلى ندوتك بمفردك وترتب الأحداث على مقاسك.. لا تنس أنني أصبحت متورطا في قصة سناء ويوسف والتي تعرف خيوطها الرفيعة أكثر مني.

استغربت كيف يمكن لشخصية ورقية أن تحقق انتصارا أسطوريا في الرواية أكثر من الكاتب نفسه.. قلت له بأني كدت أن أصرخ في القاعة وأنا اسمع سناء تقرأ قصصها القصيرة جدا... إلا أنني حافظت على اللباقة الأدبية التي يجب أن تميز شخصية روائية، تعاقد معها الكاتب للتعبير عن غير المتوقع.. للتعبير عما يحدث عادة داخل كل واحد منا ولا نستطيع أن نقوله، إما لأنه ليس واضحا بما فيه الكفاية أو لأن المواضعات الاجتماعية لا تقبل به..

قال لي الكاتب أن هذه الصرخات كثيرا ما تفاجئه هو أيضا في مقامات لم يكن ينتظرها... في هذه اللحظات والمواقف يتمنى أن يكون حرا طليقا بمعنى الكلمة.. يصير بمقدوره أن يستجيب لهذه الصرخات، كما يستجيب لمختلف الرغبات البيولوجية والنفسية والميتافزيقية. أليست الصرخة رغبة ميتافزيقية للإعلان عن وجودنا الذي يتعرض للشك بين الفينة والأخرى نتيجة للضغوط والإرغامات الاجتماعية... إنها صرخة الرأس المقطوعة.. صرخة الحرية التي لا تتحقق إلا في الشعر أو الجنون.. صرخة لا تبالي بالجسد ولا بشروطه..

قلت له إن سناء الرمادي حقيقة. رأيتها بلحمها ودمها. رايتها بأم عيني، تصل ماانفك من شظايا الوجود، تصل بخيالها الوقاد وذكائها الأنثوي بين الماضي والحاضر، تصل في جمل ملتبسة بين رموز تتسكع في الماضي وأخرى في الحاضر، لا أحد يعرف عنها شيئا. كان يوسف حاضرا في صوتها.. لم تبله السنون.. لا زال طريا في استعاراتها وكناياتها... عشرون عاما ولم يمت يوسف لا في صوتها ولا في روحها.. صحيح لم تذكره بالاسم ولم تكشف عن هويته بالعين لكنه حاضر من خلال رمز الغزالة التي ظل يطاردها بالحلم والشعر.. كان يوسف حاضرا في القصص القصيرة جدا والتي لم تكن سوى بقايا متناثرة من رواية ولم تكن الرواية نفسها غير بقايا حياة لا يمكن أن تعلن عن نفسها مباشرة.

أعجب الكاتب وتحمس لما قلت بطريقة ملفتة، تكشف أنه متورط، هو نفسه، في عشق سناء.. أرهف السمع بشكل غريب.. صار معنيا كشخص من لحم ودم بما يحدث في الرواية.. قلت في نفسي لا يمكن للكاتب الذي يتقدم غالبا إلى القراء من وراء حجاب بوجهه الصارم أن يبقى كذلك.. لا يمكنه أن يصمد إلى ما لا نهاية. لا بد ان ينكشف وجوده الهش.

وقد تأكد لي ذلك، لما أبدى رغبته الملحة في لقاء سناء بنفسه.. وأنه ندم على عدم مصاحبتي للندوة.. تحمس للقائها لما أخبرته بأني حصلت على رقم هاتفها

وبطاقة زيارتها.. وفغر فاه وكاد يخرج من نفسه، لما تأكد بأني رتبت معها لقاء قريبا.. وأني سأخلو بها لأكشف لها عن اللغز الذي يربط بين ماضيها وحاضرها وأميط اللثام عن هويتي كشاهد في القضية، يعرف ما لا يعرف أحد من الجمهور الذي حضر الندوة..

ابتلع الكاتب ريقه وسافر بخياله إلى ماض بعيد.. عاد بذاكرته إلى ما قبل عشرين سنة خلت.. شرد وتاه في غيابات الماضي. كان به جوع وعطش للذكرى وحنين ممض للصبا.. إلى زمن تشكل الرغبات الأولى وتفتق الرغبات البكر في الوجدان...

أسر إلي أنه لم ينس يوما سناء. كان يبحث عنها في وجه كل أنثى يصادفها. يرحل ويسافر إلى كل مكان يحتمل أن تظهر فيه. سافر مرارا إلى القصبة وإلى القرى الجبلية المجاورة، بحثا عن أثر لها. كان يتوقع كل يوم أن يباغتها أو تباغته في مكان ما، في زمن ما..

جرب جميع الاحتمالات لكن، للأسف، القدر لا يمكن أن يسير وفق مزاجنا. القدر يرتب الأحداث دائما على عكس توقعاتنا. كان يستعيد كل مروياتها، كل كلامها، لعله يعثر على إشارة يمكن أن تسعفه ليصل الحاضر بالماضي.

سافر مرارا وتكرارا إلى المدينة التي شهدت ميلاد حبهما ورعته ونمته وغذته بالذكريات التي لا زالت تعذبه حتى الآن. بحث عنها في الشوارع والساحات والمكتبات التي شهدت لقاءاتهما ولم يعثر لها على اثر. تعجب كيف تنكرت له تلك الأمكنة وكأنه لم يمر منها.

أحس بألم الغربة يجتاح أعماقه.. بل أحس بالإهانة تحطم كبرياءه. وكان يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يحضر وحيدا إلى هاته الأمكنة دون رفيق ولا مؤنس..؟ ولماذا يحس بهذا الوجع وحده ؟ ولماذا لم يخطر ببال الحبيبة أن تجرب عشق هذه الأمكنة بنفس الطريقة ؟ لماذا لم تفكر في الوقوف على هذه الأطلال، ولو مرة واحدة

في حياتها ؟ لماذا تنكرت لشعاراتها، لمبادئها ؟ لماذا خانت الماضي بهذه الطريقة الفجة..؟

هل كانت تخاف من مواجهة هذه الأمكنة بمفردها ؟ هل أحست هي أيضا بالإهانة تعصر قلبها وهي تقف كأنثى تسترجع عشقا أسطوريا، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعود ؟

لماذا لم يحدث ولو تقاطع واحد بينه وبينها طوال عشرين سنة ؟ ماذا وقع لقلب هذه الأنثى التي تنكرت للماضي ؟ هل هو حقد على المكان وعلى صاحبه ؟ هل هو استسلام لواقع جديد، لم تكن تملك معه القدرة على مواجهة ذكرياتها ولا مواجهة ذاتها في مجتمع لا يقبل من الأنثى أن تستمر في الحب أكثر من سنة أو سنتين ؟

هل عمر العشق في هذا الوطن قصير إلى هذه الدرجة ؟ ألا تعرف، كما ذهبت إلى ذلك أحلام مستغنمي في إحدى رواياتها، أن تخليد الأنثى لعشقها، مقاومة وأن صمودها على جبهة الذكريات ثورة ؟

أين قصائدها الطللية ؟ أين معلقاتها التي سقطت من كل الأسوار، من كل الرفوف، من كل الكتب، من كل الدفاتر، ولم تبق عالقة إلا في قلب يوسف الذي صدق الثورات الكبيرة التي كانت تتحمس لها سناء والتي كانت تكتب عنها ؟

كان يوسف يتكلم من داخل الكاتب.. كان الكاتب منفعلا.. كان ثائرا.. كان غاضبا حد العشق وكان عاشقا حد الغضب ؟. امتزجا في هاته اللحظة أمامي حتى صار من الصعب الفصل بينهما.. كان الكاتب متورطا في عشق أسطوري لا مثيل له، كان سيقوده، لا محالة، إلى الجنون..

أن يعمر هدا الحب في قلب يوسف أو في قلب الكاتب عشرين سنة كان سيؤدي ولا شك إما إلى جنون أو إلى رواية. صار قاب قوسين من الجنون بليلى، صار قاب قوسين من تيه جميل في صحاري الجزيرة وهو يذكر بثينة أينما حل وارتحل.

اختار الكاتب الرواية كمكان أخير يمكنه أن يستوعب ما حل بقلبه الذي لم يشف.. الرواية هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يدجن فيه مشاعر الجنون التي يمكن أن تفتك بصاحبها لا قدر الله... في الرواية يمكن الحديث عن المتناقضات.. فيها، كما في الجنون، يسمح لنا بالذهاب من النقيض إلى النقيض.. في الرواية يمكن أن نعثر على المنطقة الملتبسة بين الحقيقة والخيال. فيها يمكن لحلم اليقظة أن يحول السيرة الذاتية إلى وهم جميل والحقيقة إلى أكذوبة رائعة يختلط فيها الحب بالسياسة.

كان الكاتب جريئا واختار المواجهة مع ماضيه، على عكس يوسف الذي سلم إرادته للقدر وترك حرية الاختيار للقرعة التي أنصفته. سافر إلى أمريكا معتقدا، ربما، أن الحب ممكن هنالك، معتقدا أن الحب يجد طريقه إلى السياسة والسياسة تجد طريقها إلى الحب، معتقدا أن المسافة بين الرغبة والفعل قصيرة جدا..

لم يقبل على الرحيل إلا بعد أن تأكد أن الحب في البلد لا يثمر، تأكد أن الهوة سحيقة جدا بين رغباتنا وأفعالنا.. ننتج يوميا مئات السلوكات والأفعال التي نكررها إلى ما لا نهاية دون أن تربطنا بها أية صلة..

أين نحن من رغباتنا ؟ أين نحن من أفعالنا ؟ لماذا نخون وجودنا باستمرار ؟ إلى متى نستمر في العيش فوق هذه الأرض بدون حب ؟

لم يعد يوسف يتحمل هذه الإزدواجية أو ما كان يسميه بالتمزق الوجودي أو ما يمكن أن نسميه بالنفاق الاجتماعي الذي سيطر على كل وجوه حياتنا في علاقاتنا الاجتماعية في الشارع، في المدرسة، في الدين، في السياسة، في الحب الذي لم يعد حبا، الحب الذي علب في قوالب اجتماعية وطقوس وأعراف لا تمت بصلة إلى أعماقنا..

على أي، فقد اختار يوسف الهجرة واختار الكاتب الرواية واخترت أنا مواجهة سناء بكل هذه الهزائم التي تحدثت عنها.. لا أدري هل القدر الذي اختارني لهذه المهمة بحكم الإرث الثقيل الذي أنوء به.. خلقت من نطفة أبي الحزينة.. خلقت من

صمت عمر طويلا في قلب أبي ولا أدري إن كان هذا الصمت خياره الأبدي أم ضرورة قصوى لم يكن يملك غيرها...؟

لم يكن أبي قادرا لا على التعبير ولا على الهجرة.. ولم يكن بوسع ثرثرة أمي أن تستوعب حب أبي القاسي للوطن.. كان حب الوطن أكبر. لم يتحمل أن يراه ينتهك يوميا عبر وسائل الإعلام وكلام الناس بجمل مثقلة بالخيانة حتى النخاع. لم يكن قادرا على طي صفحة الماضي بمثل هذه السهولة التي يطبل لها دعاة التعلق بالكراسي التي تحكم ولا تحكم..

كان علي أن أذهب إلى لقاء سناء وحيدا لأعرف الحقيقة.. طلبت من الكاتب أن يتركني لحالي وأن يفسح لي المجال لأقوم بهذا الدور الذي اختارني القدر إليه ولم أسع إليه وإنما وجدت نفسي فجأة أمام الأنثى التي دوخت عقول وقلوب كثير من المعجبين خصوصا هؤلاء المرضى بذكريات الماضي الذي لا يمكن أن نحبسه بين دفتي كتاب ولا يمكن طي صفحاته بجرة قلم..

أقنعت الكاتب بذلك وقلت له بان له حسابات مع سناء.. فهو متواطئ، متورط حتى النخاع، بل مريض أيضا.. بحبها ولا يمكنه أن يحتفظ بالمسافة الضرورية بين سيرة حياته الخاصة وبين الرواية التي يجب أن تتسع لجنون القراء المحتملين.. ان كان في البلد من لا زال يعشق قراءة الروايات.

أقنعت الكاتب أن يتركني لحالي ويسافر غدا إلى مدينة شفشاون من أجل المساهمة في الندوة التي سينظمها اتحاد كتاب المغرب في موضوع "الرواية المغربية بين التاريخ والتجريب". هذه الندوة ستكون بدون شك فرصة للتعريف بهذه التجربة التي خضناها معا لأول مرة والتي تميزت بالتعاون والتنسيق التام بين المؤلف والراوي. ولا ندري إلى أي حد تعتبر تجربة صادقة، تعكس عمق السفر في الروح والأدب. هل هي تجربة أم هي مجرد تجريب للموديلات المعروضة في سوق الحداثة.

كنت انتظر على أحر من الجمر أن تهاتفني سناء في أية لحظة.. أنتظر اللحظة الحارقة التي سأنوجد بها من جديد، سأنبعث من الرماد، من الأنقاض، من بقايا ذكريات يريد الكاتب أن يقتلها بالكتابة ويرحل يوسف بعيدا عنها بعد أن أنهكه، هده، تعب الانتظار..

أردت أن أبادر لمكالمتها.. لكن كبرياء من نوع غامض يصدني.. أو قل خوف من هول اللقاء الذي ما كان من الممكن أن يتحقق، لولا القدر الذي ساقها إلى طريقي.

كنت أتساءل طوال لحظات الانتظار: كيف يمكن لكائن حبري مثلي أن يقوى على الوجود ويحقق ما لا تحققه الكائنات الآدمية.. إنها فرصتي لأثبت وجودي والوجود بالنسبة لي لا يقاس إلا بالإرادة. لا لحم ولا دم ولا وثائق رسمية للميلاد والحياة.. كلها باطلة أمام الوجود الحقيقي، وجود الإرادة الذي يجري المداد في عروقي..

صمت أبي يحرقني من الداخل، يعذبني فيولد في عروقي تحديا غريبا.. تاريخ من الصمت الجريح، يصرخ في داخلي.. ينادي بأعلى صوته أن الحدث الموعود دق الباب.. أريد أن لا أضيع هذه الفرصة، هذه اللحظة الأبدية التي ستكون ميلادي الثاني أو الثالث.. نحن نولد خلال حياتنا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات.. وربما لا قدر الله قد نقضي عمرا بأكمله دون أن نولد ولو مرة واحدة..

يا رب قوني على الميلاد، قو إرادتي على الوجود.. ربي، قو عزيمتي على الانكتاب.. لا يوجد في ملكوتك سبحانك إلا المكتوب.. ربي إني رهيف، ضعيف، هش، خلقتني من مشاعر وأحاسيس تتقد وتشتعل، تكاد تحرقني في لحظات الضعف والتي هي لحظات قوة إن هي كتبت بمداد ودم..

ما أجمل أن تجد نفسك فجأة بحضرة الأنثى الكونية في عالم مضمخ بأريج الحبر، مفعما ببخار بنفسجي من خيال.. فيه ما لا يقال من الشعر.. والأنفاس العلوية.. ورغبات النجوم الطائشة.. وهوى الكواكب البعيدة، تحن، تشتاق إلى بعضها... في

هذه العزلة الشعرية مع الأنثى الكونية، يمكن لأبي ان يبكي داخلي كما يشاء.. يمكن للدمع العصي أن يسيل من المآقي الحزينة، كما تسيل النطف من أبي من بين الصلب والترائب في لحظة الرعشة الكبرى، فيها من الألم واللذة الشيء الكثير.

ربي، قوني على الانتظار.. لأحسن النظر إلى الوجه الحسن بقلبي المكلوم الذي كاد يسقط كما سقط من قبل في هاوية اليأس السحيقة.. كاد قلبي يسقط، لولا تلك الطلة الأنثوية في ذلك اليوم الرائع، في تلك الندوة الخالدة التي حضرت إليها أرواح لم يرها العابرون الكرام.. تلك الطلة التي جددت التواصل بين السماء والأرض.

كاد قلبي يسقط.. قلبي الذي ينبض بحرارة.. ركبت الأرقام.. على الهاتف المنقول لأحمل قلبي من عالم إلى عالم.. بيدي.. بأصابعي أحاول أن أعزف التواصل مع عالم سحري، لا مرئي..

إن الخط مشغول، المرجو إعادة النداء لاحقا.. كان الصوت لأنثى، لكنه معلب، يتكرر بنفس النبرة لملايين الناس.. كانت العلبة مفتوحة.. كان من الممكن أن اترك رسائلي للعلبة السحرية.. إلا أنني لم أكن مستعدا لهذه الخيبة الأولى.. أعدت تشغيل الأرقام بأصابع مرتعشة.. إن الخط مشغول، المرجو إعادة النداء لاحقا..

كانت الأنثى.. وللأسف كان صوتها جميلا إلا انه معلب.. صوت ليس لي.. صوت مستباح.. استباحه ما يزيد على خمسة مليون مشارك، صوت فقد مفاجأة الأنثى النادرة التي يمكن أن تهاتفك في أي وقت.. في الثالثة ليلا مثلا.. تسمعها حين يكون الآخرون نياما.. يمكن أن تسمعها في جزيرة من الوقت والمكان. كان الصوت معلبا وتحملته بأسى وصبر وهو يقرأ الخيبة الثانية والثالثة...

أقفلت الهاتف وأعدت المحمول إلى جيبي.. تذكرت خيبتي يوم كلمت نجاة على الهاتف الثابت بعد منتصف الليل في مخدع يوسف، في حديقة الجامعة العربية.. يوم مدني يوسف بدريهماته المعدودة على أمل أن أصنع بها أحلاما كبرى مع نجاة.. وصلني صوت نجاة بعد منتصف الليل قاسيا، قاطعا تماما كالقدر.. كان صوتها جميلا

ولكن كان غاضبا.. قاطعا، جازما، لا مجال معه للمهادنة ولا للمفاوضة ولا للمهادنة.. أعلنتها حربا من طرف واحد وانسحبت وتركتني مضرجا في دمائي على ساحة الوغى.. كانت خيبة قاسية لم أكن انتظرها.. كدت أضيع في هاوية اليأس لولا يوسف الذي كان بجانبي.. فتح لي قلبه.. فدخلته وفيه سألتقي لأول مرة بسناء.. سأتعرف على سناء.. قواني يوسف على الكتابة وأكد لي أن لها مفعولا سحريا لمقاومة خيبات الأمل التي يمكن تلحقها أنثى بعاشق غر، لم تنضجه التجارب بعد..

هل أرادت سناء مرة أخرى ان تعيد الكرة.. وتهزمني بالانتظار.. سأنتظر.. بدون شك ستتصل متى شاءت هي وليس متى شئت أنا.. ألم تقل بأنها لن تدعني أفلت منها ولذلك أصرت على أخذ رقم هاتفي..؟؟؟

في اليوم الموالي بعد العصر رن الهاتف.. لما استوى الصوت في الأذن.. تأكدت أن الرنة ليست رنتها.. تطلعت إلى شاشته.. قفز إلى عيني اسم "حياة" بحروف لاتينية hayate ترددت في فتحه..

ماذا تريد خطيبتي مني في مثل هذا الوقت بعد قطيعة كبيرة، لم أعد أذكر كم مضى عليها.. مادامت هي أول من بادر إلى قطع حبل الاتصال عندما أرادت وضع النقط على الحروف بطريقة صارمة وفجة.. رسمت لي طريقا أمشي فيه مستقيما، دون أن ألتفت لا يمينا ولا يسارا ولا أتطلع إلى نجوم السماء، ولا إلى الأرض لأرى مسار قدمين مكبلين بالصرامة والوضوح.

يا للمفارقة في الوقت الذي كنت انتظر صوت سناء، الحالم المغري وإذا بحياة تتصل لتعلن أنها هنا ولا يمكن تجاهلها بالمرة..

ضغطت على الزر الأخضر ويا ليتني ضغطت على الأحمر وقلت بصوت متكلف، أردت أن يكون طبيعيا:

– آلو... من معي ؟

– أنا حياة.. الظاهر أنك لم تعد تعرف صاحبة هذا الرقم.

– حياة.. مساء الخير.. عفوا لم أقصد

– لم تقصد ماذا ؟ أزلت رقمي من هاتفك، لتزيلني من حياتك

– لا. رقمك لا زال في مكانه. أنا لم اسع إلى ذلك. أنت أول من بدأ القطيعة.. أردت وضع النقطة في نهاية جملة من حياتنا بدلا من أن تضعيها على الحروف.. لم أكن أدري هل كنت عازمة على العودة إلى السطر لبداية جملة جديدة، أم أنك مصممة على وضع نقطة نهاية لنص أو لكتاب جمعني بك ذات يوم عن طريق الخطأ؟؟

– أنت حساس دائما للكلمات. تعطيها دلالات أكثر مما تتحمل.. لا غرابة في ذلك فتعاطيك للأدب، بشكل مرضي، يؤدي بك إلى تأويل الآخرين وكأنهم شخصيات خيالية روائية.

– إذا كان الأمر كذلك، فلماذا قطعت الاتصال منذ ذلك اليوم الذي طلبت مني وضع النقط على الحروف ؟؟

– على أي، ومهما يكن، لن أغفر لك سهوك على الاتصال بي البارحة.. كل الأصدقاء اتصلوا بي الذين يعرفونني والذين لا يعرفون الذين أعرفهم عن قرب أو عن بعد.. الخصوم والأصدقاء.. إلا أنت... لم أكن أتصور أن يبلغ بك.... إلى هذه الدرجة.. لا ادري ماذا أسميه.. انتقام.. لامبالاة.. استهتار...

– لا هذا ولا ذاك... ماذا وقع..؟ أنا لم أفهم هذه الضجة التي أثرتها فجأة وبدون مقدمات. قولي ماذا وقع ؟

صمت لحظة لألتقط أنفاسي وواصلت:

– هل حدث مكروه لا قدر الله ؟

– بالله عليك أين تعيش أنت، على وجه هذه الأرض أم على ظهر كوكب آخر ؟ صراحة لم أعد أفهمك ولا أفهم تصرفاتك تماما.. لم تعد إدريس الذي كنت أعرفه. إدريس الذي أعرفه، انتهى. انتهى. انتهى.

قطعت الاتصال وغاب الصوت في غياهب العدم.. خيم صمت ثقيل مخيف بعد عاصفة قوية من الاتهامات التي لم أعرف مصدرها. قلت في نفسي وأنا أحاول أن استوعب ما قد وقع.. اتصل بها الناس من كل الأنواع والألوان.. لا شك أن مصابا جللا حل بها أو بأحد أفراد عائلتها.. الأمر خطير إذن.. لا مجال الآن للحسابات الضيقة ولا لردود الأفعال.. علي أن أقوم بما يفرضه الواجب.

أعدت الاتصال. ضغطت على الزر الأخضر.. تكررت الرنات ما لا نهاية.. لا مجيب. أقفلت الهاتف وانتظرت قليلا لتهدأ العاصفة التي تثيرها الكلمات في بعض اللحظات العصيبة. يمكن لبعض الكلمات، في ظروف حرجة، أن تصبح طلقات تقتل.. تدمر.. تخرب.. تهدم مدنا بأكملها.

مضى الزمن بطيئا.. ثقيلا.. سقطت صريعا بين مكالمتين: مكالمة القدر القاسية التي حملت لي على لسان "حياة" رسالة خطيرة مجهولة، ومكالمة كانت ستكون مصيرية، حالمة، واعدة بميلاد ثالث أو رابع.. لم أعد قادرا على الاتصال بسناء، بل تمنيت أن لا تتصل بي في هذه اللحظة..

سجلت معنوياتي أعلى انخفاض لها، لم تعد الحياة تعني لي شيئا.. لا جدوى.. أنا الآن في حالة الصفر، قابل للعدم.. للاحتراق.. للسقوط. نظرت إلى يدي، لم أعد أعرف ماذا أفعل بهما، صارتا عاجزتين تماما.. سلمت أمري لقدمي لتحملاني لا أعرف إلى أين ؟

غادرت البيت دون أن أكلم أحدا.. وجدتني فجأة في الزحام بدون صوت ولا موقع.. ضوضاء، ضجيج، أصوات متناثرة، هجينة، تصلني من هنا ومن هنالك.. أصوات الباعة.. منبهات السيارات.. الحافلات المكتظة المملوءة عن آخرها..

سيارات الأجرة الكبيرة البيضاء الرابضة في صفوف طويلة وسط الطريق التي ضاقت، لم تعد تسمح بمرور هذا العدد الهائل من الناس.. جحافل من المخلوقات الآدمية بمصائر مختلفة وأغراض شتى، يترجمها هذا الصخب من الكلمات المتهكمة أحيانا والغاضبة أحيانا أخرى والسوقية في أحيان كثيرة.. سياط تهوي بدون رحمة على الحمير الجارة لعربات مثقلة بخضر وفواكه وسلع مهربة تباع قريبا من محلات القيسارية.. يزداد العنف، كلما تقدم المساء.. تهوي السياط على الحمير.. ولا أثر للغضب على سحنات الحمير السمراء.. نحتاج إلى خيال واسع لتتصور، لتتخيل غضب الحمير وبكاء الحمير يترددان باستمرار في صمتها المخيف..

نحتاج إلى خيال لنسمع صراخهم.. من أين لنا بهذا الخيال في مجتمع لا يقرأ ولا يتعاطى للفنون التي تكلم العالم من حولنا.. ولا أدري إن كانت هذه الموسيقى الصاخبة المختلطة بأصوات المدينة العنيفة قادرة على أن تؤدي هذا الدور.. نحن في حاجة إلى تربية خيالية تعيد للكائنات وجودها الحقيقي وسط هدا العنف الكرنفالي الذي قهر الإنسان فينا..

يصعب على كائن ورقي، مثلي، متسلل، في حالة غضب من رواية، أن يشق طريقه وسط هذا الزحام... سياط.. على ظهور الحمير والحمير.. هي، هي، لا تحس أو هذا ما يبدو لنا في مجتمع لا يقرأ الكتب ولا الوجوه ولا اللوحات ولا العلامات... تذكرت سؤال أدونيس: لمن تعطي النملة درسها ؟ عجبت للنمل الكثير الذي يمكن أن يسحق تحت عجلات الوقت ولا نقول عنه شيئا ؟

تذكرت البغلة التي أساءت لأبي، ركلته وهو يحاول أن يؤلف لحنه الطفولي.. صارت البغلة، كما المدينة التي تسحق الأدب والخيال، بغلة القبور حقا، يمكنها أن تفتك بالإنسان السائر في الأماكن الخطيرة.. إن هو التفت.. أتذكر صوت خالتي الضاوية، تحذيراتها المتكررة: إياك أن تلتفت عندما تسمع صوت عيشة قنديشة، فهذه الأخيرة تتحول، إذا التفت إليها، من امرأة حسناء فاتنة مغرية إلى بغلة قبور قادرة على

أن تدك جسمك الصغير في رمشة عين.. بغلة القبور لا تموت، قادرة على سحق الخيال والأدب والشعر إن لم ننصت إلى صدى الصمت الذي يتردد في أعماقنا منذ آلاف السنين.

سرت أخترق الحشود.. لا ألتفت.. أطلقت العنان لقدمي لأجد نفسي أخيرا في شارع الحزام الكبير، ضائعا بين امرأتين، بين حياة التي كان صوتها قدرا قاسيا، لا أدري، حتى الآن، ماذا يحمل من أخبار.. وبين سناء، أنثى الحلم التي كادت تهبني الميلاد الثالث أو الرابع..

التقطت أنفاسي.. وسرحت ببصري في أفق الشارع، أتتبع حركة السيارات التي تمر إلى جانبي إلى أن تختفي في المنعرج.. أخرجت الهاتف المحمول من جيبي وفي سرعة وبدون تردد، ركبت الأرقام المخيفة توالت الرنات قبل أن اسمع صوت "حياة":

– الو

– إدريس

– نعم... أعرف. ماذا تريد الآن مني.

– أريد أن أعرف.. أرجوك.. ماذا حدث..؟ أؤكد لك أن لا أحد أخبرني بشيء. ماذا وقع ؟

– لن تحتاج لمن يقول لك... ألم تنقل لك وسائل الإعلام ما وقع البارحة من انفجارات جديدة بحي سيدي مومن.. لقد فجر الإرهابيون البارحة مقهى للانترنيت ؟

– لا والله لا علم لي بذلك. كنت جد منشغل ولم يكن لي الوقت لأشاهد أو أسمع خبرا كهذا... قاطعتني:

– تعيش في جزيرة كعادتك.. وهل تعرف بأن المقهى الذي فجره الإرهابيون هو مقهى أخي كريم..؟

– لا والله.. لا علم لي بذلك.. أتمنى أن لا يمس أخاك سوء ؟ هل كان كريم هناك وقت الانفجار ؟

– نجا والحمد لله بأعجوبة من موت محقق...

– الحمد لله على سلامته. أتمنى أن لا تكون هنالك خسائر كبيرة..

– لا يهم.. ما يهمنا هو حياته. لقد أخذ الحدث أبعادا وطنية وقل دولية. فقد نقلته قناة الجزيرة إلى العالم بأكمله وأظن حتى القنوات العالمية الأخرى فعلت ذلك.. لو كنت مهتما بما يقع حولك، لوصلتك هذه الأخبار، لحظات قليلة بعد وقوعها... لكن... العالم قرية صغيرة، للأسف لا تسكن فيها

– أعتذر لك ولأسرتك.. لم أشاهد الجزيرة.. فعلا، كما قلت، كنت في جزيرة.. الحمد لله على السلامة وأتمنى أن يجتاز كريم هذه المحنة ويتغلب على تبعاتها. فالموقف صعب ولكن الحمد لله مادام قد نجا من الموت فقد انتصر على أعداء الحياة.

– شكرا لك

– لا تشكريني فقد أخطأت في حقك.. أكرر اعتذاري.. سأذهب حالا إلى عين المكان لأرى ما حدث..

– مع السلامة

– مع السلامة

تنفست الصعداء واستأنفت السير في شارع الحزام الكبير الذي ضاق علي قبل قليل حتى استحال حزاما ناسفا، فجر علامة استفهام أخرى، كانت حتى أمس تنعم بالحياة.. فجرها الحزام الناسف قريبا من الذكرى الرابعة لأحداث 16 ماي.

كان من الممكن أن يتمنطق الوطن هذه الأيام بحزام أخضر يليق به، احتفاء بالربيع الذي عودتنا الأشعار أن يحل ببلاد العرب مختالا ضاحكا. كان من الممكن أن يكون مارس شهر الحب والغزل والاشتهاء، شهر التزاوج بين رغبات وأشواق الذكور وغنج الإناث الفاتنات كورود الربيع المتفتحات.. كان من الممكن أن تسقي دماء الذكرى زهورا بنفسجية قابلة للشعر والكتابة لأهديها ل "حياة" لترتفع نسبة المشاعر الرقيقة في دمها وتتلطف أجواء روحها، لتستبدل لغة الأرقام الجافة والحروف المنقطة الصارمة، بأنفاس الشعر وعطر الجمال.. لكن مارس، للأسف، كشف عن وجهه المدمر.. كشف عن شهوة الحرب والتدمير التي اختزنها طوال أربع سنوات وقبل ذلك بكثير، ادخرها من خيبات الوطن كثيرة، جمعها من أنفاس المحرومين الحارقة ويأس المعطلين.. كان من الممكن أن أكسب بعضا من قلب "حياة"، لكن لهيب الانفجار وغضب مارس حال دون أي تقارب ممكن معها.

سرت في الشارع الطويل.. حمدت الله لأن ما ظهر من الكارثة محدود حتى الآن.. لا زال كريم على قيد الحياة.. استطاع بفضل من الله من محاصرة الإرهاب.. اشتبك مع صانع الموت وفي آخر لحظة وبسرعة تمكن من إغلاق المحل وإعلام رجال الأمن قبل أن تنفجر علامة الاستفهام التي استشاطت غضبا من الكمبيوتر الذي استعصى ورفض تقديم المعلومات لتنفيد مخطط جهنمي يعلم الله هول الكارثة التي كانت ستنتج عنه.. أرادت مشيئة الله أن ينفجر أحد المتورطين ويتم القبض على الآخر.

كان من الممكن أن تكون غضبة مارس أكبر، وكان من الممكن سقوط مئات الضحايا من علامات الاستفهام. كان الشارع طويلا.. وكلما طال، زادت رغبتي في السير.. حمدت الله فالحزام الكبير لا زال كبيرا.. يغري كائنا حبريا، رهيفا، هشا، هاربا من رواية مثلي، أن يمشي في اتجاه أفق ممكن.

في هذا الأفق تنتظرني سناء.. لعلها لا زالت تنتظر.. لا بد أن تكون هي أيضا منشغلة بما حدث..

فكرت في الكاتب.. تذكرته وتساءلت بيني وبين نفسي إذا كان ما حدث سيلقي بظلاله على الندوة التي يشارك فيها.. هل سينفجر الحدث أسئلة جديدة، يتسع لها صدر الكتاب المنشغلين بالتجريب ؟ ماذا عن تجريب يمكن أن يقرب السرد من فوضى الانفجار ؟ ماذا عن مارس الذي يمكن في أي لحظة أن يقتحم قاعة الندوة الفاخرة وفي إحدى يديه زهرة النرجس وفي الأخرى حزاما ناسفا ؟ كيف للكتاب أن يقنعوه بوضع الحزام الناسف خارج النقاش ؟

كيف يردون على الاتهامات التي يمكن أن يوجهها لهم مثلا: هذه الدكتاتوريات الصغيرة التي لا زالت تتسكع في تدخلاتهم وعلى فضاء صفحاتهم ؟ ماذا يمكن أن يقولوا له عن الفرق الدقيق بين القلم والسيف.. بين الريشة والسكين.. ماذا فعل كتاب التجريب لبنات الفقر ؟ ماذا قدموا لبنات الليل مقابل ليلة يقضونها معهن في رواية أو على سرير قصة قصيرة ؟

ماذا يقولون لمارس هذه السنة، وهم على أهبة الاحتفال بزهرة الشعر على أضواء كاميرات عالمية ؟ ماذا فعل الشعر للقناع الذي سقط ؟ ماذا فعل للأرواح الجريحة التي سقطت عند أقدام شعراء نجوم ؟ كيف يمكن لمارس أن يجادلهم وقد وضع الحزام الناسف خارج النقاش ؟

أتمنى أن لا تنسيهم مدينة شفشاون العالية والرومانسية وجه مارس الحقيقي الذي ظهر به هذه السنوات الأخيرة.

لست قادرا على الاتصال بالكاتب ولا قادرا على التشويش على خياله ولا على فكره. أما سناء فأنا معها على موعد. كان من الممكن أن يتم هذا اللقاء هذا المساء لولا كلمة القدر، لولا الحزام الناسف الذي فجر علامة الاستفهام بحي سيدي مومن الذي لم يرد حسب حدود علمي إلى الآن في صفحة قصة أو رواية.

اتصلت بسناء حالا ودون تردد هذه المرة:

– الو

– الو أنا إدريس. مساء الشعر. أعتذر عن التأخر. أردت أن اتصل بك بعيد الرابعة بقليل كما اتفقنا، لكن للأسف سبقني القدر ورتب الأحداث حسب مزاجه.

– قلت القدر ؟ ماذا وقع ؟

– اتصلت بي "حياة" اليوم وأخبرتني بوقوع انفجار بمقهى الانترنيت بحي سيدي مومن..

– آه.. آه.. لقد علمت بذلك البارحة عبر وسائل الإعلام. أنا الآن في عين المكان.. لقد كلفني رئيس التحرير بمتابعة الحدث عن كثب..

– طيب.. وأنا في طريقي إلى عين المكان.

– بإمكاننا أن نلتقي هنا.. سأنتظرك

– سآتيك حالا. إلى اللقاء.

انتهى بي المطاف عند إقامة الموحدين وأنا أسير في نفس الشارع، شارع الحزام الكبير.. أشرت إلى سيارة أجرة صغيرة.. ركبت إلى جانب السائق الذي أكد لي انه يعرف المكان.

توقفت السيارة في ملتقى الطرق التي يصطلح عليها السكان المحليون ب رومبوان لكرون. القرون التي اختفت الآن.. زالت القرون من المكان وبقيت في الذاكرة.. تصورتها قرون ثور غاضب يحمل الأرض.. يحمل أرض سيدي مومن على قرنيه.. وكلما حرك الثور الغاضب القرنين الا أحدث زلزالا.. هذه المرة كان الثور إرهابيا وكان الزلزال انفجار الحزام الناسف في مقهى الانترنت.

انعطفت على الشارع الرئيس يسارا وإذا بي أبصر حشدا من الناس، لا زال محتشدا، يتابع مجريات الأحداث.. وسيارات الأمن مصطفة قريبا من مقهى الانترنت الذي دمر بابه الرئيسي كما تدل على ذلك آثار الدخان الأسود العالقة بالمكان..

بحثت عن سناء.. لم أجدها وقعت عيني على "حياة" بجانب أخيها كريم.. سلمت عليها واحتضنت كريم وأبلغته مواساتي وهنأته في نفس الوقت على سلامته. وتراجعت إلى الخلف قليلا لأفسح المجال لرجال الشرطة الذين ما زالوا يتابعون الوضع ويجمعون المعلومات الضرورية لصياغة تقارير دقيقة حول ملابسات الحدث.. كانت حياة تنوب عن أخيها المتعب والمنهك، في أحيان كثيرة، للإدلاء بالمعلومات التي تطلبها الشرطة القضائية والشرطة العلمية وذلك بحكم اختصاصها كمحامية لها دراية بحيثيات الحدث من الناحية القانونية.

حكى كريم قصة الانفجار لمجموعة من الصحافيين الممثلين لقنوات وطنية ودولية واعتذر عن الإجابة عن أسئلة تتجاوز اختصاصه. ليس مؤهلا للبت فيها. حكى كيف دخل شخصان مجهولان إلى المقهى وجلسا قبالة شاشات الكمبيوتر ولاحظ بعد فترة أن أحدهما كان يضرب الجهاز بعصبية، فنهاه عن ذلك، مما زاد من غضبه، فصار يضرب بوحشية أكثر وبعنف مستفز. طلب كريم منهما الخروج حالا فرفضا فاشتبك معهما قبل أن يتدخل رواد المقهى لفك النزاع. وأمام رفضهما اضطر إلى إقفال باب المقهى وانطلق نحو الهاتف لاستدعاء الشرطة.. وما كاد يفعل حتى جذب أحدهما خيطا من الحزام الذي كان يتمنطق به فانفجر حالا، أما الآخر، فقد تخلص بسرعة من حزامه وأطلق ساقه للريح.. فر هاربا إلا أن الشرطة تمكنت من القبض عليه..

لم يكن كريم مستعدا في تلك الأثناء قادرا على إشباع فضول الصحفيين أو الإدلاء بتصريحات أخرى.. حالته النفسية المضطربة لا تسمح له بذلك وأكد أن كثيرا من المعطيات بيد الشرطة وهي قيد التحليل وليس مؤهلا لعرضها... هناك أشياء كثيرة لا يمكن أن تقال الآن...

بحثت عن سناء.. لا أدري إن كانت تمكنت من الحصول على معلومات من رجال الأمن حول ملابسات الحدث أم لا.. بحثت عنها.. لا أثر لها.. هل أنهت مهمتها وانسحبت؟ لكن كيف ستنسحب وقد وعدتني قبل قليل، أنها ستنتظرني في عين المكان؟

كانت الشمس على وشك الغروب.. كانت الشمس شاحبة، تستسلم لقدرها.. تسير إلى حتفها بهدوء.. رحيلها اليوم مختلف.. طعم وداعها مر.. جنازة وطن ينفجر على طريقته الخاصة.. الحزن باد في عيون كريم الذي أراد وصل الوطن بالشبكة العنكبوتية، كان من أوائل من مد خيوطها بهذا الحي الذي يقال عنه بأنه هامشي.. وها هو يحصد العاصفة.. يحصد الموت الذي بدا له بوجهه البشع، محطما حلما غذاه بطموحه وحماسه..

رحيل حزين للشمس هذا اليوم، ذكرني برحيل يوسف إلى أمريكا بعد أن أفلس الاتصال ولم تمكنه الدراهم المعدودة التي يحصل عليها من مخدعه الهاتفي بحديقة الجامعة العربية والتي كان يقتسمها مع عبد الرزاق، من تغذية حلمه وبناء وطن من حب وخبز وكتابة.

ما أشبه اليوم بالأمس.. ما أشبه يوسف الذي أراد مد الجسور مع العالم، فحرمته العطالة والبطالة وخانته الخيانة فخسر الاتصال ورحل.. ما أشبهه بكريم الذي أراد ربط الهامش بالعالم، فخانه الإرهاب.. فقد التعصب أعصابه وانفجر في وجهه..

بحثت عن سناء وسط حشود الناس لتقف معي على هذه الأنقاض.. على هذا الطلل الذي حطمه التطرف الذي فشل في التواصل مع العالم.. وفشلنا نحن في التواصل معه.. يا لسخرية القدر. كنت أرتب لقاء بين سناء وبين الحب، حب لم ينطفئ رغم المآسي التي أساءت إليه.. حب منبعث من أنقاض الماضي.. حب لم يمت، كان يتغذى باستمرار من ذكريات قديمة عمرت في قلب يوسف ما يزيد عن

عشرين سنة.. وهاهو الكاتب يشحنني به ويطلق سراحي ويلقي بي خارج الرواية... لأجد نفسي وجها لوجه مع سناء يفصل بيني وبينها الموت الأسود ؟

هل سأكرر الهزيمة وأرحل أنا أيضا كما ترحل هذه الشمس الحزينة هذا اليوم.. كما رحل يوسف ذلك الغروب الحزين.. لماذا تشهد الشمس خساراتنا وتوقع عليها وترحل وتتركنا للخوف والوحدة والضجر والهجران.. إلى متى يستمر رحيل الشمس.. ترحل تتركنا لهواجس، لكوابيس الليل الأسود ؟؟.. لماذا ترحل ولا تقول شيئا عن الغذ ؟

لماذا يخيب طموح الرواية كل مرة رتبت مواعيد الحب ؟ لماذا يترصد القدر خطى قلم الكتابة ليفشل أحلامها.. ليفجر ما تبقى من ذخيرة الحب، ما تبقى من قيس وليلى، ما تبقى من طوق الحمامة، ما تبقى من دموع إيسلي وتيسليت..

أخاف أن تجف بحيرة إميلشيل قبل أن تتم الرواية.. أخاف أن نجد أنفسنا عاجزين عن البكاء، عاجزين عن الحب، ..أن نجد أنفسنا قادرين على الصمت، أن نموت داخل أنفسنا.. أن نستغني عن خدمات الأدب.. أن نسلم بالأمر الواقع؟..

أخاف أن أفكر يوما في تقديم استقالتي للكاتب، تاركا أبي لصمته، لحاله... أخاف أن تجف بحيرة إميلشيل وتصبح مجرد فولكلور للعابرين، لهواة الصور، للموهوبين في تسليع ذكريات الوطن..

يا سناء أنا هنا...

يا سناء أنا هنا..

يا سناء أنا هنا..

أقف على الطلل.. قادر على البكاء.. فأين قلم الثورة الذي كنت تكتبين به الغزل الحي، فتتفجر ينابيع من الشعر الحر، الحي، بدلا من أن تتفجر الأجساد البريئة اليوم دماء ؟

سنـــــــــــــاء...... أين أنت....؟

بالله عليك لا تخلفي الموعد.. لا تتركيني لوحدي.. لا تتركيني لهشاشتي.. أنا هش هش هش، يمكن لأحذية رجال الأمن أن تسحقني في أية لحظة.. يمكن لفصول وبنود "حياة القانونية الجافة أن تقتلني في أية لحظة ؟

لا تخلفي الموعد وإلا اضطررت إلى تقديم استقالتي وغادرت الرواية..

في توقيع استقالتي موتي، حتفي.. فمن يسمع صمت أبي.. أبي.. اعتقلوا لسانه وأفرجوا عن جسده..؟ ماذا يفعل بجسد بلا لسان ؟ هل ينفجر لتسمع دويه القنوات البعيدة ؟.. قولي يا سناء... شيئا ولا تخوني الموعد.. لا تتركيني..

سناء، أناديك الآن ولا أحد يسمعني.. حياة غاضبة مني لأني لا أساير العصر ولا أجيد وضع النقط على الحروف.. حضرت إلى عين المكان متخلفا عن الموعد فلم ترحمني.. لم تقبل اعتذاري.. قابلتني بلامبالاة.. كحافلة تنطلق مسرعة، تسحق مسافرا تأخر عن موعد السفر بثانية واحدة..

سناء لا تتركيني..

"حياة"لا تعرف شيئا عنك ولا تعرف شيئا عما حدث البارحة بيني وبينك.. لا تعرف شيئا عن ذكريات الماضي التي انبعثت من وجع الرماد.. لا تعرف شيئا عن تاريخ الحب في هذا الوطن.. لا تعرف شيئا عن الصمت المخيف الذي عمر كثيرا.. فمثل هذه الأشياء ترهات لا تدخل كتب القانون..

سألتها أنا عما وقع ولم تسألني عما وقع في الضفة الأخرى.. لم تسألني ولم أكن قادرا على الاعتراف.. لم أكن قادرا على الكذب.. الحب في وطني خيانة للحياة.. والكذب وفاء للحياة.. وبين الكذب والحب صمت تقرأ فيه رسائل من الخيانات، رسائل من الشكوك والظنون نخفيها تحت جلودنا لنبدو متحضرين في عيون الآخرين..

لم يكن واردا أبدا ذكر سناء ولا عرض أي لائحة لإناث طرقن القلب في لحظات الجمال الرائعة.. لحظات لم نكن ننتظرها ولم نسع إليها.. يأتي الحب متأخرا حيث لم تكن تنتظره.. هذا ما علمتني قراءة الروايات ولا خيار لنا.. وحيث ننتظر الحب، يأتي القدر بما لا نتوقعه.. يأتي بالنقيض..

لا ادري إن كانت حياة تفهم مثل هذا الكلام.. فكيف أعتذر لها ؟ وبأي لغة يكون الاعتذار؟ كيف أعتذر لها، ككائن ورقي، لا أحسن الكذب، لا أتقن النفاق، ولا أستطيع أن أبقى محايدا في نفس الوقت، غير مبال بما يحدث من جمال في هذا الكون..

أنا كائن حبري خلقت من كيمياء سحرية يفرزها مزاج الكاتب في لحظات الانفعال الكبرى. لست قادرا على الحب ولا على الخيانة ولا على النفاق كما تفعلون انتم باستمرار في حياتكم الحضارية.. أنا صمتكم الذي يسعى إلى الانكتاب باستمرار، فينجح حينا ويفشل في أحيان كثيرة

أنا صمتكم.. أنا ما لا يقال..

فهل تفهم "حياة" هذا ؟

حياة خطيبتي ولم أجرؤ يوما أن أناديها حبيبتي.. اكتشفت أني ارتبطت بها دون أن أكون قادرا على حبها. الحب تقتله القوانين والأعراف.. تقتله الحضارة يقتله التخلف أيضا مرارا.

حطت طائرة الحب على مطار قلبي في لحظة لم أكن انتظرها.. وقلت في نفسي إن تاريخا جديدا قد بدأ مع سناء التي خانها الحب وحاولت أن تستعيده بالشعر والقصة والرواية.. عادت الغزالة الشاردة إلى أرض الوطن وكان هذا المدى الحزين في حاجة إلى أسطورتها لتشبيب المشاعر وتقوية القلوب على مزيد من الحب والغزل..

لم تسألني حياة عن ذلك..

أين سناء الآن ؟

سناء لا تتركيني بين خيبتين..

خيبة الحياة و..

خيبة الحب،

لا تخوني ذكريات الماضي..

لا تخوني حبا عمر آلاف السنين..

لا ترحلي كما ترحل شمس هذا المساء..

أنا غير قادر على البكاء وحدي وسط هذا الدمار، وسط هذا الحشد من العيون الفضولية التي تتفرج على الوضع وتظن أن الانفجار سحابة صيف وسترحل.. عيون لا تملك الحزن الكافي لمواساة الوطن، بعيدا عن مشاعر الحزن الصفراء التي لا تدوم أكثر من دقيقة أو دقيقتين.. في مواجهة كاميرات التصوير. لا يهمها إلا نقل ما يجب أن يكون في مثل هذه المناسبات وليس ما هو واقع بالضبط..

بحثت عن سناء في كل مكان.. في عيون "حياة" الصارمة.. في عيون كريم الخائفة.. في عيون الناس الفضولية.. في العيون المختفية وراء كاميرات الإعلام التي تلتقط الصور، تلو الصور، دون أن تعشق الصورة، دون أن تمرض بحب من في الصورة.. كل ما يهمها هو السبق الصحافي.. كل ما يهمها هو الانتشار في القرية الصغيرة التي أصبحت تضيق بنا يوما بعد يوم..

قليلون هؤلاء الذين يمكن أن نقول عنهم شهداء عشق الصورة.. يموتون مع من يموت في الصورة.. يتألمون مع من يتألم من في الصورة.. كم من كاميرا عاشقة استطاعت أن تنفذ إلى قلب الوطن ؟ كم من كاميرا يمكن أن تشبه كاميرا طارق أيوب الذي مات على جبهة الوطن.. أو كاميرا التي ساندت محمد الدرة في محنته.. ماتت

معه؟ كان العدو يسدد الطلقات لمحمد الدرة.. للعصفور الذي سقط من العش في يوم عاصف.. كان العدو يسدد الطلقات.. وكانت الكاميرا العاشقة تسدد بعدساتها المكلومة الملتهبة طلقات من الصور إلى عيون العدو.. يعمى.. ويغضب.. يقصف الجزيرة والقنوات التي لا زالت قادرة على العشق.

هل نحتاج إلى الموت، لنصدق الحب ؟ هل نحتاج إلى القصف لنصدق أن ثمة عيونا تحب، تدمع، تجهش بالبكاء الحار وهي تلتقط صورا لضحايا الربيع الذي تخلى، في وطني، في هذه السنوات الأخيرة، عن لونه الأخضر...، ضحايا الربيع الأسود..؟

أنا لا أقول ذلك ولا أدعي ذلك.. أنا أتحدث عن هذا الحب الصامت الذي تفضحه عيوننا وأيدينا، الرابض في قلوبنا.. هذا الحب الذي يعذبنا ولا نقول عنه شيئا.. هذا الحب القاسي الذي لا يجد طريقه إلى شعرنا ولا إلى رواياتنا ولا إلى إعلامنا... ولا إلى السياسة الجافة التي تستهلك معلبة، كلعبة من التوازنات والحسابات الضيقة في وطني الحزين..

حب لا يحتاج إلى الموت.. بل يصل إلى أقصاه عندما يودع المصور حبيبته على عتبة الوطن الوداع الأخير.. نحن لا نختار الموت.. ولا نختار الحب.. نجدهما حيث لا ننتظرهما.

بحثت عن سناء في كل مكان ولم أعثر عليها.. هل خانت الموعد.. هل خانت الحب كما فعلت مع يوسف وربما مع الكاتب ؟ ها هي شمس الغروب ترحل ولا أثر لسناء التي كانت تتكلم إلي قبل قليل ؟

أليس الصوت صوتها ؟ فأين صورتها ؟ أين جسدها المريض بحب الوطن، المثقل بذكريات العشق ؟ هل تراني ولا أراها ؟ هل تكون اختفت في شرفة من شرفات البيوت التي تطل على المقهى المدمر، تلتقط الصور خفية وبدون ترخيص ؟ وهل يحتاج الحب إلى ترخيص ؟

الحب في وطني لا يعلن عن نفسه.. غير مرخص له.. لا نعثر على بقاياه وآثاره إلا في الغرف المعتمة وتحت أشجار المساء في الشوارع المهجورة، في الأشعار والروايات التي لا تقرأ إلا نادرا.. الحب مخاطرة.. التصوير، بدون ترخيص، مخاطرة..

فهل تكون سناء خاطرت بنفسها وصورت ما لا يصور ؟ هل تعقبت يا ترى علامات الاستفهام المبثوثة في الظلام التي عجز رجال الأمن على القبض عليها، فألقت عليها القبض بالة التصوير التي لا أظن ستفارقها؟ تخفيها دون شك تحت مآقي عيونها، في جفونها ؟ في قلبها ؟

أحتاج إلى خيال شاعر كبير لأؤول خيانة سناء هذا المساء. سناء لا تقف في الوسط، تذهب من أقصى الحب إلى أقصى الخيانة، تقيم في الجنون.. تقيم في غروب الشمس وشروقها.. ألا تكون الشمس أحلى عندما تحاول الغياب ؟ من يحدد مساحة الغياب ؟ أنا أم هي أم المكان ؟

هل هي غائبة عن المكان الذي أوجد فيه أم هي قائمة في المكان، غائبة عن عيني ؟ من يحدد الغياب في الرواية ؟ سؤال لا استطيع أن أجيب عنه الآن.. أتركه للقدر، أتركه للكاتب.. ما أنا متأكد منه الآن أني أعاني من غيابها، أعاني من خيانتها..

ها هي الشمس ترحل، تودع، ولا أثر لها.. ها هو المؤذن يرفع صوته عاليا: الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح.. هاهي المصابيح تعلن عن قدوم ليل لا يمكن أن أتحمل وحشته وحدي. ليل سيكون قاسيا تحت رجع هذا الغياب القاسي المملوء بالشكوك والظنون..

تنفست الصعداء. اتسعت رئتاي للكون وأنا أسمع الأذان، يتسرب إلى مسامي ويرفعني إلى السماء.. أنا في حاجة ماسة الآن إلى أن أقف بين يدي الرحمن، لأرى بقلبي ما لم أره بعيني..

أسرعت إلى المسجد المجاور وتوضأت.. غسلت حزني وألمي وغبار التعب والشكوك والظنون ووقفت في صف طويل، جمع أشتاتا من الناس.. أناس بسطاء طيبون إلى جانب رجال الأمن وأناس آخرين.. وقفوا صفا واحدا سواسية وقد تركوا خارج المسجد ميزاتهم الاجتماعية.. هكذا تخيلت أو ما بدا لي في تلك اللحظة..

في الصلاة نقف جميعا عبيدا للواحد القهار.. نتحرر من السلالم والمراتب.. لا أدري إن كان هذا ما حدث أو ما تمنيت أن يقع.. غير أنني أحسست بمحبة عارمة للتراب المنبعث من خلايا الأرواح الواقفة بين يدي الرحمن.. قرأ الإمام في الركعة الأولى، بعد الفاتحة، سورة التين: بسم الله الرحمن الرحيم والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون. فما يكذبك بعد بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين. وردد المصلون: بلى. وفي الركعة الثانية قرأ سورة العصر بسم الله الرحمن الرحيم والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

وكانت الركعة الثالثة صمتا تليت فيه سورة الفاتحة..

سلم الإمام يمينا ويسارا. سلمت بعده... عم صمت عميق في أرجاء المسجد.. حفيف أجنحة السلام في المكان المقدس، في القلب، في الوجود، في الكون.. أذكار ودعوات استغفار وحمد وتسبيح للذي خلق ولم يخلق، تسبيح للذي خلق فسوى.. الإنسان بين يدي ربه يواجه صمته، يعرض زلاته، لا أحد يعرف عنها شيئا.. صمت يوشي بالسرائر، بالأماني، بالأحلام، بالاعترافات ترتفع عاليا إلى السماء...

فتحت قلبي ليد حريرية الملامس.. بيضاء نقية صافية... غسلتني، غسلت قلبي من الحروب الصغيرة، من الأحقاد، من الأفكار المسبقة.. أزالت اليد المباركة الأسوار والحدود والأوسمة والنياشين.. ربنا لا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا.. تذكر

قلبي حوادث جميلة ورائعة.. الرسول صلى الله عليه وسلم يغادر مكة، لم يسب، لم يشتم. يقف على الأرض المقدسة ويقسم، والله إنك لأحب الأرض إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت. هاجر (ص) وهاجر معه المسلمون رددت القلوب والأفئدة النشيد الخالد وطلع البدر وأضاء المكان وتآلف الأنصار والمهاجرون.

التفت إلى المصلين.. تعجبت، وأنا أهم بالخروج، كيف اندست علامات الاستفهام بين الصفوف، كيف نسي المسلمون هذه الذكريات الجميلة والرائعة.. تعجبت كيف ضيقت الأحزمة الناسفة على ما تبقى من أعناق السلام الذي نردده ما لا نهاية له من المرات، يمينا ويسارا، صباحا ومساء..

تعجبت كيف نسي المسلمون هذا الصمت العميق الجميل في السجود وعقب الصلوات الذي يتكرر يوميا.. وحلت محله خطب صنعت الموت بأصوات عالية، خطب الحجاج العصماء التي فرقت بين الشام والعراق وملأته بأزيز النفاق وأينعت رؤوسا وشحذت سيوفا وقطفت رؤوسا..

تعجبت كيف صار الصمت ملغوما إلى هذا الحد ولم تكتب عنه الأشعار ولا الروايات.. لتعيده سيرته الأولى.. لماذا عجزت الأقلام عن تكليم الصمت فينا قبل أن ينفجر علامات استفهام.. فتسقط الحمائم.. وتهاجر العنادل بعيدا وتغرد لحنها هنالك؟؟؟..

نحن في حاجة إلى روايات لنقول صمتنا.. لنسافر عميقا في صمتنا.. هنالك في أقصى الصمت يقيم الحب... هنالك يمكن أن نعلن عن الكائن الخفي فينا..

- سناء بصيغة أخرى -

عدت إلى الملف البنفسجي الذي سلمني يوسف قبل رحيله إلى ديار الغربة ذات غروب حزين وذلك لفهم سر الخيانة التي تكون قد طعنت الحب من الخلف، لفهم حاجة الحب لهذا الكم الهائل من الخيانات القاسية ليقوى على البقاء.. لأفهم تاريخ سناء السري أكثر... تاريخ خياناتها التي يبدو أنها تتعمدها لتستنزف ما تبقي من التياع في الطبقات المنسية من القلب... حب الشمس الحارقة في صحراء الوطن، تسلط أشعتها ليكبر العشق ويتعمق العطش، للسفر عميقا في الأرض من أجل قطرة ماء هاربة، من أجل الكائن الخفي فينا.. تكبر الصحراء ويكبر السراب...

في الملف البنفسجي علامات قد تهديك إلى الماء وقد تضلك، فيكبر السفر ويزيد العطش.. رسائل متبادلة بين يوسف وسناء.. رسائل القرب ورسائل البعد.. الرسائل الأولى تبادلاها أثناء إقامتهما في نفس المدينة، والثانية كتبت في أوقات متفرقة أثناء ابتعاد كليهما عن المدينة التي حضنتهما خلال دراستهما الثانوية ما يزيد على ثلاث سنوات.

كان يوسف مهووسا بالكتابة لوصل ما انقطع.. الكتابة بالنسبة إليه سفر إلى مناطق النسيان.. مقاومة للغياب.. استنفار للحواس لاسترداد أعز ما فقدناه.. الكتابة مضاد حيوي للفقدان.. لذلك احتفظ يوسف بالملف البنفسجي ليبقي سناء حية في وجدانه.. لذلك داوم على الكتابة لتغذية الحنين بالخيال، فصارت سناء استعارة حية توقظ باستمرار اللاوعي من الموت.. مستودع الذكريات القديمة في لاوعي.. وطريقنا إلى اللاوعي، لا يمكن أن يتم إلا بالاستعارات المرادفة للحياة.. كانت سناء ولا زالت غزالة أسطورية، تهتك سر الخرافة باستمرار..

ما أرقني في هذه القصة وشغل بالي وأدى بي إلى التورط في تفاصيلها.. إلى أن مرضت بهذه الأسطورة.. وانقلبت حياتي وجها على عقب..، هو هذا الحبل السري الرفيع الذي يربط بين الحياة والكتابة.. أثارني هذا الملف الذي آل إلي وأشعل خيالي.. أشعل في أعماقي منطقة منسية، لم أنتبه إليها من قبل.. تراكمت طبقات سميكة بسبب تحذيرات خالتي الضاوية التي حالت بيني وبين الالتفات إلى الوراء، حالت بيني وبين النظر إلى الوجه الحسن.. تراكمت بفعل صمت أبي الذي صار قدره وقدري أيضا..

وما أثارني أكثر وأشعل حريقا وجوديا، أتى على كل الحسابات الضيقة، أتى على الرهانات والعادات والأعراف والتقاليد التي نسجت جسمي الاجتماعي.. هو يوسف الذي هرب إلى دفاتر سناء السرية.. يوسف الذي كتبته الأنثى بأصابع الثورة والحب.. يوسف المستودع في جغرافيا سناء السرية.. يوسف الذي كانت سناء تكتبه

يوميا في أوراقها الخاصة.. وكانت تعده باستمرار أنها ستضعها بين يديه.. وكلما قطعت عهدا بذلك إلا وأخلفته.. كلما دق جرس الفراق وحددت موعدا للوداع إلا وأخلفت الموعد.. كانت باستمرار تعتذر أن الوقت غير مناسب.. وان الدفتر سري لا أحد يعرف ما فيه إلا الله وهي..

قالت له بأنها كانت تحكي فيه كل شيء.. تقول ما لا تستطيع أن تبوح به لأي أحد.. دفتر الممنوعات والاعترافات.. دفتر الكلام الذي لم تكن قادرة على البوح به ليوسف ولم تكن قادرة في نفس الوقت على كتمانه في أعماقها إلى ما لا نهاية.. قول ثقيل ليست قادرة على تحمله لوحدها.. كلام لا يقال ولا يسمع وإنما ينكتب ويقرأ.. كبر يوسف ونما في هذه الأوراق في صمت وهدوء.. وصار يوسف آخر.. يوسف المتخيل.. يوسف القابل للكتابة.. القابل أن يصير رواية إن فكرت سناء أن تخرج إلى العالم بالقول الثقيل الذي لا يمكن أن تتحمله إلى ما لا نهاية..

خرجت من الرواية في العتمة.. من الحبر صاغني الكاتب.. من الحنين والأرق سواني مخلوقا هشا لألعب هذا الدور.. اختارني الكاتب ولم اختر لنفسي اللعب بالنار في منطقة ملغومة من الخيانات والانتظارات القاسية.. اختارني الكاتب لأواصل في الكتابة ما بدأه يوسف في الحياة. أدركت أخيرا الشبه الكبير بيني وبين يوسف المكتوب في أوراق سناء السرية.. من الحبر تغذينا وبالخيال مشينا في دروب معتمة، رسمها الكاتب ورسمتها ربما سناء في الكتاب الذي أصدرته ووقعته أمامي ولم أحصل بعد على نسخة منه..

من الصمت خلقنا.. من المشاعر المكبوتة ارتوينا.. مشاعر لا يمكن أن ترى النور إلا إذا صارت أدبا.. لا بد من قلب في الدلالات والمعاني ليستوي الأدب.. حدث قلب في الحروف قبل أن يحدث في المعاني أو العكس.. فعل كبت صار كتب.. لا يمكن أن يحدث هذا القلب اعتباطيا.. اللغة تفكر فينا وقبلنا في أحيان كثيرة.. نقول كبت غيظه كبت ألمه كبت نحيبه كبت عواطفه.. كبت حبه.. كثيرة هي

الأشياء التي نكبتها قبل أن نكتبها، نخفيها تحت جلدنا قبل أن نبوح بها كتابة أو نعلن عنها في أحلامنا، أحلام النوم واليقظة. وإن لم نفعل، أعلنت عن نفسها جنونا.. نحن، في نهاية المطاف، نكتب حتى لا نجن..

قدري أن أواجه الخيانة وحدي.. قدري أن أطارد سناء لأصل إلى يوسف المكبوت داخل الكاتب والمكتوب في أوراق سناء السرية.. علي الآن أن أرفع رأسي عن الأرض وأن أنظر إلى الأمام.. علي أن اتصل ب سناء.. في أقرب وقت ممكن..

في الصباح الموالي حملت الهاتف المحمول بين يدي. تأملت هذا الجهاز العجيب الذي يمكن أن يتواطأ مع القدر فيصنعان قصة جميلة، رائعة، بمجرد ما تركب الأنامل المحظوظة أرقاما سحرية، يمكن أن تغير المسار.. ويمكن أن يحدث العكس، فينقلب السحر على صاحبه...

ركبت الأرقام.. ترددت في إطلاق سراح المكالمة.. إحساس في داخلي يحدثني بخيبة منتظرة.. جثمت كل خيانات سناء التي وقعت والتي يمكن أن تقع على صدري. ارتبكت.. ازدادت دقات قلبي. كبلني خوف غامض من القدر الذي يكون رد فعله باستمرار، على عكس ما أتوقعه.. أتوقع التواصل فيحدث الانقطاع.. أتوقع الضياء فيباغتني الظلام..

أقفلت المحمول.. أعدته إلى جيبي.. وأجلت خيبتي حتى إشعار آخر وعدت من جديد إلى الملف البنفسجي لعله يكشف لي عن الخريطة السرية لسناء.. لعلني أعثر على جزء صغير لم أنتبه إليه حتى الآن، يمكنني من فهم اللغز.. الشيطان يكمن في التفاصيل دوما..

انتبهت إلى وثيقة مهملة ذابلة منكمشة على نفسها بسبب طيها ما لا نهاية له من المرات.. فتحتها بيدي المرتعشتين. تلصصت على ما بداخلها بعينين خائفتين.. أحسست بمركب الممنوع يجري في دمائي.. أقرأ عورات الآخرين في غيابهم.. أحسست بثقل التاريخ يجثم على حروفها وبحرارة الانفعالات التي كانت وراء تدبير

هذه الوثيقة العاطفية والتي قد لا يعيرها الآخرون أدنى اهتمام.. معذورون لأنهم لا يعرفون كواليس الوثيقة..

أنا أحس بحرارتها ولكن لا أعرف التفاصيل اليومية الصغيرة التي أفرزتها ذات يوم.. ورقة أو قل نصف ورقة، غير مخطوطة كما هو حال أغلب الوثائق، مطبوعة.. مجتزأة من مقرر مدرسي للمرحلة الابتدائية، لا أدري أي مستوى بالضبط.. قد تكون من اختيار العلامة الكبير أحمد بوكماخ.. كما يبدو من شكل طباعة الورقة البسيط..

يتربع على جانبها الأعلى، الأيسر، رسم لمنظر طبيعي جميل، تغلب عليه خضرة الأعشاب والأشجار وزرقة السماء وبياض ما تبقى من ثلج يكلل قمة جبل بعيد في الأفق.. إلى هذا الحد فالصورة جميلة، فيها من القوة والخصوبة والتفاؤل ما يدفع إلى ارتكاب حماقات شعرية جميلة بكل حيوية واندفاع..

لكن مهلا.. عندما يتعلق الأمر بوثيقة لها علاقة بالتاريخ السري لسناء ويوسف، يحتاج الأمر إلى تريث.. ثمة حزن يترصد هذا الجمال ويسمه بميسم خاص، قد لا تفطن إليه العين منذ أول نظرة..

أحدق في الصورة جيدا.. ثمة أشجار خضراء متلاحمة متكاثفة متراصة في الأفق البعيد.. وقريبا من العين، انتبهت إلى شجرة يتيمة، منعزلة عن قطيع الأشجار وبجانبها قطعة حديد "يسمونها فأسا". في هذا التجاور غير البريء، يكمن خطر محتمل.. انفردت قطعة الحديد "الفأس" بالشجرة المعزولة اليتيمة. معنى هذا أن الفأس اللعينة تفكر في قطع الشجرة..

تولدت داخلي حركة للتأويل المتعاطف مع عناصر الصورة.. أنا هنا معني بما يحدث في الصورة ولست محللا سيميائيا.. أعترف بسقوطي في الإسقاط.. الوثيقة تعني لي ما لا تعنيه للآخرين.. ما لا يتبادر إلى ذهن المعلم وهو يوجه الصغار إلى ملاحظة محتوى الصورة قبل أن يقرأ النص قراءة نموذجية.. وقلما يتوقف المعلم عند

الصورة.. فالمحتوى جاهز ولا داعي للزج بالصغار في كواليس النص حيث تطبخ دلالات الكتابة والقراءة..

رأيت في الشجرة سناء التي تصر على الوقوف قريبا من الخطر وبعيدا عن قطيع الأشجار الأخرى.. لا أدري إن كانت فعلا تصر على ذلك أو وجدت نفسها فجأة وجها لوجه مع خطر القطع الذي تبعث به قطعة الحديد باستمرار للمحدق المتأمل للصورة..

النص الذي يكشف حقيقة الصورة، ليس محايدا، فهو مجتزأ أولا من مقرر مدرسي.. ويحمل توقيع سناء على هامشه.. وعلى الهامش الأيسر تتمة بخط سناء.. للنص الذي تعرض للبتر بسبب تمزيق عنيف تعرض له.. ولا أدري أي ثورة مارست هذا العنف.. هذا الغضب على نص كان من الممكن أن يكون وسط أوراق سابقة ولاحقة وأن ينعم بالطمأنينة بجوار صفحات الكتاب المدرسي.. أي يد هذه ؟ هل هي يد مشاغب أعيته حكم كليلة ودمنة ونصائح المعلم التي ترى دائما في الاتحاد قوة..؟

على المعلم أن يكون أمينا في نقل الحكمة إلى الرؤوس الصغيرة والعيون المحدقة في الصورة والتي يجب أن تقف عند الملاحظة ولا تتجاوزها إلى التأمل.. هل هي يد سناء التي عادت إلى الأرشيف المدرسي واستوقفتها هذه الصورة دون غيرها وأفرغت عليها مشاعر متناقضة ومتعددة لا أستطيع تحديدها الآن، فهي أكبر من حكمة المعلم وأدق من دروس الفلسفة التي توزع السلطة بسخاء على مختلف الرموز..

إن توقيع سناء على هامش النص المطبوع وكتابة اسمها المستعار "حادة" يدلان على رغبة ملحة في امتلاك النص.. وما يؤكد ذلك هو إعادة صياغة العنوان بخط يدها:

حقيقة: الاتحاد قوة

بينما العنوان الأصلي هو: الأشجار المتحدة

شمس الليل

تساءلت بيني وبين نفسي لماذا هذه العودة إلى نصوص المدرسة الأولى لاستلهام حكمة معروفة ومتداولة واقتطاعها من مقرر وتسليمها إلى يوسف في ظروف وأجواء وملابسات لم يقل عنها يوسف شيئا.. واليكم النص الأصلي كما وجدته:

الأشجار المتحدة

أشرقت الشمس على الغابة،

فأبصرت صنوبرة حزينة أحاطتها بأشعتها الذهبية

الدافئة، وسألتها بحنو: ما يحزنك يا صديقتي ؟

قالت إن بقربي قطعة حديد يسمونها فأسا،

لو وجدها حطاب، وصنع لها يدا من فرع

شجرة، فسيقطع بها أشجار الغابة،

واحدة تلو الأخرى.

فكرت الشمس قليلا ثم قالت: يمكن للأشجار أن تحل مشكلتها بالاتحاد.

وكيف ذلك ؟

لو تشابكت كل الفروع، ولم يجد الحطاب فرعا واحدا طائشا، لأصبحت

قطعة الحديد هذه بلا فائدة.

ابتسمت الصنوبرة وشكرت الشمس على نصيحتها ثم مالت على الأرزة

والأرزة على عرعرة، والعرعرة مالت على سنديانة، والسنديانة التحمت بسروة.

وهكذا صارت أشجار الغابة متكاثفة، كأنها شجرة بألف جذع.

ولما عثر الحطاب رأس الفأس، بحث طويلا عن فرع طائش يصلح أن

هنا انتهت السطور المكتوبة بالخط المطبعي.. فأتمت سناء بخط يدها ما تبقى من النص على الهامش الأيسر:..... يكون يدا لها ولكن دون جدوى، عندئذ نظر

إلى قطعة الحديد في يأس ثم رماها

وانصرف.

تورطت أنا الآخر في هذه الوثيقة الشعرية البسيطة.. شعرية، بالنسبة لي على الأقل، لأنها توقظ في باستمرار خيالا طفوليا أول، اقرأها وأحس بالخوف والعزلة واليتم وأنا أرى قطيع أشجار الغابة تتحد مع بعضها البعض وتتفرج على الضحية.. وجدتني أتماهى، كما فعلت ربما سناء، وربما يوسف، مع هذه الشجرة اليتيمة المقطوعة عن التواصل بالغابة..

سناء تتخلى عن اسمها.. عن الشمس في اسمها وتريد أن تكون حادة لتقهر الحديد، قطعة الحديد.. في الحديد وحادة.. ح.. د.. ثمة حد يجب تجاوزه، بجرأة وعزيمة يجب تعديه.. لحادة هذه الإرادة الحديدية.. في كسر حديد هذا الخطر المحدق، هذه العزلة القاتلة في مواجهة الخطر أمام أشجار تتحد، تتفرج على مصير شجرة يتيمة، فاتها ركب الاستفادة من النصيحة.. هل هو درس في العقاب ؟ هل هو شماتة ؟ هل هو تشف من نزق شجرة تفكر بشكل مختلف، تحلم، ترى ما لا يراه قطيع الأشجار ؟

تريد أن تكون حادة.. لتقهر الحديد... تتخلى طائعة عن النور الذي يشع من اسمها، ومن الشمس الحاضرة في النص بقوة، الشمس الأسطورية واهبة الحكم والنصائح... تريد أن توقظ المعادن الصلبة العتيقة القابعة في الطبقات السفلى من أعماق نفسها، لتواجه هذا الخطر الكوني المحدق بها...

رجعت إلى الوثائق الأخرى لأفهم هذا الخطر، وهذا الخوف الذي يشل سناء ويحول بينها وبين أن تحقق ذاتها، وأن تكون هي وأن تكون، كما توحي كتابتها، حادة..

أن تكون قادرة على أن تكشف عورة صمتها للعالم وليكن ما يكون... فثمة مخطوط كتبته، استمدته من دفترها السري الداخلي، يتضمن، ربما، ما يمكن أن تقوله أنثى لعاشقها، ما يمكن أن تقوله سناء ليوسف دون خوف ولا تردد...

عثرت على وثيقتين: في الأولى تعتذر ليوسف بكثرة الأعمال والمهام والتي تتعلق غالبا بالاستعداد لامتحانات البكالوريا. تقول في رسالة مكتوبة بالفرنسية:

Cher youssef

Il m’est arrivé une fois de te promettre mes secrets mais j’ai hésité et je l’ai pas fait a cause des conditions dont je t’avais parlé un jour.

Et ce soir même en nous séparons, je les avais aussi promis; mais en arrivant à la maison; j ai pensé et repensé; et enfin j’ai conclu que si je te les ai donné maintenant tu seras vraiment perturbé et tu perdras beaucoup de temps a les étudier; et comme tu savais que nous avons beaucoup de boulot en n’ ayant pas même une seule heure à perdre, et une autre fois frère je te demande pardon, et sache bien qu on rentrant des vacances, ils seront entre tes mains, je te le jure, car j’ai moi aussi envie de t’expérimenter et voir si tu es capable de leur réserver une place prés les tiens.

……………………………..

Frère

Je viens une autre fois et je te demande pardon, en te conseillant de bien continuer ton chemin et un jour on te verra réaliser tous tes souhaits……………………

A bientôt

Mon très cher ami

Sanaa

وفي الوثيقة الثانية تعتذر لكون مضمون ما كتبته في الدفتر السري، لا يتلاءم مع المرحلة التي تعرفها العلاقة بين سناء ويوسف....

وفهمت من "المرحلة الجديدة " كما يبدو من الوثائق الأخرى فترة معينة، تميزت علاقتهما بانخراطهما ضمن ما كان يعرف في أوساط المجتمع آنذاك بالظاهرة الإخوانية. كانا ملتزمين فيها بتعاليم الدين التزاما، تابا خلالها مما كان يسمى "بقايا الجاهلية" التي لا زالت عالقة في تدين أواخر القرن العشرين وهو ما يؤدي في هذه الحال إلى التخلص من ألبوم الصور الفتوغرافية والكتابات الخاصة كاليوميات والمذكرات والأشعار غير الملتزمة.. تقول في رسالة كتبتها له:

تحية إسلامية منبعها قلبي، إليك بما تتضمنه وتحتضنه وتقدمه لي من إحساس أخوي ومساعدة، معتقدة أن هذا أنبل وأفضل ما يعامل به المرء أخاه ومبتهلة إلى العلي القدير أن يوفقنا إلى ما نسعى إليه من عمل الخير.............

....

أخي لقد وعدتك لكني لم أف بوعدي لعدة أسباب، منها التردد وكذلك مراجعتي لما كتبته عنك حيث وجدته شيئا تافها لا يتفق والمرحلة الجديدة التي نحن فيها. فقررت طمسه وعدم إطلاعك عليه، راجية بالدرجة الأولى من العلي القدير الذي يؤكد على الوفاء بالعهود "أوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا" أن يغفر لي خطيئتي والثانية منك لأني في الحقيقة لم أحسن التصرف إزاءك الناتج عن التمزق بين التيارات التي أحاول وسط عواصفها الرهيبة أن أحقق ذاتي وأنهج طريقا صالحا، لعله ينقذني من هذه المعمعة الصاخبة. وانطلاقا من هذا أطلب منك أن تتحمل، كما تحملت من قبل، تصرفاتي هذه، ويوما سنخرج إن شاء الله من هذا النفق. ما دمنا نسعى إلى هدف واحد، هو الإصلاح، فسنصل لا محالة.

اللهم وفقنا إلى ما فيه الخير. اللهم طهر قلوبنا وأرواحنا ونفوسنا بالإيمان، يا رب الرحمة والمغفرة. اللهم وفقنا إلى ما يرضيك وأبعدنا عن ما لا يرضيك. اللهم أنر طريقنا إلى ما فيه الخير لعبادك.

آمين يا رب العالمين

والسلام

سناء

ثمة كلام مما "لا يقال" عادة، تحوم حوله هذه الكتابات ولا تستطيع الإفصاح عنه... تكتب سناء في دفترها السري باستمرار ما لا يصلح للقراءة، خارج الرقابة... لا أحد يعرف ما كتبته إلا الله... الأصدقاء الأوفياء محكومون بأعراف ما ينبغي أن يقال وهي تكتب "ما لا يقال".. ما لا تستطيع أن تقوله حتى لنفسها...

ثمة ذات أخرى، تسكن صمتها، يمكن أن تصاغ شعرا أو رسما أو غناء.. أو رمزا أو غمزا أو لمزا.. وهي لا تحب أن تكتب نثرا ولا تريد الاختفاء حول رمز يقنن ما لا يقال استنادا إلى مؤسسة الأدب التي تتحايل على مواد الكتابة الخام لتصوغ منها ما يرضي القارئ ويحافظ على أمن المعنى ويجنبه شطط الاستعمال..

الكتابة، بالنسبة لسناء حسب النبرة التي يلمسها كل من يطلع على الملف البنفسجي، خيانة.. والله وحده يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. الكتابة في الدفاتر السرية خطيئة لا يغفرها البشر... وسناء تسأل الله تعالى علام الغيوب باستمرار أن يغفر لها ما لا يغفره البشر..

في صمتنا نبوح بالخطيئة إلى الله تعالى ونرجو التوبة والغفران... أحيانا نكتب ونبكي عندما نجد أنفسنا وجها لوجه مع ما كتبناه.. لا نقوى على مواجهته.. نبكي بدموع همجية، متوحشة، لا يقبلها منا بشر أنيقون، متحضرون، اعتادوا على الملتقيات وحضور الصالونات الأدبية.. في صمتنا نبوح بالخطيئة ونمزق أو نحرق ما كتبناه خوفا عليه من أنفسنا، قبل أن نخاف عليه من الآخرين.

تساءلت وأنا أجمع أشتات هذا الملف البنفسجي عن مصير هذا المخطوط المفقود في دهاليز الوثائق السرية لسناء.. هل ما زالت محتفظة به..؟ هل أحرقته..؟ هل تخلصت من مركب كبت الكتابة بعد مضي ما يزيد على عشرين سنة على هذه

الأحداث...؟ هل تغيرت سناء وقبلت بلعبة الأدب، بلعبة التواطؤ مع القارئ المحتمل لتدجين المشاعر الخام الأولى أو ما تسميه هي أسرار الدفتر الداخلي، لتصبح قابلة للقراءة ؟

هل تغيرت سناء ؟ سؤال يحيرني ويفتنني ويسيل لعاب التخييل والفضول لمعرفة السري والممنوع الراقد في هذا المخطوط اللعين ما يزيد على عشرين سنة.

هل تغيرت سناء ؟ هل تخلصت من عقدتها بالأدب والكتابة الأدبية. هل استطاعت أن تذوب مركب الكبت، مركب النقص هذا في غابة من الرموز وتتخلص من جحيم الخوف ؟ ألم تعترف بالتحول الذي يطرأ على الحياة عندما تدخل الرواية، بل التحول الذي يمكن أن يلحق رواية تتكسر شظايا وتصير قصصا قصيرة جدا ؟

ماذا عن المخطوط الذي دفنت فيه يوسف حيا ؟... للتخلص منه ربما ؟ يوسف الذي عذبها ؟ يوسف الذي كانت تنتظر منه أن يلتحق بها في عزلتها ويقويها على مواجهة حديد الفأس وينقذها من سخرية قطيع الأشجار ؟ هل كتبته لتنتقم منه لأنه لم يكن يوما في الموعد وفي مستوى المخلص الذي انتظرته ؟ هل هناك عقاب أو انتقام أكثر من أن توقظ فيه فضول وشوق كتاب مخطوط، يتحدث عنه ولا يتمكن مع ذلك من قراءته وهو المعني به أولا وأخيرا ؟

ضج قلبي بأسئلة ثقيلة لم أقو على مواجهتها لوحدي ذلك اليوم.. جمعت الوثائق السرية.. أعدتها إلى الملف البنفسجي.. وضعته في درج الدولاب.. دسسته بين ملابسي الداخلية إلى جانب هدايا ثمينة، سرية، تلقيتها في مناسبات خاصة لها أكثر من معنى في حياتي، منها خاتم الخطوبة الذي أزلته من أصبعي وأودعته في ظلمات الأرشيف حتى إشعار أخر..

ثمة أشياء تكون لنا، نمتلكها نحن ونخاف عليها دوما من الآخرين، نخاف أن يطلع عليها الآخرون الذين لا يرحموننا.. يحاصروننا بأسئلتهم المقلقة والموجعة.. يوقظون ذكريات غير قابلة للتداول ولا للثرثرة اليومية، مواد خام لكتاب قد يأتي أو لا

يأتي ؟ ذكريات لا يمكن أن يصدقها الآخرون، فيتهموننا بالمبالغة، إن لم يتهمونا بالكذب ؟ ثمة حيوات سرية دفينة لم تخلق إلا لتصير أدبا، يجنبنا عنف المواجهة مع الآخرين.

في القراءة يتحقق ذلك الغياب الجميل.. يعود القارئ إلى نفسه.. ويكون بإمكانه أن يتواطأ مع الكاتب ويدوسان معا بأقدام حريرية الملمس مواضعات اجتماعية، يصعب عليهما رفضها في الواجهة المباشرة.. بل يصير الأمر أكثر حدة عندما يثور الكاتب والقارئ معا ضد هذه المواضعات على صفحات الكتاب.. فيتخلل صمت القراءة عنف عميق، يضطرب له القلب ويتصدع له الكيان.

في مساحة الورق وتحت تأثير الحبر والذي يتضمن قدرا لا بأس به من الكحول، نهرب إلى أنفسنا ونسكت ضجيج الآخرين في عزلة القراءة – الكتابة، لنكون نحن ما أمكننا ذلك.. نهرب حقائبنا السرية إلى الأدب حيث العزلة والصمت ليتحقق التواطؤ الجميل...

هل تغيرت سناء ؟ هل تمكنت عن طريق الكتابة من أن تقف على أطلالها وأنقاض ذكرياتها دون مركب نقص ؟ ماذا عن المخطوط الذي لم يصر أدبا بعد، المخطوط الذي لم تدجنه الكتابة بعد، المخطوط اللغز الذي لم يفتحه قارئ بعد ؟

وضعت الملف السري في المكان الآمن.. صار هو الآخر سرا من أسراري.. أخاف عليه من "حياة".. أخاف أن تمتد إليه يدها يوما إذا أمكنها الدخول يوما إلى غرفتي.. لذلك أضعه تحسبا للطوارئ حيث لا تتوقع..

لنعد الآن إلى العمل في مندوبية وزارة الثقافة... غادرت البيت ذلك اليوم إلى مقر العمل وانهمكت في البحث عن ملفات من نوع آخر في أرشيف المندوبية لإعداد الوثائق الضرورية التي يمكن أن نحتاج إليها.. لتهيئة مخطط مشروع يهدف إلى تحويل السجون القديمة إلى متاحف، يتم عن طريق الشراكة بين وزارة الثقافة وجمعية إسبانية لحقوق الإنسان تسعى إلى إنصاف المعتقلين ورد الاعتبار لهم على المستوى العالمي.

يأتي مشروع هذه الشراكة وسط جدل في أوساط المهتمين بالشأن السياسي ووضعية حقوق الإنسان في بلادنا، حول مدى جدية الدولة المغربية لطي صفحة الماضي. فهم يجمعون على أنه تم قطع خطوات مهمة في هذا المجال إلا أن البعض يرى بأن الدولة قطعت بصفة نهائية مع هذا الماضي الأسود، وليس من مصلحتها نهائيا النكوص إلى الخلف لأن هذا الملف مرتبط بمصلحة المغرب في الخارج وأن معالجة هذا الملف سيعزز مكانة المغرب في الأوساط الدولية ويمكنه من تمتين علاقته بأوروبا التي تربطه بها علاقات الجوار:

ويرى البعض الآخر أن هذا المعيار الأخير هو نقطة قوة هذا الملف ولكنه يشكل أيضا نقطة ضعفه ذلك أن اهتمام المغرب بحقوق الإنسان، نابع من سعي المغرب إلى تلميع صورته بالخارج في غياب رأي عام قوي ومجتمع مدني متماسك قادر على الدفاع، وعلى حماية هذه الحقوق عن أي تراجع يمكن أن يهددها ويعصف في رمشة عين بالرصيد المتواضع الذي راكمته جمعيات قليلة كونتها نخب محدودة جدا.

يستندون في ذلك أيضا إلى أن الدفاع عن هذه الحقوق، لم يترسخ بعد، بما فيه الكفاية، في الذهنية الثقافية المغربية التي لا زالت أسيرة للعنف ولم تتخلص بعد من الترسبات المخزنية ولم تصل بعد إلى المستوى الذي يصدر، فيه، المواطن سلوكه انطلاقا من مرجعية فكرية وعقدية تبتعد قليلا أو كثيرا عن معايير العرف والقبيلة والعلاقات الشخصية وهو الوضع التي تجليه بوضوح الانتخابات والتي تفوز فيها، حتى في حالات الشفافية النسبية والحياد السلبي للدولة، الأحزاب التي لا مرجعية ثقافية فكرية لها ولا صحف ولا نقابات ولا أفكار واضحة تدافع من أجلها. الشيء الذي أفقد الفعل السياسي الثقة الذي يمكن من تقوية أحزاب حقيقية ووضع حد للدكاكين السياسية التي تفتح أبوابها في المناسبات لتلوك كلاما نمطيا هجينا فيه من اليمين واليسار الشيء الكثير..، تتمنطق فيه الليبراية بحزام مغربي محافظ ويناضل اليسار

بقفازات حريرية ليبرالية وهو ما يجعل هذه الأحزاب مستعدة للتحالف دوما حول مأدبة حكومية فيها ألوان من الخضر تتجاوز السبعة وهو ما يعتبره البعض خصوصية مغربية، تجعل من هدف السياسة الاقتراب من أماكن القرار والسلطة ليس إلا. وهو ما يدفع النخبة التي لا زالت وفية لأفكارها للبحث عن مواقع أخرى كالصحف والجمعيات لممارسة معارضة صامتة للحكومة والأحزاب على السواء.

لا أدري لماذا انتابني شعور غامض كله حيوية وحماس، وأنا ابحث عن كل صغيرة وكبيرة لتطعيم هذا الملف لإقناع الجمعية الإسبانية بجدية الرغبة في الانخراط في هذا الملف بعيدا عن الاتهامات المجانية والمزايدات التي تشكك في أي مبادرة خصوصا إذا تمت بتنسيق مع طرف خارجي.

رأيت فيها بالملموس جرأة نادرة لطرح قضية حقوق الإنسان من منظور مختلف، يسعى إلى إشراك الثقافة كعنصر فعال لاجتثاث البقايا والترسبات الأبوية والسلطوية التي شلت الأحزاب والنقابات والجمعيات وأفرغتها من الأفكار والمواقف.

بدا لي، في لمح البصر، أنه لا يمكن طي صفحة الماضي فعلا إلا بعرض السجون المغربية العتيقة لمكبوتاتها... حان الوقت لإخراج ظلمات السجون إلى الشمس أو إدخال الشمس لغياهب هذه السجون لمواجهة الفظاعة والقساوة التي أعاقت الطاقات وشلتها عن الحركة والعطاء في السجون الصغيرة والسجون الكبيرة على السواء.

بدا لي أن طي صفحة الماضي لا يمكن أن يتم إلا بالتخلص من السجون الكبيرة التي نحملها في وجداننا.. السجون الداخلية أقسى وأمر، نحملها معنا إلى كل مكان، من السياسة إلى السرير. تتبعنا كوابيس لتقضي على أحلامنا الجميلة، إلى الورق، إلى الذكريات السوداء التي تحول بيننا وبين الحياة الغضة.. تتبعنا السجون الكبيرة إلى المراحيض العمومية التي امتلأت جدرانها بكل أنواع الكبت... تتبعنا إلى طاولات المدارس التي تكتب فيها الأيدي المشاغبة دروسا من نوع خاص لا يقرأها

للأسف الساهرون على التربية في بلادنا... تتبعنا إلى أصواتنا، ونحن نتقمص كضحايا أصوت الجلادين...، أصوات تحن لعهد سنوات الرصاص.. وجماجم تتأسف على تراجع ظهور النمور وحتى القطط المستبدة فوق الخشبة مما أدى إلى فسح المجال أمام الفئران لترقص بألم وبطرق هستيرية عنيفة ومتوحشة تفتقر إلى الترويض الحضاري.

تحمست لهذا المشروع الثقافي لأني رأيت فيه جرأة لمواجهة طابو السجن على أرضية أخرى، أرضية العقلية والثقافة المغربية، مواجهة السجون التي تسكننا بدل الاقتصار على السجون التي نسكنها.. مشروع جيد.. ولكن لا أدري إلى أي حد سينجح ؟ لا أدري إلى أي حد سينجو من الفلكرة والحداثوية التي تستعير النماذج دون أن تؤمن بها..

تحمست لهذا المشروع أكثر لأني معني به.. أنا ضحية للسجن الكبير الذي يسكنني.. ضحية للصمت الكبير الذي يطبق على محيطي... أينما توجهت... وفي أي عمل أقوم به.

لا أستطيع أن أنسى وجه أبي الذي أسكتته سجون الاعتقال.. أبي الذي غادر السجن وغادر الكلام أيضا.. أضرب عن الكلام.. ترك الكلام وراءه في السجن واختار الصمت لغته في السجن الكبير الذي خرج إليه.. فمنذ غادر، انزوى في الركن، يتأمل البيت والعالم حوله من خلال ما يرى وما يسمع وما يشم من ردود فعل نقوم بها بشعور منا أو بدون شعور، نحمل من خلالها أصداء ما يقع في العالم الخارجي. قرر أن يصوم عن الكلام بدون انقطاع وألا يكلمنا إلا رمزا.. وفشلنا إلى حد الآن في تأويل المعاني الممكنة لرموز الصمت الرهيب والخطير الذي يسكنه.

لا يمكن تجميل السجون بتحويلها إلى متاحف، بل يجب أن تتنفس هذه السجون وتلفظ كل مكبوتاتها أمام التاريخ وتسمى الأشياء بمسمياتها وتوضع لوائح للسجناء وللجلادين على السواء لعرض اللوحات القاتمة أمام الرأي العام. لا يمكن أن تزول السجون والمعتقلات السياسية السرية إلا بعرض غسيلها على سطح هذه

المتاحف لترى الشمس وتراها شمس. ولا يمكن أن تزول إلا بالتخلص من الزنازن التي يحملها كل واحد منا وهو يتسكع في السجن الكبير، لا يمكن أن نتخلص منها إلا بالقضاء على الدكتاتوريات الصغيرة التي لا زالت تسكن كلامنا في السياسة والحب.

لماذا يتبعنا السجن إلى أسرتنا، إلى عواطفنا وأشيائنا الحميمية حتى ولو لم نضع أقدامنا فيه يوما.. لماذا ترتفع هذه الجدران الباردة والصلبة بيننا وبين من نحب بين أمي وبين أبي، بيننا وبين أبي، بيني وبين حياة، بيني وبين يوسف، بين يوسف وبين سناء، بيني وبين نجاة التي أعدمت كل إمكانية الكلام بيني وبينها... فجرت في شلالا من الوجدان والشعر وانسحبت في ظروف غامضة... وقبل ذلك بين نجاة وبين جمال الذي قتله الشلال على مرأى من آلة التصوير في آخر لحظة..

لماذا يموت الجمال والحب في بلادي بهذه السرعة ؟ لماذا يطاردنا هذا السجن على مساحة الورق ويحول بيننا وبين كتابة ما نحب، يحول بيننا وبين لغة الحليب الأولى ؟ لماذا لا نستطيع أن نعبر إلى أنفسنا في الكتابة ؟

لماذا يجب أن نتحول إلى أبطال تاريخيين، نحمل الوصايا العشر، نحمل الوهم الكبير المجسد في رسالة غامضة تقول إننا أتينا لنغير العالم وعندما لا يتغير، يتغير البعض منا فيخرج من جحيم الضمير ليستهلك الحياة بجسده دون أن يعرف لها طعما، أما البعض الآخر فيقضي ما تبقى من حياته يقف على الطلل وينتظر الذي يأتي ولا يأتي ؟

لماذ لا نكون مجرد مواطنين بسطاء، بإمكاننا أن نكتب حليبنا الأول وأشياءنا الصغيرة بدون مركب نقص ؟ لماذا لم تفلح الكتابة بعد من تحريرنا من حروب ملوك الطوائف وأوهام تاريخ لا يد لنا فيه ؟ لماذا لا نكون أنفسنا عندما نكتب ؟ لماذا ننكبت في الكتابة ولا ننكتب ؟ لماذا نخرج إلى العالم بكتب يريدها منا الآخرون ونخفي تحت جلودنا دفاترنا السرية التي نحملها معنا إلى قبورنا ؟

كم يلزمنا لنحرر اللغة من التاريخ لتقول ما نريد ؟ كم يلزمنا لنحرر اللغة من ثقافات الآخرين لنقول بها صمتنا الذي لم يكتب حتى الآن ؟

أستغرب كيف تهاجمني الأسئلة ويهرب مني يقين الكتابة وأنا مجرد شخصية ورقية، فقاعة من خيال يمكن لأدنى نفس أن يفجرني دون أن يدري بي أحد. أنا مجرد حالة روائية، يمكن أن أنقرض بتغير مزاج الكاتب إذا استجدت مستجدات دعته إلى الخروج من نفسه ليظهر إلى العالم بالصورة التي تقتضيها ضرورة التكيف مع الوسط. يغادرني الكاتب كلما احتاج إلى أن يسمي نفسه وفي الاسم يكون في حاجة إلى الرجوع إلى دكتاتوريته الصغيرة التي تفرض على الآخرين أفكارا لا يؤمن بها أصلا ولكن يحتاج إليها لفرض هيمنته على الآخرين..

كائن حبري، هش، معرض في هذه اللحظة الهشة لاختبار وجود.. أن أكون أو لا أكون.. ولأكون، تلزمني قدرة كبيرة على الحب وقدرة مدمرة على العشق وجرأة للنظر إلى الشمس.. محتاج إلى التماسك والتكون و التبنين والانوجاد باستمرار بحضرة الجمال المهيب وأنا أنظر إلى الوجه الحسن، وجه سناء...

علي بكل خسارات العالم لكي أقوى.. علي بكل الضربات الصاعقة لكي أقوى.. علي بكل الخيبات لكي أقوى.. إلهي، أحتاج إلى كل السماء في صدري لأرى سناء في مربع الانتظار القاسي.. أحتاج إلى كل شجر العالم لكي أقف صامدا لسهام عيونها... أحتاج لقوة دفق شلال أوزود لكي أكون بحضرتها.. أحتاج إلى انكسارات نجاة، إلى قوة الرفض فيها، إلى عزيمة الأنثى فيها في اليوم الأسود.. أحتاج إلى حناء الموت في كفها..، إلى احتفالها المتوحش بقوة الحزن الهمجي الغاضب في شرايينها..

مرت أيام وأنا أحاول أن أتجاهل هذا الانتظار القاسي وأن أنشغل بإعداد ما يلزم من وثائق، أضعها بين يدي سعيد الرئيس المباشر الذي أشتغل معه في مندوبية وزارة الثقافة، اشتغلت معه كباقي زملائي.. أخفيت كل الخوف تحت جلدي وتظاهرت بالحياد والموضوعية وأنا أصوغ ملاحظات واقتراحات قد تؤخذ بعين الاعتبار وقد ترمى

في سلة المهملات إن هو شم فيها رائحة الهلوسات والأحلام التي تعيش على هامش التاريخ وعلى هامش الواقع..

ولا أدري لماذا يلزمنا أن نتخلص من حالات الحب في العمل وأن نكون باردين محايدين إلى أقصى درجة.. لماذا لا يقبلون بعشقنا وحماقاتنا وأحلامنا في العمل ؟ ينسون أنهم بذلك يجردوننا من كل قوة يمكن أن تدفع بنا إلى الإبداع أكثر.. ويؤسفني، أنا الكائن الحبري، أن أرى هذا الفقر في الحب في أغلب الأعمال والأنشطة التي يقوم بها الناس في هذا الوطن.. غياب الحب في العمل كما في السرير.. عمل بدون حب وزواج بدون حب وحياة بدون طعم..

طلب مني سعيد أن أسافر معه إلى الرباط لنضع الملف في الوزارة.. لم أجرؤ على الرفض.. كنت مشدودا إلى البيضاء لأني أتوقع في كل لحظة هذا اللقاء المفاجئ مع سناء.. لم يفسح لي سعيد يوما المجال لأحدثه عن عواطفي ولا هو حاول مرة الحديث عن أزمته العائلية بعد تطليق زوجته لبنى التي مضى على زواجهما أكثر من عشر سنوات. ربما يرجع السبب في ذلك، كما تناهى إلي من أحاديث النميمة في الكواليس التي كانت تصل إلي بين الفينة والأخرى، إلى كونهما لم يرزقا، حتى ذلك الحين، بولد يملأ حياتهما بالمعنى، معنى الحياة طبعا...

لم أجرؤ، طوال الطريق، على أن أفاتحه في هذا الموضوع... موضوع حساس جدا، يرتبط لدى الكثيرين بالكرامة التي تأخذ معنى الرجولة التي لا يجب أن تمس أو يشار إليها من قريب أو من بعيد.

حاولت إثارته للحديث عن فكرة المشروع، فأبديت له حماسي لرؤيته يتحقق على أرض الواقع.. إلا أنه لم يبد نفس الحماس.. استغربت لأنه لم يكترث لا بالماضي ولا بطي صفحته.. الأمر بالنسبة له عمل في عمل، لا أكثر ولا أقل، مرتبط أداؤه بالحصول على "طرف د الخبز" قال لي في قلق وضجر: "ما بقى ما يفرح ف هاد لبلاد.. الكنوز الحقيقية هربوها... والثروة الحقيقية سرقوها... خلاوا لينا لحاسات

الموسخة.. ما لقوا ما يخليوا لينا غير الوسخ... بغاونا نغسلو ليهم لحباسات والمراحيض العمومية حتى هي باش ازوقوا وجوههم لسيادهم على حسابنا، طمعا في الحصول على الإعانات الدولية... ما كاينش شي حاجة كيديروها هاد الناس فابور ل لله ف سبيل الله... كنت بحالك متحمس لهاد شي أكثر من اللازم، لكن مع الوقت بان لي تا واحد ما كيهتم ولا كيقدر تعبك ولا مجهودك... فهاد الأخير وليت كنديرخدمتي كيف كيديروا كاع الناس... كالوا لي ندير ندير.. ما كالو لي اندير ما ندير والو..

كان سعيد يتحدث وهو يقود السيارة بسرعة لا تحتملها الطرق السيارة في بلادنا... كان قلقا ضجرا... يسرع لكي نصل بسرعة ونعود بسرعة.. كان إيقاع السير في الطريق السيار يسعفه.. يتجاوز باستمرار السيارات والحافلات والشاحنات.. ثمة كوامن تعمل فينا من الداخل ونستجيب لها في أفعال وحركات يصعب على الغريب أن يعرف حقيقتها..

ماذا طرأ على حياة سعيد ؟ لماذا تغير بهذه السرعة ؟ في سفرنا السابق إلى الجنوب كان شخصا آخر كان يميل إلى التريث والدقة في العمل ويراجع العمل الذي قام به أو قمنا به عدة مرات قبل أن يفرغه في العمل النهائي. صحيح أن سعيدا كان عمليا وتقنيا أكثر من اللازم.. يخونه العمق وروح الفن والجمال التي كانت تلهب أيادي الصناع والعمال.. إلا انه كان شديد الملاحظة، منتبها إلى العلاقة المنطقية اللاحمة لمكونات الوثيقة المعمارية إذا صح التعبير. يعيد النظر باستمرار في النتائج إذا ظهر له ما يخل بالتحليل.

ماذا طرأ على حياة سعيد ؟ ماذا طرأ على علاقته بلبنى ؟ لا أعتقد أن الأمر يعود إلى افتقارهما للأبناء لأنه لم يبد أي رد فعل على ذلك خلال السنوات السبع الأولى من زواجه بلبنى. ثمة شيء آخر حدث ولا أحد يعرف عنه شيئا. ثمة سر مرتبط على الأرجح ب لبنى، كسر زجاجة السعادة بينهما. سعادة تنطفئ فجأة.. كانت زجاجة قابلة للانكسار في أي لحظة.

طوال الطريق كانت تساورني رغبة ملحة في أن أساله عن سبب هذا التغيير لا لرغبتي في التدخل في ما لا يعنيني وحشر أنفي في مشاكل الآخرين ولكن رغبة في مشاركته همومه وتقاسم المعاناة معه للتخفيف عنه. كنت سأحدثه عن التوتر الكبير الذي باعد بيني وبين خطيبتي "حياة"، توتر يزداد ولا ينقص.. بدأ منذ تعرفت على الكاتب واشتغلت بوزارة الثقافة والتقيت بنجاة في شلال أوزود.

كان الصمت سيد الموقف والسرعة المفرطة وقلق غامض، ينفجر أحيانا على لسان سعيد وهو يتحدث عن مواقفه السياسية من الأحداث التي عرفتها البلاد في الآونة الأخيرة: السماسرة واللصوص والجلادون والأميون هم سبب أزمة البلاد.. كنا نظن أن الثقافة كانت من الممكن أن تطهر ما تراكم من أزبال في الوزارة وفي غيرها.. غير أن العكس هو الذي حصل... السياسة العفنة هي التي تغير ولا تتغير.. حكومات الواجهات لا يمكنها أن تفعل شيئا.. تطبخ الأفكار الجهنمية، وليثها كانت أفكارا، في الكواليس تبعا لمزاج بعض الشخصيات، لتخرج قرارات عشوائية، يدفع ثمنها شعب بأكمله.. تناوب.. أي تناوب.. تناوب فرضته الصناديق الخارجية، ابتداء من صندوق النقد الدولي مرورا بصناديق الدول الصديقة التي يجب أن ترضى علينا.. تناوب... تناوم وليس.. تناوب.. تناوم أضفى الشرعية على نوم الأعيان في مجلس النوام..

وعندما هدأ فوران غضبه قليلا، حاولت أن أوضح له على أن الكأس ليست فارغة كلها.. وأن تعاطي المغاربة مع الشأن السياسي يحتاج إلى وقت كبير، ينضج فيه المجتمع المدني وتقوى فيه المؤسسات... كان يقاطعني بحدة، أي إتاحة مزيد من الفرص للرشوة والسرقة والنهب والمحسوبية والتطبيع مع الفساد.. أهذا ما تريده أنت أيضا...؟

كان واضحا أن وراء هذا الغضب السياسي ل سعيد غضبا آخر من نوع آخر.. لا يمكن فصله عن مزاجه السيء في السياقة بهذه السرعة الجنونية ولا يمكن

فصله عن أزمة عاطفية محتملة يمر بها سعيد وإلا لماذا تغير بهذه السرعة وكنت أعتبره في عداد المحافظين قبل أن يحدث ما كنت أجهله..

ثمة خيط رفيع غير مرئي يربط بين السياسة والحب.. أين ينتهي الحب وتبدأ السياسة ؟ أين تنتهي السياسة ويبدأ الحب ؟ هل فشلنا في الحب يؤدي حتما إلى فشلنا في السياسة ؟ لست متأكدا من ذلك.. قد يكون طرح السؤال مغلوطا. ألا يمكن القول، من وجهة نظر أخرى، ترى العالم من زاوية أخرى غير التي يرى بها سعيد الحياة: ألا يدفع الفشل في السياسة إلى تحقيق نجاحات كبيرة في أقاليم الوجدان... ألا يمكن للإفلاس السياسي أن يؤدي إلى مغامرات نسائية بحثا عن الحب الحقيقي المفتقد والذي يصعب تحقيقه مع امرأة واحدة ؟

وبالمقابل هل المغامرات النسائية دليل على السعادة ؟ ولندفع بالسؤال إلى أقصى التطرف: هل يمكن لحب ما أن يكون سعيدا ؟ ألا تكون السعادة نهايته الحتمية ؟ أعتذر على هذه الأسئلة التي تبدو في ظاهرها بعيدة عن حالة سعيد الفاشل في الحب والفاشل في السياسة.

تذكرت، وأنا أتحدث مع سعيد، حوارا متقطعا، متأزما، ملغما، ورد في رواية "المحاورة" ل كونديرا. يقول مدير مستشفى، أحد شخصيات الرواية، يفتخر في الظاهر بغامراته النسائية: "زملائي الأعزاء، أكبر تعاسة بالنسبة للرجل هي زواج سعيد. فلا أمل بالطلاق" استغربت لهذا التداخل بين الرواية والحياة الذي يحدث بين الفينة والأخرى وكيف تنتهي بنا المآزق في الحياة والرواية معا إلى الميتافزيقا.

أقنعة الحب والسعادة متداخلة. يصعب تحديد مناطق تقاطع الحب والسياسة: أين تنتهي السياسة وأين يبدأ الحب ؟ أين ينتهي الحب وأين تبدأ السياسة ؟ هل كان سعيد سيغضب هذه الغضبة الشرسة ويصب جام غضبه على من يسميهم أهل الحل والعقد لو لم يحدث ما من شانه أن يعكر صفو الحب بينه وبين لبنى ؟ ماذا حدث بالضبط ؟ لا يمكن أن يكون العقم وحده هو السبب. هل كشف الحب عن

قناعه ؟ هل ظهرت الحقيقة المرة وأطلت أخيرا بعد عقد من الزمن..؟ أليس صحيحا أن الزمن يختبر القيم فيظهر الخالص منها والزائف ؟

ليس لدي أجوبة قاطعة فيما يخص حالة سعيد وليس لدي الترخيص الكامل من الكاتب لكي أتجسس عليه، وكل ما أعرفه الآن أني أصبحت معنيا بقصته ولا أدري لماذا بالضبط. لا أملك وأنا أفكر في حالته إلا افتراضات يتيمة وأسئلة مقلقة.

لا أدري لماذا تناهى إلي ظن غريب، ظن وسوس نفسي وأرقها. فكم نأثم بالظنون ونستعيذ بالله ولكنها تهاجمنا في خلوتنا وتبني أفكارنا في الكتابة. أليست كتابة الرواية، في نهاية المطاف، مجرد ظنون كان من الممكن أن نلصقها بأشخاص واقعيين. عوض ذلك، نبني، بنفس الظنون، أشخاصا وهميين يتسع صدرهم لأفكارنا السوداء وظنوننا الآثمة.

لماذا لا يثمر الحب في بلادي ؟ لماذا لا يستطيع أن يمشي في الشوارع والأزقة ويسكن البيوت ومقرات العمل، في الإدارة والمدرسة والأسواق ؟ ظهر لي لأول مرة أن الحب نسبي.. نعم فهو حالة إنسانية مثالية، نحلم بها دوما، لكن عندما نختبر من أجله، نفشل ؟ لماذا يفشل الحب في بلادي ؟ لماذا فشل سعيد في الحب ؟

بدا لي، فيما بعد، أنه لا يمكن أن نفصل الحب عن الصورة التي يكونها كل واحد عن نفسه. لا عجب أن يحب نرسيس صورته في صفحة الماء. أحس أننا لا نختلف عنه كثيرا مع فرق بسيط هو أننا ليست لنا القدرة ولا الإرادة ولا الرغبة في رؤية أنفسنا في صفحة الماء، في مرآة الآخر. سعيد غاضب لا يريد أن يرى صورته في الماء. الماء ملوث لا يمكن أن يعكس الصورة حتى إن كانت لنا رغبة النظر إلى صورنا.

هل ما نراه فعلا في المرآة هو صورتنا ؟ سعيد لا يرغب بتاتا في الحديث بالمباشر عن نفسه ولا عن علاقته بلبنى. البيت عورة والمرأة عورة والحياة الحميمية عورة وصورتنا في المرآة عورة والنظر الى المرآة لعنة ونهجر الحب إلى السياسة... هنالك نتعارك... ننقل معاركنا إلى السياسة، فهي تمكننا من إسقاط فشلنا على

الآخرين. فشل في الحب يتحول إلى غضب في السياسة. لا أدري إن كان هذا صحيحا، فانا لا ألزم به أحدا، حتى الكاتب فهو بريء من ظنوني وافتراضاتي هذه التي لا تنفصل عن التجربة التي أمر بها الآن والتي تحيرني.

أتساءل، لماذا لا يوصل ما يجب أن يتصل ؟ لماذا لا يحدث هذا التفاعل الكيميائي بين الذكر والأنثى وبين الذوات ؟ لماذا نشكو من طاعون الفصل والانفصام لماذا ننشق بسهولة عن الحزب وعن النقابة وعن الجمعية ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا لا يثمر الحب في بلادي ؟

هذا ما بدا لي من سعيد لكن ماذا عن لبنى... فأنا لا أعرف عنها إلا الاسم، فالأنثى، خصوصا المتزوجة، تبقى حريما ممنوعا على الرواية.. ما كتب حتى الآن من بوح الأنثى لا يشفي الغليل.. لا يمكن للكوطا أن تنتج في السياسة ولا يمكنها أن تنتج في الرواية..

أثارني اسمها "لبنى".. الاسم قدر الأنثى.. الاسم قدرنا جميعا... لكن الإنسان لا يسمي نفسه أبدا... ليس الذكر كالأنثى.. جماعة الذكور في أغلب الأحيان من يسمي الأنثى.. يسمونها طبقا لما يتوقعون منها.. أو لم يتوقع من لبنى أن تكون ولادة، تهب البنين والخصب للوطن والعباد... أن تكون ك "ولادة" الأندلسية... وجه الشبه في اعتقادي واضح:

هما معا فشلتا في الحب مع فرق بين حب المغرب وحب الأندلس وفرق بين ابن زيدون الأندلسي وسعيد المغربي.. سميت لبنى لأن الجميع ينتظر منها البنين وأحيانا، البنات. وعندما لا تفرخ، تخون اسمها وتسقط الصورة التي كونها أو انتظرها منها الآخرون وتسقط بالتالي الصورة التي كونتها هي نفسها عن نفسها.

أليس هذا ما يكون قد وقع ل "لبنى". انتظرت لمدة عشر سنوات أن تكون لبنى، أن تكون ما ينتظر منها الآخرون الذين سموها، ما تنتظره من نفسها. ولما فشلت

يئست، انهارت، فقدت ثقتها في نفسها، فالثقة في النفس نستمدها غالبا من ثقة الآخرين فينا.

لبنى لا ترى صورتها الخاصة في المرآة.. ترى في الصورة ما يراه الآخرون منها.. ما يرجح هذا أن سعيدا لم يفاتحها، ربما، في المسألة ولم يحاول أن يفهم ما طرأ عليها من تغيير بين عشية وضحاها.. كان قراره رد فعل، ليس إلا.. طلقها لأنها تغيرت ولم تعد كما عهدها وذهبت الظنون به كل مذهب.. انهارت لبنى بين يديه وبدلا من أن تهجر الحب إلى السياسة كما فعل هو، نقلت معركتها، ربما، إلى ميدان آخر لا علم لي به... لم تكتب الشعر مثلا كما فعلت ولادة... ولم تكتب القصص عن أبطال وهميين كما فعلت سناء.. ولم تنشئ مرافعات قانونية صارمة ودقيقة كما فعلت "حياة" معي... ولم تلتجئ إلى الثرثرة اليومية مع نساء أخريات يلذ لهن تحقيق انتصارات وهمية على حساب الآخرين كما فعلت أمي.. انفجرت على طريقتها الخاصة بشكل لم يتحمله سعيد فأقدم على طلاقها...

كان بودي أن أفاتح سعيدا في الموضوع ليحدثني، ولو قليلا، عن لبنى، لألتقط ولو بعض التفاصيل الصغيرة، تمكنني من معرفة سبب هذا التغير المفاجئ في مزاجها إلا أنني لم أستطع.. إن أي سؤال من قبلي سيعتبره تدخلا في حياته الخاصة.. ولا مجال للخلط بين الحياة المهنية والحياة الخاصة في اعتقاده، خصوصا في ظل هذه الأزمة التي طبعت حياته بعد طلاقه من لبنى..

وما كان بودي أن أتدخل في حياته ولا أن أتحدث الآن عن علاقته بلبنى لولا أن الموضوع فرض نفسه بإلحاح. الموضوع يتجاوز سعيد.. فالأمر يتعلق بظاهرة أصبحت تفرض نفسها على المهتم بسلوك المواطن في البلد.. وبسلوك الموظفين العاديين والساميين بالخصوص الذين يمضون على قرارات مهمة تهم البلاد والعباد تحت تأثير أزمة عاطفية، تعلن عن فشل الحب في حياتهم الخاصة... فكيف نفسر ظاهرة عدم الاستقرار السياسي في البلاد، في الأحزاب والجمعيات التي تتناسل وتنشق

بشكل مخيف بدون مبرر فكري ولا إيديولوجي ؟ ألا ترتبط بأزمة عاطفية، تتسم بعدم الاستقرار العاطفي الناتج عن عدم نضج الحب في بلادنا ؟ لماذا لا يحب هؤلاء جمعياتهم وأحزابهم وأوطانهم بالشكل الصحيح ؟ لماذا يكثر الطلاق السياسي في الجمعيات والنقابات والأحزاب كلما طرأ طارئ يدعو إلى الاختلاف في شأن قضية من القضايا ؟ لماذا لا يقوى الحب على استيعاب الاختلاف؟ لماذا هذا الانتقال الغريب من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين؟ أين الإيمان بالفكرة ؟ أين الحب ؟ أليس الحب استعدادا للموت من أجل فكرة ؟ أين حب الأوطان ؟ أين الإيمان ؟

أسئلة كبيرة يصعب الجواب عليها في هذا المقام. تتجاوز طاقة شخصية من ورق في رواية محتملة، تحشر نفسها في شؤون الآخرين. لا أملك في هذا المقام سوى دهشة السؤال وفرضيات الخيال التي تخطر ببالي كلما ألقى الوطن بهمومه على مصير علاقة الحب بين الشخصيات في الرواية ومنها هذا الافتراض المجنون: ماذا لو تم تقديم مشروع قانون لمجلس الأعيان، يفرض على الأعضاء موافاة الوزارة القائمة على شؤون المجلس بملفات الصحة النفسية تتضمن كشوفات عن علاقاتهم العاطفية، توضع في أرشيف الوزارة كما توضع كشوف عن الممتلكات المادية الخاصة.. أليس من حق الرأي العام أن يعرف الحالة النفسية والعاطفية للزعماء والموظفين الساميين والأعضاء الذين يصوتون للأشخاص والمصالح بدلا من التصويت للمشاريع والأفكار ؟

النشرات الجوية والنفسية، المتقلبة للأسف، تهم جميع المواطنين.. فأمر البحر يهم أرباب السفن والفقراء الذين يتغذون على سمك أعالي البحار... عفوا.. أعتذر على هذا الاستطراد الذي فرض علي نفسه بسبب التوتر بين سعيد وزوجته والذي ألقى بظلاله على أجواء الرحلة من البيضاء إلى الرباط التي أراد سعيد أن تكون قصيرة وسريعة.. لأعد إلى موضوع الرواية:

بعد إيداع الملف في وزارة الثقافة، همني كثيرا أن اقترح على سعيد أن نقضي ما تبقى من النهار بموقع شالة التاريخي لنكون مع التاريخ ومع أنفسنا ولو لبعض

الوقت، ننفتح على التاريخ وربما على أنفسنا في غفلة من تعليمات الإدارة وبعيدا عن القيل والقال، لنقف على موقع الحوريات السبع وقبر الأمير المريني بجوار قبر زوجته... هنالك يتنفس التاريخ في صمت ويتصاعد بخارا غير مرئي في الحمامات الرومانية.. هنالك يمكن لأرواحنا أن تستمد بعض الثقة في النفس.. نحتاج في كثير من الأحيان إلى صمت خراب الحضارات السابقة والى أوهام بعض الاستعارات.. والى ما تبقى من شعر الأرض، لنسكت ضجيج الآخرين فينا، لنقف على أنفسنا ونقيم حوارا بعيدا وعميقا مع الموتى الذين خلدوا أوهامهم في كثير من اللقى الأثرية المتناثرة هنا وهنالك...

كنت سأقترح على سعيد هذه الهدنة لإيقاف هذه الحرب المدمرة التي تقتل الإنسان فيه.. لكنه لم يبد أي مؤشر يشجعني على ذلك... كنت أتحاشى أي نوبة عصبية يمكن أن تفسد الموقف وتفسد علاقتي به والتي لم تتطور بعد بالشكل الكافي الذي يتطلبه اقتراح كهذا... ركبت إلى جانبه وأغرقت نفسي في صمت ظاهره هدوء واستسلام لمجريات الأحداث..

تسير السيارة كما أرادت لها الطريق السيارة... سرعة... تجاوز... وباطنه، أي الصمت، رحلة إلى عالم الحورية الثامنة.. لم تكن رومانية هذه المرة.. كانت حورية مغربية.. تنعم بغضب شعري جميل.. كانت ثائرة... حائرة.. حورية ثامنة تتكون تدريجيا من البخار المتصاعد من إحدى وثائق الملف السري لسناء.. حيث كتبت أنها ترغب أن تخرج إلى الشوارع والساحات العمومية عارية.

كلماتها تقفز إلى عيني، مخططة باللون الأسود... كانت حورية سناء ترتدي وشاحا أسود شفافا.. تريد أن تخلعه وتنطلق إلى البحر متمتعة بشمس الحرية.. تريد أن تطلق ساقيها للريح والموج.. عارية كما ولدتها أمها في عصر كانت النساء يحكمن البحر ويخرجن أسرابا في السحر، عندما يطيش مزاج القمر وتشتد فتنة جاذبيته. كانت حورية سناء، كما تذكر الوثيقة، مقيدة بعيون الرجال التي لا ترحم.. تريد أن تخرج عارية

إلى الساحات والشوارع.. لكنها تخاف أن يفهم عريها فحشا.. تريد أن تخرج عارية لتبرهن للعالم أنها حرة... حرة سيدة نفسها، أقرب إلى الأحلام وفوق شبهات الشهوة الرخيصة... شهوة رجال يخفونها تحت ملابسهم في النهار ويطلقون لها العنان في الليل وفي الكواليس... تريد أن تخرج عارية إلى الأزقة والشوارع، لأنها تريد أن تكون نفسها..

سناء لم تفعل ذلك ولم تستطع، وهذا ما يؤزمها ويزيد من شقائها وثورتها التي أخفتها تحت الحجاب الذي ارتدته في مرحلة من مراحل حياتها، كما يبدو من مضمون إحدى الوثائق الأخرى...، أخفتها تحت جلدها.. في أقنعة وجهها.. سناء لم تفعل ذلك ولم تستطع أن تبرز إلى الشمس كما تريد وتشتهي ولكنها لم تستسلم أيضا... هربت ثورتها وأحلامها إلى الكتابة.

.. كتبت.. وكتبت.. كانت تكتب في أي لحظة.. في دفاتر الدروس... على هامش نصوص المقررات.. على مزق أوراق مرمية، ساقطة من متاع.. تكتب كل ما عن لها من أفكار شاردة... شذرات... جملا متقطعة... وكان يوسف ينتزع منها بعض ما كتبت إذا فاجأها في وضعية الكتابة.. إذا ضبطها متلبسة بالحبر.. وكانت أحيانا تكتب في دفاتره.. وأحيانا، وهي تتحدث، تكشف له عما كتبته البارحة.. كانت حالة الكتابة تتلبسها لأدنى سبب..

كانت الأسباب دائما ذرائع لفتح الأبواب السرية للعالم الآخر الذي يسكننا.. ثمة قوة غامضة تتفجر في داخلنا، تجعلنا نقبل أحيانا على الكتابة دون أن يكون لنا سبب وجيه للكتابة.. وحتى دون أن تكون لنا فكرة واضحة حول الموضوع الذي نود أن نكتبه..

لم يحصل يوسف إلا على الكتابات المتقطعة.. الكتابات التي أرادت له أن يطلع عليها.. أما كتاباتها المتصلة التي كانت تترصد لها وتقبل عليها أحيانا عن سبق إصرار وترصد، فلم يقدر له أن يطلع عليها... بقيت مخطوطة في مكتبتها القديمة...

دفنتها في أرشيفها السري ولا ندري من سيكون له الحظ في تحقيقها ذات يوم لترى النور.. هل ستفعل ذلك بنفسها ؟ هل ستصادرها الرقابة.. رقابة الضمير.. رقابة زوج محتمل ؟

ماذا سيتبقى منها في نصوصها الأدبية التي صاغتها طبقا للمواضعات الأدبية والاجتماعية وحتى السياسية ؟ ألم تتحدث، هي نفسها، عن التمزق والتكسر الذي يصيب الحياة والرواية ليصبح قطعا متناثرة، تسميها الأعراف الأدبية قصصا قصيرة جدا ؟

ودعت سعيدا مساء ذلك اليوم وحملت في داخلي أسئلتي الصغيرة التي لم يعرف عنها شيئا ولا يريد أن يعرف عنها شيئا.. هربت أسئلتي إلى داخلي وقرأت مقتطفات من كتاب "خلسة الكرى" لأخفف من عزلتي. أيقظتني اللغة الباذخة لصاحبه. كان يكتب في دفتر تدوينه عن إناث سبق له أن تعرف عليهن في محطات مختلفة من حياته... كانت أجمل هذه الإناث عندي تلك التي تحمل ملامح سناء.. كنت اقرأ وأتخيل وجه سناء الحالم:

"إذا نكح الأزرق الأصفر يتولد الأخضر.

امتزاج الأسود والأحمر منجب للياقوتي

ذوبان الأحمر والأزرق يتبعه البنفسجي".

كنت أنانيا في قراءتي وأبعدت الألوان التي لا تهمني في هذه اللحظة، وأبقيت اللون البنفسجي في مخيلتي طويلا، لا لكون الألوان الأخرى غير ذات قيمة عندي وإنما بسبب هذا الطيش الشعري الحالم الذي وجد في التوالج بين الأحمر والأزرق رغبة في التواصل مع سناء.

.. بالبنفسجي يمكن أن أرى سناء أحسن.. في هذا اللون المتكتم رغبة قديمة ودفينة للبوح واللقاء.. فيه حنين لما تبقى من يوسف الذي كان مغرما أيضا بهذا اللون

واختاره لطلاء مخدعه الهاتفي.. سلام الأزرق يطفئ ثورة الأحمر أو قل حمرة اللظى توقظ ذكريات زرقاء، تنام هادئة مطمئنة في المناطق السفلى النائية من وجودنا.. تعجبت ل"جمال" الغيطاني كيف زوج الألوان في مخيلته، في مختبر الكتابة السحري وعرضها للقراء ليختار منها القارئ ما يريد.

.. منه الكتابة ومني القراءة.. منه الكتابة ومني الحلم.. أيقظ الكتاب حواسي الشعرية وتأكدت أننا لا يمكن في قراءتنا أن ننفصل، ولو لحظة ونحن نقرأ أجمل كتاب، عن تخيل أجمل وجه أنثى عرفه التاريخ الشخصي..

أطفأت أنوار الغرفة وسلمت نفسي لنوم محتمل قد يأتي أو لا يأتي.. كنت مشغولا بالتفكير في سناء... مشغولا بهذا اللقاء المحتمل الذي قد يحدث أو لا يحدث.. تحايلت على الأرق واحتضنت الوسادة بين ذراعي ونمت ورأيتها.. رأيت سناء شبه عارية ترتدي وشاحا بنفسجيا شفافا في فضاء غريب بالأبيض والأسود، تركب القطار.. قطار بالأبيض والأسود، استعارته مخيلتي الحلمية من أفلام الاتحاد السوفيتي في بداية القرن الماضي إبان التحول من الإقطاع إلى الاشتراكية.. تحرك القطار بسرعة. كنت أجري خلفه على الرصيف بسرعة فائقة لألتحق بسناء التي كانت تلوح لي بمخطوط قديم.. كانت تنادي بأعلى صوتها.. تصرخ لألتحق بها لتناولني المخطوط القديم.. لم يبال القطار بندائها.. ارتفع هديره. زادت سرعته.. نقصت سرعتي. هدني التعب. سقطت على السكة الحديدية. كانت صلبة. كانت باردة. كان شتاء قاسيا. كان البخار يتصاعد من أفواه المسافرين والمستقبلين. كانت خطوط السكة واضحة بما فيه الكفاية. رأيتها وأنا افتح عيني تشكل حدود السرير الذي أنام فيه. كان سريرا حديديا. تمنيت لو كان من خشب.. في الخشب قدرة على الدفء والحنين.. يختزن ذكريات غابة احترقت أو قطعت أوصالها بالحديد.. كان الخشب ضحية ويمكن للضحية أن تشفق على الضحية.. في الخشب إمكانية للحياة.. في داخله ألم من ماض سحيق.

عندما استيقظت اشتعلت في رأسي تأويلات كثيرة ومتضاربة لما رأيت في حلم الليلة الماضية.. أوحى لي شيطان التأويل أن سناء ترغب فعلا في اللقاء والتواصل وأنها تريد فعلا أن تعطيني المخطوط.. وأنها جادة في ذلك... لأنها كانت في الحلم تنادي بأعلى صوتها.. تصرخ.. علي إذن أن أتابع الجري وألاحق القطار.. صحيح فهو أسرع ولكن سأكون معاندا.. سأركب الحلم.. وأركب الجنون.. لا يمكن أن يكون الحلم كاذبا.. سأجري وأجري.. نعم سأصل متأخرا.. لكن سأصل.. سأجده رابضا هنالك ينتظر، ينتظر حالما ركب رأسه وجنونه وأراد أن يوقف الزمان الذي لا يتوقف.

ضحكت من حلمي ومن هذا التأويل الغريب الذي خطر ببالي وكأن شخصا آخر هو الذي أملاه علي.. قلت في نفسي، ومع ذلك لا يمكن أن أبقى حيث سقطت.. علي أن ألاحق سناء من قطار إلى آخر ومن محطة إلى أخرى. علي أن أستقل قطارا آخر وأحملق وأحدق بكل حواسي في كل الوجوه الكائنة والممكنة على أرصفة المحطات القادمة.. قد أجدها في المحطة الموالية.. ألم تكن سناء تنادي بأعلى صوتها.. ألم تكن تصرخ.. لا بد أن تنزل في المحطة الموالية وإلا كان نداؤها عبثا وكذبا...!

... والحلم لا يكذب ابدا..!

صدقت حلمي وقررت أن ألاحق سناء في الواقع..

في مساء اليوم الموالي استقللت حافلة الخط الرابط بين الحي القديم والمدينة الجديدة. كانت الحافلة مملوءة عن آخرها بكل الوجوه واللهجات والعادات والأصوات والحركات. استغنيت عن خدمات الهاتف المحمول وقررت أن أذهب بنفسي وأبحث عن سناء في مقر سكناها. سأباغتها وأفاجئها كما فاجأني الحلم.. تمنيت أن يقف القدر هذه المرة إلى جانبي.. وسأترك الصدفة تلاحق الغزالة الخرافية.. سأترك للخيال المتيم بحب سناء الفرصة للقبض على طيش غزالة متمردة، تصر دوما على هتك سر الخرافة.

توقفت الحافلة بجانب السوق المركزي. هنا تفرغ الحافلة حمولتها.. ينزل أغلب الركاب جماعات ليتفرقوا بعد ذلك أفرادا.. ذرات متناثرة وسط حشود هائلة من الغادين والرائحين. يتحركون في كل الاتجاهات لأغراض شتى، لا يبالون بما رأيت ولا بما سأرى..

يقصد المدينة الناس من مختلف أصقاع البيضاء، بل من كل أصقاع المغرب، يزحفون إليها كسلاحف تخرج في مواسم الخصوبة، تخرج من البحر إلى البر لتحفر وتضع بيضها في الرمال قبل أن تعود من حيث أتت تاركة سلاحف المستقبل الصغيرة للمجهول، ستخرج من بيضها وتتجه بحاستها اتجاه البحر وتلتحق بكبار السلاحف. ولست على يقين إذا كانت تتعرف على أمهاتها في أعالي البحار.. ما أشبه هذه الحشود من البشر بهذه السلاحف في حركتها اللاإرادية، تسير في كل الاتجاهات دون أن تعرف بعضها البعض.. ولا يهمها أبدا أن تتعرف على أمهاتها... لا يهمها حنين الأزمنة الغابرة ولا يهمها أن تقف عند رسائل السماء بمختلف أشكالها... سلاحف تحمل عزلتها على ظهرها ولا تنظر إلى السماء أبدا.. ولا تتطلع إلى آفاق الكون أبدا.. تمضي لتضع بيضها في الرمال، في سلة واحدة دون مبالاة بالآلة الجهنمية التي تهد الأعماق... كائنات تكبر في السن والزمن، تشيخ ولا تنضج في الشعر والخيال..

تساءلت وأنا أتجه صوب شارع الجيش الملكي حيث عنوان سكنى سناء... لغط وضوضاء منبهات السيارات، تنذر وتحذر.. تساءلت عن مدى التشوه الذي يمكن أن تلحقه مدينة متوحشة بأعماق سناء.. عن جراح غزالة تعيش خارج مجالها الحيوي حيث المدى الطبيعي والمساحات البرية الشاسعة المتوحشة.

أين سأجدها ؟ أين سأعثر عليها ؟ خفت على نفسي من الزحام.. خفت أن أضيع نفسي في الزحام قبل أن أعثر على سناء..

كان المساء يزحف نحو الغروب.. قلت في نفسي، علي أن أعثر على سناء في أصيل هذا اليوم.. هي قالت بأنها عادة ما تكون ببيتها بعد العصر.. علي أن لا

أتأخر عن الموعد المقدس.. علي أن أقف على بابها قبل أن تغادر الشمس فضاء البيضاء.. ترتفع العمارات شامخة تحجب عني سناها. الشمس تغرب في البيضاء قبل أوانها..

شحذت كل حواسي وأنا أخطو مترددا متطلعا إلى مداخل أبواب عمارات شارع الجيش الملكي.. على اليمين وعلى اليسار.. وأخيرا بعد جهد جهيد دلني حارس السيارات على الاتجاه المحدد.. علي أن أسلك منعطفا كان يخفي، على الجهة الخلفية من الشارع الرئيس، العمارة التي أقصدها..

عمارة تحيط بها حديقة صغيرة فيها من أصناف الحشائش والورود ما لم أحط به علما، ولكن ما أثار انتباهي هو لون البنفسج الذي تخيلته وكأنه خرج لتوه من شقة سناء ليرى العالم للحظات قبل أن يعود من حيث أتى.. أزهار وأشجار تتمايل في كل الاتجاهات بفعل رياح بدأت تتحرك، تهب هذه المرة من الشرق أو خيل لي ذلك.. يصعب تحديد الجهات الأربع للعالم في مدينة كالدار البيضاء، تحجب العمارات العالية عنك السماء ولا تدري ما يقع هنالك إلا بعد بروز الآثار على السطح..

انتبهت إلى نخلتين سامقتين تقف إحداهما على يمين مدخل العمارة والأخرى على يساره.. صعدت النظر رأيتهما ترتفعان إلى عنان السماء، تطاولان صرح البنيان في تحد مكشوف.. في النخيل حنين يتجذر في أعماق الأرض، وفي قمة جريده رغبة محمومة لبث أحلام الأرض إلى السماء.. تذكرت تلك الأنثى السامقة، الشامخة، الرائعة، التي كانت تقف بين شجرتي التوليب، التي رآها جمال الغيطاني في رسائل الصبابة والوجد ذات صباح أسيوي، تمضي من اليمين إلى اليسار بقامتها الفارهة، الباسقة، ما بين شجرتي توليب. لم يكن الكاتب يدري هل قامتا منذ أزل قديم أم نبتتا مع مجيئها..

أنا، كذلك، لم أدر كيف استيقظت في داخلي ذكريات القراءة وأصبحت ماثلة للعيان أمامي وكأنني عشتها بالفعل.. مع فرق بيني وبين جمال في التوقيت والمكان..

كان يرى صباحا يشرق، أما أنا فأرى مساء غروب يأفل.. كان هو يشرف على منظر أنثاه الخالد في ذاكرتي من الأعلى، من نافذة بطابق علوي، أما أنا فلا زلت على عتبة مدخل العمارة أتطلع من الأسفل إلى الأعلى، أصعد بعيني، أتتبع شموخ النخلتين المشرئبتين بأعناقهما إلى عنان السماء.

لم أر أنثاي بعد. توقعت أن تطل سناء من شرفة طابق علوي، تخيلتها.. لكن لا أثر.. رأيت سماء ملبدة بسحب، تتحرك مسرعة، تتكاثف، تتضام بفعل رياح تهب، تحمل معها أخبارا غامضة..

صعدت درجات العتبة وتطلعت إلى أسماء سكان العمارة المكتوبة على لوحات الأجراس المعلقة، وجدت الاسم السحري.. الطابق الثامن.. قرأت حروفه: سناء الرمادي، كمن يكتشف قارة مجهولة، غامضة، لم ترد في خريطة.... ترددت مرة أخرى في مكالمة سناء عبر هاتف الجرس.. ذكرني بخيبة الأمل، بلعنة الهاتف النقال.. قلت يجب ألا أغلق على نفسي بنفسي أبواب الأمل.. أن أمتع نفسي بلحظات أمل أخرى ممكنة حتى وإن كانت قصيرة..

اخترقت البوابة.. خيم الظلام على المكان.. اهتديت بصعوبة إلى المصعد.. ترددت مرة أخرى في الاختيار بين المصعد وأدراج السلم.. ستكلفني هذه الأخيرة جهدا ومشقة.. لكن ستتيح لي مزيدا من الأمل.. وإن لم يتحقق الأمل.. فسيتأخر موعد الخيبة قليلا.. لا أحد يفهم هذه الشطحات التي تدور في داخلي الآن..

ترددت. لم يطل التردد كثيرا.. سمعت وقع خطوات خلفي في عين المكان.. خطوات ثابتة، قوية واثقة من نفسها.. ما كدت التفت حتى أضاء المكان.. ورأيت دركيا بلباسه الرسمي يتجه إلى المصعد.. خفت أن يضبطني متلبسا بشطحاتي وظنون أخرى قد تتبادر إلى ذهنه، خصوصا إذا كان من سكان العمارة.. دركي يقف فجأة إلى جانب غريب يقتحم بوابة العمارة.. يقف في العتمة مترددا.. قد يكون لصا ينتهز الفرصة المناسبة للسطو على ممتلكات الغير..

لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن أفاتحه في الموضوع ولا رغبة لي في الحديث معه لأن أي كلام معه، سيكشف عن سبب زيارتي.. زيارة غريب لأنثى في شقتها، لن تكون بريئة في عرف دركي عليه دائما أن يحمي القبيلة من الحب والشعر والحشيش.. لا أدري أي إنسان يسكن داخل ذلك اللباس الرسمي.. ولا ماذا يمكن أن يكون رد فعله.. كل ما افترضته في تلك اللحظة المحرجة هو أن لا مجال للتفاهم مع رجال سلطة يقدمون أنفسهم للعالم كرتب ونياشين وأصحاب سلطة ونفوذ وجد الناس ليخدموهم وليس العكس..

التزمت الصمت.. ضغط على الزر وتفرس في وجهي.. انفتح باب المصعد دخل.. حدق في من جديد.. يدعوني إلى الالتحاق به.. ليست دعوة في الحقيقة وإنما أمر، كما يبدو من نظرته الصارمة الجازمة القاطعة.. حتى الخدمات التي يقدمها رجال السلطة من هذا النوع، يجب أن تفهم كأوامر تنفذ حالا. لم يكن هذه المرة مجال للتردد فتبعته.. دخلت.. شكرته.. لم يجب. ندمت لأني ضيعت فرصة ارتقاء درجات السلم لأطيل عمر الأمل والانتظار.

ضغط على الزر، انفتح الباب على الطابق الرابع.

انغلق الباب وارتفع المصعد بمتناقضاته الوجودية.. ماذا يعني وجودي في هذا الوقت بالذات مع هذا الدركي الذي تلبسه بدلته الرسمية بدلا من أن يلبسها.. هل هو فعلا كذلك كما تصورته أم يخفي تحت لباسه شخصية أخرى لا املك الذكاء الكافي لاستغوار مكنونها ؟ ماذا بإمكانه أن يكون في حضور الأنثى ؟ هل يبقي على قشرته الخارجية أم يستسلم لهشاشته الداخلية ؟.. كثيرون هم هؤلاء الضباط والجنرالات والقضاة والوزراء وحتى الفقهاء الذين يقبضون على الأمر بيد من حديد، إلا أنهم يبكون بين يدي حسناوات لمجرد نظرة طاعنة من لحظ أنثى استثنائية.. كيف يكون هذا الرجل على سرير الأنثى..؟ هل ينام ببدلته على سرير الحب أم ينزع فعلا جسده النظامي ويتعرى من الداخل إلى جانب زوجته ويقول ما لا يقال، يقول بالليل ما لا

يمكن أن يتفوه به بالنهار..؟ هل يقرأ الروايات ؟ هل بإمكانه التفاهم مع شخصية ورقية تغادر كتابا لتقترف الشعر والجنون في شارع الجيش الملكي الذي فتح المجال لعدد كبير من الصحف ولم يفتح المجال ولو لمكتبة أدبية واحدة يمكنها أن تغذي خيال سكانه ؟ وان كان سبق له وأن قرأ الرواية، ألا يخشى أن يخلط بين الخيال والواقع ويرميني بتهمة الزندقة وإفساد شباب ونساء الشارع.. وأي مناوشة معه يمكن أن تشعل مخيلة الصحافة القريبة منا..؟ وهل يمكن لشخصية ورقية أن تواجه برهافة الحبر السلطة بكل أنواعها بما في ذلك السلطة الرابعة ؟ هل يتمكن الخيال في بلادنا من تعديل مزاج الواقع ولو قليلا ؟

ومما زاد من حدة التناقضات بيني وبين الرجل هو بقايا عطر أنثوي، خلفته أنثى رائقة في أجواء المصعد، مسك غزال مضى من هنا وخلف زمنا قديما من الحب.. هذا العطر يعني لي الشيء الكثير..

العطر عالم لوحده.. يصير الشم حاسة ملكية، بها أصير، عندما يتمكن العطر مني، أميرا يحكم كل البقاع التي مرت بها أنثى العطر الباذخة.. العطر دليلي على أنثى استثنائية مرت من هنا، أقامت هنا لبعض الوقت.. هل تكون الأنثى التي مرت من هنا، غير سناء.. مضت وتركت غزالتها مسكا وأريجا موجعا، يوقظ ذكريات حب قديم.. ذكريات شلال أوزود.. ذكريات نجاة التي انخرطت معها في احتفالها الحزين في ذكرى موت جمال الذي سقط من أعلى الشلال ذات يوم وهي تهم بتصويره.. ذكريات حناء سوداء غير منقوشة على راحتها كما تفعل أغلب النساء، فيها حزن متوحش، فيه شراسة الموت المفاجئ وسقطة نمور الشلال.. أريج قوي نفذ إلى انفي الداخلية.. تداخلت معه صور وجه نجاة وسناء ويوسف وجمال.. لا زال العطر قويا يملك الحواس ويزج بها في عالم آخر من الذكريات والأوهام.. إمبراطورية من خيال تتسكع فيها سناء.

أين سأجدها في متاهات هذه الجغرافيا السرية ؟ هل يدل هذا على أن دخول سناء إلى شقتها لم تمض عليه مدة طويلة..؟ هل معنى ذلك أن سناء موجودة الآن في

شقتها ؟ ألا تكون على العكس من هذا خرجت للتو منها ؟ هل رائحة العطر تصمد طويلا عند الدخول أو عند الخروج من البيت ؟. ومن يدري هل هذا العطر عطرها أم عطر أنثى أخرى تشبهها أو تحوم بعالمها..؟

أحتاج إلى ذكاء شعري وحدس من خبر الإناث طويلا، ومن أين لي هذا ؟ من أين لشخصية ورقية أن تدعي ذلك.. كل ما أملكه أوهام خيالية تشتعل في داخلي، تحرضها الكتابة في مخيلتي.

الطابق الرابع.. انفتح باب المصعد.. غادر الدركي.. ضغطت على زر الطابق الثامن.. تابعت رحلتي إلى السماء.. معراج جميل إلى عالم آخر يطول الزمن فيه بقدر ما يقصر في عالمنا هذا.. توقف المصعد.. انفتح الباب.. عتمة في المكان.. سكون تام.

لفظني المصعد. خرجت.. كان لا بد أن اخرج. لا يمكنني أن أصعد إلى ما لا نهاية.. حدقت جيدا في السارية المواجهة للمصعد تبين لي أن المصعد توقف بي في الطابق السابع. بدا لي من هندسة المكان، أن الأمر لا يتعلق بشقة سكنية وإنما بمكاتب إدارية أغلقت أبوابها بعد انتهاء توقيت عملها.. غادر الموظفون المكاتب وأطفأوا المصابيح.. ولم يتبق غير شعاع شحيح، يصل من مكتب في الزاوية اليمنى.. وقفت وحيدا بالمبنى، أترقب ظهور أشباح يوحي بها الفراغ الرهيب والصمت الثقيل الذي خيم على أرجاء المكان.

تذكرت حكاية طريفة، جعلتني أبتسم ببلاهة داخل خوف غامض ويأس وشيك، يدعي الراوي فيها أن امرأة قصدت متجرا لبيع الأزواج لتختار فيه الزوج الذي تطلبه بناء على الإرشادات والتعليمات التي تنظم عملية الاختيار والتي تتلخص في إتاحة الفرصة مرة واحدة للدخول للمتجر. يمكنها أن تختار من أحد الطوابق بشكل تصاعدي دون أن تتمكن من النزول إلى الأسفل.. لا مجال للندم ولا للتراجع.

في مدخل الطابق الأول وجدت الوصفة التالية:

الرجال هنا لديهم عمل ومؤمنون بالله

صعدت إلى الطابق الثاني للبحث عن زوج أفضل، فوجدت الوصفة التالية:

الرجال هنا لديهم عمل ومؤمنون بالله ويحبون أطفالهم

لم يكفها ذلك، فصعدت إلى الطابق الثالث فوجدت الوصفة التالية:

الرجال هنا لديهم عمل ومؤمنون بالله ويحبون أطفالهم وشكلهم جذاب.

صعدت إلى الطابق الرابع فيه يمكن أن تحصل على ما هو أحسن وأروع وإن كان هذا العرض الأخير أغراها بالاقتناء. وجدت العرض التالي:

الرجال هنا لديهم عمل ومؤمنون بالله ويحبون أطفالهم وشكلهم جذاب ويساعدون زوجاتهم في أشغال البيت.

عرض لا يمكن أن يقاوم.. ولكن من يدري ربما قد تعثر على ما هو أحسن في الطابق الموالي، فصعدت.. وفي مدخل الطابق الخامس قرأت العبارة التالية التي أسالت لعابها:

الرجال هنا لديهم عمل ومؤمنون بالله ويحبون أطفالهم وشكلهم جذاب ويساعدون زوجاتهم في أشغال البيت ويرافقونهن في رحلات سياحية.

كادت أن تتوقف لشراء الزوج المناسب لكن الإغراء قادها إلى الطابق السادس هنا قرأت العبارة القاطعة الصادمة التالية:

أنت الزائرة رقم: 60363060 ليس هناك أي رجال في هذا الطابق. لا يمكن إرضاء النساء أبدا. شكرا للتسوق في متجر الأزواج وانتبهي لخطواتك وأنت تخرجين.

نتمنى لك يوما سعيدا.

انتبهت في نهاية هذه الطريفة السوداء الساخرة إلى أن الرجل باحتكاره للرواية يريد أن يسد الأبواب أمام أي فرصة للمرأة تمكنها من اختيار الزوج المناسب. فشلت

الزوجة في اقتناء الزوج المناسب لأنها قلبت الأدوار وأعطت لنفسها حق الاختيار.. أتيحت لها الفرصة، لكنها، لجشعها، لم تحقق مرادها.. عادت بخفي حنين. لذلك، فليست أهلا للاختيار. أليس هذا ما يريد الراوي أن يصل إليه ؟

بدا لي أن هذا الضحك ليس بريئا. ضحك مبطن بسخرية ذكورية. قلت في نفسي ماذا لو كان الراوي امرأة كما هو الحال بالنسبة لشهرزاد التي وضعت حدا لأسطورة خيانة المرأة ؟ ماذا لو كان الراوي ساردة مغرضة، لحكت قصتي أنا مع الأمل وخيبة الأمل.. في الطابق السابع حيث انتهيت إلى إدارة باردة يخيم عليها الصمت والعتمة.

أشباح في المكاتب يتنقلون دون أن يراهم أحد.. بيروقراطية تسلع الحب وتعرض الزواج للبيع طبقا لمقاييس عصرية، تحترم فيه التراتبية الطبقية، بيروقراطية تفصل، كالسحر، بين المرء وزوجه بين العاشق ومحبوبه.

تساءلت في أي طابق يلتقي المحبون ويتناجى العشاق فيما بينهم.. هل من معراج إلى السماء لإقامة العدل بين القلوب ؟ تذكرت سعيدا الذي طلق زوجته أخيرا وتساءلت بصوت مرتفع: في أي طابق يمكن للحب أن يثمر ؟ في أي طابق يمكن للزواج أن يحافظ على حرارة الحب ؟

فكرت: لا يمكن أن يكون الطابق السابع هو نهاية المطاف.. ألم أقرأ على لوحة الأجراس اسم: "سناء الرمادي" الطابق الثامن".. لا يمكن لحكايتي أن تنتهي هنا.. لا وجود لتعليمات توقف معراجي عند هذه المكاتب الباردة.. أدخلت يدي في جيبي الأيسر وأخرجت الهاتف المحمول.. تذكرت أن به مصباحا شحيحا، يمكن أن يضئ لي بعض الطريق.. كان مغلقا أدخلت بصعوبة أرقام الرمز السري التي كانت من حسن الحظ متتابعة 12345، ضغطت، فأضاء بعض المكان وتابعت السير على اليمين فبدت لي أدراج سلم الطابق الثامن.. صرخت من شدة الفرح والغضب بصوت عال:

لا نملك سوى سفننا وابتسامات أطفالنا

سنحرق سفننا من أجل ابتسامات أطفالنا

سأغسل المدى الأزرق بدماء طائر الفينيق

سأكتب بالحبر البنفسجي بقية الحكاية...

حكايتي...

لم تنته،

لن تنتهي

في السماء بقية من حنين سفن البحر...

في القلب ذكرى حريق جميل..

لا نملك سوى سفننا وابتسامات أطفالنا.

سنحرق ما تبقى من سفن من أجل طفلة قادمة

في الرماد بقية حلم،

في الرماد ذكرى حب قديم.

سأطرق بابها

سأفتح قلبها

توشك سناء أن تولد من أطراف أصابعي.. من ضلعي الأعوج ستنبثق أجمل أنثى، من قلمي المنكسر سأنطلق، به سأكتب حكايتها. حكايتها معي لن تنتهي... ستبدأ في مفترق الطرق.. سأختار طريقها...

تردد صدى كلماتي في هذا الفراغ المخيف.. كانت كلماتي مطارق تطرق بعنف أوان نحاسية في مغارة بعيدة.. ذكرني الصدى بكلمات أخرى مكتوبة، عثرت

شمس الليل

عليها في الملف البنفسجي من توقيع سناء، تدق فيها أجراس الفراق، أجراس الوداع الأخير. قالت ليوسف ذات كتابة:

لنقف..... لنفترق

لننتهي.... ونحترق.

لقد جاء المطر

ومحا اسمينا من سيقان الشجر

...

لنقف لنلغي مواعيد الخريف

لنقل للحقول الصديقة

واستفهامات الزهر:

أن الريح جاء

وكسر فرعينا

فسقطنا أسرى داخل النهر

وحملنا بعيدا

إلى منافي غريبة

فكنت أسألك:

كيف حال قصائدنا الصغيرة ؟

من ذا يرضعها ؟

وكنت أسألك:

شمس الليل

من ذا الذي يبلغها

أن الأجل حان لنفترق

لننتهي ونحترق.

... ...

كنت أسألك من سيرث أسرارنا الثمينة

تلك الأسرار المدفونة

تحت الرمل والماء والحلم

ورسائلنا الممحية الاسم،

هل أجلها أيضا حان ؟

لتمحى، لتنتهي، لتحترق

... ...

لقد كنت ساكتة طول الرحلة

كنت داخل الذكرى محنة

وسألتني عن المشنقة،

قلت أحبك حتى داخل الفرقة

والنهاية والحرقة

وجاء السياف وأطاح بحلمين صغيرين

وأنهى المطاف

لنحترق

لنلغي مواعيد الخريف[1].

في صدى هذه الكلمات داخل هذا الصمت المخيف، سمعت فجأة هدير رعد يقصف بعنف مدينة الدار البيضاء.. تجمعت السحب وتكاثفت. رأيتها قبل قليل كذلك وأنا أعبر مدخل العمارة، وها هي تفي بوعدها وتنقل إلي رسائل السماء. الرعد يزمجر. لا مجال للتراجع. علي أن ارتقي ما تبقى من درجات السلم لأصل الطابق الثامن. جمعت هشاشتي الداخلية في قلبي. صار يدق بقوة.. يحثني على الحريق، على الارتماء عاريا في النار المقدسة. يحثني على الوقوف على عتبة الهزيمة الكبرى الوشيكة.. هل سأربح الحب إن قدمت لسناء كل الخسارات والخيبات والحرائق التي دمرت الغابات التي ظلت واقفة حتى وقت قريب،

قربانا ؟

هل سأربح الحب إن خسرت العالم كله ؟

سناء يا زمني المستحيل،

يا حلما بحجم الكون،

يا انكسارا بحجم الفجيعة،

يا عشقا بحجم الألم..

أنا الآن أقف ببابك، أراهن على الحب والخسارة.. افتحي الباب لأرى الحياة لأول مرة بعين العشق.. لأراك في بهائك وجمالك الخارق..

قرعت الباب بيدي.. دقات خفيفة خائفة مترددة.. تجنبت الجرس للمرة الثانية على التوالي.. لا أدري ماذا يمكن أن يكون وقعه على غزالة تسمع حفيف الريح من بعيد، فما بالك بالرعد الذي يقصف الآن ويزمجر.. كيف تكون سناء الآن في هذه

[1] قصيدة وجدها الكاتب في وثيقة مخطوطة وليست من تأليفه.

الشقة من وراء هذا الباب ؟ كيف تكون الغزلان الخرافية في يوم ممطر كهذا ؟ هل تصمد صمود الخرافة للبرق والرعد ؟ هل تعود لمغارتها الأولى التي ولدت فيها قبل أن يظهر في حياتها القناصون ؟ ما هذه الصدفة العجيبة التي اقترن فيها مجيئي إلى سناء بالمطر واقترن قرعي للباب بقصف الرعد ؟ هل حدث هذا صدفة حقا أم مزاج الكاتب أراد أن يزج بي في عالم عنيف من الحب والأعاصير ؟

أحسست كأن قوة غامضة، كانت تدفعني من الخلف نحو حتفي.. لا مجال للتراجع.. قرعت الباب مرة ثانية. كان صوت الرعد يعلو الأصوات جميعا. أًصخت السمع ثمة حياة تتحرك في الداخل.. قرعت للمرة الثالثة بعزم ويقين. انفتح الباب.....

أطل وجه السناء كبرق خاطف في ظلمات كل الحياة التي عشتها من قبل. إنها هي.. وجه سناء.. كنور خاطف يضيء أقطار روحي.. يضيء الكون داخلي. رأيت فيه بغتة ما لم أره من قبل.. رأيت الخرافة بعينها تطل من وراء الباب الموارب.. أطلت بوجهها المشع أولا وأخفت جسدها ريثما تتحقق من هوية هذا الغريب الذي سيفاجئها.. ليس هذا الغريب سوى أنا.. ركبت جنوني وأقدمت على هذه المغامرة الشعرية التي قد تنتهي بالانتصار أو بالاندحار، اندحار ما تبقى من خيال روائي أمام واقع قاس لا يرتفع..

اندهشت سناء وذهلت.. لم تصدق عينيها وهي تراني منتصبا أمامها في هذا الوقت بالضبط طالبا حق اللجوء العاطفي.. ترددت.. تغيرت تضاريس وجهها من جراء انفعالات قوية.. اتسعت عيناها الكحيلتان لي وللعالم ولكل المفاجآت.. فتحت الباب بقوة.. وفسحت لي المجال.. فتحت ذراعيها بجنون واحتضنتني بحرارة..

يا إلهي نفس العطر الذي شممته قبل قليل في المصعد..

العطر عطرها والأنثى التي كانت بالمصعد هي سناء لا غيرها..

صارت في عيني الأنثى الكونية. صارت المركز، منها يفيض الحب على كل جهات العالم..

دفنت وجودي في أحضانها ورأسي في صدرها وعيني تسبح في بياض جيدها العاجي.. سبحان من خلق الجمال فسواه أنثى يكون في اللحظة بعينها ما لم يكنه من قبل.. قلت:

– أخيرا وجدتك.. مساء الخير وأعتذر على...

– مساء الخير والحب والكتابة

– أعتذر على هذا الهجوم المباغت

– لماذا تعتذر أيها المجنون بعد أن فعلتها.. إن كان في نيتك أن تعتذر.. فلماذا تقتحم خدر النساء بدون مقدمات..؟

– هل يمكن لمجنون مثلي أن يفكر في مقدمات ونتائج ؟ لم يعد بإمكاني أن انتظر أكثر.. انهزمت.. اغفري لي هزيمتي.. انهزمت أنا وما أردت للحب أن ينهزم..

– جئت في الوقت المناسب. جئت، كما أردت وكما أحببت، مفاجئا كالصاعقة.

تراجعت قليلا إلى الوراء وأخذت بيدي وسحبتني إلى داخل شقتها واقتادتني مستسلما كأسير عاشق، ضبط متلبسا في جنبات قصر الأميرة.. لم تفارق يدي يدها.. مررنا محاذين الصالة وغرفا أخرى.. ولم تتوقف.. كان الممر طويلا في نهايته غرفة أخرى، كانت هي وجهتنا.. بها رفوف كتب على الحائطين المتقابلين، على اليمين وعلى اليسار. وفي وسط الغرفة منضدة للكتابة، عليها ورقة حديثة العهد بالكتابة وأوراق أخرى مبعثرة تنتظر وقلم حبر جاف موضوع بعناية فائقة فوق الورقة المكتوبة في الجهة المقابلة، وعلى يسار باب الغرفة كنبة وكرسي وثير للجلوس.. فوق المنضدة وخلفها،

نافذة زجاجية مغلقة بإحكام، تطل على العالم الخارجي.. غرفة دافئة، عميقة، توحي بالطمأنينة والسكينة رغم الأمطار الغزيرة التي تسقط وهدير الرعد الذي لم ينقطع..

غرفة صغيرة تنعم بالحماية.. هي مركز الكون في حضرة الأنثى الكونية..

سحبت سناء يدها من يدي وربتت على ذراعي الأيسر ودعتني للجلوس على الكنبة.. جلست.. كان سقف الغرفة قريبا منا.. رأيت سناء على ضوء مصباح خافت..

رأيت قوامها الجميل وهي ترفع يديها إلى رأسها لتزيل المنديل من فوق رأسها وتفك أسر خصلات شعرها الأسود التي تساقطت تباعا على كتفيها وعلى نحرها، كما تتساقط الأمطار في هذه اللحظة بعنف وقوة. أحاطت الجدائل السوداء بالوجه الجميل الذي ظهر منيرا، لامعا بشكل أسطوري خارق، خصوصا عندما يلمع البرق وينتشر شعاع السنا، يخترق زجاج النافذة بدون سابق إنذار، يضيء الغرفة والكون بأسره.

سناء، الواقفة أمامي، ملاك سماوي، حورية من بنات البحر الأزرق، ترتدي فستانا بنفسجيا، شفافا، يكاد يكشف تضاريس جسمها البلوري الناعم..

أنا محظوظ اليوم أنا في حضرة الكتابة العظمى.. تأججت من الداخل.. طق الشرر داخلي وملأني حضورها وملكني عن نفسي.. لم أعد أنا أنا.. صرت خيالا خالصا في حضرة الأنثى الكونية..

ما الواقع وما الخيال..؟ لم أعد قادرا على الفصل بينهما.. تداخل الليل والنهار كما يتداخل الآن سنا البرق بشساعة الظلام.. إن كان الواقع يعني، فيما يعنيه، أن المرء يعيش فعلا في هذه الدنيا، فأنا أعيش فعلا الحب والعشق وأخلد مع فاتنتي هذا الزواج الكوني بين السنا والظلام.. هي السنا وأنا الظلام.. جئت أتطهر في معبدها.. أضيء سواد الطين والصلصال بداخلي.. هي شمس ليلي الذي طال.. وأنا ليلها الحزين أغشاها فتجليني.

دعتني سيدة الكتابة إلى الجلوس. جلست. تراجعت بقوامها البنفسجي الجميل إلى الخلف، استدارت وأخذت مسودات الكتابة من فوق المنضدة وقالت:

– جئت في الوقت المناسب. جئت مع المطر والحبر. ضبطتني متلبسة بالكتابة ولأول مرة يقتحم حياتي غريب وقت الكتابة.. وجدتني أسود حزني الأسود على الورق الأبيض.. غريب أمر هذه الصدفة.. هذه الصدفة ليست صدفة.. هبة القدر.. أنت إنسان ليس بعادي على الإطلاق.. أنت ساحر.. في سحرك جمال المفاجأة.. لست قارئا عاديا ولا ناقدا كما سبق وان قلت لي.. أنت حبيبي.. أتيتني في وقت اليأس..

– في وقت اليأس ؟ ما أبعدك عن اليأس.. أنا من كان ينتظر حتى كاد يقتله اليأس..

– لن تفهم ما أقصده حتى تقرأ بنفسك ما كتبته، كنت أكتب وأنت في طريقك إلي.. ووقفت ببابي وأنا في عز الكتابة.. أنظر إلى هذه المسودات لا زال الحبر طريا..

جلست على الكرسي متعامدة معي.. تطلعت بعيني إلى الورقة.. وجدت صعوبة في تتبع الكلمات بعيني... أردت أن أسمع صدى الكلمات بعيني وهي تكتب.. وأن أرى صدى قلم الحبر على الورق.. أرى الكلمات المخطوطة في طفولتها وهي حديثة العهد بالعالم، في هذا اليوم الممطر الجميل.. يا سلام... كلمات دافئة ولدت توا كقطرات الحليب الأول بعد الصرخة الأولى في يوم ممطر حزين... كلمات تكشف لي وجهها لأول مرة بدون استعداد ولا مقدمات... هل هي صدفة الرواية أم قدر حزن الانتظار الذي طال وها هو ينفجر رعدا ومطرا وشعرا...

انتبهت سناء إلى شغفي وفضولي، فقامت من فوق الكرسي وجلست إلى جانبي على الكنبة.. دنت بجسدها البنفسجي الناعم حتى التصقت بي. سرى في كياني دبيب حيوي، دفع الدم بقوة إلى قلبي الذي صار يرتعش من لذة غمرت وجودي كله..

شمس الليل

أطلقت العنان لصوتها الشجي ليقرأ الكلمات الجديدة التي لم تر النور إلا قبل لحظات قليلة.. قالت اسمع واقرأ معي ما كتبت وسترى:

أطل القمر خجولا وقد غطت سحابة بعضا من نوره

وقف ابن زيدون ينتظر ولادة على بحيرة إميلشيل...

مرت قرون، وهو ينتظر لعل الحب ينضج ويثمر

كانت البحيرة تنمو وتزيد.. كانت دموع ولادة غزيرة حارة ومالحة

كانت تكتب غزلها على اليمين وعلى اليسار.. كان الرجال مشغولين بالحرب والسياسة لم يبالوا بها وهي تنادي:

أنا والله أصلح للمعـالي	**وأمشي مشيتي وأتيه تيها**
أمكن عاشقي من صحن خدي	**وأعطي قبلتي من يشتهيها**

سبح ابن زيدون ضد التيار إلى الضفة الأخرى حيث توقع وجود ولادة... كانت الحرب بين القبائل على أشدها.. غير معطفه.. تنكر في أزياء المدح والهجاء سجن وتخبط وسط وبين ميول سياسية متباينة، بين اليسار والوسط، بين الاشتراكية والليبرالية. تظاهر بحب جارية سوداء.. بلغ ولادة ذلك، لم تصدق فهجرته إلى الضفة الأخرى. هنالك احترفت الانتظار وبكت على المعالي. بكت على الحب الذي لم ينضج بعد وقالت:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا	**لم تهو جاريتي ولم تتخيـر**
وتركت غصنا مثمرا بجمالـه	**وصخت للغصن الذي لم يثمر**

ولقد علمت بأنني بدر السما	لكن دهيت لشقوتي بالمشتري

هنالك تركته يصارع إلى أن يجد نفسه أو يموت وقالت في نفسها:

"لا تقتل خصمك، وإنما اجلس على حافة النهر وانتظر، سوف ترى جثته طافية فوق الماء".

أما ابن زيدون، فضاع في زحام القبائل وقلد كل أصوات الحيوانات لتتعرف عليه ولادة إلى أن فقد صوته ولم يعد قادرا على التعرف على نفسه..

ولذلك رجح الخبراء أن مستوى البحيرة سيزيد ويزيد ويزيد إلى أن تطلع شمس حارقة وتعيد البحيرة إلى سيرتها الأولى وفسروا ذلك لسببين يتعلق الأول بتقلب المناخ المتوسطي وتقلب مزاج الجبال نتيجة لاختلاط أهلها بسكان السهول الذين صنعت العولمة بعقولهم الأعاجيب.

ارتجفت الورقة في يدها وتهدج صوتها وهي تعيد قراءة هذه الجملة القاتلة: لا تقتل خصمك وإنما اجلس على حافة النهر وانتظر... ثم أجهشت بالبكاء، بكت أمامي في أول لقاء حميمي مباشر بيننا أو قل في ثاني لقاء ولم يمض على تعارفنا مدة طويلة ولم تعرفني حق المعرفة ولم تتأكد من هويتي بعد بما يكفي. أحنت رأسها إلى الأسفل تساقط شلال شعرها. أخفت عبراتها تحت شلال شعرها.

مددت يدي إلى ذقنها ورفعت رأسها وأمسكت وجهها بين راحتي. بكت بدموع حارة. جرفت السيول فوق خدها سواد الكحل.. مسحت دموعها، كفكفتها بأناملي المرتعشة وضممتها إلي وانسابت دموعي.. سقطت في داخلي أنهارا.. دموع متكبرة تعود الرجال على إخفائها بحضرة النساء.. وتركتها تتهاطل بحضرة الأنثى.. غابت عني كل كلمات المواساة التي تعلمتها أو سمعتها..

خيم صمت حزين على أجواء الغرفة.. قصف الرعد غرفتنا من جديد.. أنار البرق ظلام الليل من حولنا وسقط المطر زخات زخات..

قلت لها، وأنا أنظر في عينيها، أستغور الحزن القديم الذي عمر طويلا في قلبها ولم يبل:

– لا أدري إن كنت ترثيه أم تهجيه ؟

تساءلت باندهاش كبير:

– من تقصد ؟ ابن زيدون ؟

– ابن زيدون في الظاهر. و...

ترددت في الإفصاح عنه.. من جهة لأني أرى في وجهها جرح الزمن وفي نبرتها يأس غامض، حول الحب إلى رثاء والرثاء إلى هجاء.. ومن جهة أخرى أردت أن أكشف لها عن الحقيقة التي لا تعرفها حتى الآن، بمفاجأة لم تتوقعها.. حضوري هنا وفي هذا الزمن الممطر كان مفاجأة لي ولها.. والكلمات قادرة على إحياء المفاجآت وقادرة على قتلها أيضا.

فتساءلت وقد اتسعت عيناها الدامعتين المحمرتين:

– ومن ؟

– من حيث الباطن كل محبوب طال غيابه.. ولكل قارئ عاشق معشوق، فقده، يسعى دوما إلى استرداده بالقراءة، كما يحاول الكاتب استرداده بالكتابة.

– وأنت لم تكن مجرد قارئ ولا ناقد كما ادعيت في لقائي السابق بك..

– أنا مجنون سناء..

– أنت فعلا مجنون وإلا ما كنت قادرا على مداهمة خدر سناء في هذا الوقت بالضبط.. تلبست القدر أو تلبسك.. تآمر معك أو تآمرت معه.. فسقطت علي

من السماء كما يسقط المطر هذا المساء.. ضبطتني متلبسة بالكتابة.. وجدتني في حالة كتابية مستعدة لجنونك كما هي الأرض مستعدة لهذا المطر العنيف الرائع..

– وهذا هو الجميل في المناخ المتوسطي.. مناخ المفاجآت.. من أقصى الحب إلى أقصى الهجر. قولي لي بصراحة هل كنت ستفسحين لي المجال وتفتحين لي الباب وتستقبلينني بهذه الحرارة لو أتيت في وقت آخر ؟

قالت جازمة:

– قطعا لا..

– تقولينها بكل قساوة.. وهذا ما توقعته منك، لذلك لم أتصل بك عبر الهاتف لترتيب لقاء جديد بعد إن فشل اللقاء الأول في ذلك اليوم الأسود، يوم فجر الحقد مقهى الانترنيت ومعه إمكانية التواصل مع من نحب.. لا أخفيك أن الهاتف النقال أصبح بالنسبة إلي نذير شؤم منذ ذلك اليوم.. كما كان بالنسبة لي من قبل لقصة أخرى سأحكيها لك فيما بعد إذا أمكن ذلك.

ابتعدت عني قليلا.. ثم هبت واقفة كالمذعورة، تنبهت من شرودها وهي تقول:

– قبل أن تحكي لي قصصك وأحكي لك قصصي، يجب أن تشرب شيئا... أرأيت كيف أنستني مفاجآتك واجب الضيافة.. أيعقل أن يذهب بنا الحديث كل مذهب وأقرأ عليك قصتي القصيرة جدا ولم أمهلك لتأخذ أنفاسك.. أنت الآتي من عالم آخر.. الصاعد إلى الطابق الثامن في ليلة ممطرة كهذه.. مجنونة أنا.. قل ماذا تفضل أن تشرب.. قهوة، شاي عصير..؟

– دعينا من ذلك. أريد أن اشرب مطرا.. اشرب هذه اللحظة الجميلة الرائعة معك.. لقد شربتك سكرت بك. وهل رأيت محبا غير سكران، شربت من خمر عيونك ودموعك قبل أن تخلق الكرم.

– دعك من جنون الروايات.. وقل لي ماذا تريد أن تشرب..

– أريد مطرا، مزيدا من المطر..

قاطعتني وهي تنسحب من الغرفة إلى المطبخ مرددة:

– سآتيك بالرعد.. سآتيك بالبرق.. سآتيك بالرعد.. سآتيك بالبرق.. سأصعقك.. سأقصفك.. سأقصف مطاراتك وأحرق سفنك سأحاصرك هنا ولن أدعك تغادر.. أبدا.. سأدمر ما تبقى فيك، من عقل.. من حضارة.. من منطق. اليوم سيحل بك وبي العصف الجميل والخراب الجميل كما قال أدونيس ذات قصيدة. سمعت منه هذه العبارة ذات سماع ولم أفهمها وها أنا أعيشها.. تحية لأدونيس الذي فجر الأسطورة من الشجر والحجر.

تركتني لصمت عميق، يتردد فيه صدى كلماتها.. صمت كوني يقصفه الرعد بين الفينة والأخرى..

تطلعت لرفوف الكتب.. كتب متنوعة باللغة العربية على يميني وكتب باللغة الفرنسية على يساري.. جلسة ملكية في الطابق الثامن مع كائنات سماوية، مع كتاب خبروا الأسرار العلوية، مع شهرزاد في ألف ليلة وليلة ومقامات بديع الزمن الهمداني ومجلدات الأعمال الكاملة لكافكا وجيل فيرن الذي دار العالم في ثمانين يوما وكتب باشلار الحلمية... يتحدث فيها عن التعديل الجميل الذي يحدثه الشعر في الكينونة.. كتاب قاموا بسفر داخلي في الأعماق فاكتشفوا مناطق مجهولة في الجغرافيا السرية للكائن الإنساني..

قلبت صفحات بعض هذه الكتب محترزا في الوقت نفسه من الوقوع في الحظر، توجست من الإطلاع على ما لا ينبغي لي الإطلاع عليه.. خصوصا وان ثمة ممنوعات في حياة سناء كما كشف لي يوسف مرارا.. ممنوعات لا يجب الاقتراب

منها.. على رأسها ذلك المخطوط السري الذي دفنت فيه يوسف إلى الأبد.. لم يطلع عليه أحد.. لا يعرف حقيقته أحد، كما كتبت سناء نفسها، إلا الله وهي.

الكتاب الغامض الذي حير يوسف وأشعل فيه تفكيرا ميتافزيقيا حول ماهية الوجود، كوجيتو مأساوي عذبه ودفعه إلى الرحيل: كثيرا ما كان يتساءل من هو ؟ هل هو هذا الجسد الذي يعرفه به الناس الذي يسير به في العمل والأسواق ؟ هل هو اعتقاده في نفسه ؟ هل هو يوسف المدفون في مخطوط سناء المحظور ؟

ظهرت لي مجموعة من الأوراق مرتبة في ملف موضوع فوق الرفوف العليا.. ليست في المتناول.. بعيدة.. متحصنة في الزاوية اليسرى.. أوراق أسطورية، أغرتني بالمغامرة، بارتكاب المحظور. قلت في نفسي: هذه فرصتك، يا إدريس، للإطلاع عليها.. فرصتك لتكون الرقم الثاني.. المحظوظ، فرصتك للإحاطة، ولو من بعيد بما لم يطلع عليه أحد.. ولكن لا تنس أبدا أنها ستكون فرصة للخسارة والضياع والطرد.. ستطردك سناء من جنتها شر طردة، إن سولت لك نفسك نيل ما لم ينله الآخرون..

سمعت وقع أقدامها.. سناء قادمة.. ابتعدت عن المنطقة المحظورة.. تراجعت قليلا دون أن أبدي ما يثير أية شبهات.. وقفت على اليمين في الوسط، أتطلع بحياد تام إلى مجلدات لسان العرب وألف ليلة وليلة، مجلدات سيرة عنترة بن شداد وتاريخ الأدب الأندلسي.. هممت بتناول الكتاب الأخير للإطلاع على تفاصيل قصة ابن زيدون وولادة.. فقصف الرعد مرة أخرى بقوة وعنف.. أصابني هلع كبير.. وما كادت تطل سناء من الباب حتى انقطع التيار الكهربائي.. وفي رمشة عين خيم الظلام على المنطقة بأكملها.. ظلام دامس.. صرخت سناء وهي واقفة مسمرة بالباب كما بدا لي من مسافة صوتها..:

– ماذا وقع ؟

– لا أدري ؟ لا عليك. لا تخافي.. انقطع التيار الكهربائي عن المنطقة بكاملها وربما عن المدينة كلها.. لا بد انه سيعود.. قد يكون هذا بفعل صاعقة.. أو..

وفي رمشة عين لمع البرق من جديد، اخترق زجاج النافذة، أضاء الغرفة وأضاء سناء الواقفة بشموخ ملكي بالباب وفي يدها صينية قهوة أو شاي أو مطر.. وعاد الظلام إلى سلطانه القديم.

اقتربت مني سناء وناولتني الصينية وطلبت مني أن أضعها على المنضدة القريبة مني.

رأيت سناء بأنفي وهي تقترب مني.. تضوع عطرها في أرجاء الغرفة.. غزاني في الداخل وحطم كل أسوار مدينتي الداخلية.. تذكرت المصعد الذي كان يعبق بنفس العطر.. تذكرت الدركي الذي يأمر ولا يتكلم.. طردته الآن من جنة عدن الفواحة التي أعيش في نعيمها.. طردته مما تبقى في مخيلتي من صور شعرية جميلة..

لم ألعن الظلام.. شكرته في سري.. في الظلام وبحضور الأنثى الكونية تصير حاسة الشم سيدة الحواس، بها أحدد نسيم الصبا والجهة التي يهب منها العشق قويا فيأسر جميع الحواس.. لم أتمالك نفسي تذكرت تعزيمة العشق التي رددتها لوحدي في الطابق السابع لما أحاط بي الظلام من كل جانب وصحت:

لا نملك سوى سفننا وابتسامات أطفالنا

سنحرق سفننا من أجل ابتسامات أطفالنا

ضحكت سناء في الظلام بصوت عال.. لم أر ضحكتها، سمعتها.. ريانة قوية واثقة.. وقالت:

– نحن في حاجة الآن إلى نور وليس إلى كلمات

– أنت النور الذي أضاء مدني الداخلية التي كانت غارقة في ظلام نهار الناس.. أنت شمسي في هذا الليل الممطر الدامس الرائع.. أنت البرق الخاطف، خطف بصيرتي وعقلي وحكمتي..

– والنتيجة ؟.. صرت مجنونا

اقتربت من عطرها الفواح وفتحت ذراعي لشجر الليل واحتضنتها بين ذراعي.. تداعت فوق صدري كحورية ألقى بها محيط الظلمات على شاطئ جزيرة مهجورة غريبة.. الجزيرة الغريبة أنا.. والحورية هي.. لم يمض على تعارفنا غير قليل من الزمن ولم تسأل بعد عن أوراقي الرسمية ولا عن هويتي.. وهاهي تنام على صدري نوم الأميرات خارج القصر، فوق شاطئ جزيرة مهجورة..

قلت لها وأنا ادفن أنفي في شعرها، في ليلها المرسل على كتفيها وعلى يدي التي أحاطت بها من كل الجهات:

– مجنون بك..

– ما أجمل أن أنام الدهر كله فوق صدر مجنون.. أسمع دقات قلبك.. اتركها لتقول كل شيء عنك...

– وليطل هذا الليل كيفما يشاء.. اسمعي كل خساراتي.. كل هزائمي.. يا ليل طل أو لا تطل لا بد أن أسهرك...

– .. وكل الحب وكل النساء التي مررن بمرافئك.. من الآن فصاعدا لن أخاف الظلام.. قل لي من أين أتيت بهذه الكلمات التي تلوت نشيدها قبل قليل.

حكيت لها قصتي في المصعد مع الدركي ومع عطرها الفواح وكيف توقف بي المصعد في الطابق السابع وكيف ركبت حلمي وبدأت من حيث تنتهي توقعات الناس، بدأت حيث انتهت خيبتي.

قالت لي بأن الدركي من عائلتها الكبيرة... يسكن هذه العمارة التي تعود ملكيتها لعمها وهو ضابط كبير في القوات الملكية يقطن بالرباط، كانت في أصلها فيلا يسكنها عندما كان في الدار البيضاء.. ولما انتقل إلى الرباط، هدمها وبنى مكانها

عمارة باع شققها واحتفظ بالبعض الآخر، منها هذه الشقة التي سمح لها بالإقامة فيها بعد عودتها من اسبانيا لظروف خاصة حرجة مرت بها. لم تكشف بقية الحكاية وقالت:

– يجب أن أبحث الآن عن مصباح أو شمعة.. لا يعقل أن نبقى هكذا في الظلام.

– الجنون لا يعقل...

أخرجت هاتفي النقال من جيبي.. ضغطت على الأرقام السرية وأشعلت المصباح الذي يوجد فيه.. ضوء خافت، يسمح بتلمس الطريق.. طلبت مني أن أرافقها.. سرت إلى جانبها.. ثم دخلنا غرفة يبدو أنها غرفة نومها، بها سرير كبير إلى جواره سرير صغير يرقد به جسم صغير، لم أتعرف على هويته، فسألتها فقالت لي بأن الأمر يتعلق بطفلتها. فوجئت بذلك وسألتها عن الأب، قالت بأنها مطلقة منذ ما يزيد على خمس سنوات وأن القصة طويلة وأن الوقت لا يسمح الآن بسرد تفاصيلها.. أخذت مني المحمول، صوبته في اتجاه الدولاب.. فتحته وصارت تبحث في أدراجه وبين الملابس.. عثرت على شموع صغيرة حمراء قالت إنها شموع عيد ميلاد ابنتها البالغة من العمر سبع سنوات.. كانت نائمة.. انحنيت وطبعت على جبينها قبلة صغيرة وانسحبنا في هدوء حتى لا نوقظها.

تعجبت لمفاجآت القدر الذي يرتب الأحداث بشكل غير متوقع، لحكمة نجهلها، نحن الذين نسير في شوارع الحياة وبين دهاليز الرواية بدون خريطة طريق واضحة.. قدر أراد أن نلتقي هنا في هذا الزمن العجيب الذي يرتب حركاتنا وأفعالنا وفق هواه.. تتابع فيه الصور والعلامات دفعة واحدة وفق إيقاع يصعب معه الإحاطة بحقيقة ما تجمع من أحداث جسام عاشتها وعانت منها سناء منذ انفصالها عن يوسف، ما يزيد على عقدين من الزمن.

اتجهت سناء إلى المطبخ للبحث عن ولاعة ووقفت أنا، كشبح خيال في الممر، أنتظرها وأتساءل حول مدى قدرة هذه الشموع على إضاءة حياتنا في هذه

اللحظة الشعرية المفعمة بالحزن والجمال والسحر، بالفرح والشقاء والفتنة، بذكريات وأحلام رمت بها أمواج الماضي على شاطئ هذه اللحظة المركبة.

سارت سناء أمامي، تحمل شمعتها النحيلة لتنير بوهجها الملكي أسرارا تكاثفت وغشيت قلوبنا ووجوهنا. جلسنا جنبا إلى جنب على الكنبة، نتقاسم هذه المأدبة الشعرية حول خمس شموع أشعلتها سناء مرة واحدة لنحتفل بهذا الحزن الرمزي في غير موعد ذكرى ميلاد رقية طفلتها والتي أخبرتني عن معاناتها بسبب إعاقتها، ولدت معاقة وإعاقتها غريبة لم يستطع الطب لحد الآن أن يجد لها علاجا.

قالت بأن رقية تعاني من توقف نمو جسمها. ينمو رأسها ويبقى حجم الجسم الصغير هو، هو بسبب عجز في الغدة الذرقية.. عاجزة عن الحركة، تقضي معظم أوقاتها ممددة في سريرها في شبه نوم دائم. تكفلت بها هي بعد انفصالها عن زوجها الذي كانت تقيم معه في الديار الإسبانية ما يزيد على ثلاث سنوات. عادت الأسرة الصغيرة إلى البلد ليقضيا عطلة الصيف بين الأهل والأحباب.. اختفى الزوج عن الأنظار في ظروف غامضة. سافر بمفرده إلى قرية ببني ملال مدعيا انه سيعود بعد ثلاثة أيام... مرت ثلاثة أيام.. أسبوع.. شهر ولم يعد، لم يظهر له أثر.. اختفى نهائيا بعد أن أخذ معه أوراق السفر والإقامة بإسبانيا.. فتأكدت من نيته المبيتة وتخطيطه المسبق لتنفيذ فعلته النكراء عندما علمت أنه عاد إلى إسبانيا.. وبعد يأسها من الاتصال به.. رفعت دعوى طلاق الخلع لدى المحكمة، فحكمت بتطليقها منه.. اضطرت إلى العمل لتعيل نفسها وطفلتها، اشتغلت في الصحافة المسموعة كمقدمة برامج أطفال وفي الصحافة المكتوبة، اشتغلت في صحيفة مستقلة شكلت برأي المراقبين المعارضة الحقيقية لأسلوب تعاطي حكومات ما بعد التناوب مع قضايا البلد السياسية والاجتماعية. وانخرطت في عدة جمعيات تهتم بالطفولة عموما والأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة وجمعيات نسائية مناهضة للعنف.

كانت سناء تحكي والسماء تمطر والرعد يقصف والشمعات الخمس يقاومن الظلام..

كانت عيون سناء الدامعة عالما، اتسع لحزن الوطن، واتسع لحزن أطفال البلد، اتسع قلبها ليأس المحبين الذين ملأوا بحيرة إميلشيل بدموع الخيبات والخسارات.. وطن لا يتسع لولادة ولا لابن زيدون الذي ضيع ولادة وضيع نفسه.. وطن لا يثمر فيه الحب.. وطن يعمل فيه الأعيان على فلكلرة حزن الشعب وتسليع الدموع لبيعها بأثمنة باهظة في الأسواق الدولية لجلب السياح إلى الوطن..

قالت معقبة متأثرة:

– هل تثق بهم عندما يدعون أن العولمة تقتضي ضرورة تعليب دموع بحيرة إميلشيل لشربها في المناسبات كأنخاب لرفع الصيت لدى الرأي العام الدولي، ما دام الرأي العام الداخلي هشا لم يتكون بعد ؟ قل لي هل تثق بهذا الكلام ؟

لم أجبها تعظيما لمأساتها الكبيرة.. تجاهلت سؤالها وتعاملت معه ببلاغة المأساة التي يستحقها. لست أنا من يجيب على مثل هذا الاستفهام وإنما قلت لها للتخفيف من نبرة الحزن التي كانت تصوغ بها سردها في هذا الليل المدلهم:

– لذلك حولت الحب في قصتك القصيرة جدا إلى رثاء والرثاء إلى هجاء. جنيت على الحبيب وجنيت على نفسك.. جنيت عليه دون أن تهتمي بأمره.

قالت مستغربة:

– من هو ؟ ذكرتني بك.. أنا أحكي لك دون أن تكشف لي عن هويتك.. سبق وأن قلت لي بأنك لست مجرد قارئ ولا مجرد ناقد ؟ فمن تكون إذن ؟ إذا قلت لي من هو هذا الحبيب المتلبس بابن زيدون عرفتك...

قلت مازحا:

– قل لي من هو أقل لك من أنت ؟

– نعم بالضبط.. قل لي من تعاشر أقل لك من أنت ؟

– نعم لقد عاشرته.. هو صاحب الغزالة الخرافية:

اصغ إلي.. إني أشعر برعدة الخوف

إني أرى رفاقي صرعى

أرى قرية تباد فوق كل الشقاء الذي عانته

كل الشقاء الذي يستطيع العقل ان يتصوره.

أرى ذكريات قد لويت كما تلوى المسامير.

أرى أملنا محطما كزجاج العطر

أرى الغزالة المذعورة

قد استطاعت أن تهتك سر الخرافة.

أرى الخراف الصريعة، والرجال المخطوفين

لمن كنت ترددين هذا المقطع ؟ إذا عرفته، عرفتني.

كان علي أن أجيب على سؤالك يوم قرأت تلك القصص الرائعة في ندوة التواصل.. كدت أفضحك.. كدت اصرخ في القاعة: سناء لي وحدي، أفهم ما تقول.. سناء لي وحدي.. أتألم وأفرح لكلماتها ؟ وحدي أعرف الحقيقة ؟ وحدي أستحق أن أكون تجل لحلمه ؟ أعرف قصتك مع الغزالة التي استطاعت أن تهتك سر الخرافة وأنا قادر على أن أدلي بالوثائق لأثبت ادعائي.

كدت اصرخ لكني تماسكت حتى لا يتهمني الرأي العام في القاعة بالجنون ولا أعرف إن كنت، في هاته الحالة، ستقفين إلى جانبي أم ستقفين إلى جانب الرأي العام في القاعة ؟ حملت صراخي إلى الرواية التي سأكتبها عنك وعنه ؟

– عن يوسف ؟

– نعم يوسف الذي هام بك ما يزيد على ثلاث سنوات.. هام بك العمر كله.. وتنكرت له في قصتك في اسم ابن زيدون.. تركته ضائعا بين القبائل.. تنتظرين أن تظهر جثته على سطح النهر.

– وها هو يطلع حيا ويظهر أخيرا متنكرا في شخصك.. في اسمك..

– يوسف هو يوسف، لم يمت في قلبي يوما.. كلما عذبتني ذكراه، التجأت إلى الأدب، أقرأ عن غيره لكي أنساه فأقابله في كل القصص والروايات التي أقرأها.. كلما عذبتني ذكراه، إلا وسعيت إلى قتله في كل القصص التي كتبتها.. أقتله انتقاما وحقدا وحبا.. وكلما قتلته إلا وأواجهه مرة أخرى في الصفحة البيضاء، الموالية التي لم تكتب بعد. وهذا ما وقع لي هذا المساء معك.. انتظرت موته بعد أن بكيته بدموع كل النساء العاشقات في هذا الوطن.. وبدلا من أن تطفو جثته..، أتاني بروحه متنكرا فيك.. أتاني؟ أتيتني في هذه الليلة الممطرة الغاضبة المرعدة المزبدة.. فقتلتني مرتين.. بدلا من أن أقتله، قتلتني.. أتيتني متنكرا وما كان لأنثى أن تقاوم إغراء روح عاشق يطل من الماضي الأول. يوسف حي لم يمت.. يوسف...

ما كادت تنطق اسمه حتى أضاءت الغرفة. عاد التيار الكهربائي إلى مجراه واشتعل المصباح وأضاء الغرفة.. وبقايا رعد تتردد في مناطق بعيدة، أصداء رعد تكشف عن وجود عالم آخر بعيد، يصل إلينا كذكريات حدثت، بل تحدث الآن على مرمى العين. ذكريات تبعث بشعاع البرق كرسول من السماء، يحكي عن أساطيرنا الأولى، أساطير حقيقية، حقيقة البرق الخاطف وهدير الرعد الذي يوقظ الذاكرة من سباتها

ويحذر من أي نسيان يمكن أن يطمس معالم الأحداث الحية التي عاشتها سناء مع يوسف، و ذكريات تعرفي على يوسف قبل هجرته إلى أمريكا.

عاد الضوء فأطفأت سناء الشموع الخمسة وانتبهنا إلى فناجين القهوة الموضوعة على المكتب.. قامت سناء وأخذت الصينية ووضعتها على مائدة بيضاوية الشكل أمامي وهي تردد بفرح حزين:

– أنت كدت تصرخ في القاعة وأنا سأغني الآن.. سأغني يوسف بحضرتك.

ناولتني بيدها الناعمة فنجان القهوة السوداء وتناولت كأسها وقرعت الكأس بالكأس وقالت:

– سنشرب معا على شرف هذه الليلة الممطرة وتعظيما للذاكرة نخب يوسف. النخب الحلال.

ورفعت الكأس إلى فيها وهي تقول:

– غن معي الآن اللحن الحزين:

أنا يوسف يا أبي. يا أبي، إخوتي لا يحبونني لا يريدونني بينهم يا
أبي. يعتدون علي يرمونني بالحصى والكلام. يريدونني أن أموت لكي
يمدحوني. وهم أوصدوا باب بيتك دوني. وهم طردوني من الحقل. هم
سمموا عنبي يا أبي. وهم حطموا لعبي يا أبي. حين مر النسيم ولاعب
شعري غاروا وثاروا علي وثاروا عليك، فماذا صنعت لهم يا أبي ؟
الفراشات حطت على كتفي، ومالت علي السنابل، والطير حلق فوق
يدي. فماذا فعلت أنا يا أبي، ولماذا أنا ؟ أنت سميتني يوسفا، وهمو
أوقعوني في الجب، واتهموا الذئب، والذئب أرحم من إخوتي.. أبت

هل جنيت على أحد عندما قلت إني: رأيت أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر، رأيتهم لي ساجدين.

كانت تنشد بصوت أجش، اخترقه الحزن.. اغرورقت عيناها بالدموع. كانت تغني وتبكي. شكرت في سري وعظمت الشاعر محمود درويش والفنان العاشق مارسيل خليفة اللذين ساندانا في هذا الموقف الدرامي الصعب.. بكت سناء وجرفت السيول ما تبقى من سواد الكحل، لم تمسحها هذه المرة، تركتها تنساب، كخيوط نورانية وحبات بلورية، على أديم الوجه الملائكي.

تهشمت سناء أمامي، سقطت قارورة عطرها، ففاح العبير الحزين مع اللحن الحزين.. رأيت الغزالة المذعورة، تكشف أمامي عورة حزنها، تتخلى عن كبرياء الصحراء وعن خوفها أيضا.. تقف فوق كثبان الرمال وتسدد إلي عبر نظراتها سهاما أصابتني في السويداء.. حطمت قلاعي الأخيرة بصمتها الرهيب الذي أعقب أغنية الخلود.. قتلتني بكاتم صوت يموه صوت طلقات المسدس بكلمات مغناة.. سقطت عند قدميها، أنا الواقف أمامها، صريعا.

هكذا أرادت الغزالة أن تحتفل بجرحها في هذه المأدبة الشعرية. ولأول مرة انتبهت إلى فداحة خسارات الوطن لما سقطت صريعا على مقربة من هذه الكلمات:

أرى الخراف الصريعة، والرجال المخطوفين..

كنت تلك الخراف الصريعة وكنت أولئك الرجال المخطوفين وكانت هي تلك الغزالة الخرافية المذعورة وكانت تلك القرية التي كان يتحدث عنها الشاعر مالك حداد في هذه القصيدة، أيضا قريتي، وبلده بلدي. الشعراء وحدهم يعرفون كيف يخرجون قراهم من الجحيم بواسطة كلمات يغنونها ونرددها نحن.

قلت لها لقد سبق لي أن سمعت هذه القصيدة مقروءة على لسانها، لم تصدق واتهمتني بالجنون والخيال فقلت لها:

– أنا أملك الوثائق التي تثبت ادعائي

– من أين لك هذا ؟

– لدي شريط مسجل.. سجلت فيه أنت بنفسك، بصوتك اليافع الصادق وأنت تقرئين قصيدة مالك حداد وقصائد أخرى.

– ومن أين حصلت عليه ؟

– حصلت عليه وعلى وثائق أخرى.. كتابات بخط يدك..

وتابعت ضاحكا:

– فهل بإمكانك أن تنكري ذلك ؟

– لن أصدقك حتى أرى بأم عيني وأسمع بأذني.

نهضت من مكاني واتجهت إلى أحد رفوف الخزانة حيث وضعت حقيبتي السوداء عند دخولي الغرفة، حتى لا أثير انتباهها أول الأمر قبل أن أكشف لها السر وأزيل الغشاوة عن عينيها تدريجيا..

أخرجت الملف البنفسجي وبسطت الوثائق السرية السحرية على المائدة البيضاوية الشكل، رسائل وقصائد وشذرات ووعود مكتوبة بكل الألوان. اندهشت، زاغت عيناها، اتسعتا إلى ما لا نهاية. لم تصدق ما رأت من هول المفاجأة: الكلمات كلماتها.. الخط خطها.. الحزن حزنها.. والوعود وعودها..

قالت وهي ترتجف:

– لكن كيف حصلت عليها.. فقد أودعتها يوسف أمانة في عنقه.. لا تخلو المسألة من أمرين: إما أن يكون يوسف قد خان الأمانة أو يكون قد مات حقيقة وجئت تعزيني وتعيد الأمانة لصاحبتها ؟

– قلت لا هذا ولا ذاك..

حدجتني بعين المستفهم المتعجل:

– وماذا إذن ؟

– يوسف لم يخنك وما كان ينبغي له.. ولم يمت.. وإنما هاجر إلى أمريكا ما يزيد على السنتين وترك لي هذا الميراث الحزين ولم يوصني باطلاعك عليه ولا بتسليمه لك. لأنه لم يكن يعلم باني يمكن أن ألتقيك ذات يوم أو أتعرف عليك...

حكيت لها بقية الحكاية.. حكيت لها قصة لقائي به منذ تعرفت عليه في المخدع الهاتفي.. حكيت عن نضاله وإضرابه عن الطعام من أجل العمل.. وعن مشروعه البسيط الذي أراد أن يشق به طريقه بمعية عبد الرزاق في العمل الخاص.. فشلا معا.. وطفت خلافاتهما على السطح. عبد الرزاق راهن على التكيف مع الواقع فخاض غمار الانتخابات.. وعاد إلى أحضان العائلة للعمل في شركة تصنيع الزجاج، أما يوسف فقد أعلن إفلاسه وانغلقت أبواب الدنيا في عينيه عندما اتضح له أن لا أحد يرغب في بضاعته ولم يستطع التخلص من الفقر الذي حاصره في طفولته وفي كبره... أعلن فشله في الحب والمال والسياسة وشارك في قرعة الهجرة إلى أمريكا وما كان يدري أن سناء ستظهر على ضفة الوطن.. وعندما ظهرت كان هو قد انتقل إلى الضفة الأخرى وبين الضفتين محيط الظلمات الذي يهزم الحب والصبر ويقوض الانتظار.

قلت لسناء:

– يوسف لم يخنك.. خانه الوطن وخانه الحب.. ويعتقد انك خنت أنت الوعد الذي أغريته به.. طوال ثلاثة سنوات التي جمعتكما:

– لم أخن أبدا يوسف وما ينبغي لي ذلك.. خانتنا معا مسافة كبيرة كانت تفصل بيننا.. مسافة ملأها الآخرون بلغطهم وضجيجهم. كان من الصعب أن ينمو الحب بشكل طبيعي في مجتمع لا يؤمن به يختصره في معادلة ضيقة تربط بين رجل

وامرأة على سرير النوم أو سرير الحياة.. الحب أكبر من ذلك.. عندما يفشل الحب في تدبير السياسة مثلا ينعكس ذلك على كل علاقة حب محتملة بين رجل وامرأة.

– فشل الحب... فسعت السياسة إلى تدبير الحب.

– للأسف هذا هو واقع الحال.. لم تدبره وإنما عملت على ترويضه ولذلك فشل الحب حتى الآن في الزواج بالسياسة. تعمل السياسة على توزيع الكعكة ويكون نصيب الحب ضعيفا..

– يكون نصيبه ضعيفا لأنه لا يحسن الدفاع عن نفسه.

– ومن يدافع عن الحب في هذا البلد ؟ لا يمكن للمحبين أن يدافعوا عن الحب إلا بتصحيح الحب في أنفسهم أولا.. الحب ليس امتلاكا للآخر.. لا يمكن أبدا أن نمتلك الآخر.. وعندما نفشل في امتلاكه، نحوله بسرعة إلى خائن ولهذا تكثر صور الخيانة في مجتمعنا حتى بين الأزواج الأوفياء.

– افهم من هذه العموميات الذكية أن يوسف كانت له صورة خاطئة عن الحب.. كان يريد أن تكوني له وحده، أن يمتلكك.. وظل ينتظر أن يتحقق ذلك ولما تأخر موعد المطر والرعد أحس بالخيانة وسلم بالهزيمة.. وهاجر لينسى الحب..

– نعم هذا هو خطأه وخطئي أيضا. كنا نعتقد أننا يمكن أن نصنع حياتنا بعيدا عن الآخرين.. ونحب بعيدا عن تصور المجتمع للحب..

– هذا هو تحليلك الذكي للأوضاع العاطفية للبلد.. لكن اسمحي لي، كانت رغبة يوسف واضحة.. كان ينتظر منك أن تفي بوعدك وتمديه بالمخطوط الذي كتبته عنه.. لم يتحمل أن يطول التأجيل إلى ما لا نهاية.. كلما وعدته بتسليمه إلا وأخلفت الوعد.. في كل وداع كان يتألم من خيبة انتظاره.. كنت تخذلينه باستمرار إلى درجة لم يعد متأكدا من وجود المخطوط.. أصبح يتساءل باستمرار: هل هذا المخطوط موجود فعلا أم هو مجرد وهم للإغراء والفتنة.. المرأة تعتقد أن الحب الحقيقي هو القدرة على

إثارة الرجل باستمرار والى ما لا نهاية.. تغريه بالامتلاك وتتمرد عليه.. لماذا حولته إلى موضوع كتابة ولم تسمحي له بالإطلاع على ما كتبت..؟ لماذا طالت لعبة شد الحبل إلى ما لا نهاية ؟ ألا يحق له أن يعرف يوسف الآخر الكامن في أوراقك ؟

– كنت أظن أن عن طريق الكتابة يمكن أن أحمي هذا الحب من الانهيار.. كان الحب مما لا يقال.. كنت عاجزة عن التعبير عن هذا الحب باللغة المتداولة.. اللغة المتداولة كانت محملة بكثير من المبيدات التي تقتل الحب.. كانت اللغة في حاجة إلى كثير من التطهير ولا يمكن أن يتحقق التطهير إلا بالكتابة.. نحن في حاجة إلى عدد هائل من الشعراء، عدد هائل من القصائد لتغيير كمياء الحب في لغتنا.. خلق الحب للكتابة.. وخلقت الكتابة للحب.. وهذا ما لم يتحقق في ذلك الوقت.. كان كل شاعر يكتب عن الحب، يتهم بالخيانة، خيانة قضايا الوطن ولذلك عندما يشتد وقع الهزيمة على قلوب الناس، يتخلى الشعراء عن ريشتهم ويكتبون بالسكين كما فعل نزار قباني مثلا.. أو يزوجون المرأة برموز لا نهائية تفاديا للتهمة وتجنبا للعار.. تصير المرأة في المدرسة أرضا للحرث وقضية للالتزام.. كان الرمز يكبت المشاعر الحقيقية ويخفي الكوجيتو الشاعر تحت قناع الالتزام.. أما أنا فكنت أكتب يوسف كما أشتهيه.. يوسف كما أحبه.. كنت أنازله عشقا على الورق.. أعرض في دفاتري السرية كل صور يوسف التي كانت تتغير طبقا لمزاج الشمس، لمزاج الفصول.. كنت أحبه.. أعشقه.. ألبسه.. أسكنه.. أغشاه ويغشاني.. أذوب في دموعه، أبكيه بعبرات حارة.. أرقد على صدره وأحلم بالكواكب السيارة.. أحلم بالكون.. أغني وأرقص في قلبه.. أحبه حتى حدود الجنون وأكتبه في دفاتري كما أشتهي.

أسخر من السياسة العقيمة، فتصبح في قصائدي، عكس ما فعله الشاعر القديم، مجرد مقدمات مملة. أقف على الطلل السياسي في عجلة من أمري وأمر إلى حبيبي لأنازله عشقا وجنونا.. كنت أكتب يوسف في دفاتري السرية، أهربه بعيدا عن عيون الشرطة والجواسيس إلى سرير أشعاري. هنا أنام معه، أحلم معه على مرأى القمر

والنجوم وأطعنه عشقا ويطعنني.. أحبه وأكرهه.. هذا هو يوسف في سرير أشعاري.. أما يوسف في الواقع، فلم يعرف من هذا إلا القليل.. كنت بين الفينة والأخرى أثور على صمتي...، فأتكلم حيث كان يجب أن أكتب وأقول ما لا يقال عندما يشتد بي الحال.. ويفاجئني العشق بعيدا عن دفتري السري.. مرارا وتكرارا كنت أتمرد على صمتي وأعلن ليوسف عن رغبتي في الخروج إلى الشوارع عارية كما ولدتني أمي، في نهار الناس، على مرأى من الشمس.. لا لشبق يعتريني كما قد يظن بعض الرجال الذين في قلوبهم مرض وإنما لأجرب حدود حريتي وحدود المسافات التي يمكن أن يقطعها الحب وأصرخ في الناس وفي الأسواق: أحب يوسف ولا أحد غير يوسف.. في يوسف كل الرجال الذين يستحقون الحب.. كنت أفكر في الرقص عارية وسط نار ملتهبة وأصيح بكل ألم ووجع الحب: أحب يوسف، أحترق بنوره وناره.. كنت مستعدة إلى أن أمشي حافية القدمين على الجمر من أجل يوسف.. ولكنني لم أكن قادرة على أن أقول ذلك.. إلا أنني كنت قادرة على كتابته.. فكتبته بعيدا عن عيون يوسف، بعيدا عن عيون الناس.. وكنت فعلا عازمة على أن أطلع يوسف على الدفتر السري ليقرأ عن الحمم والبراكين، عن الرعود والبروق ليصعق حبا وعشقا.. كنت عازمة على أن أسلمه هذا المخطوط، أن أهديه هذه الهدية المسمومة والتي قد تقتله، إن تلقاها جرعة واحدة، عندما يقرأها دفعة واحدة.. بينما كتبتها أنا على دفعات.. كنت أخاف ألا يتحمل.. كنت أدرك أن قلب يوسف كان قادرا، كقلبي، على الحب، على العشق حد الجنون أو الموت.. فكرت أن أسلمه هذا المخطوط في الوداع الأخير عندما حل الفراق الأكبر ولكن لم أكن مستعدة أن أعلن، أنا نفسي، عن الوداع الأخير ولا أن أوقع حكم إعدامي على مشنقة الفراق الأكبر.

اختار يوسف الفراق الأكبر ووقع عليه.. لأنه لم يكن قادرا على الانتظار وأنا أتفهم مأساته ولكن لم أتحمل أن يفكر يوسف، ولو لحظة، في التخلي عني.. لم أكن قادرا على رؤية يده توقع على نهاية تاريخ بأكمله من العشق والجنون بجرة قلم.. لم يرحمني ولم يكن له الخيال الكافي على توقع ما يحدث في الضفة الأخرى، ضفة

الكتابة حيث تنمو وتكبر الحقيقة.. كان بحاجة إلى خيال كبير، مشتعل لتخيل حرقة أنثى تؤمن أن الحب هو خيارها الوحيد والحاسم، أنثى لا تهادن وترى أن الحب هو المدخل الحقيقي لقلب الوطن، ترى أنه يجب أن نحب بقوة وبدون حدود لنقضي على الفقر العاطفي الذي يهدد البلد برمته، يجب أن يتسع الحب إلى ما لانهاية، بعيدا عن الألوان والسلالم والأعراق والتراتبيات والمحسوبيات والأموال. بهذا الحب الكبير يمكن أن نبني الإنسان فينا.. بهذا الحب يمكن أن نعترف ببعضنا البعض.. أن نعشق الناس دون أن نسعى إلى امتلاكهم.. حب الحبيب في رؤيته حرا طليقا.. بهذه الحرية يبادلك بحب أقوى.

ولا يمكن أن نقوي الحب إلا بالكتابة...، إلا برفع كل أشكال الرقابة على دفاترنا السرية...، إلا بنشر المخطوطات المكدسة في رفوف الكتب.. وفي الأدراج والدهاليز السرية.. أستغرب لبلد لا زال فيه الكتاب يخجلون من نشر غسيلهم العاطفي على حبال المطابع، على قلتها، أو يعلنون عنها في منابر الرأي العام..

كان يوسف حاضرا أبدا في قلبي وكياني.. استمررت في لقائه على الورق وهذا ما سبب لي توترا مستمرا بين زوجي الذي انقلب علي بعد الزواج وتنكر لكل الاحترام الذي كان يكنه لي قبل الزواج.. كان عثمان ابن عمي يعرف تفاصيل علاقتي القوية بيوسف وحكيت له ما استطعت أن أحكيه.. وأعلنت له أنني غير قادرة على أن أحبه بنفس الطريقة والدرجة التي أحببت بها يوسف.. أصغى إلي باهتمام وقدر صراحتي واحترمني.. وأكبرت فيه ذلك الاحترام وتزوجته كما تتزوج امرأة برجل.. لكن سرعان ما انقلب علي بعد مضي مدة على زواجنا.. لم يكن ليقبل أن تكتب سناء، الزوجة المحترمة، على سرير الزواج قصائد حب.. أن تكتب قصص قصيرة جدا محملة بتركة الماضي الذي لم تستطع التخلص منه.. لم تنفع معه أقنعة الكتابة ولا تهريب الأسرار العاطفية إلى أقاليم الأدب.. هشمت حياتي في روايات بدعوى أن ما أكتبه، مجرد تخييل.. هشمت الروايات وتناثرت أجزاء متفرقة وسميتها قصصا قصيرة جدا بأبطال

وشخصيات مختلفة لأقول له لست لا هذه الشخصية ولا تلك.. ولم ينفع.. كنت أخفي يوسف في أسماء متعددة.. أقتله ليحيا في شخصيات تتوالد وتتناسل.. كان عثمان يقرأ كتاباتي بنية مبيتة، يشرح نصوصي على أريكة التنويم المغناطيسي ويفاجئني بأسئلة غريبة ويقارن للقبض على لاشعوري وإلقاء القبض على يوسف في أشعاري وقصصي.. يقرأ بحساسية مفرطة جدا ويؤول وفق إيقاع أحادي، يقوم على قياس الحاضر على الماضي.. كان الشرف بالنسبة له فوق الحب وفوق الكتابة..

وما زاد الطين بلة هو ازدياد رقية، ابنتنا الوحيدة، معاقة.. لم يقبل ذلك ولم يعتبره قضاء وقدرا وإنما عقوبة سماوية لزواج غير مقدس، يقوم على الخيانة وعدم الإخلاص.. ومرة أخرى كان الشرف أقوى من الحب.. لذلك لم يقو على حب ابنته الوحيدة والتي كانت في حاجة ماسة لهذا الحب أكثر من أي شخص كان.. لم يكن يهتم بها ولا بمعالجتها.. كان يخجل حتى من تقبيلها.. كان يغضب لأتفه الأسباب ويغادر المنزل ولا يعود إلا بعد مدة طويلة..

وتتأزم الأمور أكثر بعد عامين من ولادة رقية عندما توصل برسالة من يوسف الذي لم يكن على علم بزواجنا، ولم يسبق ليوسف أن رآه في حياته. لم يعرف منه إلا الاسم وكنت أحكي له عنه.. قلت ليوسف بأن عثمان ابن عمي تربطني به علاقة قرابة واحترام وثقة. كان يتعاطف معي ويقدرني ولم يصدر منه ما يدل على أي ميل منه إلي. وحدثت عثمان، قبل زواجي منه، عن يوسف وعن نبوغه وأخلاقه، فكان يكن له الاحترام والتقدير. فاقترح علي يوسف التعرف عليه ومراسلته، فكان له ذلك وتبادلا بينهما رسائل عندما كنت على علاقة مع يوسف وتعجبت أنا من جمال تلك الرسائل التي كان يكتبهما كلاهما للآخر، كانت مفعمة بالشوق والإعجاب رغم عدم تمكن أحدهما من اللقاء بالآخر. وكنت أقول في نفسي هذا هو الحب الحقيقي.. هو هذا العدوى الجميلة التي تنتقل من المحبوب إلى كل ما يحيط به، إلى الإنسان، إلى الزهرة، إلى النحلة، إلى التراب... إلى الوطن.. عدوى الحب التي تشمل الكون برمته..

وبعد افتراقي مع يوسف انقطعت الرسائل بينه وبين عثمان.. فلم يعلم بزواجنا.. كانت نكسة الحب كبيرة وكانت لها تداعيات علي وعلى عثمان وعلى رقية التي أتت إلى هذا العالم دون أن تكون لها يد في ذلك.. كانت ثمرة زواج فاشل لا حب فيه، سماه عثمان خيانة.. خصوصا لما توصل برسالة من يوسف، غير منتظرة، بعد مضي عشر سنوات على زواجنا. تحدث فيها يوسف كما يتحدث الصديق إلى صديقه عن ذكرياته معي وعن الجرح الذي لم يندمل بعد رغم مضي زمن طويل على فراقنا ويؤكد له أن قلبه لا زال ينبض أكثر من أي وقت مضى بالحب القديم الذي لم يمت ولا يمكن أن يموت كتب هذا بطبيعة الحال وهو لا يعلم بزواجي بعثمان.. كانت هذه الرسالة النقطة التي أفاضت الكأس. فأرغى وأزبد وهو يقرأ علي عبارات يوسف القوية، الصادقة.. يقرأ ويعيد ويسب ويشتم ويلوم نفسه لأنه هو الذي قبل أن يدخل أرضا ملغومة.. انتهت فيها الحرب إلا أنها لم تنظف بما يكفي من الألغام التي تركها العدو في ساحة المعركة.. وهاهو اللغم الأول ينفجر في وجهه ويعلم الله، يقول، ماذا ينتظره من ألغام أخرى.. فأقسم على انه لن يقبل بهذا الوضع ولن يستمر مزبلة لعواطف الآخرين.. بعد هذه الزوبعة، جثم على حياتنا صمت رهيب وحياد شامل.. وقعنا، معا أنا وهو، على هدنة قد تمتد أو تقصر إلى أن نجد حلا لهذا الزواج الفاشل.. أفشله حب قديم استمرا مشتعلا تحت الرماد لسنين ولا زال..

أنت ترى يا ادريس أني أتهم بالخيانة من الزوج والحبيب، أنا التي حملت في قلبي حبا قويا، قاسيا، صادقا، لا أظن أن أنثى أخرى قادرة على تحمله في بلد يعذب عشاقه، يقتلهم، يطردهم ويفسح المجال للخونة بمختلف أطيافهم وألوانهم، في الأخلاق والاقتصاد والاجتماع والسياسة.

اكتسحت الخيبة ملامح الوجه الجميل. اعتراها شحوب، أصفر معه وجهها كبرتقالة، تخلت عنها الشمس فجأة.. وانكمشت على نفسها..

ضمت رجليها إلى صدرها وسقط الرأس الحزين ومعه خصلات شعر هزمته ريح عاتية وأحاطت بيديها ساقيها وضمتهما إلى صدرها كجنين، يرفض الولادة من جديد وانحنت الجبهة الواسعة إلى الأسفل حتى لامس الذقن الركبتين..

صمتت.. كان لصمتها وقع شديد على نفسي.. كان صمتها رهيبا وكان حزنها مقدسا وكانت أنفاسها الصاعدة بخارا يتصاعد إلى عنان السماء في معبد قديم.. تبتهل في خشوعٍ إلى شمس الليل التي غطتها الغيوم.. بدت لي كزهرة عباد الشمس، فقدت توازنها.. تنحني إلى الأسفل ولا تدور حيث دارت الشمس.. شمس الليل منكسرة النفس.. حجبت غيوم النهار فرحتها وبهجتها..

سناء شاردة تسير مع غزالتها الخائفة في أودية حزينة.. تدخل مغارات مجهولة.. تبكي تيهها في الصحاري القاحلة.. أراها في الأفق، تتخلى عن أسطورتها، عن خرافتها...، تمشي ببطء، لم تعد بها رغبة للجري، لم يعد يهمها الخوف بعد أن قتل اليأس كبرياءها..

قمت من مكاني وحمت حولها حائرا.. باحثا في داخلي عن وصفة شعرية لعلاج الأم، غزالتي التي غابت عنها شمس الليل.. بقيت مطرقة.. كأنها فقدت الشعور بما حولها.. اقتربت منها من جديد. رفعت بكلتا يدي وجهها الدامع الحزين.. كانت عيناها محمرتين.. فتحتهما بصعوبة، كأنها تستيقظ من سبات حزين.. طبعت قبلة على جبهتها.. لم أجرؤ على الاقتراب بشفتي من شفتيها.. أغراني شجاها بالذوبان فيها.. حدثتني نفسي بضمها إلي بقوة.. باختراق أعماقها للملمة ما بقي من أمل في صدرها.. لكن حزنها الملكي كان أكبر مني.. كان متكبرا شامخا..

أخذت يدها بين يدي.. فقامت واقفة.. ودعوتها للنظر عبر زجاج النافذة إلى البعيد. كانت الأمطار قد توقفت والرعد قد هدأ.. في البعيد بدا لنا المرفأ مغريا بالسفر. كانت السفن راسية على الميناء، تنتظر الإقلاع أو الحريق. صحت من جديد:

لا نملك سوى سفننا وابتسامات أطفالنا

سنحرق سفننا من أجل ابتسامات أطفالنا

قالت لي بأن الغزلان لا تحسن السباحة في المحيطات...، تموت تحت لهيب الشمس.. تجري وتجري إلى أن تسقط صريعة على كثبان الرمال أو ترمي بنفسها من فوق حالق ليتكسر جمالها على صخور حادة. هذا إذا اختارت موتها في الصحراء...، هذا إذا لم تصبها طلقات بنادق الصيادين الذين لا يهدأ لهم البال حتى يسقط سرب بكامله، يسقي الرمال ويسقي ظمأهم للدماء الطاهرة الزكية..

حكت لي قصة زوجة أحد الصيادين.. اكتشفت ذات يوم عزوفه عن تناول الخضر والفواكه بسبب نهمه الشديد للحم الغزلان واكتشفت أنه أباد قطعانا من الغزلان بكاملها.. فخافت على نفسها. وتوقعت منه الشر. فان لم يجد ما يقتات به من لحم الغزلان، فلن يهدأ له بال حتى يبيدها أيضا من الوجود.. لن يتردد في قتلها وأكل لحمها..

كانت امرأة جميلة، لها عيون صافية، لا تقل جمالا عن عيون المها.. فصارحته بالحقيقة ذات يوم وطلبت منه الطلاق فكان لها ذلك..

قلت لها:

– حسنا فعلت.. ومن حسن حظها أنه وافق على ذلك. ربما كان يخاف عليها من نفسه.

– وهذا ما فعلته أنا أيضا مع عثمان.. أو قل هذا ما فعله معي فهو الذي بادر إلى طلب الطلاق.

– لأنه لن يتحمل النظر طويلا إلى وجه الغزلان.

– جوع الصحراء يغري بإبادة القطيع في البيد القاحلة ويغري بامتلاكها في المدن. أنا لن اسمح لأحد بامتلاكي. إذا كنت تحب قصص الغزلان، فتعال لتسمع قصة كتبتها عنها.

– قصة قصيرة جدا، مرة أخرى ؟

– نعم.. ربما.. أنا أكتب روايات طويلة أو قصصا قصيرة جدا. لا أحسن الوقوف في الوسط. تومض الفكرة المتوحشة في خيالي كالبرق فألقي عليها القبض حالا في قصة قصيرة جدا.

– فكرة القصة كالشذرة، كالقصيدة، كالبرق، كنيزك آت من عالم آخر، كانفجار قنبلة. ذكرتني بنزار قباني الذي قال بان القصيدة تشبه القنبلة.. تكتب حالا أو تنفجر في وجهك..

– من حسن الحظ، أتيتني اليوم مع وميض البرق وقصف الرعود ووميض القصة التي ضبطتها طازجة في يدي.. فكنت أول من اطلع عليها.

– لقد ابتسم لي الحظ هذه المرة وانتقم لي من خيبة ذلك اليوم في ندوة التواصل حيث وقعت نسخا.. وحرمتني من لذة توقيع نسخة لي أنا الذي لم أكن مجرد قارئ أو ناقد.. تذكرين ذلك...؟

– ذكرتني.. تستحق النسخة الأصلية.. إذا كنت تستطيع قراءتها... مكتوبة بخط اليد.. لكن أخاف على عينيك من رداءة خطها... سآتيك بنسختك المطبوعة.

اتجهت إلى رفوف الكتب وتوقفت عند مجلدات ألف ليلة وليلة، بجانبها، تراصت نسخ المجموعة.. قلت في نفسي، وأنا أراها تسحب عدة نسخ، إن سناء تحب أن تجالس شهرزاد في صالون الخالدات اللواتي استطعن ترويض الأسود والنمور بالحكاية العجيبة والغريبة.. عادت إلى مكانها لتجلس بجانبي وهي تقول:

– لن أوقعها لك قبل أن أسمعك قصة طريفة عن غزلان اليوم، غزلان العصر وهن يقتحمن عالم السياسة.

اسمع:

شمس الليل

"سمعت الحيوانات في الغابة بالحقوق التي أصبحت تتمتع بها الأقليات من مختلف الأجناس، حتى الكلاب صار من حقها النباح والمطالبة بتقليص ساعات الحراسة، فدعا أبو الليث قدامى حيوانات كليلة ودمنة لتأسيس جمعية متميزة ذات منفعة عامة ووعد بالديمقراطية والنزاهة والتمثيلية الشاملة لمختلف الفرقاء، بما في ذلك المرأة الممثلة في جنس الغزلان والتي حددت لهن الكوطا نسبة مشاركة مشرفة حسب أبي الليث...

حضر أغلب الحيوانات، بمن فيهم ابن آوى التكنوقراطي الذي سيضطلع بتسيير الاقتراع... باستثناء الغزلان اللواتي تأخرن في الحضور وهو ما فسر من طرف المتتبعين بأنه إعلان، ربما، عن مقاطعة محتملة للمشاركة في الترشيح والتصويت..

اقترب ابن آوى من الأسد ونصحه بالإسراع بإجراء الاقتراع لتشكيل المكتب واستغلال فرصة غياب الغزلان، لأن ليس في مصلحة الجمعية الفتية أن تضم إناثا ناقصات عقلا ودينا وسياسة.. فاستجاب الأسد لابن آوى.

وما كاد يضع صندوق الزجاج على الطاولة حتى سمع ضجيج احتجاج الغزلان في الخارج، يطالبن بالمشاركة وبرفع نسبة الكوطا.. فأشار ابن آوى على الأسد بقبول مطالب المتظاهرات على شرط قبولهن بتأجيل الاقتراع ليوم الأحد المقبل لتتمكن قطعان الحمير بالإدلاء بأصواتها.. فصفق الجميع إلا الغزلان، بطبيعة الحال، ورفعت الجلسة.

تطلعت إلي بعينيها الواسعتين، فيهما من الروايات والقصص ما لم تكتبه حتى الآن.. سفر إلى أقاليم الشعر العليا، إلى فجر الأبدية حيث الكلمة تعني ما يحدث في العالم، الزمن الأول عندما كانت الحيوانات تتكلم وتبدي رأيها.... تطلعت إلي، تستفهم بألق عينيها وقع القصة علي... خطت على الصفحة الأولى كلمة إهداء تتبعت أناملها وهي تكتب:

"بإمكان قصة واحدة أن تسكت ضجيج العالم إذا وجدت

الكاتب المناسب والقارئ المناسب."

وبعد تردد قصير، وقعت بجرة قلم حلما سكنني من زمان وها هو يرى النور أخيرا.. لست قارئا ولا ناقدا... أنا عاشق السنا... عاشق شمس تسطع ليلا.. تنير ظلاما أقام في داخلي منذ زمان قديم.

قلت:

– رائع جدا.. ما كنت أعتقد أن حيوانات ابن المقفع قادرة على تناول الكلمة من جديد حتى استمعت إليك.. الإبداع الحقيقي هو القادر على تكليم كائنات الحجر والنبات والحيوان والإنسان.. الإبداع الحقيقي هو تكليم الصمت القابع فينا منذ آلاف السنين..

– صحيح.. لكن لا تبالغ في إطرائي.. أنا لم أصل إلى هذه الدرجة من الشعرية التي تتحدث عنها..

– أنت في طريقك إليها... أن تخلصي للغزالة منذ تعرفك على يوسف، هو الإبداع الحقيقي في الوقت الذي يمر عليها الآخرون مر الكرام، كاستعارة عابرة.. صيرت الغزالة أسطورة خارقة بإخلاصك لها... وقد استطعت أن تنقلي هذه العدوى الشعرية، إن صح التعبير، إلى يوسف ومن يوسف إلي.. فأخلصت لك بدوري وأخلصت لغزالتك قبل أن أعرفك.. منذ حدثني يوسف عن هذه الأسطورة حتى لا أقول الاستعارة...، انشغلت بها، فملكت خيالي وكياني.. مرضت بها.. مرضت بالروح التي تسكنها، مرضت بالشعر في عينيها... بالجرح الجميل الذي ينزف شعرا في قلبها وينزف دموعا في عيني وعينيها.. كان قلبي ينزف وعيني تدمع كلما وقفت على جمال خارق..

قبل ثلاث سنوات، قبل أن أتعرف عليك...، حضرت لمسرحية لصديقي القشيري، المسرحي... حضرت قبل بدء العرض المسرحي بثلاث ساعات... كانت

القاعة فارغة.. والخشبة ساحة للصمت والخيال... رأيت مسرحية واقعية هذه المرة... رأيت غزالة تخرج بجلال حزنها من مجلدات ألف ليلة وليلة وتقف على الخشبة، في رقبتها سلسلة ذهبية لا تفارق يد رجل حكى قصة مسخها.. كانت ابنة عمه.. كانت فتاة ساحرة رائعة الجمال.. إلا أنها كانت عاقرا.. فمسخت غزالة ومسخت ضرتها التي كانت ولودا بقرة... ولما عرضت المسرحية الحقيقية بعد ذلك لم أنتبه إليها ولم أستوعب شيئا منها.. أخلصت لك يا سناء قبل أن أعرفك..

خنت مسرحية صديقي وأخلصت لك ولغزالتك... كنت أظن هذا الحدث العجيب مجرد طيش خيال عابر... لكن شغلني... وها أنا الآن، أقف على قصتك مع عثمان وأسمع قصة الغزالة... وإذا القصة ذكرى والذكرى خيال والخيال رؤيا.. لم تكن الذكرى خيالا يا سناء، كانت رؤيا وها أنا أقف الآن على ما لم أحط به علما، في ذلك الوقت، رأيتك استعارة على خشبة مسرح خيالي وها أنا الآن أراك جهرا في مسرح الحياة.. هل أنا في حلم ؟ أراك الآن والمسك وأحبك وأعشقك.. تاريخ الشعر لا ينسى إلا لدى من لا يثق في الحلم والرؤيا... أراك الآن في هذه الغرفة الجميلة والرائعة، في هذه اللحظة الخالدة، أراك غزالة استطاعت أن تهتك سر الخرافة، استطاعت أن ترفع السحر الذي مسخها... وإذا الغزالة أنت... تتوقين بالكتابة رفع المسخ الذي أصابني وأصاب العالم... العالم الذي نسي لغته الأولى... لا أنسي أبدا ما قاله لي أحد الرجال الذين خبروا أسرارا الحياة بعد أن حكى لي قصة اللقلق: إن الحيوانات، يا ولدي، كانت تتكلم في بداية الزمان، تماما، كما نتكلم نحن، إلا أنها مسخت بسبب خطيئة ارتكبتها.. وأنا استعيد هذه الحكمة الشعرية التي ترى ما وراء الأقنعة.. أتساءل: أي خطيئة ارتكبت لتعاقبي بهذا المسخ الذي يطالك ويطالني... يعرفنا الناس باسم وهوية لا تمت إلينا بصلة. وعندما نحاول أن نقنعهم بهويتنا الحقيقية، لا يصدقوننا.. يعاقبوننا بالتجاهل... والنسيان، نسيان اللغة الأولى التي كنا نتفاهم بها مع الحيوان، مع العالم، مع الكون..

شمس الليل

كانت سناء شاردة، تستعيد شريط الذكريات معي، تحاورني بالعين... تتحدث بملامحها وتقول، في صمتها، ما لا يقال.. راغبة في البوح... تمسح محيط روحي بنظرتها الأسنة ولحظها النافذ... همت بها.. ملأني حضورها حتى النخاع... ملت إليها... كان عطرها رسولها إلي، هي القريبة في بعدها والبعيدة في قربها... بيني وبينها الكتابة... بيني وبينها عطر زهرة البنفسج التي دوخت فراشات الليل فاختارت الموت على سرير الحب والضياع في أقاليم النجوم...

قلت لها:

– سناء أنت جميلة، رائعة... في شرودك تكونين أروع وأجمل.. أنت كل الحب الذي حلمت به. ها أنا أراك الآن ولا أصدق: أأنا في حلم أم في واقع..؟ اختلط علي الأمر.. أنا ضحية من ضحايا كتاباتك... بل كنت ضحية قبل أن أقرأك... قرأتك في الرؤيا وها هي الرؤيا تتحقق... علمني يوسف سر حروفك.. قال لي اقرأ حروفها وستشرق عليك سناء في الليل حيث لا تشرق شمس أخرى...

تذكرت قصة قصيرة جدا، سبق لي أن كتبتها في مدح وجه أنثى أطل علي ذات شعر من حيث لم أتوقع.. حكيت لها ما تبقى من هذه القصة... قلت:

"تتذكر أمطار الشتاء بعضا من أيام الصيف فيظهر الذئب في الأفق.. شتا الذيب التي تسقط والشمس ساطعة.

وأنا أهم بفتح الباب للخروج من المنزل..، تذكرت مطريتي. هل أعود أدراجي ؟

لكن لست متأكدا إن كانت ستمطر أم لا. فتحت الباب. تطلعت إلى السماء... كانت بها سحب متفرقة غير أني لم أر مطرا... رأيت نافذة تفتح ليطل وجه أنثى تشرق بطلتها البديعة.. رأيت عينيها المتسعتين إلى ما لا نهاية.. عدت أدراجي..

لم أبحث عن مطريتي..، حملت ورقة وقلما وغادرت البيت وكتبت أجمل قصيدة في حب وجه صعقني وسرق مني قلبي... قصيدة مسخها الراوي قصة قصيرة جدا."

لم تجبني سناء... فاض الدمع.. وجالت ببصرها في أنحاء الغرفة، كأنها تتعرف على مكان وجودها... لا تصدق أن الشعر يمكن أن يشرق بالليل... وأنها كانت ذات يوم طيفا في فؤاد فتى مرض بحبها وها هو الآن يرى الطيف حقيقة.. استقرت عينها على الشمعات المنطفئة التي كانت تضيء قبل قليل... تتذكر تاريخا موجعا من المسخ... قلت لها:

– نحن لا نكون نحن حتى نلتقي بمن نحب حقيقة.. وجودنا زائف بدون هذا الحب الذي يرفعنا مع من نحب إلى السماء.. الحب، وحده، يشفينا من المسخ الذي يشوه الوجود داخلنا..

حكيت لسناء وجوه المسخ التي آلمتني.. كانت تصغي بقلبها لأجراس ذكريات عذبتني.. حكيت لها عن أبي الذي شوهت السلطة عالمه الداخلي... مسخت حلمه.. وأذاقته أصناف التعذيب في زنزانتها ورمت به، كسقط متاع، خارج زنزانتها، كبقايا إنسان غير صالح للكلام.. وجه أبي يسكنه صمت غريب ومخيف.. يحدق في وجوهنا في شرود دائم.. غير مبال.. يسخر من كم الكلام الهائل الذي تنتجه الآلة فينا والتي لا تستطيع فهم حقيقته... ولا تأويل معانيه..

قلت لسناء إن صمت أبي يهزمني، ضقت به ذرعا ولم أجد له حلا.. صمت يتحداني، لم تنفع معه تعازيم السحرة ولا تقارير الأطباء ولا حفريات علماء الآثار..

قلت لها إن صمته قديم قدم الدهر، يسكنه ويسكننا... لم ينفع معه ما كتب في الأدب من مدح وهجاء والتزام... حقيقته، إن كانت للصمت حقيقة، ضائعة في مخطوطات كتب ضاعت أو أحرقت أو أغرقت أو دفنت أو سجنت في سجون لم نكتشفها حتى الآن... سجون ارتدت أقنعة حضارية... سجون قابعة في كواليس

قصبات عتيقة، تدل في ظاهرها على جاه السلطان والقائد وفي باطنها على قمة العذاب الإنساني...

صمت أبي قابع في هذه المخطوطات الضائعة، هذه المرة، في أذهان وأعماق كتب لم يفلحوا في كتابتها... لماذا لم تستطع كتبنا حتى الآن، أن تكتبنا كما نحن...؟ لماذا تتحدث عن الآخرين فينا ؟ لماذا تخجل وتضعف عندما تواجه الصمت المخيف الذي يطبق على الأجساد في السجون وعلى القلوب خارج السجون... على القلوب المقفلة في أجسام وأقنعة، ضيعت كلمتها الأولى...

حكيت لسناء عن الكاتب الذي تعرفت عليه وحكيت له عن صمت أبي وأبدى تعاطفا لمعاناتي واقترح علي العمل معه، كشخصية ورقية، لإنجاز رواية تقترب من هذا الصمت، تفضحه وتعلنه للملأ للاعتراف به، لمواجهته، لفهمه، لقوله.. إن لم تستطع وضع اليد عليه، وهو ما لا يمكن أن يقوم به كاتب بمفرده، تحاول، على الأقل، المشي في طريقه...

عرض الكاتب علي هذه الفكرة. قبلتها فهجرت وجودي الاجتماعي الواقعي واشتغلت في وزارة الثقافة بتوسط منه... حتى الثقافة لم تنج من الوساطات والمحسوبيات، الظاهرة منها والباطنة... لم أكن راضيا على ذلك... لكنني قبلت لان اللقاء مع كاتب والتفاهم معه على الاشتغال على الصمت.. على صمت أبي.. فرصة يجب أن لا تضيع... هجرت الواقع وحياتي الاجتماعية... ودخلت الرواية...

قلت لسناء إن الأمر لم يكن سهلا كما قد يتبادر إلى ذهن كثير من القراء الذين بإمكانهم أن يتلصصوا على حياتنا الخاصة، إن قدر لهم قراءة نشراتنا النفسية وحبل غسيل ملابسنا الداخلية.. ليس من السهل أن نتقبل أن نجد، في يوم ما، كتابا يكتبه الكاتب عن صمت أبي ويعرض فيه هذه الجلسة الحميمية التي تجمعني بسناء الآن.

.. قلت لسناء ليس من السهل القبول بالوضع المريب للأدب وللرواية، في مجتمع لم يصل فيه الإفراد إلى درجة من المدنية الثقافية، إن صح التعبير، يكونون، معها، قادرين على مواجهة ذواتهم في المرآة... قادرين على مواجهة صمتهم الذي يعذبهم ويهربون منه إلى السياسة والمهرجانات والعادات والطقوس والاحتفالات والمراسيم والبرتوكولات...

ليس من السهل فضح سريرة امرأة محترمة تشتغل في الصحافة السمعية والبصرية، تعرض ذكريات حلمها في آن تخرج عارية إلى الشوارع، متحدية تاريخا من الطابوهات، تاريخا من السجون القابعة في دواخلنا... نحملها دون اقتناع منا...

ليس من السهل علي، أن أخرج من الواقع وأدخل رواية يقترحها علي كاتب تعرفت عليه في السينما أثناء مشاهدتنا لفيلم المصير ليوسف شاهين.. ليس من السهل، الدخول في رواية لا علم لي بسيرورة أحداثها، يمكن أن تقلب حياتي وجها على عقب.

ليس من السهل، أن تركب مغامرة وجودية، تؤدي بك إلى أن تهجر من تعرف لتجد نفسك بين عشية وضحاها مع أشخاص آخرين مجهولين... لكن صدقيني سناء، قلت لها، كانت مغامرة جميلة هجرت فيها من ألفت وعرفت إلى من أحببت وعشقت وشتان بين الألفة وبين الحب وبين العرف والعشق.. صرت غريبا في أسرتي مع أمي التي اتهمتني بالتعاطي للسياسة التي تظنها أدبا، أو بالأحرى، تظن كل أدب سياسة. وهي، في جميع الأحوال، لا تفرق بين الأدب والسياسة. كل ما يغير تفكير المرء، في اعتقاد أمي، سياسة، ومبررها، في ذلك، ما جلبته السياسة من محن لأبي..

لم تكن تفرق أمي بين السياسة والأدب ولا بين الزواج والحب، أمي التي لم تقرأ شيئا عن الحب في روايات الغرب والشرق...

صرت غريبا بين إخوتي الذين كانوا يتهمونني بالهروب من الواقع وأنني لا أعرف كيف أحقق مصلحتي في البلاد بين العباد...

وأبي الذي كان ينظر إلي طويلا ولا يقول شيئا...

وخطيبتي "حياة" التي اتهمتني بالإهمال وبالخيال والهروب إلى الأمام وعندما تغضب، تتهمني بالجنون وتنسحب لأني في نظرها لا أعرف كيف أضع النقط على الحروف وتقصد بذلك أنني لست عمليا، غير قادر على التكيف مع الواقع.

قلت لسناء كان الدخول إلى الرواية مع ذلك مغامرة رائعة، التقيت فيها بنجاة أولا بشلالات أوزود... هذه الأنثى التي علمتني تجربة السقوط الرائع... لقنتني غضب المياه الجارفة، غضب نمور الماء، تتساقط تباعا ولا تبالي بالهوة الساحقة.. غضب جميل، علمني، أول مرة، كيف أرفع رأسي عن الأرض وأحدق من أسفل الشلال إلى أعلاه لأتعلم درسا شعريا من شجرة تسكن الشلال وتقاوم الارتجاف... احتفلت معها بجنازة الموت الجميل.. احتفلت معها بذكرى سقوط حبيبها جمال، ذلك الفنان الذي كان يرسمها.. ويرسم معها إمكانية حياة أخرى.. غسلتني نجاة من الخوف والتردد في ذلك اليوم الرائق، الرائع.. إلا أنها كانت قاسية جدا ووضعت نقطة نهائية لجملة أردت أن تتطور لتصبح رواية.. أغلقت الهاتف في وجهي ذات ليلة وأنا أكلمها من مخدع يوسف... الذي تعرفت عليه وحكيت له عن خيانة الإناث، يعدن بالحب وعندما ينضج القلب لقطف الثمار، ينسحبن ويخلفن وراءهن خيبات وخسارات وجروحا لا تلتئم أبدا... في هذا المخدع حكى لي قصة سناء.. قصتك أنت..

يوسف عرفني على الحلم والنجوم والسماء، علمني أن الحلم رؤيا وأن الرؤيا وطن سماوي، يمكن أن التقي فيه بالأنثى الكونية.. وأن الأنثى الكونية أنت.. أنت السنا، الشمس التي تشرق ليلا...

قالت سناء ضاحكة وسط حزنها الذي أحاط وجهها بهالة من الجمال الأسطوري:

– تقصدني أنا ؟ لا تبالغ... أنا لا زلت أحلم بما تحلم به أنت ولم أصل بعد إلى شيء يذكر... لم أحقق شيئا.. لا زلت أحتفظ بخجلي القديم.. وأنت ترى لم

أخرج حتى الآن إلى الشارع عارية... لست قادرة على ذلك.. من طفولتي وأنا أحلم أن أصرخ بأعلى صوتي. لا زلت أراوح مكاني.. أنا لا زلت أحلم..

– سأحلم معك.. سندخل معا الرواية.. وبمعيتنا مخطوطات رائعة سنضعها بين يدي الكاتب لينشرها داخل الرواية أو خارجها..

استعرضت أمامها أسماء المخطوطات والمطبوعات التي راكمناها حتى الآن طوال هذه المسيرة الروائية منها المخطوط الذي حمله يوسف معه إلى أمريكا ولا أعرف كيف سأحصل عليه،... مخطوط أعلمني بوجوده ولم يطلعني على فحواه، يوم رحيله، عندما ودعته بالمطار بمعية عبد الرزاق.. مخطوط قديم لمؤلف مغربي قديم لم ير النور حتى الآن ولم يجد طريقه إلى المطبعة... كتاب قديم عنوانه "منطق الطير" لمؤلف يدعى أبو أنور الشنقيطي.

وقلت لها مستأنفا كلامي:

– ... والمخطوط الذي بحوزتك والذي كتبته عن يوسف والذي وعدته بتسليمه إليه ولم تفعلي... هذه فرصتك للتكفير عن هذا الذنب الكبير الذي هدم صرح حب بأكمله..

– أنت أيضا تتهمني بارتكاب الذنب وتطالبني بالاعتراف به والتكفير عنه.. أن أكتب عن يوسف..، هذا ذنب في نظركم.. ذنب يجب الإقرار به...

– أنا لا أتهمك.. أنا لا أقصد... إنما أقول من حقك أن تكتبي عن يوسف.. ولا أحد له الحق في أن يمنعك من الكتابة عن من تحبين... أنا أقول إن الكتابة عن الحب هي مفتاح الكتابة، هي تذكرة السفر إلى أقاليم الكتابة الممنوعة... من لم يكتب عن الحب، لن يستطيع الكتابة عن الممنوع وما أكثر الممنوعات في هذا الوطن... من يكتب عن الحب، يمكنه المجازفة والمخاطرة وفي المخاطرة النجاة.. أنا لا أختلف معك في هذا وإنما أتحدث عن حق يوسف في القراءة، عن حقنا نحن في قراءة...

– ماذا تقصد بالمجازفة ؟

– أن تعرضي كتاباتك للشمس، أن ترفعي الحجب عن دفاترك السرية.. أن تصرخي.. أن تخرجي ليس إلى الشارع، بل إلى دور الطبع والنشر عارية..

– صحيح.. هذا ما يجب أن أفعله... هذا ما كنت أحلم به... أن اكتب عن الحب بالنار.. أن احترق وأحرق معي قرائي المحتملين... الكتابة محرقة للذاكرة التي تكبلنا.. يجب أن ندخلها بشجاعة... الكتابة تحتاج إلى رماد أجسادنا.. من هذا الرماد، يمكن أن نركب أفضل حبر للكتابة.. وهذا ما لم أستطع أن أصل إليه حتى الآن.. كلما فكرت في العراء، إلا وداهمتني العيون.. وأحسست بالبرد الشديد يصلب أناملي، فيسقط قلم الحبر من يدي... ادريس، لا أستطيع أن أكون أنا... سميت نفسي مرارا "حادة"، كما يفعل كثير من الأدباء الذين يهجرون أسماءهم القديمة بحثا عن هوية كتابة يقبل بها القراء في سوق الأدب.. سميت نفسي "حادة" لأستلهم منها إرادة الحديد... وأنتقم لأشجار الغابة وأقول ما لم تقله ولادة ولا عبلة ولا عنيزة ولا فاطمة...، لكني كلما حاولت إلا وفشلت.. لو كنت حادة لاستطعت العبور إلى يوسف... لاستطعت أن أجهر بحبي ليوسف.. لاستطعت أن أفي بالوعد الذي قطعته على نفسي وأسلمه المخطوط... أنا لا استحق الاسم الذي اخترته لنفسي.. أخجل من هذا الاسم الذي ادعيته زمنا طويلا ولم أحرر به ولو منطقة صغيرة من ذاتي.... ما فعلته حتى الآن لا يتجاوز الهروب إلى الأدب، إلى القصص القصيرة لأخفي عورتي.. كثيرا ما أضحك وأسخر من هؤلاء الذين يكتبون في الأدب وللأدب، في الجمال وللجمال... ولا يدرون أن الأدب قناع اجتماعي، يرتديه الكاتب ليتعرف عليه القارئ... يتواطآن معا للقاء في الأمكنة الممنوعة، مع التزام الطرفين بالحذر والحيطة حتى لا يخرقا ما يسمى بالميثاق والذي يسهر عليه كهنة الأدب بصياغة قوانين يسمونها أدبية وهي، في الحقيقة، اجتماعية لحماية حدود الأدب في أجناس وأنواع محددة لا يجب على القارئ ولا الكاتب التعدي عليها...

ماذا لو أخرجت إلى المطبعة هذا المخطوط وسميته سيرة ذاتية أو مذكرات.. ماذا سيكون رد فعل أقاربي وأصدقائي وزملائي في الصحافة والأدب ؟ أكيد أن نظرتهم إلي ستتغير في اليوم الموالي.. يتلصصون على عورتي... يقرأون بنهم ما كتبت... لكنهم لن يقووا على النظر إلي.. بل منهم من يتجنب الظهور معي في الأماكن العمومية... يقرأون عورتي وفيها يتعرفون على عورتهم التي لا يستطيعون مواجهتها.. يعجبون، ولا شك في عزلتهم، بشجاعتي ولكن لن يترددوا في أن يتحاشوني، بل قد يذهب بعضهم إلى حد البصق علي ليظهر للرأي العام كحارس من حراس القيم والفضيلة...

ماذا تريد مني، يا ادريس، أن أفعل لأكفر عن ذنب لم أقترفه أنا... ؟؟ قل بالله عليك... ماذا تريد مني أن افعل، أنا التي لم أستطع أن أكون نفسي... أن أكون أنا...؟

– قولي لي، يا سناء، هل لا زال هذا المخطوط اللغز، هذا المخطوط الأسطوري بحوزتك..؟ أرجوك لا تعتبري هذا تدخلا في حياتك الخاصة ولا رغبة في التلصص على أوراقك الحميمة ؟

– ماذا تعتبره إذن ؟؟ لقد سبق وأن قلت انك لست قارئا ولا ناقدا ؟ أنت أيضا لغز.. والله لا أدري كيف أتعامل معك... ضبطتني في هذا اليوم الممطر والمرعد متلبسة بالكتابة.. ولم أستطع الهروب منك... وها أنت تقتحم علي غرفة الكتابة وتقف قريبا من هذا المخطوط الملعون الذي أسال لعابك ؟؟ أنا أعرف... يوسف هو الذي حرضك عليه.. هو من أحبه وعشقه.. هو من يستحق أن يراه.. لكنه الآن بعيد عنه..

قلت بلهفة

– أين هو ؟ أين هو المخطوط...؟

نظرت إلى أعلى الرفوف وأشارت بسبابتها وهي تقول:

– هنالك... رابض هنالك منذ زمان طويل.. منذ الأزل... ثق بي، يا إدريس، إنني لم اطلع عليه منذ سنين.. لا أقوى على الاقتراب منه... يعذبني... صرت أتحاشاه.. عندما اقترب منه أحس فعلا كما قلت أنت قبل قليل بالذنب... يذكرني بعجزي.. بخوفي.. بخجلي من نفسي... أتضاءل أمامه وتسقط كل أوهامي وكل ادعاءاتي... هذا المخطوط هو وحده حقيقتي... لا أحد يعلم، حتى الآن، ما يحتوي عليه. لا يعلم ما به إلا الله، علام الغيوب وأنا هذا المخلوق الضعيف الذي خُلق ولم يستطع أن يخلق شيئا... لا يملك لنفسه شيئا... لا أستطيع أن أهرب من القدر الذي كتب علي أن أحب يوسف ويحبني... كتبت حبه حريقا بين أضلعي وخلدته في هذا المخطوط... الذي كان سببا في ابتعاده عني.. ندمت على اليوم الذي اعترفت له بوجود دفتر سري، ينمو ويكبر بنمو حبنا... ندمت ولم ينفعني الندم... صار لعنة... ذاكرة ثقيلة مرضت بها ولم أستطع أن أتخلص منها... مرارا وتكرارا تمنيت ولا زلت أتمنى أن استيقظ ذات صباح وأفاجأ بضياع ذاكرتي... أحلم بالنسيان... وكلما تمنيته، ازداد عذاب التذكر... واشتد الحنين... صدقني، يا ادريس، أريد أن أتخلص نهائيا من هذا المخطوط فهو غير صالح للنشر ولا للقراءة... أخاف أن أموت يوما.. ولا تدري نفس بأي أرض تموت... أخاف أن يباغتني الموت...، فيسقط هذا المخطوط اللعين في يد لا ترحم... فينشر غسيلي على حبال القراءة... طمعا في الشهرة والجاه ولو على حسابي... مرارا وتكرارا فكرت في تحرير وصية وتوقيعها والمصادقة عليها في مكاتب المقاطعة الرسمية... ووضعها وسط هذا المخطوط... لحمايته من النشر والقراءة... أريد أن يفنى معي.. أن يدفن معي.. بل أن يحرق يوم موتي.. وينثر رماده بواسطة مروحية فوق جبال الأطلس.. لتقرأه أشجار الصنوبر في ليلها السرمدي... يقال بأن الأشجار تستنشق الأوكسجين في الليل فقط... وتقرأ في الليل فقط... أريد أن تحرق كل كتبي... يوم موتي... لأني اكتبها وأخاف منها.. أخاف منها.. أخاف أن تشهد علي يوم القيامة... وتتكلم بدلا مني... وتكون سببا في سيئات تثقل كاهلي يوم لا ينفع المرء مال ولا بنون ولا جاه ولا كتاب إلا ما قدمه من عمل صالح.. أخاف أن

تكون كتابتي عملا غير صالح.. لا أدري، يا إدريس، لماذا يلزمني الشعور بالخطيئة، كلما هممت بالكتابة... رب إني أتضرع إليك أن ترحمني وتغفر زلاتي وأن تتجاوز عن سيئات أفكاري... ربي.. أبوء بذنبي، فاغفر لي، انه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تنظر إلى المخطوط القابع منذ سنوات في زاوية منسية.. نهضت دون أن تنظر إلي.. تخفي دموعها عني.. وتواري حزنها الكوني عني... سناء ترى ما لا أرى... تنظر بعيدا... خارج هذا المكان، خارج هذا الزمان...

ذهبت ولم تقل شيئا. لا أدري ماذا يدور في خلدها.. بدت كأنها عازمة على تنفيذ فكرة عنت لها فجأة ولم تقل عنها شيئا.

... أسرعت إلى المطبخ وعادت وفي يدها ولاعة.. نفس الولاعة التي أشعلت بها الشموع قبل قليل.. اندهشت... غير أني لم أجرؤ على إبداء دهشتي وتتبعتها وهي تبحث عن الشموع، عما تبقى من الشموع التي أشعلتها قبل قليل... قالت وهي تشعل الشموع الخمسة:

– أريد اليوم أن احتفل وتحتفل معي...

قلت مستفهما:

– احتفال مؤجل بذكرى ميلاد رقية ؟

ردت جازمة:

– لا

قلت:

– بذكرى يوسف الذي مضى وخلف حنينا يحرقك ويحرقني..

قالت بنبرة جازمة وقاطعة مرة أخرى:

– لا... انظر.. واشهد ولا تتدخل ولا تقل شيئا.. سترى.. أرجوك، يا ادريس،... اليوم سأنفذ بحضورك ما عجزت على القيام به منذ زمن طويل... ستشهد بنفسك على ذلك.. سأخلد وصيتي التي كلمتك عنها قبل قليل على طريقتي الخاصة.. ويمكنك أن تكتب عنها في روايتك القادمة...

اتجهت إلى الزاوية حيث يوجد المخطوط.. فرحت وقلت هذه فرصتي.. سأرى أخيرا هذا المخطوط الأسطوري، أخيرا صار بإمكاني...

صعدت فوق كرسي لتتمكن من الوصول إلى المخطوط.. أخذته بين يديها الناعمتين.. نفضت الغبار عنه.. انبعثت منه رائحة السنين.. رائحة غامضة فيها طعم الذكرى، طعم القدم.. رائحة ماض يستيقظ كمومياء تفتح عينيها بين يدي عالم من علماء الأثر في هرم من أهرام مصر القديمة.. صار جو الغرفة يعبق برائحة العتاقة والبلى..

رأيت، بعين خيالي، سناء تكبر، تشيخ، تموت، تخاف من الخلود... رأيت أماني الأدب تذبل... رأيت الحب الصغير يشيخ... يموت... يدفن... يصير حبا كبيرا، ينبت أشجارا وأزهارا برية لها طعم الغربة والحنين...

وضعت المخطوط الأسطوري فوق المنضدة واتجهت بسرعة إلى المطبخ للمرة الثانية على التوالي... مضت مهرولة كمن تذكرت أمرا أساسيا ما كان عليها أن تنساه... ماذا يدور في خلدها ؟ أي سيناريو تعده في هذا الحفل الشعري ؟ هل ستتفضل بإطلاعي على بعض ما يوجد في هذا المخطوط بعد أن كسر الزمن شوكة أحداثه وغاب عن المسرح كثير من الأبطال الذين لعبوا دورا أساسيا في أحداث قصته؟ هل ستنفذ وصيتها على طريقتها الخاصة مع إجراء تعديلات عليها وتريد أن أكون الشاهد على ما ستفعل ؟ هل تريدني أن أكون الشاهد والراوي لتوثيق الحدث توثيقا أدبيا يكون عبرة للنقاد الباحثين عن المسالك التي تنتقل بها الأسرار الدفينة إلى الأدب ؟

غابت عني سناء وتركتني مع أسئلتي المحيرة، أحدق في المخطوط الممنوع... تذكرت قصيدة، كتبتها هي أو نقلتها عن شاعر آخر، وجدتها أنا في الملف البنفسجي، تهم توثيق الأسرار الذي لم يتحدث عنه فقهاء القانون.. تحدثوا وفصلوا عن الوصايا التي تهم الممتلكات المادية المنقولة وغير المنقولة وأهملوا الحديث عن قوانين تحمي الممتلكات المعنوية.. خصوصا عندما تسقط في أيد لا تحسن التصرف فيها..

لم أكن أدري أن الحب يشعل الأحداث في الحياة وأن الموت الذي يهدد حياتنا في كل لحظة، هو من يحفز على التفكير في القوانين التي تحمي أسرار هذا الحب...!

قمت من مكاني مضطربا، أتفقد الملف البنفسجي في حقيبتي.. وما كدت أعود إلى مكاني حتى عادت سناء بصحن كبير فارغ.. استغربت لذلك. أردت أن أسألها، فخفت عليها وعلى نفسي.. تذكرت أن السؤال عن الممنوع يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.. تذكرت نجاة في شلالات أوزود، تذكرت غضبها.. عندما سألتها عن أشياء لا تريد أن تخوض فيها... تذكرت غضبها عندما طلبت منها لقاء فأغلقت الهاتف في وجهي.. في منتصف الليل...

أخرجت الملف البنفسجي من الحقيبة وتفقدت القصيدة... أردت أن أضعها بين يدي سناء... قصيدة نبوءة... تتساءل فيها عن مصير رسائلها الخاصة إلى يوسف وأسرارها المدفونة، ربما، في بطن هذا المخطوط الأسطوري والذي لم أقو على الاقتراب منه... نبوءة صارت مشروع وصية... وصية فكرت فيها وها هي الآن... لا أدري ماذا ستفعل بالمخطوط الذي وضعته هنا وهنالك. قريب مني.. بعيد عن عيني.. في نفس الآن..

أفرزت القصيدة من بين الوثائق الأخرى ورجوت سناء أن تجلس إلى جانبي.. جلست وهي تتطلع بعينيها الذاهلتين إلى الورقة التي كانت ترتعد بين يدي كورقة خريف وحيدة في مهب رياح قوية فقالت مستغربة:

– هذا الخط خطي...

أعطيتها الورقة:

– والقصيدة قصيدتك...

حدقت في الورقة جيدا وصمتت من شدة المفاجأة... وقبل أن تنطق استطردت أنا قائلا:

– القصيدة قصيدتك وموضوعها هو ما نعيشه الآن... هذا الخوف من وعلى ميراثنا السري... أرجوك، سناء، اقرئي بصوتك هذه القصيدة على مسامعي... سبق لي أن سمعتها مسجلة بصوتك في الشريط...

قالت وهي تنظر إلي بتمعن:

– من أين لك بها ؟

– سبق وان قلت لك بأن يوسف سلمني مجموعة من الوثائق السرية التي أثقلت كاهله وعذبته ما يزيد على عشرين سنة... سلمها لي قبل مغادرة التراب الوطني في اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية... وهذه وثيقة من هذه الوثائق.

– أرأيت كيف تسقط وثائقنا في أيد غريبة... يعلم الله ماذا كان سيفعل بالمخطوط لو أعطيته له.. ربما كان سينشره في كتاب ويذيعه بين الناس انتقاما وحقدا بسبب النهاية المأساوية التي انتهينا إليها... افترقنا في ظروف ملتبسة، دون أن نعرف انه الوداع الأخير..

– وهل تعتبرينني غريبا..؟

– كنت ستكون غريبا لو لم أتعرف عليك بهذه الطريقة الغريبة والمدهشة والتي جعلتني أنهار بين يديك وأقول لك ما كتمته منذ ما يزيد على عشرين سنة...

– لولا يوسف ولولا هذا الملف البنفسجي، لما تعرفت عليك في تلك الندوة حول التواصل.. لأول مرة تنجح ندوة في تحقيق أهدافها مائة في المائة... سناء.. أرجوك، اقرئي هذه القصيدة كما قرأتها قبل عشرين سنة...

– نعم سأقرأ ولكن ليس بنفس الصوت ولا بنفس النغمة... لا يمكن أن أقرأها بنفس الطريقة... قصيدة جميلة ليست لي لا ادري أين قرأتها، افتقدتها طوال هذه المدة... أعطيتها ليوسف ذات مساء لا زلت أتذكر أمام بوابة الثانوية:

لنقف..... لنفترق

لننتهي.... ونحترق.

لقد جاء المطر

ومحا اسمينا من سيقان الشجر

...

لنقف لنلغي مواعيد الخريف

لنقل للحقول الصديقة

واستفهامات الزهر

أن الريح جاء

وكسر فرعينا

فسقطنا أسرى داخل النهر

وحملنا بعيدا

إلى منافي غريبة

فكنت أسألك

كيف حال قصائدنا الصغيرة ؟

من ذا يرضعها ؟

وكنت أسألك

من ذا الذي يبلغها

أن الأجل حان لنفترق

لننتهي ونحترق.

... ...

كنت أسألك من سيرث أسرارنا الثمينة،

تلك الأسرار المدفونة

تحت الرمل والماء والحلم

ورسائلنا الممحية الاسم،

هل أجلها أيضا حان ؟

لتمحى، لتنتهي، لتحترق

... ...

قبل ان تتوقف عن القراءة تغير الصوت. صار أجش. هزمه حزن الذكريات التي استيقظت دامعة. ابتلعت ريقها.. صارت الكلمة غصة في حلقها:

لقد ك ن ت... ساكتة طول الر........................حلة

كنت داخل الذكرى م...........حنة

لم تتمالك نفسها... أجهشت بالبكاء... صارت الكلمات عبرات تنهمر بدون انقطاع.. اقتربت منها وأخذت منها الورقة. لم تستطع إنهاء قراءتها.. أمسكت القصيدة بيدي اليسرى وأحطتها بذراعي اليمنى... تساقط شلال شعرها على ركبتي... انهزم الصوت أمام مرارة وقساوة الذكرى نظرت إلى بقية القصيدة الحزينة وقلت لها:

– سأتم قراءتها... سمعتها مرات عديدة.. ومع ذلك بدا لي وكأنني أسمعها لأول مرة... كتبها الحزن على لسانك فصارت أشجى... قصيدة جميلة بجمال الحزن فيها.. تكتب في كل لحظة تعاد قراءتها... لا أريد للدموع أن تجهضها...

رفعت رأسها وهي تمسح دموعها وتقول بين السيول التي جرفت ما تبقى من فرح:

– اقرأ يا إدريس... اليوم سيصبح مجاز هذه القصيدة حقيقة.. أقسم أن مجاز هذه القصيدة سيصبح حقيقة وستكون شاهدا على ذلك...

فقرأت وكأنني أعلن حكم الإعدام على بريء أمام الملأ...:

وسألتني عن المشنقة،

قلت أحبك حتى داخل الفرقة

والنهاية والحرقة.

وجاء السياف وأطاح بحلمين صغيرين

وأنهى المطاف.

قالت وهي تتنفس الصعداء:

– هذا ما فعله السياف أطاح بحلم سناء ويوسف وخلفا معا ميراثا حزينا، هذا المخطوط وهذه الأوراق التي حملتها معك... اسمع، يجب أن أتخلص من هذا الميراث نهائيا... سأعدمها أنا، بنفسي. سأكون السياف والضحية.

أشعلت الشموع الخمسة ووضعتها في الصحن وأخذت المخطوط الأسطوري بين يديها ونظرت إليه طويلا... لم تفتحه وإنما رفعته فوق لهيب الشموع وقربته إلى شعلة الشموع التي تراجعت هالة نارها قليلا تحت ضغط السنين والذكريات، قبل أن تنقض على أوراق المخطوط لالتهامها. قالت وكأنها تقرأ تعازيم لإذكاء لهيب النار المقدسة:

– لن يرث أسرارنا الثمينة أحد، أيها السياف... حان أجل رسائلنا الصغيرة لتلقى حتفها.. سأمحوها... سأحرقها.. لن أتركها..